رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز

تأليف

الإمام الحافظ عز الدين عبد الرازق بن رزق الله الرَّسْعَني الحنبلي
(٥٨٩ - ٦٦١هـ)

دراسة وتحقيق

أ. د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة للمحقق

أ. د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

يطلب من :

مكتبة الأسدي للنشر و التوزيع

مكة المكرمة ـ العزيزية ـ مدخل جامعة أم القرى ت ـ ٥٥٧٠٥٠٦ فاكس ـ ٥٥٧٥٢٤١

فرع العزيزية الشارع العام ت ـ ٥٢٧٣٠٢٧ ص. ب ٢٠٨٢

تقديم

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وردَّ أباطيل الملحدين بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله في الأميين رسولاً، ونزَّل القرآن عليه تنزيلاً، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة. اللهم اجزه عنا أفضل ما جازيتَ نبيًا عن أمته، وأحينا اللهم على سنته، وتوفنا على ملته، غير مبدلين ولا مفرطين ولا مفتونين، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين.

وبالله تعالى نستعين على بلوغ الأمل، وإياه نسأل التوفيق للصواب في القول والعمل، وهو حسبنا وإليه نيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أما بعد:

فهذا كتاب «رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز» للإمام المحدث المفسر الحافظ عز الدين عبدالرّازق بن رزق الله الرّسْعَني الحنبلي، نضعه بين أيدي القراء.

وقد ظهرت عناية كبيرة للعلماء بكتاب الإمام الرسعني، وقد تجلى هذا من خلال الحلقات العلمية التي كان أهل العلم يعقدونها لإلقائه في مجالس، وبعضهم كان يلقيه من حفظه[1].

---

(١) للتوسع في ذلك ينظر ص٦٣ من هذه المقدمة.

وقد اعتمد الرسعني في بيان معاني الآيات أحسن طرق التفسير، فهو يفسر الآية بالقرآن وقراءاته، ثم بالأحاديث الواردة، ثم بأقوال الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، وإيراد أسباب النزول المروية عنهم، ثم باللغة العربية.

ثم يسوق الأحاديث النبوية بأسانيده المتصلة إلى رسول الله ﷺ، أما ما يذكره عن الصحابة أو التابعين من الروايات فغالباً ما يذكرها دون إسناد.

وقد سقط من أول الكتاب المقدمة والفاتحة والبقرة وصدر آل عمران، وسقط منه أيضاً سورة المائدة كلها، ومائة وسبع وعشرين آية من الأنعام.

نسأل الله أن يوفقنا للعثور على القسم المفقود من الكتاب ليتم إضافته إلى الموجود منه، إنه على كل شيء قدير.

هذا وقد قدمنا بين يدي الكتاب دراسة وافية عنه، وقسمنا هذه الدراسة إلى مقدمة وستة مباحث:

ففي **المقدمة** تكلمنا عن مقاصد البحث في كتاب «رموز الكنوز».

وفي **المبحث الأول**: ذكرنا ترجمة المؤلف، وقد تناولت حياة المؤلف الشخصية والعلمية.

المبحث الثاني: ذكرنا فيه التعريف بكتاب رموز الكنوز: (نسبة الكتاب للمؤلف ـ قيمة الكتاب العلمية ـ عناية العلماء بكتاب «رموز الكنوز» ـ منهج المؤلف في كتابه «رموز الكنوز»).

المبحث الثالث: موارد الرسعني في كتابه: «رموز الكنوز».

المبحث الرابع: منهج العمل في التحقيق.

المبحث الخامس: منهج العمل في التعليق.

المبحث السادس: التعريف بالنسخ الخطية لكتاب «رموز الكنوز».

وأخيراً ذيلنا الكتاب بفهارس عامة تعين المراجع على الوصول إلى بغيته بسهولة وتتضمن:

فهرس الأحاديث والآثار.

فهرس الرواة.

فهرس الأعلام.

فهرس المسائل الفقهية.

فهرس المسائل اللغوية.

فهرس الكتب.

فهرس الأشعار.

فهرس المقطعات.

فهرس الأمثال.

فهرس المصادر والمراجع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه:
أ.د.عبدالملك بن عبدالله بن دهيش
١٤٢٩/٩/١هـ

المبحث الأول

ترجمة المؤلف

أ- مصادر ترجمة المؤلف

ب- حياة المؤلف الشخصية

١-اسمه ونسبه
٢- كنيته ولقبه ونسبته
٣- ولادته
٤-أسرته

ج- حياته العلمية

١- نشأته وطلبه للعلم
٢- رحلاته
٣- شيوخه
٤- تلامذته
٥- مؤلفاته
٦- ثناء العلماء على المؤلف
٧- شعره
٨-وفاته

ترجمة المؤلف

مصادر ترجمته:

١. عقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار (ت٦٥٤هـ) (٤/ ٣١ب- ٣٨/ أ).

٢. ذيل تكملة الإكمال لابن العمادية (ت٦٧٣هـ): (١/ ٢٩٤)

٣. تكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني (ت٦٨٠هـ): (ص١٥٣)

٤. كشف الغمة في معرفة الأئمة للإربلي (ت٦٩٥هـ): (ص٢٥)

٥. معجم الدمياطي (ت٧٠٥هـ) (ق١٣/ أ-١٤/ ب).

٦. تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي (ت٧٢٣هـ): (٤/ ١٩٢)

٧. ذيل مرآة الزمان لليونيني (ت٧٢٦هـ): (١/ ٥٤٥) و (٢/ ٢١٩)

٨. مختصر طبقات المحدثين لابن عبد الهادي (ت٧٤٤هـ): (٤/ ٢٣٩)

٩. تاريخ الإسلام للذهبي (ت٧٤٨هـ): (٥/ ١٤٣)

١٠. تذكرة الحفاظ له: (٣/ ١٤٥٢)

١١. طبقات المحدثين له: (١/ ٢١٠)

١٢. العبر له: (٣/ ٣٠٢)

١٣. الوافي بالوفيات للصفدي (ت٧٦٤هـ): (١٨/ ٤٠٩)

١٤. البداية والنهاية لابن كثير (ت٧٧٤هـ): (١٣/ ٢٤١)

١٥. الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية للقرشي (ت٧٧٥هـ): (١/ ٣١٣)

١٦. ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (ت٧٩٥هـ): (٢/ ٢٧٤)
١٧. طبقات القراء لابن الجزري (٨٣٣هـ): (١/ ٣٨٤)
١٨. التبيان في بديعة البيان لابن ناصر الدين (ت٨٤٢هـ) (ق١٤٨/ أ).
١٩. السلوك للمقريزي (ت٨٤٥هـ): (١/ ٥٠٢)
٢٠. تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ): (٢/ ٦١٤)
٢١. النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (ت٨٧٤هـ): (٧/ ٢١١)
٢٢. المقصد الأرشد لابن مفلح (ت٨٨٤هـ): (٢/ ١٣٢)
٢٣. طبقات المفسرين للسيوطي (ت ٩١١هـ): (ص٥٥)
٢٤. طبقات الحفاظ له: (ص٥٠٨)
٢٥. المنهج الأحمد للعليمي (ت٩٢٨هـ): (٢/ ٢٦١)
٢٦. طبقات المفسرين للداودي (ت٩٤٥هـ): (١/ ٣٠٠)
٢٧. طبقات المفسرين للأدنروي (القرن الحادي عشر): (ص:٢٤٣)
٢٨. كشف الظنون لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ): (١/ ٤٥٢، ١/ ٧٤٣، ١/ ٩١٣، ٢/ ١٦٣)
٢٩. شذرات الذهب لابن العماد (ت١٠٨٩هـ): (٣/ ٣٠٥)
٣٠. هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي (ت١٣٣٩هـ): (١/ ٥٦٦)
٣١. الأعلام للزركلي: (٣/ ٢٩٢)
٣٢. معجم المؤلفين لكحالة: (٥/ ٢١٧)
٣٣. مستدرك معجم المؤلفين له: (ص:٣٧٣)

٣٤.الإمام الرسعني الحنبلي وتفسيره رموز الكنوز : لمحمد صفاء شـيخ إبـراهيم حقي (؟-؟).

٣٥.معجم المفسرين لعادل نويهض (؟-؟) (١/ ٢٨١)

٣٦.مقدمة كتاب رموز الكنوز للدكتور محمد بن صالح البراك.

ب- حياته الشخصية

١ . اسمه ونسبه:

هو : عبد الرَّازق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف بن أبي الهيجاء.

هذا هو الصحيح في اسمه أنه عبد الرّازق، بتقديم الألف على الزاي، خلافاً لسائر المصادر المطبوعة التي ذكرته بعبد الرزاق، وهذا خطأ لعدة أمور:

١ .جاء في السماع المثبت بآخر المجلد الثاني من النسخة أ، ما نصه:

«سمع جميع هذا المجلد، وهو الثاني من كتاب رموز الكنوز، تأليف الشيخ الإمام عبد الرّازق بن رزق الله»(١).

٢ .جاء في غلاف مختصر الفرق بين الفرق له، بخط يده، ما نصه:

«مختصر «كتاب الفَرْق بين الفِرَق»، تأليف عبد القاهر البغدادي، اختصار: عبد الرّازق بن رزق الله». اهـ.

٣.قال المؤلف في آخر كتاب «الحرز والمنعة في شأن أمر الهدي والمتعة» للحافظ أبي منصور البغدادي، ما نصه:

«نقله -يعني الجزء- والذي قبله في مجلسين، آخرهما يوم الجمعة ثامن جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وستمائة، عبد الرّازق بن رزق الله»(٢).

٤ .ذكر المؤلف في آخر كتاب «درء اللوم والضيم في صوم يوم الغيم» لابن

---

(١) رموز الكنوز: (٢/ ٢٠٠/ أ).

(٢) الحرز والمنعة (٢/ ق١٧/ ب).

الجوزي -والذي نسخه بيده- ما نصه:

«وكتبه عبد الرَّازق بن رزق الله الرسعني»[١].

٥. ذكر ابن الفوطي في مخطوطة الجزء الرابع من تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب في باب عز الدين أن اسمه: عبد الرازق[٢].

٦. ترجَمَه تلامذته ومعاصروه بهذا الاسم، فقد ترجمه ابن الشعار في عقود الجمان[٣]، والدمياطي في معجمه[٤]، بـ«عبد الرَّازق».

٧. ذكر الذهبي في كتابه «العبر» في ترجمة ولد المؤلف أن اسمه: محمد بن عبد الرّازق[٥].

٨. نقل الذهبي في كتابه «تذكرة الحفاظ» عن الحافظ أحمد بن المجد قوله في اسمه: عبد الرّازق الرسعني[٦].

٩. ترجمه الأدنروي في كتابه «طبقات المفسرين» باسم عبد الرّازق الرسعني[٧].

١٠. قال الزركلي[٨]: هو بتقديم الألف على الزاي، خلافاً لسائر المصادر

---

(١) درء اللوم (٢/ ق١٢/ ب).

(٢) معجم المفسرين (١/ ٢٨١).

(٣) عقود الجمان (٤/ ق١٣١/ ب)

(٤) معجم الدمياطي (ق١٣/ أ).

(٥) العبر (٥/ ٣٦٤).

(٦) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٥٣).

(٧) طبقات المفسرين (ص:٢٤٣).

(٨) الأعلام: (٣/ ٢٩٢).

المطبوعة. والتصحيح من مخطوطة (التبيان) لابن ناصر الدين، وقد وضع فيها فوق (عبد الرازق) (لفظ) صح.

فصح أن اسمه: عبد الرَّازق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف بن أبي الهيجاء.

كذا ذكرت عامة المصادر نسبه. إلا أن الذهبي [١] وابن الجزري [٢] أسقط جده أبا بكر وما بعده، وأسقط ابن العماد [٣] جده خلفاً وما بعده، وأسقط جده أبا الهيجاء كلٌّ من ابن اليونيني [٤]، وابن عبد الهادي [٥]، والذهبي [٦]، والصفدي [٧]، وابن كثير [٨]، والقرشي [٩]، وابن ناصر الدين [١٠]، وابن تغرى بردى [١١]، والسيوطي [١٢]، والأدنروي [١٣]، ونويهض [١٤].

---

(١) طبقات المحدثين (ص: ٢١٠).

(٢) طبقات القراء (١/ ٣٨٤).

(٣) شذرات الذهب (٥/ ٣٠٥).

(٤) ذيل مرآة الزمان (١/ ٥٤٥).

(٥) مختصر طبقات المحدِّثين (٤/ ٢٣٩).

(٦) تاريخ الإسلام (٥/ ١٤٣)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٤٥٢) العبر (٣/ ٣٠٢).

(٧) الوافي بالوفيات (١٨/ ٤٠٩).

(٨) البداية والنهاية (١٣/ ٢٤١).

(٩) الجواهر المضيئة (١/ ٣١٣).

(١٠) التبيان (ق١٤٨/ أ).

(١١) النجوم الزاهرة (٧/ ٢١١).

(١٢) طبقات المفسرين (ص: ٥٥).

(١٣) طبقات المفسرين (ص: ٢٤٣).

(١٤) معجم المفسرين (١/ ٢٨١).

وشذ ابن كثير[(١)] فقال: عبد الرزاق بن عبد الله، والقرشي[(٢)]، فقال: عبد الرزاق بن أبي بكر بن رزق الله . وكلاهما وهم.

٢ . كنيته ولقبه ونسبته:

أجمعت المصادر على أنه يكنى أبا محمد، ولم يذكر هذه الكنية كل من: ابن العماد[(٣)]، والقرشي[(٤)].

كما اتفقوا على أنه يلقب: بعز الدين. وأغفل هذا اللقب كل من: ابن الشعار[(٥)]، وابن الصابوني[(٦)]، وابن ناصر الدين[(٧)]، وابن الجزري[(٨)].

وأما نسبته: فيقال له الرَّسعني، والجزري، والموصلي.

أما الرَّسعني: بفتح الراء والعين المهملة وسكون السين المهملة، نسبة إلى رأس عين، مدينة بالجزيرة الفراتية.

قال السمعاني[(٩)]: هذه النسبة إلى بلدة من ديار بكر، يقال لها رأس عين، وماء

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٢٤١).

(٢) الجواهر المضيئة (١/ ٣١٣).

(٣) شذرات الذهب (٥/ ٣٠٥).

(٤) الجواهر المضيئة (١/ ٣١٣).

(٥) عقود الجمان (٤/ ١٣١/ ب)

(٦) تكملة إكمال الإكمال (ص:١٥٣).

(٧) التبيان (ق١٤٨/ أ).

(٨) طبقات القراء (١/ ٣٨٤).

(٩) الأنساب: (٦/ ١٢٢).

دجلة يخرج منها، والنسبة إليها: رسعني.

وهذه النسبة أكثر شهرة بها من غيرها.

ورأس العين: مدينة بالجزيرة الفراتية على نهر الخابور ، كانت تُعرف قديماً باسم «رسين تيودوسيو بوليس»، وهي مدينة مشهورة تقع بين حران ونصيبين، سار الصحابي الجليل عياض بن غنم سنة ١٩هـ إلى إقليم العراق بعد أن أخضع الرها ، وصدع بأمر الخليفة عمر رضي الله عنه، فأنفذ عمير بن سعد إلى مدينة رأس عين ، فحاصرها وفتحها عنوة، ثم استولى الإفرنجة عليها ، غير أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها مدة طويلة بسبب جهاد أهلها.

وهي تقع حالياً في شمال شرقي سوريا قريباً من مدينة القامشلي، وهي مدينة جملية تشتهر بمياهها وينابيعها الكبريتية.

وقيل في النسبة إليها الراسي، وممن اشتهر بهذه النسبة أبو الفضل جعفر بن محمد بن الفضل الراسي[١].

وأما الجزري: فنسبة إلى جزيرة الفرات التي تقع فيها رأس العين، وقد ترجمه بهذه النسبة ابن عبد الهادي[٢]، والذهبي[٣]، وابن ناصر الدين[٤]، والسيوطي[٥].

وأما الموصلي: فنسبة إلى الموصل، البلد المشهور في العراق، لأن المؤلف تولى

---

(١) الإمام الرسعني الحنبلي (هامش ص: ١٥-١٦)

(٢) مختصر طبقات المحدثين (٤/ ٢٣٩).

(٣) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٥٢).

(٤) التبيان (ق١٤٨/ أ).

(٥) طبقات الحفاظ (ص ٥٠٩).

التدريس بدار الحديث المهاجرية بها، كما سيأتي، وقد تفرد بهذه النسبة صديقه علي بن عيسى الإربلي، بهاء الدين، في كتابه «كشف الغمة»، فقال: ونقبت من أحاديث نقلها صديقنا عز الدين عبد الرازق بن رزق الله بن أبي بكر، المحدث الحنبلي، الرسعني الأصل، الموصلي المنشأ. اهـ.

٣.ولادته:

اتفقت المصادر على أن ولادة الإمام الرسعني -رحمه الله- كانت في رأس عين الخابور في سنة تسع وثمانين وخمسمائة من الهجرة النبوية.

وأغفل هذا الصفدي في الوافي بالوفيات، وابن كثير في البداية والنهاية، وابن ناصر الدين في التبيان، وابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة، وابن مفلح في المقصد الأرشد، وابن الجزري في طبقات القراء، والبغدادي في هدية العارفين.

وقد حدد ابن الشعار يوم ولادته، فقال: وكانت ولادته -فيما قرأتها بخط يده- يوم الأحد، بين الظهر والعصر، الثالث والعشرين من رجب، سنة تسع وثمانين وخمسمائة، برأس عين[(١)]. اهـ.

وكذا في ذيل مرآة الزمان لليونيني[(٢)].

إلا أن ابن الصابوني، قال: وسألته عن مولده، فقال: في يوم الأحد، لثمان بقين من رجب، سنة تسع وثمانين وخمسمائة برأس عين[(٣)]. اهـ.

---

(١) عقود الجمان (٤/ ١٣١/ ب).

(٢) ذيل مرآة الزمان (٢/ ٢١٩).

(٣) تكملة إكمال الإكمال (ص:١٥٥).

فعلى هذا يكون مولده في الثاني والعشرين من رجب، وتقدَّمَ النقل عن ابن الشعار أنه ولد في الثالث والعشرين، ومثلُ هذا لا يُعَدُّ خلافاً لاتفاقهم على أنه ولد يوم الأحد، وإنما اختلفوا فيما يوافقه من الشهر؛ فابن الشعار يقول: يوم الأحد يوافق الثالث والعشرين من رجب، وابن الصابوني يقول: يوافق الثاني والعشرين. فلعل هذا من أجل الخلاف في يوم دخول الشهر.

٤. أسرته:

لم تسعفنا المصادر التي ترجمت للمؤلف بمعلومات مفصلة عن أسرة الرسعني، وهل كان ذلك بتقصير من الذين أوردوا أخباره فلم يعنوا بذكر سيرة أسرته، أم أن أسرته كانت عادية لم تعط حظّاً من الشهرة، فلم يظهر فيها ما يجعل تاريخها وسيرتها معروفة عند أهل عصره؟ وهو الظاهر. إلا أننا سنحاول ومن خلال المعلومات القليلة التي ذكرتها المصادر؛ الحديثَ عن أسرة الرسعني.

فقد تزوج الرسعني امرأة من بيت علم ودين في بلده رأس عين، وهي ابنة الشيخ أبي الخطاب بن هلال الرسعني، كما صرّح بذلك في كتابه «التفسير»، حيث قال[1]: وسمعت الشيخ أبا الخطاب بن هلال الرسعني جد أولادي لأمهم يقول... اهـ.

وقد ولد له أربعة أولاد؛ ثلاثة ذكور وأنثى، وفيما يلي نذكر ترجمة موجزة لمن وقفنا على ذكر له من أسرته:

---

(١) رموز الكنوز (٥/ ٣٤١).

١ـ ولده: محمد (بضع عشرة وستمائة-٦٨٩هـ)[١]:

شمس الدين، محمد بن عبد الرازق، أبو عبد الله، وأبو الفضائل، الفقيه، الشاعر، الأديب، المعدل، المحدث الحنبلي، نزيل دمشق، كان شيخاً أبيض مليح الشكل.

وهو أكبر أولاده، وبه يكنى.

ذكره أبوه في تفسيره مراراً، وسأل عن غوامض في التفسير، وتكلم فيه بكلام جيد[٢].

وقد اعتنى به أبوه، واصطحبه معه في رحلته إلى بغداد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وأشركه معه في سماعه من الشيخ أبي طالب عبداللطيف بن محمد بن علي القبيطي. ذكر الرسعني ذلك في إسناد له عند تفسير قوله تعالى[٣]: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

سمع من ابن روزبه وابن بهروز وابن القبيطي وجماعة ببغداد، ومن كريمة وغيرها بدمشق، وأَمَّ بالمسجد الكبير بالرماحين.

سافر إلى مصر في شهادة، ولما عاد دخل نهر الشريعة[٤]، من الغور، يسقي

---

(١) مصادر ترجمته: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٢٤)، والمقصد الأرشد (٢/ ٤٥٦)، والعبر (٥/ ٣٦٤)، والوافي بالوفيات (٣/ ٢٥١-٢٥٣)، وفوات الوفيات (٢/ ٢٧٩)، وشذرات الذهب (٣/ ٤١٠).

(٢) المقصد الأرشد (٢/ ٤٥٦).

(٣) رموز الكنوز (٧/ ٥٧٤).

(٤) هو المعروف الآن بنهر الأردن (تقويم البلدان ص: ٣٩).

فرسه، فغرق ولم يظهر له خبر، وذلك في جمادى الآخرة، سنة تسع وثمانين وستمائة.

قال الصفدي(١): كان يمدح الصاحب شمس الدين ابن السلعوس قبل وزارته، وكتب إليه بهاء الدين ابن الأرزني:

أحنُّ إلى تلك السجايا وإن نأتْ حنينَ أخي ذكرى حبيب ومنزل
وأُهدي إليها من سلامي مُشاكلاً نسيم الصبا جاءت بريَّا القَرَنْفُل

فأجابه شمس الدين المذكور:

على فترة جاء الكتاب مُعطَّراً بمسك سحيق لا بريَّا القَرَنْفُل
وأذكرني ليلاتِ وصل تصرمتْ بدار حبيب لا بدارة جُلْجُل
شكوتُ إلى صبري اشتياقاً، فقال لي: تَرَفَّقْ، ولا تهلك أسى وتَجَمَّل
فقلتُ له: إني عليك معولٌ وهل عند رسم دارس من معول

ومن شعره:

ولو أن إنساناً يبلغ لوعتي ووجدي وأشجاني إلى ذلك الرشا
لأسكنته عيني ولم أرضها له ولولا لهيب القلب أسكنته الحشا

وقال الصفدي(٢): أنشدني من لفظه الشيخ أثير الدين قال: أنشدني المذكور لنفسه من أبيات:

---

(١) الوافي بالوفيات (٣/ ٢٥١-٢٥٣).

(٢) الوافي بالوفيات (٣/ ٢٥٢).

أأحبابَنا إن جادت المزنُ أرضَكم فما هي إلا من دموعي تمطر
وإن لاح برقٌ فهو برقُ أضالعي وإن ناح وُرْقٌ عن أنيني يُخبر
وإن نسمتْ ريحُ الصبا وتأرجت فمن طيب أنفاسي بكم تَتَعطَّر
وإن رنَّحتْ أغصانُ دجلة فانثنت فعنِّي بإبلاغ النسيم تُخبر
ومن عَجَب أنّي أكتمُ لوعة وأودعها طَيَّ الصبا وهي تَنْشُرُ

ومنها في المديح:

على أدهم كالليل يسطو على العِدى بأبيضَ هندي به الموت أحمر
إذا ركعتْ أسيافه في عِداته تخر سجوداً والرماح تكبر

قال الصفدي[1]: هو نظم متوسط واستعارة التكبير للرماح استعارة فاسدة.

ومن شعره[2]:

أآيسُ من برٍّ وجُودُك واصلٌ إلى كلِّ مخلوق، وأنتَ كريم
وأجزعُ من ذنب وعفوك شاملٌ لكل الورى طُرًّا وأنت رحيم
وأجهدُ في تدبير حالي جهالة وأنتَ بتدبير الأنام حكيم
وأشكو إلى نَعماك ذلِّي وحاجتي وأنت بحالي يا عزيز عليم

(١) الوافي بالوفيات (٣/ ٢٥٣).

(٢) شذرات الذهب (٣/ ٤١٠).

٢ ـ ولده: إبراهيم (٦٤٢-٦٩٥هـ)[١]:

إبراهيم بن عبد الرازق، أبو إسحاق، كان حنفي المذهب، ويُعرف بابن المحدث.

ولد في جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة بالموصل.

سمع بالموصل من والده الإمام عز الدين، وتفقه عليه، وكان فقيهاً فاضلاً، عالماً.

ذكره البِرْزالي في معجم شيوخه، وقال: كتبتُ عنه، وفاق أبناء جنسه معرفة وذكاء.

وكان نبيهاً، نبيلاً، فاضلاً، عالماً، متنسكاً، ورعاً، حسنَ الأخلاق.

وله منظوم ومنثور.

وشَرَح القُدوري، وكتب الإنشاء بديوان الموصل.

أنشد من شعره كثيراً في كل فن.

وتوفي في شهر رمضان، سنة خمس وتسعين وستمائة بدمشق، ودفن بسفح قاسيون.

وقد ذكره والده الإمام الرسعني في بيت من شعره، فقال[٢]:

---

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١/ ٢٠٦)، والمقصد الأرشد (٢/ ٤٥)، والدليل الشافي على المنهل الصافي (١/ ٢٠)، وتاج التراجم في طبقات الحنفية (ص:٤)، والطبقات السنية للتميمي (١/ ٢٣٧)، والجواهر المضية للقرشي (١/ ٤١).

(٢) معجم الدمياطي (ق١٣/ ب).

تقول عرسي وبي أضعافُ ما وَجدت يوم الفراق ودمعُ العين منحدر

أتترك ابنك إبراهيم منفرداً طفلاً وتُؤْتِمُه حيًّا وتصطبر

٣.ولده: أحمد أبو صالح(؟-؟)(١):

ذكَرَه في تفسيره، فقال:

ومثله قولي في أبيات أرثي بها ولدي أبا صالح أحمد:

على زينة الدنيا ولذّة عيشها السلام فهذا منهما آخر العهد

٤.ابنته: أمة الرحمن بنت عبد الرازق (؟-٦٩٥هـ)(٢):

فاضلة عالمة، توفيت سنة خمس وتسعين وستمائة، ذكرها البرزالي في ذيل الروضتين، فقال: وفي بكرة الأربعاء عاشر شعبان توفيت الشيخة الصالحة، أمة الرحمن، ست الفقهاء، بنت الشيخ الإمام العلامة، عز الدين أبي محمد، عبد الرازق بن رزق الله.

٥.سبط ابنه محمد (؟-٧٥٤هـ)(٣):

عبد الرحمن بن رزق الله بن عبد الرحمن ابن رزق الله الرسعني الدمشقي.

سمع في الخامسة من ابن البخاري مشيخته، وسمع منه سنن أبي داود، وحدث، وكان رسولا بباب القضاة.

---

(١) رموز الكنوز (٥/ ٥٥٣).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (وفيات سنة ٦٩٥، ص:٢٥٤).

(٣) مصادر ترجمته: ذيل تذكرة الحفاظ (ص:١٣١)، الوفيات للسلامي (٢/ ٢٣٩).

قال البرزالي: سبط شمس الدين محمد بن عبد الرزاق الرسعني، كان بدمشق رسولا بباب القاضي مدة ثم نزح عنها وتوجه إلى القاهرة وأقام هناك، ثم عاد إلى دمشق.

توفي ليلة الأربعاء ثالث جمادى الأولى سنة أربع وخمسين وسبعمائة، ودفن بمقابر باب الصغير.

ب - حياته العلمية

٥.نشأته وطلبه للعلم:

نشأ الرسعني في بلدته رأس عين، وتلقى علومه الأولى فيها، فقد حفظ القرآن على الشيخ مبارك بن إسماعيل الحراني(١)، وسمع الحديث من أبي المجد القزويني(٢) وغيره، ثم رحل إلى حواضر العالم الإسلامي لطلب العلم وسماع الحديث الشريف، وفيما يلي نعرض لرحلات المؤلف.

٦.رحلاته:

لما علم المؤلف أن العلم بحر لا شاطئ له، وأنه لا يؤتى إلا ببذل الجهد: شدّ الرحال وجال وطاف البلاد يرتوي من مناهل العلم، ويطلب الحديث ليعلي سنده. لقد أدرك أهمية الرحلة في طلب العلم، فلم يتهاون، بل انضم إلى حلقات

---

(١) ستأتي ترجمته في الكلام على شيوخه.

(٢) ستأتي ترجمته في الكلام على شيوخه.

العلم في البلاد التي طافها، ودرس وتلقى على أكابر علمائها، وأفاضل شيوخها.

وقد رحل المؤلف سبع رحلات، عامتها في طلب العلم وسماع الحديث من أفواه الشيوخ، وإليك تفصيلها:

الرحلة الأولى: إلى بغداد، وكانت سنة ست وستمائة، وكان عمره آنذاك سبع عشرة سنة، وسمع فيها من عبد العزيز بن مَنِينا، والداهري، وعمر بن كرم وغيرهم[(١)].

وقرأ فيها القرآن بالروايات العشر، على أبي البقاء العكبري[(٢)].

كما أنه دخلها مرة أخرى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وفيها قرأ على الشيخ أبي طالب عبداللطيف بن محمد بن علي القبيطي. ذكر الرسعني ذلك في إسناد له عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

الرحلة الثانية: إلى فلسطين، زار فيها بيت المقدس، سنة سبع وستمائة، وسمع فيها من الشيخ عبد الله بن محمد الدربندي، الصوفي بمسجد الخليل عليه السلام، ولم أجد أحداً ذكرها، لكن المؤلف صرح بأنه سمع من الشيخ عبد الله بن محمد الدربندي في مسجد الخليل في إسناد له عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء:١٧١].

الرحلة الثالثة: إلى دمشق، وقد زار دمشق مراراً، قال الذهبي[(٣)]: قرأت بخط سيف الدين ابن المجد ذكر عبد الرّازق الرسعني، قال: حفظ المقنع، وسمع

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٤)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٤/ ١٤٥٢).

(٢) عقود الجمان في شعراء الزمان (٤/ ١٣١/ ب).

(٣) تاريخ الإسلام (٥/ ١٤٣).

بدمشق سنة خمس، وسنة ست وسبع من الكندي. اهـ.

ففي سنة ست وستمائة، سمع من أبي العباس الخضر بن كامل بن سالم المعبر الخاتوني، كما ذكر ذلك في إسناده عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦].

وفي سنة سبع وستمائة، سمع من أبي العباس أحمد بن عبدالواحد بن أحمد المعروف بالبخاري الفقيه الحنبلي بجامع دمشق، كما صرح بذلك في أحد أسانيده في كتابه «رموز الكنوز» عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

وفي سنة تسع وستمائة، سمع من أبي القاسم السلمي، وابن الحرستاني[١]، والخضر بن كامل، وأبي الفتوح بن الجلاجلي[٢]، والموفق ابن قدامة، وتفقه عليه، وحفظه كتابه المقنع، وقرأ عليه كثيرا من كتبه الفقهية[٣].

وسمع من أبي اليمن الكندي تاريخ بغداد كله، قاله الذهبي[٤]، وتعقبه الدمياطي، فقال: وسمع من الكندي تاريخ بغداد عن القزاز عن الخطيب خلا الجزء السادس والثلاثين ... وخلا قول أبي حنيفة في الإيمان، فإن الكندي أجاز له[٥].

---

(١) ذكر ذلك في إسناده عند تفسير قوله تعالى: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ [البلد:١٦].

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٤)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٤/ ١٤٥٢).

(٣) عقود الجمان في شعراء الزمان (٤/ ١٣٢/ أ).

(٤) تاريخ الإسلام (٥/ ١٤٣).

(٥) معجم الدمياطي (ق١٤/ أ).

وسيأتي ذكر رحلة أخرى للمؤلف إلى دمشق، وذلك بعدما اشتهر وذاع صيته.

الرحلة الرابعة: وكانت إلى حلب، والظاهر أنه مر على حلب بعد منصرفه من دمشق، إلا أن كلام ابن الصابوني يوحي بأنه زار حلب أوَّلاً، فقال[١]: دخل بغداد، وتفقه بها .. وسمع بحلب .. وبدمشق، ثم سافر عنها وأقام بالموصل.

وفي هذه الرحلة سمع من الشريف أبي هاشم، عبد المطلب بن الفضل الهاشمي.

الرحلة الخامسة: إلى الموصل في شوال سنة ثلاث وعشرين وستمائة، ونزل بدار الحديث المهاجرية، بباب سكة أبي نجيح، التي أنشأها أبو القاسم علي بن مهاجر بن علي الموصلي[٢]، وعيّن مدرساً بها، فصار يُسمع بها أحاديث رسول الله ﷺ، ويفيد الناس[٣].

الرحلة السادسة: إلى تكريت، في سنة عشر وستمائة[٤].

وسمع فيها من القاضي أبي الفرج يحيى بن سعد الله بن أبي تمام التكريتي.

الرحلة السابعة: إلى حران.

---

(١) تكملة إكمال الإكمال (ص:١٥٥).

(٢) معين الدين، التكريتي، ثم الموصلي، الوزير بسنجار، كان من أولاده الأكابر والوزراء، وبيتهم معروف بالفضل والحشمة، والنبل، وكان من أهل الخير والصلاح، والسماح، وبنى بالموصل، في سكة أبي نجيح دار الحديث، ووقف عليها الوقوف الحسنة، والكتب النفيسة. (تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي، رقم (١٤٧٩) من الجزء الخامس).

(٣) عقود الجمان (٤/ ١٣٢/ أ).

(٤) وقد صرح بذلك في تفسيره، عند قوله تعالى: ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا﴾ [إبراهيم:١٢].

سمع فيها من الحافظ عبدالقادر بن عبدالله الرهاوي، والإمام فخر الدين أبي عبدالله محمد بن أبي القاسم بن تيمية الخطيب(١).

الرحلة الثامنة: إلى دمشق، فقد قدم دمشق رسولاً، فقرأ عليه ابن الصابوني جزءاً.

قال ابن الصابوني(٢): ثم قدم دمشق رسولاً فاجتمعت به، وقرأت عليه جزءاً من حديثه، هو روايته عن ابن مَنِينا، وسمعت منه أناشيد من نظمه، وكان معي جماعة من طلبة الحديث.

وهذه الرحلة بعد ما ذاع صيته، واتسعت شهرته، ولهذا بُعث رسولاً على دمشق، ولم أجد أحداً ذكر مَن أرسله، والظاهر أنه بدر الدين لؤلؤ(٣)، صاحب الموصل، فقد كانت له حرمة وافرة عنده، وبينهما اتصال وثيق.

الرحلة التاسعة: وكانت إلى مصر، ولم يصرح أحد بهذه الرحلة، إلا أن ترجمة ابن تغرى بردى له في النجوم الزاهرة، تدل على أنه دخلها، لكن متى كان هذا؟ لم أجد مَن ذكره، إلا أن الذي يغلب على الظن أن هذا كان قبل أن يستقر بالموصل، ومما يدل على أنه دخل مصر ما حكاه الحافظ ابن رجب، قال(٤): قال الحافظ أبو

---

(١) وقد صرح المؤلف بالأخذ عنهما في حران في تفسيره الأول: عند تفسير قوله تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ [الأعراف:٨]، والثاني: عند تفسير قوله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ [الأحزاب:٣٥].

(٢) تكملة إكمال الإكمال (ص:١٥٥).

(٣) السلطان بدر الدين أبو الفضائل، لؤلؤ بن عبد الله الأتابكي، الملقب بالملك الرحيم، كان بطلاً شجاعاً، حازماً، مدبراً، سائساً، ذا همة عالية، توفي سنة سبع وخمسين وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٥٦).

(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٥-٢٧٦). وانظر: طبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٠١).

محمد عبد الكريم الحلبي في تاريخ مصر له: نقلت من خط الحافظ اليغموري - يعني يوسف بن أحمد بن محمود الدمشقي - أنشدنا شمس الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي بكر الجزري، أنشدني ابن دقيق العيد بقوص، أنشدني عز الدين عبد الرازق الرسعني لنفسه:

وكنت أظن في مصر بحارا إذا أنا جئتها أجد الورودا

فما ألفيتها إلا سرابا فحينئذ تيممت الصعيدا

فتبين من هذه الأبيات أنه دخل مصر، وأيضا فإن ابن دقيق العيد رواها عنه، وهو في قوص من صعيد مصر، كما صرحت به القصة المتقدمة، ومع هذا فلم يترجمه الأُدفوي في الطالع السعيد.

هذه هي البلاد التي طاف فيها المؤلف مما وقفت عليه، وإلا فقد دخل بلداناً أخر، قال ابن رجب[1]: وسمع بحلب .. وببلدان أخر.

ويلاحظ من هذا أنه لم يدخل مكة ولا المدينة، ولم يذكر أحد أنه حج، إلا أن يكون في صغره قبل أن يشتهر.

وهذه الرحلات المتعددة تدل على كثرة سماعه، ووفرة علمه ومعرفته.

٧. شيوخه:

تتلمذ الرسعني رحمه الله على طائفة من شيوخ وقته في علوم متنوعة، وذلك في البصرة وبغداد ودمشق.

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٤).

وفيما يلي نذكر أسماء الشيوخ الذين التقى بهم الرسعني[١]:

١.حنبل الواسطي (٥١٠-٦٠٤هـ)[٢]:

حنبل بن عبد الله بن فرج بن سعادة، بقية المسندين، أبو علي، وأبو عبد الله الواسطي، ثم البغدادي، الرصافي، المكبِّر بجامع المهدي، توفي سنة أربع وستمائة تقريباً.

أسمع المسند مرتين بدمشق، واجتمع له جماعة لم تجتمع في مجلس سماع قبله بدمشق، توفي في حديد سنة أربع وستمائة.

حدث المصنف عنه بالمسند في تفسيره.

٢.الخضر الدلال (٥٢٣-٦٠٨هـ)[٣]:

الخَضِر بن كامل بن سالم بن سبيع، الدمشقي، السروجي، الدَّلال المعبر، الشيخ العالم المسند، أبو العباس، مات في شوال سنة ثمان وست مئة وهو في عشر التسعين.

٣.ابن منينا (٥٢٥-٦١٢هـ)[٤]:

عبد العزيز بن معالي بن غنيمة بن الحسن البغدادي، الأشناني، مسند العراق،

---

(١) وسوف يأتي في آخر الكتاب -إن شاء الله- قائمة بأسماء الشيوخ الذي روى عنهم الرسعني في كتابه "رموز الكنوز".

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٣١).

(٣) المرجع السابق (٢٢/ ١١).

(٤) المرجع السابق (٢٢/ ٣٣).

أبو محمد، مات في الثامن والعشرين من ذي الحجة، سنة اثنتي عشرة وستمائة.

٤.ابن الجلاجلي (٥٤١-٦١٢هـ)[١]:

محمد بن علي بن المبارك البغدادي، التاجر الرئيس المقرئ، كمال الدين، أبو الفتوح، توفي في بيت المقدس في رمضان سنة اثنتي عشرة وستمائة.

٥.الكندي (٥٢٠-٦١٣هـ)[٢]:

زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة بن حمير الكندي، البغدادي، الإمام العلامة، شيخ الحنفية، وشيخ العربية، وشيخ القراءات، ومسند الشام، تاج الدين، أبو اليمن، توفي سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وقد أسند عنه المصنف في كتابه التفسير بعض الأحاديث.

٦.ابن الحرستاني (٥٢٠-٦١٤هـ)[٣]:

عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي بن عبد الواحد الأنصاري، الدمشقي، الشافعي، الشيخ الإمام العالم، قاضي القضاة، جمال الدين، أبو القاسم، ابن الحرستاني، حدث بصحيح مسلم، ودلائل النبوة للبيهقي، وأشياء. توفي سنة أربع عشرة وستمائة.

سمع منه المؤلف صحيح مسلم، وأسند عنه في تفسيره.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٥٢).

(٢) المرجع السابق (٢٢/ ٣٤).

(٣) المرجع السابق (٢٢/ ٨٠).

٧.السلمي (٥٤٦-٦١٥هـ)[١]:

أحمد بن عبد الله بن عبد الصمد بن عبد الرزاق، الشيخ الأمير المسند، أبو القاسم، شمس الدين، السلمي، البغدادي، الصيدلاني، العطار، توفي سنة خمس عشرة وستمائة.

حدث المؤلف عنه بصحيح البخاري.

٨.جمال الدين الياسري (؟-٦١٦هـ)[٢]:

عثمان بن مقبل بن قاسم الياسري، ثم البغدادي، الواعظ، الحنبلي، أبو عمرو، صنف كتاباً في طبقات الفقهاء. توفي سنة ست عشرة وستمائة.

أخذ المصنف عنه علم القراءات، وروى عنه مقروناً بأبي البقاء العكبري.

٩.العكبري (٥٣٨-٦١٦هـ)[٣]:

عبد الله بن الحسين بن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، ثم البغدادي، الأَزَجي الضرير، النحوي، الحنبلي، الفرضي، الشيخ الإمام العلامة النحوي البارع، محب الدين، أبو البقاء، صاحب التصانيف، توفي سنة: ست عشرة وستمائة.

وقد أخذ المؤلف عنه القراءات، وتلا عليه بالعشر[٤]، وتعلم منه العربية،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٨٤).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٢٢)

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٩١).

(٤) عقود الجمان (٤/ ق١٣١).

والأدب، وقد روى عنه كثيراً من القراءات في كتابه التفسير.

١٠.المؤيد الطوسي (٥٢٤-٦١٧هـ)[١]:

المؤيد بن محمد الطوسي ثم النيسابوري، الشيخ المقرئ، مسند خراسان، رضي الدين، أبو الحسن. سمع صحيح البخاري ومسلم، وغيرها. توفي سنة سبع عشرة وستمائة.

روى المؤلف من صحيح مسلم عنه في تفسيره.

١١.ابن قدامة (٥٤١-٦٢٠هـ)[٢]:

عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي، الجمَّاعيلي، ثم الدمشقي، الصالحي، الحنبلي، الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد، موفق الدين، أبو محمد، صاحب المغني، مولده بجماعيل من عمل نابلس، وتوفي سنة عشرين وستمائة.

أخذ عنه الفقه، وقرأ عليه كثيراً من كتبه، وسمع منه مسند الشافعي وغيره، وتفقه به، وأثنى عليه في كتابه. ولما توفي رثاه بمرثية بلغت ثمان وعشرين بيتاً، ومطلعها[٣]:

ألا ما لوجه المكرمات مُلَفّعُ   وما لعيون الدين تدمى وتدمع
وما لمعاني الفقه أقوت فأصبحت   معطلة أركانها تتضعضع

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٠٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٦٥).

(٣) عقود الجمان (٤/ ق١٣٤-١٣٥/ أ).

ومنها:

وما للورى سكرى ولم يشربوا طلا   وما لغيوم الهم لا تتقشع
ويا قوم ما للشمس أظلم ضوؤها   وما لجبين البدر أيضا مرقع

ومنها:

فلو طالت الأعمار بالفضل لم يكن   لموت على مثل الموفق مَطْمَعُ
ولو أنه بالمشرفية يُتقى   حمته سيوف دونه تتقعقع

وآخرها:

وبعد فلا زالت سحائب رحمة   من الله في لحد الموفق تهمع

١٢.القزويني (٥٥٤-٦٢٢هـ)[(١)]:

محمد بن الحسين بن أبي المكارم أحمد بن حسين بن بهرام، القزويني، القاضي الإمام الفاضل المحدث الجوال، مجد الدين، أبو المجد، توفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

روى عنه المصنف في كتابه في مواضع منه.

١٣.البخاري (؟-٦٢٣هـ)[(٢)]:

أحمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن منصور السعدي

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٤٩).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٦٨-١٧٠)، والمقصد الأرشد (١/ ١٢٩-١٣٠).

المقدسي ثم الدمشقي المعروف بالبخاري، شمس الدين أبو العباس، أخو الحافظ ضياء الدين، والد الفخر علي، مسند وقته، سمع بدمشق من أبي المعالي ابن صابر، وببغداد من أبي الفتح ابن شاتيل وابن الجوزي، وبنيسابور من عبد المنعم الفراري، وتفقه وبرع، وأقام ببخارى يشتغل بالخلاف على الرَّضِي النيسابوري، ولهذا عرف بالبخاري، ثم رجع إلى الشام وأقام بحمص مدة، وقيل إنه ولي القضاء بها.

مات يوم الخميس خامس جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وستمائة ودفن إلى جوار خاله الشيخ الموفق بالروضة.

قال ابن مفلح[١]: سمع منه جماعة منهم عبد الرّازق الرسعني.

١٤.أبو هاشم البلخي (؟-٦٢٦هـ)[٢]:

عبد المطلب بن الفضل، الهاشمي، البلخي، ثم الحلبي، الحنفي، الشيخ الإمام العلامة، افتخار الدين، أبو هاشم، توفي سنة ست وعشرين وستمائة.

١٥.الداهري (٥٤٦ تقريباً-٦٢٨هـ)[٣]:

عبد السلام بن عبد الله بن أحمد بن بكران الداهري، البغدادي، الخفاف، الخراز، الشيخ المسند، الأمي، أبو الفضل، كان أميًّا لا يكتب، سمع صحيح البخاري، ومسند عبد بن حميد، والدارمي، وغيرها. مات سنة ثمان وعشرين وستمائة.

---

(١) المقصد الأرشد (١/ ١٣٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٩٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٠٤).

١٦.ابن أبي المجد الدينوري (٥٣٩-٦٢٩هـ)[١]:

عمر بن كرم بن علي بن عمر، الشيخ المسند الأمين، أبو حفص بن أبي المجد الدينوري، ثم البغدادي، الحمامي. روى الكثير وتفرد، وكان شيخاً مباركاً صحيح السماع والإجازة، تفرد بأجزاء عن أبي الوقت. توفي سنة تسع وعشرين وستمائة.

١٧.ابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ)[٢]:

علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزري، الشيباني، الشيخ الإمام العلامة المحدث الأديب النسابة، عز الدين، أبو الحسن، مصنف التاريخ الكبير الملقب بـ«الكامل» ومصنف كتاب «معرفة الصحابة» توفي سنة ثلاثين وستمائة.

أسند المصنف من طريقه في كتابه «رموز الكنوز».

١٨.ابن روزبة القلانسي (بعد ٥٤٠-٦٣٣هـ)[٣]:

علي بن أبي بكر بن روزبة بن عبد الله البغدادي، القلانسي، العطار، الصوفي، الشيخ المسند المعمر، أبو الحسن، توفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة.

حدث المؤلف عنه بصحيح البخاري.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٢٥).

(٢) المرجع السابق (٢٢/ ٣٥٣).

(٣) المرجع السابق (٢٢/ ٣٨٧).

١٩.نصر الجيلي (٥٦٤-٦٣٣هـ)[١]:

نصر بن عبد الرزَّاق بن عبد القادر بن أبي صالح، الجيلي، ثم البغدادي، الأزَجي، الحنبلي، توفي سنة ثلاثين وثلاثين وستمائة.

روى عنه المؤلف، وأثنى عليه، ووصفه بأنه قاضي القضاة شرقا وغرباً.

هذا ما وقفت عليه من ذكر شيوخه، ولم أذكر إلا من نص أهل العلم على أنه سمع منه أو أخذ عنه، أو صرح بالرواية عنه في كتابه، فلم أذكر من عاصره وخالطه؛ مثل ابن الشعار[٢]، والإربلي[٣]، أو من صحبه مثل العماد الحنبلي[٤].

٢٠.القبيطي (٥٥٤-٦٤١هـ)[٥]:

الشيخ أبو طالب عبداللطيف بن محمد بن علي القبيطي.

أسند عنه المؤلف في تفسيره[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٩٦).

(٢) كمال الدين، أبو البركات، المبارك بن أبي بكر، بن حمدان، الموصلي، مؤلف عقود الجمان في شعراء الزمان، توفي سنة أربع وخمسين وستمائة (شذرات الذهب ٥/ ٢٦٦).

(٣) علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي، بهاء الدين الكردي، منشئ مترسل، من الشعراء، توفي سنة اثنتين وتسعين وستمائة (الأعلام ٤/ ٣١٨).

(٤) إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، ثم الدمشقي الفقيه الزاهد، العابد، الشيخ عماد الدين، أبو إسحاق، أخو الحافظ عبد الغني، توفي سنة أربع عشرة وستمائة (المقصد الأرشد ١/ ٢٢٧).

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٨٧).

(٦) عند تفسير قوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [الرحمن:٦٠].

٢١.الخازن النيسابوري (٥٥٦-٦٤٣هـ)[١]:

محمد بن سعيد بن أبي البقاء الموفق بن علي بن الخازن النيسابوري، ثم البغدادي، الصوفي، الشيخ الجليل الصالح المسند، أبو بكر، أحد رواة مسند الشافعي. توفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

روى المؤلف عنه مسند الشافعي، وقرنه بالموفق ابن قدامة.

٢٢. الحراني (؟-؟):

مبارك بن إسماعيل الحراني، ذكره ابن الشعار في عقود الجمان[٢]، ولم أقف على ترجمة له.

قرأ عليه المؤلف القرآن في صباه.

٢٣.الدربندي (؟-؟):

محمد بن داود بن عثمان الدربندي، أبو عبد الله الصوفي، الشيخ الزاهد. لم أعثر له على ترجمة.

روى المصنف عنه عن السِّلَفي بمسجد الخليل بفلسطين، كما سبق ذكر ذلك عند الحديث عن رحلات المؤلف (ص: ٢٣).

٨.تلامذته:

أخذ العلم عن المؤلف جماعة، منهم مَن سمعه وشافهه، ومنهم من روى عنه

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٢٤).

(٢) عقود الجمان (٤/ ١٣١).

بالإجازة، وفيما يلي نذكر من وقفنا عليه من تلامذة المؤلف:

١. ابن الشعّار (٥٩٣-٦٥٤هـ)[١]:

المبارك بن أبي بكر بن حمدان الموصلي، كمال الدين، أبو البركات، المعروف بابن الشعار، مؤلف عقود الجمان في شعراء الزمان، توفي بحلب، سنة أربع وخمسين وستمائة.

أجاز له المؤلف، كما نص عليه في عقود الجمان، قال: أجازني رواياته ومصنفاته ومقولاته[٢].

٢. القشيري (؟-٦٦٧هـ)[٣]:

علي بن وهب بن مطيع، القشيري المالكي، مجد الدين، والد ابن دقيق العيد، توفي سنة سبع وستين وستمائة، وقد عده ابن رجب من تلاميذ المؤلف.

٣. ابن الصابوني (٦٠٤-٦٨٠هـ)[٤]:

محمد بن علي بن محمود المحمودي بن الصابوني، الحافظ المفيد، جمال الدين، أبو حامد، شيخ دار الحديث النورية، كتب العالي والنازل وبالغ وحصل الأصول، وجمع، وصنف، وتوفي في نصف ذي القعدة، توفي سنة ثمانين وستمائة.

---

(١) شذرات الذهب (٥/ ٢٦٦).

(٢) عقود الجمان (٤/ ق١٣٢/ أ).

(٣) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٧٦)، والطالع السعيد (ص٤٢٤).

(٤) طبقات المحدثين (١/ ٢١)، وشذرات الذهب (٣/ ٣٦).

٤. ابن المؤلف محمد (؟-٦٨٩هـ):

محمد بن عبد الرَّازق بن رزق الله الرسعني.

وقد سبق ذكره عند الكلام عن أسرة المؤلف (ص: ١٧).

٥. الشوشي (؟-٦٩٤هـ)[١]:

أبو العلاء إدريس بن محمد بن عثمان بن محمد بن غريب عفيف الدين العامري الشوشي، عالم عامل يؤم بنظامية بغداد.

قال ابن حجر: سمع من الحافظ عبد الرزاق الرسعني.

٦. الوادي آشي (؟-٦٩٤هـ)[٢]:

جابر بن محمد بن قاسم، القيسي، الوادي آشي، معين الدين، توفي سنة أربع وتسعين وستمائة. ترجمه ابنه في برنامجه، وعد المؤلف من شيوخه.

٧.ابنه إبراهيم (٦٤٢-٦٩٥هـ):

إبراهيم بن عبد الرَّازق بن رزق الله الرسعني.

سبق ذكره عند الكلام عن أسرته (ص: ٢١).

٨. الأبَرْقوهي (٦١٥-٧٠١هـ)[٣]:

مسند الوقت، أبو المعالي، أحمد بن إسحق بن محمد بن الأبرقوهي، بفتح الهمزة

---

(١) تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (٢/ ٧٥٩).

(٢) برنامج ابن جابر الوادي آشي (ص٥٩).

(٣) شذرات الذهب (٣/ ٤).

والموحدة وسكون الراء وضم القاف، وبالهاء نسبة إلى «أَبَرْقُوه»، بلدة بأصبهان، كان محدثا، ومقرئا صالحاً، توفي سنة إحدى وسبعمائة.

حدث عن المصنف إجازة، وترجمه في معجمه، وقال: يغلب على الظن أني سمعت من هذا الشيخ برأس عين، وقد أجازني جميع مروياته[١].

٩. ابن دقيق العيد (٦٢٥-٧٠٢هـ)[٢]:

الإمام الفقيه الحافظ المحدث العلامة، تقي الدين، أبو الفتح، محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المنفلوطي، صاحب التصانيف، صنف «شرح العمدة»، و«الإلمام في أحاديث الأحكام»، و«الاقتراح في علوم الحديث»، مات في صفر، سنة اثنتين وسبعمائة.

١٠. الدمياطي (٦١٣-٧٠٥هـ)[٣]:

الإمام العلامة الحافظ، شرف الدين، أبو محمد، عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن التوني الدمياطي، الشافعي، وتفقه وبرع، وطلب الحديث، فرحل وجمع فأوعى، وعمل معجم شيوخه فيه ألف وثلاثمائة شيخ، وكان إماماً حافظاً رأساً في النسب، مات فجأة في ذي القعدة، سنة خمس وسبعمائة.

روى عن المؤلف، وترجمه في معجمه[٤].

---

(١) معجم الأبرقوهي، الجزء التاسع، غير مرقم الصفحات.

(٢) طبقات الحفاظ (١/ ٥١)، وشذرات الذهب (٣/ ٥)، والديباج المذهب (١/ ٣٢)، وطبقات المحدثين (١/ ٢٢).

(٣) طبقات الحفاظ (١/ ٥١)، وشذرات الذهب (٣/ ١)، ومعرفة القراء الكبار (٢/ ٧٢).

(٤) معجم الدمياطي (ق١٣/ أ).

١١. الرسغي (بضع وثلاثين وستمائة-٧١٨هـ)[١]:

عبد الغني بن عروة بن عبد الصمد بن عثمان الرسغي. ولد سنة بضع وثلاثين وسمع من عبد الرزاق الرسعني وغيره، وكان لطيف المزاج كثير المزاح خفيف الروح، يتردد إلى أعيان دمشق من نائبها الأفرم إلى من دونه. ومات في جمادى الآخرة سنة ٧١٨.

١٢. البندنيجي (؟-٧٣٦هـ)[٢]:

علي بن محمد بن ممدود بن جامع بن عيسى البندنيجي الصوفي، أبو الحسن، الشيخ المسند الرحلة، سمع صحيح مسلم، وجامع الترمذي، وأجاز له جماعات، توفي سنة ست وثلاثين وسبعمائة. وقد أجاز له المؤلف، كما قال ابن رجب[٣].

١٣. بنت الكمال (؟-٧٤٠هـ)[٤]:

زينب بنت الكمال أحمد بن عبد الرحيم المقدسية، المعروفة ببنت الكمال، المرأة الصالحة العذراء، أم عبد الله. تفردت بقدر وقر بعير من الإجزاء بالإجازة، وكانت دينة وخيِّرة، روت الكثير، وتزاحم عليها الطلبة، وقرؤوا عليها الكتب الكبار. توفيت في تاسع عشر جمادى الأولى عن أربع وتسعين سنة، سنة أربعين وسبعمائة.

---

(١) الدرر الكامنة (١/ ١٢٩).

(٢) الدرر الكامنة (٤/ ١٤).

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٥).

(٤) شذرات الذهب (٣/ ١٢)، والعبر (٦/ ٢١).

أجازها المصنف، قاله ابن رجب[١].

١٤. أخو ابن دقيق العيد (؟-؟)[٢]:

موسى بن علي بن وهب، سراج الدين، أخو ابن دقيق العيد. عده ابن رجب[٣] ممن أخذ عن المصنف، هو وأبوه وأخوه.

هذا آخر ما وقفت عليه من تلامذة المؤلف، علماً أن المؤلف أجاز إجازة عامة، كما ذكر ذلك ابن الفوطي[٤].

٩. مؤلفاته:

قال صفي الدين عبد المؤمن[٥]: للمؤلف تصانيف غير تفسيره المشهور، في التفسير والفقه، والعروض. اهـ.

وفيما يلي معلومات مفصّلة عن كتب المؤلف، سواء أكان مطبوعاً أم مخطوطاً أم مفقوداً:

١. مختصر الفرق بين الفِرق.

اختصر به كتاب «الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادي.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٥).

(٢) الطالع السعيد (ص ٦٦٥).

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٥).

(٤) تلخيص مجمع الآداب (١/ ١٩٤).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/ ٢٧٥).

ذكره الزركلي في الأعلام، وكحالة في معجم المؤلفين[1].

قال في مقدمته: أما بعد حمد الله تعالى، والصلاة على رسوله محمد وآله، فهذا مختصر من كتاب «الفَرْق بين الفِرَق»، تأليف أبي منصور، عبدالقاهر بن طاهر البغدادي -رحمه الله تعالى- نظمت فيه مضمونه، وجمعت فيه نكته وعيونه، وأتيت به على ترتيبه وتبويبه، وبالغت في اختصاره وتهذيبه، والله المسؤول أن يعصمنا من الزلل، وأن يوفقنا لما يرضيه في القول والعمل. اهـ.

ولم يتم المؤلف اختصاره، بل أغفل الباب الخامس، في أوصاف الفرقة الناجية.

وله نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق (الأسد الآن) ضمن مجموع رقم (٢٠٩٤٦) ويقع في (٥٦) ورقة، ومسطرتها ستة عشر سطراً، بخط المؤلف.

وقد نشره فيليب حتّي، وطبعته مطبعة الهلال بالقاهرة، سنة: (١٩٢٤م) الطبعة الأولى، ثم طبعته مطبعة التقوى بالقاهرة سنة (١٩٤٠م) ويقع في إحدى ومائتي صفحة.

٢ـ درّة القارئ، في الفرق بين الضاد والظاء.

ذكرها ابن الجزري في غاية النهاية في طبقات القراء[2]، وسماها «الظائية النونية» وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون[3]، والزركلي في الأعلام[4]، ورضا

---

(١) الأعلام للزركلي (٣/ ٢٩٢)، ومعجم المؤلفين (٥/ ٢١٨).

(٢) طبقات القراء (١/ ٣٨٤).

(٣) كشف الظنون (١/ ٧٤٣).

(٤) الأعلام (٣/ ٢٩٢).

كحالة في معجم المؤلفين[١].

وقد أشار إليها المؤلف في كتابه «رموز الكنوز» في مواضع عديدة، ونقل أبياتاً عدة منها، مستشهداً بها على مواطن من كتابه.

ولها نسخ كثيرة منها:

* نسخة في الظاهرية ضمن مجموع رقم (٣٨٤٧).
* ولها نسخة أخرى في الظاهرية أيضاً برقم (٦٣٩٣) مجموع.
* ولها نسخة في دار الكتب المصرية ضمن مجموع.
* ولها نسخة في مكتبة الأوقاف بالموصل برقم (١٢).
* ولها نسخة في الخزانة الحسينية بالقصر الملكي بالرباط، برقم (٧٢٤٢/ ١) مجموع، وتقع في ٢٦ق، ٢٣ س.
* ولها نسخ في مكتبات الحرمين، ولا يخلو فهرس منها.

وهي قصيدة جيدة تقع في اثنين وثلاثين بيتاً، من البسيط.

قال في كشف الظنون[٢]: وهي أنفع ما صنف في الفرق بين الضاد والظاء، وأولها:

حفظت لفظا عظيم الوعظ يوقظ من ... ظمأ لظى وشواظ الحظ والوسن

من يكظم الغيظ يظفر بالظلال ومن ... يظعن على الظلم يظلل راكد السفن

وآخرها:

---

(١) معجم المؤلفين (٥/ ٢١٨).

(٢) كشف الظنون (١/ ٧٤٣).

سميتها درة القاري، ونِسْبتها بحر البسيط، فزنها واختبر تَبن

ثم الصلاة على المختار من مضر ما غردت صادحات الطير في الغُصُن

قال حاجي خليفة[١]: وشرحها بعضهم، وسماه: «كاشف محاسن الغرة لطالب منافع الدرة».

أوله: الحمد لله الذي لا نحصي ثناء عليه .. الخ.

ولعل النسخة التي في الخزانة بالرباط نسخة الشرح، فإنها كبيرة تبلغ ستاً وعشرين ورقة، كما تقدم، ونسخ القصيدة لا تتجاوز ورقتين، والله أعلم.

٣.مطالع أنوار التنزيل، ومفتاح أسرار التأويل.

ذكره حاجي خليفة[٢]، وقال عنه: تفسير كبير حسن انتقاه السيوطي[٣]، وكُتب في آخره إجازة سماع في مجالس آخرها ثاني القعدة سنة ٦٥٩هـ بدار الحديث المهاجرية بالموصل. وذكره كحالة في معجم المؤلفين[٤].

قال ابن رجب[٥]: وكان لما قدم بغداد أنعم عليه المستنصر، وصنف هذا التفسير ببلده، وأرسله إليه، وهو في ثمان مجلدات، وقف المدرسة البشيرية ببغداد.

والظاهر أن هذا الوصف لمطالع أنوار التنزيل، لا لرموز الكنوز، فإنه لا يبلغ هذا القدر.

---

(١) كشف الظنون (١/ ٧٤٣).

(٢) كشف الظنون (٢/ ١٧١٥).

(٣) انظر: دليل مخطوطات السيوطي (ص:٤٣).

(٤) معجم المؤلفين (٥/ ٢١٨).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٥).

وقد جاء ذكره في فهرس الدولة ببرلين (٣/ ٣٢٣).

٤. القمر المنير في علم التفسير.

ذكره ابن الشعار في عقود الجمان[١]، والدمياطي في معجمه[٢]. ويظهر من عنوانه أنه في علوم القرآن.

٥. المنْزع الصافي من المين في مصرع الإمام الشهيد أبي عبد الله الحسين.

ذكره ابن الشعار ذكره بهذا الاسم[٣]، وذكره الذهبي[٤]، وابن رجب[٥]، والداودي[٦]، وابن العماد[٧]، والزركلي[٨]، وعمر كحالة[٩]. باسم «مصرع الحسين».

وقد ألزمه بتصنيفه صاحب الموصل، فذكر فيه ما صح دون غيره.

٦. المنتصر في شرح المختصر.

وهو كتاب في الفقه، شرح به مختصر الخرقي، انفرد بذكره ابن الشعار في

---

(١) عقود الجمان (٤/ ق ١٣٢/ أ).

(٢) تلخيص مجمع الآداب (١/ ١٩٣).

(٣) عقود الجمان (٤/ ق ١٣٢/ أ).

(٤) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٥٢).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٥).

(٦) طبقات المفسرين (١/ ٣٠٠).

(٧) شذرات الذهب (٥/ ٣٠٥).

(٨) الأعلام (٣/ ٢٩٢).

(٩) معجم المؤلفين (٥/ ٢١٨).

العقود[١].

٧.أسنى المواهب في أحاديث المذاهب.

انفرد أيضاً بذكره ابن الشعار[٢].

٨.عقود العروض.

انفرد بذكره ابن الشعار[٣].

وهذا الكتاب يحتمل أن يكون في العَروض، الذي هو موازين الشعر، ويحتمل أن يكون في الفقه، وأنه في الكلام على عقود عروض التجارة، ويشهد للأول ما ذكره صفي الدين عبد المؤمن.

وزعم محقق كتاب المقصد الأرشد أنه وقف على قصيدة في ذم الدنيا، ومدح السّنّة وأهلها، وذم البدعة وأربابها، مشروحة شرحا مفيداً، وأنها هي وشرحها للمؤلف، ولم يذكر ذلك غيره.

٩.رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز.

وهو الكتاب الذي نحن بصدد التعريف به وتحقيقه. وسيأتي فصل خاص في الكلام عليه.

---

(١) عقود الجمان (٤/ ق ١٣٢/ أ).

(٢) مثل السابق.

(٣) مثل السابق.

١٠. ثناء العلماء على المؤلف:

حظي المؤلف بثناء عاطر من معاصريه، ومن أتى بعدهم، ووصفوه بالحفظ والإمامة:

فقال عنه ابن الشعار[١] -وهو صديقه، وأقدم من ترجم له-: «فقيه، محدث، شاعر، فاضل، ذو قريحة في المنظوم والمأثور».

وقال اليونيني[٢]: «كان فاضلاً عالماً أديباً شاعراً، جميل الأوصاف، رئيساً من صدور تلك البلاد، وأعيان أهلها».

وقال الذهبي[٣]: «كان إماماً محدثاً فقهياً، أديباً شاعراً، ديِّناً صالحاً وافر الحرمة».

ومثله قال السيوطي[٤].

وترجمه الذهبي في تذكرة الحفاظ، فقال[٥]: «الإمام المحدث الرحّال، الحافظ المفسر عالم الجزيرة، وكان إماماً متقناً ذا فنون وأدب».

ونحوه قال السيوطي في الطبقات[٦].

وقال في العبر[٧]: «وكان شيخ الجزيرة في زمانه، علماً وفضلاً وجلالة».

---

(١) عقود الجمان (٤/ ق ١٣٢/ أ).

(٢) ذيل مرآة الزمان (١/ ٢١٩).

(٣) تاريخ الإسلام (٥/ ق١٤٣).

(٤) طبقات المفسرين (ص٥٦).

(٥) تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/ ١٤٥٢).

(٦) طبقات الحفاظ للسيوطي (١/ ٥٠٩).

(٧) العبر (٣/ ٣٠٢).

وقال ابن كثير[١]: «المحدث المفسر، سمع الكثير وحدث، وكان من الفضلاء والأدباء».

وقال ابن رجب[٢]: «الفقيه المحدث المفسر .. وكان فاضلاً في فنون من العلم والأدب، ذا فصاحة وحُسن عبارة».

ونقل الداودي في طبقات المفسرين[٣] نص الترجمة من ابن رجب.

وقال ابن الجزري[٤]: «الإمام العلامة، المحدث المفسر، المقرئ، شيخ ديار بكر والجزيرة».

وقال ابن تغرى بردى[٥]: «كان إماماً فاضلاً شاعراً محدثاً».

وقال ابن العماد بعد أن نقل كلام الذهبي في العبر[٦]: «وتفنن في العلوم العقلية والنقلية».

وكما رأينا فقد اتفقت أقوال من ترجم للمؤلف على أنه: إمام فقيه مُحدث مفسر شاعر، وانفرد ابن الجزري في وصفه بأنه مقرئ:

أما كونه فقيهاً، فهذا لا مِرية فيه، فقد حاز فيه قصب السبق، ويشهد له ما جاء في هذا التفسير من المسائل الفقهية التي تكلم عليها عند آيات الأحكام.

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٢٤١).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٣) طبقات المفسرين (١/ ٣٠٠).

(٤) طبقات القراء (١/ ٣٨٤).

(٥) النجوم الزاهرة (٧/ ٢١١).

(٦) شذرات الذهب (٥/ ٣٠٥).

كما أنه قد صنف شرحاً على مختصر الخرقي، وقد لزم الموفقَ ابن قدامة فقرأ عليه كتبه الفقهية، وحفظ كتابه المقنع كما تقدم.

وأما وصفه بالمُحدث، فهذا قد كان سمة له عند العام والخاص، حتى كان ابنه إبراهيم الحنفي يعرف بابن المحدث، كما تقدم.

وبرع في الحديث سماعاً وروايةً ، حتى أودع الكثير من مروياته بأسانيده في هذا التفسير، حيث بلغ عدد الأسانيد في كتابه «رموز الكنوز»: ٥٣٦ إسناداً، وهذا سوى ما هو موجود في الجزء المفقود من الكتاب.

ثم إنه قد صنف كتاباً في الحديث اسمه: أسنى المواهب في أحاديث المذاهب، كما تقدم، ويظهر أنه تتبع الأحاديث التي يُستدل بها في المسائل الفقهية وتكلم عليها، نظير التحقيق لابن الجوزي، والله أعلم.

وقد ترجمه الحافظ الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ ، كما لقبه الحافظ ابن حجر في كتابه تبصير المنتبه: بالحافظ(١).

وأما ما ذكره ابن الجزري من أنه مقرئ، فهذا حق، وقد ذكر جملة كبيرة من القراءات المتواترة والشاذة، وصرّح بالأخذ عن بعض أئمة القراءات كالعكبري، كما أنه قد نظم القصيدة النونية في الفرق بين الضاد والظاء، كما تقدم في ذكر مؤلفاته.

وأما كونه شاعراً، فقد ترجمه صديقه ابن الشعار في كتابه "عقود الجمان في شعراء الزمان"، وذكر أنه صنف كتاباً في العروض، الذي هو من موازين الشعر،

---

(١) تبصير المنتبه (٢/ ٧٥٩).

كما ذكر هو وغيره جملة من أشعاره، وقد تقدم في ترجمة شيخه الموفق ابن قدامة نقل مقتطفات من مرثيته فيه.

فمن جملة هذه الأشعار عدة أبيات، قالها عند فراقه ابنه محمداً وإخوانه، قوله:

قف بالديار إذا مررتَ مسلِّما وابك الأحبة حسرة وتندما
واستخبر الأطلال أين تَرَحَّلوا فعسى تُخَبِّر عنهمُ ولعلما

إلى أن قال:

أمحمد لا حمد للدنيا متى لم ألتزمك مُقَبِّلاً منك الفما

وقال أيضاً:

وما الدهر إلا ما المماتُ ألذه وما خير هذا الدهر إلا عقاربه
وما هو إلا حيَّة لانَ مسها وسُمَّت بأنواع العذاب مضاربه[(١)]

ومن ذلك قوله:

يا من يرينا كل وقت وجهه بشْراً، ويبدي كفُّه معروفا
أصبحتَ في الدنيا سَرِيّا بعدما أمسيتَ فيها بالتقى معروفا[(٢)]

ومن ذلك قوله:

إنما هذه الحياة متاع فليجزها بالزهد مَن فيه عقل

---

(١) عقود الجمان (٤/ ق١٣٣/ ب، ق١٣٥/ ب).

(٢) معجم الدمياطي (ق١٣/ ب)، وذيل مرآة الجنان (٢/ ٢١٩).

نظـــــر العـــــارف اللبيـــــب   من الفكر فيها فلم يزنه عقل[١]

وأخطأ اليونيني فنسب البيتين الآتيين له، وإنما هما لابنه شمس الدين محمد، كما سبق، وتبعه ابن تغرى بردى، وهما قوله:

ولــو أن إنســاناً يبلــغ لــوعتي   ووجدي وأشـجاني إلى ذلـك الرشـا

لأســكنته عينــي ولم أرضــها لــه   ولولا لهيـب القلـب أسكنته الحشا

١١. شعره:

سبق بيان شاعرية الرسعني في الفقرة السابقة، وفيما يلي نذكر بعض الأشعار التي نسبت له، فمنها ما نقله ابن العماد في الشذرات[٢]:

وكنـت أظـن في مـصر بحـاراً   إذا أنــا جئتهــا أجــد الـــورودا

فــلما ألفيتهـــا إلا ســرابـــاً   فحينئـــذ تيممـــت الـــصعيدا

وأورد له ابن كثير في البداية والنهاية هذين البيتين[٣]:

نعـــب الغـــراب فـــدلنا بنعيبـــه   أن الحبيـــب دنـــا أوان مغيبـــه

يا سائلي عن طيـب عيـشي بعـدهم   جُدْ لي بعيش ثم سـل عـن طيبـه

ومن شعره ما نقله صاحب النجوم الزاهرة[٤]:

---

(١) عقود الجمان (٤/ ق١٣٣/ ب).

(٢) شذرات الذهب (٣/ ٣٠٥).

(٣) البداية والنهاية (١٣/ ٢٤١).

(٤) النجوم الزاهرة (٧/ ٢١). وقد نسب البيتين الصفدي في الوافي بالوفيات إلى ابن المؤلف محمد بن عبد الرازق (الوافي بالوفيات ٣/ ٢٥٢).

ولــــو أن إنـــسانا يبلـــغ لـــوعتي   وشوقي وأشجاني إلى ذلـك الرشـا
لأســكنته عينـــي ولم أرضـــها لـــه   فلولا لهيب القلب أسكنته الحشا

١٢.وفاته:

مات رحمه الله سنة إحدى وستين وستمائة[١]. وهذا قول عامة من ترجمـه، لا سيما تلميذه الدمياطي، وكذلك الذهبي، وابن رجب واليونيني، وابن كثير، وابن مفلح، والسيوطي، وغيرهم.

وقال ابن الفوطي في معجمه: توفي سنة ستين وستمائة، وتبعه ابـن مفلـح في المقصد.

وقال الإربلي في كشف الغمة -وهو صديقه-: قتل سنة أخذ التتار الموصل، وهي سنة ستين وستمائة. وهذا قول غريب لم يتابعه عليه أحد.

ثم اختلفوا، في أي شهر توفي، فقال ابن الفوطي: في ذي الحجـة، وتبعـه كـما قلت ابن مفلح في المقصد.

وقال اليونيني في ذيل المرآة، وابن كثير، والذهبي، وابن العماد: توفي ثاني عشر ربيع الآخر، ليلة الجمعة.

وقال الدمياطي: توفي في ثامن عشر ربيع الآخر ليلـة الجمعـة، عنـد العـشاء الآخر.

---

(١) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٥)، والمقصد الأرشـد (٢/ ١٣)، والنجـوم الزاهـرة (٧/ ٢١)، وطبقـات الحفاظ للسيوطي (١/ ٥٠)، وطبقات المفسرين (ص:٦)، وكشف الظنون (١/ ٩١)، وشذرات الذهب لابن العماد (٣/ ٣٠).

وحكى ابن رجب الأقوال الثلاثة؛ أعني قول ابن الفوطي واليونيني والدمياطي.

ونقل الداودي عن الذهبي أنه توفي ثاني عشر ربيع الأول، وهو خلاف ما ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام، فالظاهر أنه سهو، وأن الصواب ربيع الآخر.

مما سبق يتبين أنه توفي سنة إحدى وستين وستمائة في ثامن عشر ربيع الآخر، ليلة الجمعة بعد العشاء الآخر، كما ترجمه بهذا تلميذه الدمياطي، وإن كان أكثر المترجمين على أنه في ثاني عشر ربيع الآخر. والله أعلم.

وكانت وفاته بسنجار[1]، ودفن في ظاهرها، شرقي البلد، في مقبرة المشايخ.

---

(١) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال، ويقولون: إن سفينة نوح عليه السلام لما مرت به نطحته فقال نوح: هذا سن جبل جار علينا فسميت سنجار (معجم البلدان ٣/ ٢٦٢).

المبحث الثاني

التعريف بكتاب «رموز الكنوز»

وفيه:

١-اسم الكتاب ٥٧

٢-نسبة الكتاب للمؤلف ٥٨

٣- تاريخ تأليف الكتاب ٥٨

٤-قيمة الكتاب العلمية ٥٩

٥-عناية العلماء بكتاب «رموز الكنوز» ٦١

٦-منهج المؤلف في كتابه «رموز الكنوز» ٦٢

المبحث الثاني: التعريف بكتاب رموز الكنوز

١٣ .اسم الكتاب:

هو: «رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز».

هذا الاسم انفرد به صاحب كشف الظنون[١]، وأما بقية من ترجم للمؤلف فقد ذكر الكتاب باسم: «رموز الكنوز»، وكذا جاء الاسم مكتوباً على طُرة بعض أجزاء الكتاب.

كما أنه جاء على غلاف بعض الأجزاء تسميته بتفسير القرآن العظيم.

وقد قال المؤلف في ثنايا الكتاب[٢]: «لما انتهيت مرة في تدريس الكتاب العزيز إلى هذه الآية أورد عليّ رجل فاضل إشكالاً»، فدل ذلك على أن المؤلف ذكر الجزء الثاني من العنوان في طيات تفسيره، وهذا شاهد لما ذهب إليه صاحب كشف الظنون.

ولعل من ذكره باسم «رموز الكنوز» من غير إضافة هو من باب الاختصار في سرد الأسماء، وهذا ما نراه في المؤلفات التي تعرف بالأشخاص، والمؤلفات التي تعرف بالكتب. والله أعلم.

وقد اقتصر بعض مترجميه على قولهم: ألف كتاباً في التفسير، دون التعرض لاسمه.

ونقل الأدنروي في طبقات المفسرين عن كتاب «أسامي الكتب» أن اسم كتاب الرسعني «الرمز الكنيز في تفسير الكتاب العزيز»[٣]. وهذا مما انفرد به

(١) كشف الظنون (١/ ٩١٤).

(٢) (١/ ٣٣٦).

(٣) طبقات المفسرين (ص:٢٤٣).

الأدنروي، ولعله وهِم في اسم الكتاب. والله أعلم.

وقد ضمّن المصنف اسم كتابه في ثنايا تفسيره، أثناء دعاءٍ دعاه، فقال[(١)]: فجاء الكلام على أبدع نظم وأحسن تقسيم وأصح معنى، اللهم! فلك الحمد على ما هديتنا إليه من إبراز رموز خطابك، ودللتنا عليه من إحراز كنوز كتابك.

١٤. نسبة الكتاب للمؤلف:

١. جاء اسم الكتاب مقروناً بنسبته إلى الإمام الرسعني -رحمه الله- على غلاف الكتاب.

٢. جاء في السماع المثبت بآخر المجلد الثاني ما نصه: سمع جميع هذا المجلد وهو الثاني من كتاب «رموز الكنوز»، تأليف الشيخ الإمام العالم الفاضل الكامل عز الدين عبد الرازق الرسعني.

٣. ذكر أكثر الذين ترجموا للمؤلف هذا الكتاب من جملة مصنفاته.

٤. نقل عنه العلامة عبد الرحمن بن عمر الحنبلي، المتوفى سنة أربع وثمانين وستمائة، في موضعين من تفسيره «منتهى العلوم» (ق٧٢/ أ)، و (ق١٦٤/ ب).

كل هذا يجعلك تتأكد بلا ريب من صحة نسبة كتاب «تفسير رموز الكنوز» للمؤلف.

١٥. تاريخ تأليف الكتاب:

حدد المصنف رحمه الله تعالى تاريخ بداية تأليف الكتاب، فقال في مقدمة

---

(١) (٧/ ٢٤٦).

الكتاب: شرعتُ فيه مُظهراً نعم الله عليّ ومنحه في أول المحرم مفتتح سنة ثلاث عشر وثمانمائة، ولي من العمر أربعة وعشرون سنة، وهو أول تصانيفي.

١٦. قيمة الكتاب العلمية:

أثنى المصنف على كتابه "رموز الكنوز" في أثناء تفسيره ، وذكر بعض مزايا كتابه؛

فقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، بعد أن ذكر اعتراضاً وجواباً عليه: وقلّ أن يُذكر مثل هذا التحرير في تفسير، ولكن هذا من السرِّ المكنون الذي لا يَظهر إلا بالبحث والتقرير.

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦]، بعد أن ذكر دخلان وجوابها: وهذان الدخلان والجواب عنهما والتقرير التالي لهما ما علمتُ أن أحداً من المفسرين ذكره.

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]، بعد أن ذكر دخلاً وجوابه: وقلّ أن ترى مثل هذا التدقيق والتحقيق في تفسير، فإذا قرأته فادْعُ بالرحمة والمغفرة لمن أسهَر فيه ناظره، وأتعب في استثماره خاطره.

واعلم أنني بعد ذلك رأيت بعض نَحارِير العلماء قد ألمّ بهذا المعنى، فحمدت الله على مماثلته في التوفيق، لإصابة جهة التحقيق. انتهى.

وقد أثنى العلماء على كتاب «تفسير رموز الكنوز»، ووصفوه بأوصاف تدل

على قيمة الكتاب العلمية:

فقد قال الذهبي في تاريخ الإسلام[١]: صنف تفسيراً حسناً، يروي فيه بإسناده.

وقال في العبر[٢]: وصنف تفسيراً جيداً.

وقال ابن رجب[٣]: وصنف تفسيراً حسناً في أربع مجلدات ضخمة، سماه: «رموز الكنوز»، وفيه فوائد حسنة، ويروي فيه الأحاديث بإسناده.

ونصه في طبقات المفسرين للداوودي[٤]، ونحوه في المقصد الأرشد[٥].

وقال ابن بدران[٦]: رموز الكنوز تفسير جليل، يذكر فيه المؤلف أحاديث يرويها بالسند، ويناقش الزمخشري في كشافه، ويذكر فروع الفقه على الخلاف بدون دليل.. وبالجملة هو تفسير مفيد جداً لمن طالعه.

وقال في موضع آخر عند حديثه عن تفاسير الحنابلة[٧]: وأجلُّ هذه التفاسير كلها وأنفعها تفسير الإمام عبد الرازق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف بن أبي الهيجاء الرسعني، الفقيه المحدث الحنبلي.. إلى أن قال: وتفسيره «رموز الكنوز» وهو في أربع مجلدات، وفيه فوائد حسنة، ويروي فيه أحاديث بإسناده، ويذكر

(١) تاريخ الإسلام (٥/ ق١٤٣).
(٢) العبر (٣/ ٣٠٢).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٥).
(٤) طبقات المفسرين (١/ ٣٠٠).
(٥) المقصد الأرشد (٢/ ١٣٥).
(٦) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص:٤١٥).
(٧) المرجع السابق (ص:٤٧٧).

الفروع الفقهية، مبيناً خلاف الأئمة فيها، وله مناقشات مع الزمخشري، ولقد اطلعت عليه، وارتويت من مورده العذب الزلال، وشنفت مسامعي بتحقيقه، وارتويت من كوثر تدقيقه، فرحم الله مؤلفه.

١٧ .عناية العلماء بكتاب «رموز الكنوز»:

ظهرت عناية كبيرة للعلماء بكتاب الإمام الرسعني، وقد ظهر هذا جلياً من خلال الحلقات العلمية التي كان أهل العلم يعقدونها لإلقائه في مجالس، وبعضهم كان يلقيه من حفظه، وفيما يلي نذكر من كان يلقي كتاب «رموز الكنوز» على طلبة العلم:

١ .فقد كان الإمام الرسعني نفسه يقوم بتدريس كتابه، وإملائه على طلبة العلم.

٢ .الشيخ عبد الصمد بن إبراهيم بن خليل البغدادي المعروف بابن الحصري (؟-٧٦٥هـ)[(١)]:

ألقى كتاب «رموز الكنوز» دروساً من لفظه بمسجد بالس ببغداد.

٣ .القاضي جمال الدين عبد الصمد بن خليل الخضري الحنبلي (؟-٧٦٥هـ).

كان يحدث ويملي تفسير الرسعني من حفظه، ويحضره الخلق، منهم

---

(١) عبد الصمد بن إبراهيم بن خليل البغدادي، جمال الدين، أبو أحمد، المعروف بابن الحصري، الحنبلي، اختصر تفسير الرسعني، بعد أن ألقاه دروساً من لفظه، بمسجد بالس ببغداد، توفي سنة خمس وستين وسبعمائة . ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤١٣)، والدرر الكامنة (٢/ ٤٧٦)، وشذرات الذهب (٦/ ٢٠٤).

المدرسون والأكابر[1].

٤. أبو بكر بن محمد بن قاسم بن عبد الله السنجاري ثم البغدادي، شجاع الدين المقرئ المقانعي الحنبلي.

كان يحدث بتفسير الرسعني[2].

١٨. منهج المؤلف في كتابه «رموز الكنوز»:

لم نقف على مقدمة المؤلف رحمه الله لكتابه رموز الكنوز، حيث إن الجزء الأول من المخطوط لم نقف عليه، وإنما وقفنا على الجزء الثاني من المخطوط والذي يبتدئ بسورة آل عمران، ولعل المؤلف رحمه الله قد ذكر في مقدمة كتابه المنهج الذي اتبعه في كتابه "رموز الكنوز"، وعليه فإننا سوف نحاول ومن خلال دراسة كتابه "رموز الكنوز" تلمس المنهج الذي سلكه الرسعني في كتابه هذا ، فنقول:

١. يبدأ المؤلف -رَحمه الله- بذكر طرف الآية ثم يذكر القراءات الواردة فيها، وينسبها إلى من قرأ بها من القراء، ثمَّ يقوم بتوجيه القراءات لغوياً، ومن ثم يعرض للمعاني المختلفة المأخوذة من القراءات المختلفة.

كما أنه يُثبت القراءات التي قرأها على شيوخ عصره من القراء، سواء كانت توافق القراءات العشر أو لا، وبهذا يعتبر كتاب "رموز الكنوز" مرجعاً مهماً لدارسي علوم القراءات.

٢. يذكر المعاني اللغوية ومباحث الإعراب ونكت البلاغة المتعلقة باللفظ القرآني.

---

(١) شذرات الذهب (٣/ ٢٠٤).

(٢) الدرر الكامنة (١/ ٥٥١)، والمقصد الأرشد (٣/ ١٥٤).

٣.امتاز لفظ المؤلف بالإيجاز وكان سهل العبارة، مما جعل تفسيره قريب المنال، سهل المأخذ.

٤.اعتمد في بيان معاني الآيات أحسن طرق التفسير، فهو يفسر الآية بالقرآن وقراءاته ثم بالأحاديث الواردة، ثم بأقوال الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، وإيراد أسباب النزول المروية عنهم، ثم باللغة العربية.

٥.ساق الأحاديث النبوية بأسانيده المتصلة إلى رسول الله ﷺ، أما ما يذكره عن الصحابة أو التابعين من الروايات فغالباً ما يذكرها دون إسناد.

٦.ذكَرَ الحكم على بعض الأحاديث التي يسوقها ، فمن ذلك:

- قال عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ [النمل: ٨٢]: وروي بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: « هي دابة ذات زَغَبٍ وريش، لها أربع قوائم ».

- وقال عند قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]: روى الثعلبي بإسناد لا بأس به أن ابن عباس... الحديث.

٧.يذكر الخلافات الواردة عن السلف في التفسير، ويعدد عنهم الروايات في ذلك.

٨.يورد إشكالات على ظاهر النظم ثم يجيب عليها، انظر مثلاً ما ذكره عند الآية رقم (٤) من سورة الأعراف.

٩.يعقب بعض الآيات بذكر فصول مهمة، تتضمن أحكاماً فقهية، أو مسائل من أصول الدين، أو فوائد تتعلق بالآية؛ يُطنب القول فيها، ويذكر الآراء المختلفة حولها، مع سرد الأدلة لكل رأي.

١٠ .موقفه من آيات الصفات:

ذكر الرسعني رحمه الله تعالى في كتابه «رموز الكنوز» رأيه في آيات الصفات بوضوح، فقال(١):

قاعدة مذهب إمامنا في هذا الباب -أي آيات الصفات-: اتباع السلف الصالح؛ فما تأولوه تأولناه، وما سكتوا عنه سكتنا عنه، مفوّضين علمه إلى قائله، منزهين الله عما لا يليق بجلاله. اهـ.

قلت: وقد التزم المؤلف بهذه القاعدة، فقد رجّح تأويل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢]، وأوله بالأمر الشديد، ونسب هذا التفسير إلى كثير من علماء السنة، ثم ذكر الرأي الآخر، وهو إلحاق هذا بنظائره من آيات الصفات(٢).

١١ .ذكر فوائد وطرائف رآها أو سمعها، ومنها:

- قال عند قوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف:٦٩]: والبَسْطة: الفضيلة في الجسم وامتداد القامة. قال ابن عباس: كان أطولهم مائة ذراع، وأقصرهم ستون ذراعاً. قال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبة.

قال: ولقد رأيتُ -أي المؤلف الرسعني- مصداق ذلك وشاهدت صحته حين أرسل الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين رئيس الأصحاب محيي الدين أبا محمد يوسف بن أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي إلى صاحب مصر، فرجع في بعض سفراته ومعه ضرس جبار من الجبارة الأول، قد استُخْرِج من بعض

(١) رموز الكنوز (٨/ ٢٤١).

(٢) انظر تفسير هذه الآية في سورة القيامة، آية: ٢٩.

مدافنهم، وزنه أربعة عشر رطلاً، وقد انكسرت منه فلقة، هذا مع ما نقصه تطاول الأزمان ومرّ السنين والأحقاب عليه.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]: ومن جملة أدوية الغضب: ما أخرجه الإمام أحمد رضي الله عنه في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا غضب أحدكم فليسكت»[(١)].

وروى أبو داود في سننه من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»[(٢)].

وأنزل الله في بعض كتبه: يا ابن آدم اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك مع من أمحق، وإذا ظلمت فارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]: صحبتُ شيخاً من العاملين لله والمتنسّكين بالعلم والمتمسكين بالورع في سفر بطريق الشام فنزلنا قريةً فعرفه بها رجل من ذوي اليسار، فقال: أنتم الليلة أضيافي، فقال له الشيخ: وليلة غدٍ أضياف من نكون؟ يشير بذلك إلى نفي الاعتماد على من هو بعرضية الفناء والنفاد، ووجوب الاستناد في طلب القوت إلى الحي الذي لا يموت.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٩ ح٢١٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٤٩ ح٤٧٨٢).

مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٣-١٤]: قيل لبعضهم بعد خروجه من البحر: ما أعجب ما رأيت فيه؟ قال: سلامتي. فينبغي للمتلبس بهذه الحالة استذكار الآخرة والاستعداد لها، فليجتلب ما ينجبه من طاعة الله ويجتنب ما يرديه من معصيته ...

- وقال عند قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]: كنا يوماً نتدارس القرآن في بيت من بيوت الله برأس عين، سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكان عام قحط وغلاء وموت ذريع بسبب الجوع، فأتينا على هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وعندنا رجل من ذوي اليسار يستمع القرآن سماع تفكر واعتبار، فصاح صيحة شديدة، وألقى نفسه في وسط الحلقة كهيئة الولهان، ثم تراجعت إليه نفسه فقال لنا: أشهدكم أن لله في مالي مائة مكوك من الحنطة، وستمائة درهم أصلحها بها وأطعمها لفقراء المسلمين، أقي بها نفسي وأهلي من نار جهنم، ثم نهض وأمضى ذلك باطلاع منا في أيام، فكان مجموع ما أنفق نحواً من مائتين وخمسين ديناراً تقريباً.

١٢. جمع بين الروايات المتعارضة الواردة في الموضوع:

- فقد قال عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران:١٤٣]، والمعنى: فقد رأيتم أسبابه ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ توكيد، على معنى: وأنتم بصراء.

وقيل: وأنتم تنظرون ما تمنيتم.

وقال ابن عباس: وأنتم تنظرون إلى السيوف(١).

والذي يظهر لي، ويشهد بصحته سبب النزول، والله أعلم أن المعنى: ولقد كنتم تمنون الموت رغبة في الشهادة فقد رأيتموه، وبلغتم ما كنتم تحبون وتتمنون، وحالكم أنكم قوم تنتظرون الموت، وترتقبونه رغبة في كرامة الله وما أعده للشهداء، فلم انهزمتم، وأسلمتم نبيكم، وخذلتم دينكم.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤]: وقد روي عن أُبَيِّ بن كعب عن النبي ﷺ: أنه ألفٌ ومائتا أوقية(٢).

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: أنه اثنا عشر ألف أوقية(٣).

وروى الحسن البصري عن النبي ﷺ: أنه ألفٌ ومائتا دينار.

وفيه أقاويل متعددة عن الصحابة والتابعين.

والذي يظهر -في نظري- أن المنقول عن النبي ﷺ، وعنهم في ذلك: ليس على سبيل التحديد لزنة القنطار، وإنما هو على سبيل التنظير للمال الكثير، صيانة لروايات الثقات، ولأقوال العلماء الأثبات عن التناقض والتهافت.

---

(١) زاد المسير (١/ ٤٦٨).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ١٩٩)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٠٨) عن معاذ. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦١) وعزاه لابن جرير.

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٥٢): وهذا حديث منكر أيضاً.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢٠٧). وانظر: زاد المسير (١/ ٣٥٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦١) وعزاه لأحمد وابن ماجه.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٧]: المعنى: لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم، وإنما أنتم على شفا من استئصال شأفتكم، فعلام نجعل أنفسنا فرائس الفوارس، وأغراض الحتوف، وجزر السيوف، وهذا هو التأويل الذي يشهد العلم بصحته، لا ما ذكره الماوردي(١) من أن المعنى: لو كنا نحسن القتال لاتبعناكم(٢)، ولا ما ذكره ابن إسحاق أن المعنى: لو نعلم قتالاً يجرى اليوم لقاتلنا معكم(٣)، وهذا(٤) الذي ذكره الواحدي، وجمهور المفسِّرين. والقول الذي ذكره الماوردي رديء جداً.

والذي قاله ابن إسحاق قول تشهد العقول الرصينة بتفاهته، لأن أهل النفاق رجعوا حين تراءت الفئتان، وقامت الحرب على ساق، فكيف يقولون ذلك بهذا الاعتبار في معرض الاعتذار، والكفار قد أقبلوا بقضهم وقضيضهم يطلبون الأخذ بالثأر، من المهاجرين والأنصار.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن

---

(١) علي بن محمد بن حبيب، الماوردي، أبو الحسن البصري، كان من وجوه فقهاء الشافعية، وله تصانيف كثيرة، في أصول الفقه وفروعه، توفي سنة خمسين وأربعمائة. (تاريخ بغداد (١٢/ ١٠٢)، والمنتظم (٨/ ١٩٩)، وطبقات الشافعية للأسنوي (٢/ ٣٨٧).

(٢) لم أجد ما ذكره المؤلف عن الماوردي في تفسيره المطبوع، وقد ذكر محقق تفسير الماوردي: أن العبارة عند هذه الآية مضطربة، فصوّبها من السيرة، فلعله أسقط تفسير الآية، وقد نسب هذا القول أيضاً للماوردي ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩٨).

(٣) زاد المسير (١/ ٤٩٨).

(٤) يعني ما ذهب إليه، من القول الأول.

﴿فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران:١٦٧]: قال ابن مسعود، وابن عباس، والأكثرون: نزلت في مانعي الزكاة.

وروي عن ابن عباس، ومجاهد أنها نزلت في الأحبار الذين كتموا صفة النبي ﷺ، اختاره الزجّاج.

والذي آتاهم الله -على القول الأول-: المال، وعلى القول الثاني: العلم.

والصحيح هو القول الأول؛ لما أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن آتاه مالاً فلم يؤد زكاته ماله مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه -يعني شدقيه- يقول: أنا مالُكَ، أنا كنزُكَ، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾»[1].

١٣. ذكر أسانيده:

ذكر المصنف أسانيد بعض الكتب إلى أصحابها أثناء تفسيره:

فقد ذكر إسناده لكتاب ابن سوار في القراءات، فقال: قرأت بجميع ما فيه على شيخنا العلامة أبي البقاء عبدالله بن الحسين اللغوي تلاوة، وأخبرني أنه قرأ بجميع ذلك وهو ما فيه على الشيخ أبي الحسن علي بن المرحب البطائحي تلاوة، وأخبره أنه قرأ بجميع ما فيه على ابن سوار المصنف تلاوة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٣ ح٤٢٨٩).

١٤. التفسير الإشاري[1]:

اعتنى الرسعني في تفسيره بذكر تفسير أرباب الإشارات والمعاني لبعض الآيات القرآنية:

- فقد قال عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران:٥٥]: قال بعض أهل المعاني: إني متوفيك عن شهواتك، وحظوظ نفسك.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]: قال بعض أهل المعاني: «ولا تقتلوا أنفسكم» بارتكاب المعاصي.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]: قال بعض أرباب الإشارات: ﴿وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ من حب الدنيا.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف:٢٠]: قال بعض أرباب الإشارات: والله ما يوسف وإن باعه أعداؤه بأعجب منك في بيع نفسك بشهوة ساعة من معاصيك.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]: قال بعض أرباب الإشارات: يحتاج المصلي إلى أربع خلال حتى يكون خاشعاً:

---

(١) هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضاً.

قال الإمام ابن الصلاح: يا ليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الإيهام والالتباس.

وقال الزركشي: قيل إنه ليس بتفسير، وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة (البرهان ٢/ ١٧٠، ومناهل العرفان ٢/ ٥٦).

إعظام المقام، وإخلاص المقال، واليقين التام، وجمع الهمّ.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا﴾ [الرعد:١٥]: قال أهل المعاني: سجودها: تمايلها من جانب إلى جانب، وانقيادها للتسخير بالطُّول والقِصَر.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم:١٥]: سئل يحيى بن معاذ الرازي: أي الأصوات أحسن؟ فقال: مزامير أنس في مقاصير قدس، بألحان تحميد في رياض تمجيد، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]: قال الحارث المحاسبي: الظاهرة نعيم الدنيا، والباطن نعيم العقبى.

١٥. الرد على القدرية[1]:

كما اعتنى الرسعني في كتابه بالرد على القدرية:

- فقد قال عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]: وفي قوله: «صرفكم»، إبطال لمذهب القدرية حيث أضاف الصرف إلى نفسه وجعله من فعله.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]: وفي هذه الآية دليل على أن مَن مات على الإيمان من أهل الكبائر لا يخلد في النار، وبرهان قاطع على بطلان ما انتحله القدرية من قولهم: لا يجوز أن يغفر الله الكبيرة، ولا أن يعفو عن المعاصي.

---

(١) القدرية: هم الذين يقولون لا قَدَر، وأن الأمر أُنُف، وهم قدرية في الأفعال، معتزلية في الصفات، وعيدية في الإيمان.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]: قالت جويرية بن أسماء: سمعت علي بن زيد تلا هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فنادى بأعلى صوته: انقطع والله هاهنا كلام القدرية.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [النحل:٩٣]: قال الواحدي[(١)] : هذا صريح في تكذيب القَدَرية، حيث أضاف الضلالة والهداية وجعلهما إلى نفسه لمن يشاء من خلقه بالمشيئة الأزلية.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:١٦٣]: قال عمر بن عبد العزيز: فصلت هذه الآية بين الناس[(٢)]، يشير إلى إبطال ما انتحلته القدرية.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧]: أخرج مسلم في صحيحه والترمذي من حديث أبي هريرة قال: جاء مشركوا قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمون في القدر، فأنزل الله : ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[(٣)]. قال: وهذه الآية المعتضدة بالأحاديث الصحيحة المبين لسبب النزول الدافع لكل تأويل يعتصم به الخصم من جملة الدلائل الدامغة

(١) الوسيط (٣/ ٨٠).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١٥/ ١٣٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٤٦ ح٢٦٥٦)، والترمذي (٤/ ٤٥٩ ح٢١٥٧).

للقدرية، والبراهين المبطلة لمذهبهم الخبيث...

١٦. الرد على الزمخشري:

أثارت آراء الزمخشري في الكشاف مناقشات وحواراً بين العلماء، وذلك لأن الزمخشري كان معتزلي العقيدة من ناحية، وكان ينهج منهج الرأي والتأويل ولو كان على حساب الصناعة النحوية من ناحية ثانية.

وقد اعتنى المؤلف عناية كبيرة في الرد على مواطن الاعتزال التي كان الزمخشري يحاول أن يبثّها في ثنايا تفسيره، ورد التجاوز الصريح على الصناعة النحوية ومتعلقاتها.

ولو أردنا حصر مناقشات الرسعني مع الزمخشري لطال الأمر بنا، لذا فإننا نحيل القارئ إلى التفسير، ففيه الشيء الكثير.

وقد جاءت آفة الزمخشري من أمور، تتبعتها في كتب السير والتراجم والطبقات، وهي كما يلي:

- لم يكن له لقاء ولا رواية، بل كان يأخذ علمه من الكتب.

قال الشيخ تاج الدين الكندي: رأيت الزمخشري عند شيخنا أبي منصور الجواليقي رحمه الله تعالى مرتين قارئاً عليه بعض كتب اللغة من فواتحها ومستجيزاً لها؛ لأنه لم يكن له على ما عنده من العلم لقاء ولا رواية[١].

- غلوه في الاعتزال:

قال الشيخ تاج الدين الكندي: كان متحققاً بالاعتزال[٢].

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٣٤٠).

(٢) مثل السابق.

وقال ابن خلكان: كان الزمخشري معتزلي الاعتقاد متظاهراً به، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول، يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب[1].

- دعاء والدته عليه:

قال في إنباه الرواة[2]: لما دخل الزمخشري بغداد واجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني سأله عن سبب قطع رجله، فقال: دعاء الوالدة، وذلك أني في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله وأفلت من يدي، فأدركته وقد دخل في خرق، فجذبته فانقطعت رجله في الخيط، فتألمت والدتي لذلك وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلتُ إلى بخارى لطلب العلم، فسقطت عن الدابة فانكسرت الرجل، وعملت عليَّ عملاً أوجب قطعها.

١٧. إثارة الاعتراضات والجواب عنها:

أكثر المصنف رحمه الله تعالى في أثناء كتابه من إيراد الاعتراضات والإجابة عليها، وأحياناً يورد الإجابة على الاعتراض من وجوه متعددة، وأحياناً ينوه المصنف بذكره أجوبة لم يسبق إليها:

- فقد قال عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، بعد ذكره دخلين وإجابته عنهما: وهذان الدخلان والجواب عنهما لم أُسْبَق إليهما، فإن يكن ذلك صواباً فمن فضل الله تعالى، وإن لم يكن ذلك فالله المسؤول التجاوز عني

(١) وفيات الأعيان (٥/ ١٧٠).

(٢) إنباه الرواة (٣/ ٢٦٨).

برحمته وكرمه.

- وقال بعد تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر:٢٤]: وقلّ أن ترى مثل هذا التدقيق والتحقيق في تفسيرٍ، فإذا قرأته فادع بالرحمة والمغفرة لمن أسهَر فيه ناظره، وأتعب في استثماره خاطره.

- وقال بعد تفسير قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة:١٢]: وما أعلم أحداً من المفسرين لَحَظَ هذا الذي ذكرته، مع حكايتهم القولين المتنافيين.

١٨ .تعليقه على الأقوال والنقول:

لم يكن الرسعني مجرد ناقل أو راو يسرد الروايات دون دراسة وتمحيص، بل إنه كان يعلق أحياناً، ويبدي رأيه حولها، ويرجح بينها، مورداً أحياناً الأدلة على الرأي الذي اختاره، وفيما يلي نسوق بعض الأمثلة على ذلك:

- قال عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢]: تقول: أَحْسَسْتُ بالشَّيْءِ وحَسَسْتُ به، فهو مُحَسٌّ، وقول الناس محسوس خطأ.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٢٩]: قال مجاهد والسدي وابن زيد: وجهوا وجوهكم حيث كنتم إلى الكعبة(١).

قال: وفي هذا القول نظر؛ لأن الآية مكية، والأمر بالتوجه إلى الكعبة كان على

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦٢)، ومجاهد (ص:٢٣٤).

رأس ستة عشر شهراً في المدينة.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف:٤]:

فإن قيل: نظمُ الآية يدل على تقدم الهلاك على البأس، وهو العكس؟

قلت: المراد أردنا إهلاكها كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ﴾ [المائدة:٦]، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾ [النحل:٩٨].

وقال الفراء(١): وقع الإهلاك والبأس معاً، كما تقول: أعطيتني فأحسنت إليّ.

وذكر ابن الأنباري عن ذلك جوابين:

أحدهما: أن الكون مضمر في الآية، تقديره: أهلكناها، وكان بأسنا قد جاءها، كما أضمر في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: ما كانت تتلوه.

الثاني: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: وكم من قرية جاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون فأهلكناها، كقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥].

والأول هو الجواب الذي ينبغي أن يعتمد عليه.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]: وبعض العرب إذا وقف على «غواش» وقف بإثبات الياء، ولا أرى ذلك في القرآن، لأن الياء محذوفة في المصحف.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]:

---

(١) معاني الفراء (١/ ٣٧١).

ذهب أكثر متأخري العلماء إلى أن المراد بالحقِّ: الزكاة.

قال القاضي أبو يعلى ابن الفراء: فائدة ذكر الحصاد: أن الحق لا يجب فيه بنفس خروجه وبلوغه، وإنما يجب يوم حصوله في يد صاحبه، وقد كان يجوز أن يُتوهم أن الحق يلزم بنفس نباته قبل قطعه، فأفادت الآية أن الوجوب فيما يحصل في اليد دون ما يتلف.

وقال أيضاً: «اليوم» ظرفٌ للحقّ لا للإيتاء، فكأنه قال: وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التنقية.

وقال الواحدي[١]: هذا في النخيل؛ لأن ثمارها إذا حصدت وجب إخراج ما يجب فيها من الصدقة. والزرع محمول عليه في وجوب الإخراج، إلا أنه لا يمكن ذلك عند الحصاد، فيؤخر إلى زمان التنقية.

وقال صاحب الكشاف[٢]: معناه: اعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد، حتى لا تأخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء.

وهذه الفوائد في نهاية ما يكون من الحسن.

ويجوز عندي -والله أعلم- أن يقال: العرب توقع اليوم على الزمان، فيقولون: كان ذلك يوم بُعاث، ويوم صفين[٣]، وقد قررنا ذلك فيما مضى.

---

(١) الوسيط (٢/ ٣٣٠).

(٢) الكشاف (٢/ ٦٩).

(٣) يوم بُعاَث: كان فيه حرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وهو يوم من مشاهير أيام العرب (انظر: اللسان، مادة: بعث). وكان الظهور فيه للأوس.

=

- وقال عند قوله تعالى: ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:١٨]: جعله ابن الأنباري من باب الرجوع من الغيبة إلى الخطاب.

وقال صاحب الكشاف[1]: المعنى منكم ومنهم، فغلّب ضمير المخاطب.

ويجوز عندي أن يقال: صاروا باتباع إبليس ومشايعته وتلبسهم بطاعته كالجزء منه ومن ذريته، ولذلك شملهم اسم الشيطنة، فيسلم الكلام بهذا التقرير من الإضمار والتقدير.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ [الأعراف:٨٦]: قال صاحب الكشاف: الضمير في «آمن به» يعود إلى «كل صراط»، تقديره: توعدون من آمن به وتصدون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير؛ زيادة في تقبيح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدون عنه.

ويجوز عندي -والله تعالى أعلم-: أن يعود الضمير إلى الله تعالى؛ لأنه أقرب المذكورين.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٩]: قال ابن عباس: أرض مصر، وقيل: أرض الشام. ويجوز عندي: أن يريد جنس الأرض.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾

=

وصفين: موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، وكانت وقعة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما (معجم البلدان ٣/ ٤١٤)

(١) الكشاف (٢/ ٩٠).

[الأعراف:١٥٧]: وهو القرآن الكريم، سمي نوراً؛ لأنه يُهتدى به ويُستضاء في طريق النجاة.

فإن قيل: القرآن نزل مع جبريل، فكيف قال «معه»؟

قلت: منهم من فسر المعيّة بالمقارنة في الزمان، أي: النور الذي أنزل في زمانه.

وقال صاحب الكشاف[1]: المعنى أنزل مع نبوته؛ لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به. ويجوز أن يتعلق «باتبعوا» أي: اتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته، وبما أمر به ونهى عنه، أو يكون المعنى: واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه.

وهذه الأوجه حسنة شديدة، ويحتمل عندي إجراء اللفظ على ظاهره، وأن يكون المراد بالنور الذي أنزل معه؛ ما نزل به ليلة المعراج من القرآن، وهي خواتيم سورة البقرة -على ما ذكرناه في آخرها-، وما أوحاه الله إلى عبده في تلك الحضرة المقدسة، فإن بعض القرآن يسمى نوراً، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤]. ومعلوم أنه قد نزل بعد هذه الآية قرآن كثير.

إذا ثبت ذلك فنقول: إذا اتبع الإنسان خواتيم سورة البقرة واستضاء بنورها كان موافقاً لرسول الله ﷺ في الإيمان بما أنزل إليه من ربه، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله، وقارنه الفلاح والفوز الأبدي.

ويؤيد هذا: أن خواتيم سورة البقرة سميت نوراً؛ ففي صحيح مسلم من حديث ابن عباس، أن المَلَك قال للنبي ﷺ: «أبشر بنورين أوتيتهما: فاتحة الكتاب،

---

(١) الكشاف (٢/ ١٥٧).

وخواتيم سورة البقرة»[١].

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف:٨٩] وقال قوم: فالله لا يشاء الكفر، قالوا: وهذا مثل قولك: لا أكلِّمك حتى يَبْيَضَّ القار، ويشيب الغراب، والقار لا يَبْيَضّ، والغراب لا يشيب. قالوا: فكذلك تأويل الآية.

قال الزجاج[٢]: وهذا خطأ؛ لمخالفته أكثر من ألف موضع في القرآن لا يحتمل تأويلين؛ أنه لا يكون شيء ولا يحدث شيء إلا بمشيئة الله تعالى وعن علمه، وسُنَّة الرسل تشهد بذلك، ولكن الله تعالى غيب عن الخلق علمه فيهم، ومشيئته من أعمالهم، فأمرهم ونهاهم؛ لأن الحجة إنما ثبتت من جهة الأمر والنهي، وكل ذلك جار على ما سبق من العلم وجرت به المشيئة. هذا كله مختصر من كلام الزجاج، وهو اعتقادنا، وبه ندين الله تعالى.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف:١١٧]: قال جماعة من المفسرين: كانوا جعلوا في حبالهم وعصيّهم الزئبق وصوروها على صور الحيات، فاضطرب الزئبق؛ لأنه لا يستقر. وفي هذا بُعد؛ لأن الله تعالى سماه سحراً، ووصفه بكونه عظيماً وكونه كيداً.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢]: قال الواحدي: ومعنى الآية: أنهم قالوا لموسى: متى ما أتيتنا بآية مثل: اليد والعصا لتسحرنا بها فإنا لن نؤمن لك.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٤ ح٨٠٦).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٥٦).

وهذا كلام مدخول فيه على الواحدي، فإن «مهما» ليست من أسماء الزمان.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:١٤٨]: قال ابن الأنباري: ذكر الجسد دلالة على عدم الروح.

قال: وفي هذا بُعْد؛ لوجوه. ثم ذكر هذه الوجوه.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠]: ذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ناسخ لقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾وهذا تخصيص لا نسخ. وغيره كثير.

١٩.الإحالات في كتاب «رموز الكنوز»:

أكثر الرسعني في كتابه «رموز الكنوز» من الإحالات على مواضيع ضمن الكتاب، وذلك روماً للاختصار، ولربط الموضوع الواحد مع بعضه البعض أحياناً أخرى، وفيما يلي أمثلة لذلك:

- قال عند قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد:٢٢]: وقد سبق في أثناء كتابنا جملة من الأحاديث والآثار الحاضة على صلة الأرحام في البقرة عند قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وفي سورة الرعد وغيرهما من المواضع، فتطلبْ ذلك وأمثاله في مظانه.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]: وقد ذكرتُ في أثناء كتابي هذا أنواعاً من الأدلة الدالة على بطلان مذهبهم، ولولا خشية الإطالة لذكرتُ في إقامة حُجج الله عليهم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يملأ

أوراقاً كثيرة، لكن في هذا القدر كفاية لمن أراد الله هدايته.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]: وهذه الآية من جملة دلائل فضل العلم وأهله، وفي ذلك من الآثار والأخبار والدلائل العقلية ما لو ذكرت شطره لطال الكتاب، فتطلّب ذلك في أماكنه ومظانّه تجده.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]: وقد ذكرت في أثناء كتابي هذا من فضائحهم -أي الرافضة-، وقبائحهم، ودلائل ضلالهم وكفرهم، ما أرجوا به القربى إلى الله، والزلفى لديه يوم ألقاه.

وغيره كثير.

المبحث الثالث

موارد الرسعني في كتابه: «رموز الكنوز»

موارد الرسعني في كتابه: «رموز الكنوز»

تُمثّل النقول المختلفة المادة الرئيسية لهذا الكتاب، حيث إن المؤلف وجد تراثاً ضخماً من كتب التفسير التي ألفت قبله، لذا تبدو أهمية الكتاب في الجمع والتنسيق، ومناقشة بعض الآراء ومعاضدتها أو تفنيدها، عليه فإننا سنقسم موارد كتاب الرسعني إلى موارد رئيسية وموارد ثانوية.

الموارد الرئيسية:

يأتي كتاب «زاد المسير» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) في الدرجة الأولى من مصادر الكتاب، فقد اقتبس الرسعني من تفسير ابن الجوزي كثيراً من الشروح اللغوية للمفردات القرآنية، وكثيراً من آراء العلماء، وقد يرد الرسعني على رأي ضعيف بالرد الذي رآه ابن الجوزي، ولا يشير إلى ذلك إلا نادراً.

ويعد «الكشاف» من المصادر الرئيسية التي كان الرسعني يستقي منها، ويحاورها، وقد ورد اسم الزمخشري كثيراً في المناقشات التي خاض فيها الرسعني، ورد عليه آراءه الاعتزالية.

ويأتي كتاب العكبري «إعراب القرآن» في المرتبة التالية، والتي استفاد منها الرسعني.

الموارد الثانوية:

وسوف نحاول حصرها، والتعريف بها قدر المستطاع:

أولاً: المؤلفات:

١ .الإبانة الكبرى لابن بطة، عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري، المعروف بابن بطة (؟-٣٨٧هـ).

٢.الاستيعاب لابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر أبو عمر (٣٦٨-٤٦٣هـ).

٣.الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب لابن ماكولا، علي بن هبة الله بن علي بن جعفر ابن ماكولا الأمير (٤٢١-٤٧٥هـ).

٤.تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي (٣٩٣-٤٦٣هـ).

٥.تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي (٢١٣-٢٧٦هـ).

٦.تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي (٢١٣-٢٧٦).

تفسير الماوردي = النكت والعيون.

٧.تفسير علي بن فضال بن علي المجاشعي القيرواني (؟-٤٧٩).

٨.تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي (٢١٣-٢٧٦).

٩.تفسير مقاتل بن حيان، أبو بسطام البلخي (؟-؟).

١٠.تفسير مقاتل بن سليمان، لمقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (؟-١٥٠هـ).

١١.تهذيب اللغة للأزهري، محمد بن أحمد بن طلحة الأزهري الهروي (؟-٣٧٠هـ).

١٢ .التوابين لابن قدامة، عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (٥٤١-٦٢٠هـ).

١٣ .جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، محمد بن جرير بن يزيد الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ).

١٤ .الجامع للترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرَة (٢٠٩-٢٧٩هـ).

١٥ .جمهرة اللغة لابن دريد، محمد بن حسين بن دريد الأزدي، (٢٢٣-٣٢١هـ).

١٦ .الحجة لابن البنا (؟-؟).

١٧ .الحجة للقراء السبعة للفارسي، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (؟-٣٧٧هـ).

١٨ .الزهد لابن المبارك، عبدالله بن المبارك بن واضح المرزوي (١١٨-١٨١هـ).

١٩ .الزهد للإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني (١٦٤-٢٤١هـ).

٢٠ .سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمران الأزدي السجستاني (٢٠٢-٢٧٥هـ).

٢١ .سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار، أبو عبد الرحمن النسائي (٢١٤ أو ٢١٥-٣٠٣هـ).

٢٢ .شأن الدعاء للخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي أبو سليمان البستي، الشافعي (؟-٣٨٨هـ).

٢٣.الصحاح للجوهري، إسماعيل بن حماد الجوهري (؟-٣٩٣هـ).
٢٤.صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ).
٢٥.صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم أبو الحسن القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ).
٢٦.الفنون لابن عقيل، علي بن عقيل بن محمد البغدادي (٤٣١-٥١٣هـ).
٢٧.الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي، عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد الجرجاني (٢٧٧-٣٦٥هـ).
٢٨.الكتاب لسيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب سيبويه (١٤٨-١٨٠هـ).
٢٩.كشف المشكلات وإيضاح المعضلات للباقولي، نور الدين علي بن الحسين الباقولي (؟-٥٤٣هـ).
٣٠.الكشف عن وجوه القراءات وعللها لمكي بن أبي طالب حموش المقري القيرواني (؟-٤٣٧هـ).
٣١.الكشف والبيان في تفسير القرآن للثعلبي (تفسير الثعلبي)، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (؟-٤٢٧هـ).
٣٢.مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن لابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن الجوزي البغدادي (؟-٥٩٧).
٣٣.مجاز القرآن لأبي عبيدة، معمر بن المثنى التيمي (١١٠-٢٠٩هـ).
٣٤.المجروحين لأبي حاتم، محمد بن حبان البستي (؟-٣٥٤هـ).

٣٥.المحتسب في إعراب الشواذ لابن جني، عثمان بن جني أبـو الفـتح (؟-٣٩٢هـ).

٣٦.المختصر للخرقي (؟-٣٣٤هـ).

٣٧.المستدرك على الصحيحين للحاكم، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (٣٢١-٤٠٥هـ).

٣٨.مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (١٦٤-٢٤١هـ).

٣٩.مسند الشافعي، للإمام محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ).

٤٠.معاني القرآن للأخفش، سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي البـصري، المعروف بالأخفش الأوسط (؟-٢١٥هـ).

٤١.معاني القرآن للفراء، يحيى بن زياد بن عبدالله (١٤٤-٢٠٧هـ).

٤٢.معاني القرآن وإعرابه للزجاج، إبراهيم بن السري (؟-٣١١هـ).

٤٣.معجم مقاييس اللغة لابن فارس، أحمد بن فـارس بـن زكريـا الـرازي اللغوي (٣٢٩-٣٩٥هـ).

٤٤.المقتضب للمبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد (٢١٠-٢٨٥).

٤٥.الموطأ للإمام مالك بن أنس الأصبحي، أبو عبد الله (٩٣-١٧٩هـ).

٤٦.الناسخ والمنسوخ لابن سلامة، هبة الله بن سلامة بن نصر المقـري (؟-٤١٠هـ).

٤٧.النكت والعيون للماوردي، علي بن محمد بن حبيب (٣٦٤-٤٥٠هـ).

٤٨.الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي، علي بن أحمد النيسابوري (؟-٤٦٨هـ).

ثانياً: الإسناد:

اعتنى المؤلف -رحمه الله- بسوق الأحاديث النبوية بأسانيده المتصلة إلى رسول الله ﷺ، حيث بلغ عدد الأسانيد في كتابه «رموز الكنوز»: (٥٣٦) إسناداً، وهذا سوى ما هو موجود في الجزء المفقود من الكتاب.

وقد نوّه أهل العلم بهذا الأمر، وعدّوه ضمن مزايا الكتاب، فقد قال الذهبي في تاريخ الإسلام(١): صنف تفسيراً حسناً، يروي فيه بإسناده.

وقال ابن رجب(٢): وصنف تفسيراً حسناً في أربع مجلدات ضخمة، سماه: «رموز الكنوز»، وفيه فوائد حسنة، ويروي فيه الأحاديث بإسناده.

وقال ابن بدران(٣): وهو في أربع مجلدات، وفيه فوائد حسنة، ويروي فيه أحاديث بإسناده.

ثالثاً: الشواهد الشعرية:

ضَمَّنَ الرسعني كتابه كثيراً من الشواهد الشعرية، استقى بعضها من دواوينهم، واقتبس بعضها من مؤلفات سابقيه ومعاصريه، من هؤلاء:

ابن أبي عروبة المدني (؟-١٥٦هـ).

ابن مقبل (؟-بعد ٣٧هـ)

أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ).

---

(١) تاريخ الإسلام (٥/ ق١٤٣).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٥).

(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص:٤٧٧).

أبو ذؤيب الهذلي (؟-نحو ٢٧هـ).

أبو زبيد الطائي (؟-نحو ٦٢هـ).

أبو كبير الهذلي، عامر بن الحليس (؟-؟).

الأعشى، ميمون بن قيس (؟-٧هـ).

امرؤ القيس (؟-٨٠ ق هـ).

أمية بن أبي الصلت (؟-٥هـ).

أوس بن حجر (٩٨-٢ ق هـ).

البحتري، الوليد بن عبيد (٢٠٦-٢٨٤هـ).

جرير بن عبد المسيح المتلمس (؟- نحو ٥٠ ق هـ).

حاتم الطائي (؟-٤٦ ق هـ).

حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه (؟-٥٤هـ).

حميد بن ثور الهلالي (؟- نحو ٣٠هـ).

خفاف بن ندبة (؟-نحو ٢٠هـ)

الخنساء تماضر بنت عمرو (؟-٢٤هـ).

ذو الرمة غيلان بن عقبة (٧٧-١١٧هـ).

رؤبة بن العجاج (؟-١٤٥هـ).

سحيم بن وثيل اليربوعي (؟-٦٠هـ).

طرفة بن العبد (نحو ٨٦-٦٠ ق هـ).

عبد الله بن رواحة رضي الله عنه (؟-٨هـ).

عَدِيّ بن زيد (؟- نحو ٣٥ ق هـ).

عمران بن حطان (؟-٨٤هـ).

عنترة بن شداد العبسي (؟- نحو ٢٢ ق هـ).

قردة بن نفاثة السلولي (؟-؟).

كثيّر بن عبد الرحمن (كثيّر عزة) (؟-١٠٥هـ)

لبيد بن ربيعة العامري (؟-٤١هـ).

محمد المعروف بالمقنع الكندي (؟- نحو ٧٠هـ).

المنخل بن سبيع بن معاوية (؟-؟).

النابغة الذبياني (؟-نحو ١٨ ق هـ).

همام بن غالب الفرزدق (؟-١١٠هـ).

رابعاً: معاصروه:

نقل المؤلف -رحمه الله- بعض مادته العلمية عن شيوخه، فمن ذلك:

- قال عند قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف:٧٣]: قلت لشيخنا أبي البقاء إمام عصره في العلوم الشرعية والأدبية: قول الشاعر:

أُؤمّلُ أَنْ أَعِيشَ وَإِنّ يَوْمِي ... لأَوّلَ أَوْ لأَهْوَنَ أو جُبارِ

أو التالي دُبَار فَإِنْ أَفُتْهُ ... فَمُؤْنِس أو عَروبة أو شِيارِ

ولا يبقى على الحدثان شخص ... ستطوينا الليالي والنهار

هل هذه الأبيات من شعر العرب؟ وما معناها؟

فقال لي: قال ابن دريد ... الخ

- وقال عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٣]: قال لي الشيخ أبو البقاء اللغوي، سمعت أبا حكيم النهرواني يقول: وقفت على السفر الرابع بعد الثلاثمائة من كتاب الفنون... الخ.

- وقال عند قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة:١٠]: قال شيخنا الإمام أبو محمد بن قدامة المقدسي رضي الله عنه فيما قرأته عليه: يجوز في الصلح ردّ من جاءه من أهل الحرب من الرجال...

- وقال عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢]: وحدثني جماعة من أشياخي عن الوزير عون الدين أبي المظفر يحيى بن هبيرة رحمه الله قال: أنشدني المستنجد بالله أمير المؤمنين رحمه الله:

بتقوى الإله نجا من نجا   وفاز وأدرك ما قد رجا
ومن يتق الله يجعل له   كما قال من أمره مخرجا

- وقال عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق:٤]: ومن بديع ما سمعت فيه -أي القلم- ما أنشدنيه صاحبنا أبو نصر بن عثمان بن خليفة الموصلي الحنبلي لنفسه:

أيها الصاحب الكريم ومن   أصبحَ زيْن الكُتّاب والأصحاب
بِيَرَاعٍ ريعت له نوب الدهر   وهانت به جميع الصعاب
وإذا ما يشاء أمراً فلا يحفل   يوماً بالصارم القرضاب
فهو يجزي للأولياء بأرى   ولأعدائه بشري وصاب

أقْــسَمَ الله باســـمه(١) وكفـــاه مفخـراً إذ أتـى بـنصّ الكتـاب

خامساً: مصادر مجهولة:

نقل المؤلف أحيانا عن مصادر لم يحددها بالاسم، أو أنه غاب عن ذهنه المصدر الذي حفظ منه هذه المعلومة، مثاله:

- قال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]: ومن نتائج هـذا: أن الواو في قوله: «وأنزل الله» واو الحال، على معنى: وما يضرونك من شيء وقد أنزل الله عليك الكتاب والحكمة.

وكنتُ أعجب كيف لم أتنبه لمثل هذا الموضع، حتى أخبرني بعض العلماء أن الواحدي ذكره في البسيط.

- وقـال عنـد قولـه تعـالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦]: قال ابن عقيل في هذا الحرف كلاماً حسناً لا يحضرني الآن، حاصله راجع: إلى أن العرب لموضع أنفتهم وحميتهم وغيرة نفوسهم، حتى أنـك ترى الواحد منهم يخاطب الأمير كما يخاطب الحقير أحق بتوحيد الله وتخصيصه بالخضوع والعبادة دون الأصنام من الأعاجم الذين لم يقاربوهم في العزة والأنفة.

- وقال عند قولـه تعـالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦]: قال سعيد بن جبير: آخذين بما أمرهم ربهم، عـاملين بالفرائض التي أوجبها عليهم. وروي نحوه عن ابن عباس.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ن والقلم﴾ [القلم:١].

قال المؤلف: وفي نظم الكلام على هذا اضطراب، ولقد راجعتُ فيه بعض العلماء فقال: هو على حذف المضاف، تقديره: ثواب عملهم بالفرائض.

المبحث الرابع

منهج العمل في التحقيق

١- نظراً لأننا لم نقف على نسخة تامة من الكتاب فلذلك اضطررنا إلى التلفيق بين النسخ لاستخراج نسخة من الكتاب.

٢- مقابلة النسخة الخطية التي اعتمدناها أصلاً مع الموجود من النسخة الأخرى إن وجد.

٣- اعتمدنا الطريقة الإملائية الحديثة في الكتابة.

٤- ضبطت ما وجدت ضرورة لضبطه.

٥- إذا وقع سقط في الأصل ووجدت ضرورة لإقامته، وضعت الزيادة بين المعقوفتين [] مع الإشارة إلى أن ما بينها هو ما أثبتناه من النسخة الأخرى غير الأصل، أو من غيرها من المصادر والمراجع. وفي حالة الخطأ أو التحريف أو التصحيف، فقد صححنا الكلمة في الأصل مع الإشارة في الهامش مع وضع الكلمة على هيئتها من الخطأ أو التحريف أو التصحيف.

٦- أثبتنا علامات الترقيم في مواضعها على ما هو معروف عند أهل هذا الفن.

٧- ضبطنا الآيات القرآنية بالشكل على رواية حفص رحمه الله.

٨- ضبطنا الأسماء والاصطلاحات التي تحتاج إلى ضبط، وذلك ليسهل النطق بها وفهمها.

المبحث الخامس

منهج العمل في التعليق

ظهر في علم تحقيق المخطوطات العربية رأيان:

رأي يرى الاقتصار على إخراج النص مجرداً من كل تعليق.

والرأي الثاني: يرى أنه من الأفضل توضيح النص بوضع الهوامش والتعليقات، وإثبات الاختلافات بين النسخ، والتعريف بالأعلام والأماكن والمصطلحات، وشرح ما يحتاج إلى شرح أو توضيح.

وقد أخذنا بالرأي الثاني لأسباب عديدة منها:

ندرة النسخ الخطية الخالية من التصحيف والتحريف.

معظم المخطوطات العربية لم تصل إلينا بخط مؤلفيها، وإنما هي بخط النساخ المختلفين في مستوى الثقافة والمعرفة.

إن جمهرة المؤرخين والنساخ لم يعنوا بالإعجام ووضع الحركات الموضحة للنص.

افتقار المؤلفين والنساخ إلى وحدة كتابية واحدة مما يؤدي إلى التباين في رسم الكلمات[1].

لذا كان لا بد من الهوامش والتعليق.

وقد سرنا في التهميش والتعليق على هذه النقاط:

١ - عزوُ الآيات القرآنية الكريمة إلى مواضعها في القران الكريم مع ملاحظة اسم السورة، ورقم الآية، وضبطها على رواية حفص عن عاصم.

---

(١) انظر: ضبط النص والتعليق عليه لبشار عواد (ص:٧).

٢- تخريجُ الأحاديث النبوية الشريفة من مظانها، والأقوال والأمثال الواردة في النص.

٣- ضبطتُ الشعر، وأكملته في التعليقات إن أورده ناقصاً، فإذا لم ينسبه إلى قائله اجتهدتُ في ذلك مستنداً إلى المظان المختلفة، وإن كان البيت لشاعر له ديوان مطبوع، ذكرت وروده فيه، وإلا خرجته من كتب النحو واللغة تخريجاً لا أستقصي فيه، وأذكر الروايات الأخرى للبيت إن كان مما يخدم الغرض، وشرحتُ الألفاظ الصعبة أو أوردت المعنى العام للبيت، وقد أذكر الشاهد في البيت إن كان ثَمَّ ضرورة، وقد أنبه على تعليق مهم حوله.

٤- تفسير الغريب من الكلام، والذي يشكل على القارئ فهمه، وذلك بالرجوع إلى كتب غريب الحديث، وكتب المعاجم اللغوية المختصة بذلك.

٥- تخريجُ النصوص المقتبسة من مصادرها ومراجعها، وذلك بالرجوع إلى الكتب التي أخذ عنها المؤلف، وعند وجود إشكال بين المنقول والمنقول عنه نثبت الصحيح مع الإشارة إلى ذلك في الحاشية.

٦- التعريفُ بالأعلام والأماكن والبلدان، وذلك بالرجوع إلى كتب التراجم، والكتب الخاصة بالبلدان، وغير ذلك.

٧- تفسيرُ بعض المصطلحات المختلفة الواردة بالنص.

٨- تفقيرُ النص، وذلك بفصل الفقرات بعضها عن بعض، مع جعل بداية مميزة لكل فقرة، مما يعين على تنظيم النص.

المبحث السادس

وصف مخطوطات كتاب «رموز الكنوز»

وصف مخطوطات كتاب «رموز الكنوز»

نسخ الكتاب

ذكر أهل العلم أن كتاب «رموز الكنوز» يقع في أربع مجلدات، فقد قال ابن رجب[1]: وصنف تفسيراً حسناً في أربع مجلدات ضخمة.

وقال ابن بدران[2]: وهو في أربع مجلدات.

وقد وقفت على ثلاث نسخ خطية للكتاب، وفيما يلي وصف لها:

١-النسخة الأولى:

والموجود منها المجلد الثاني، وهي محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس، تحت رقم (٦٢٢)، وعدد أوراقها (١١٩) ورقة، في كل ورقة (١٥) سطراً، وكلماتها تتراوح بين (١٠-١٢)، وقد سقط من أولها صفحة العنوان وثلاث عشرة آية من آل عمران.

ويبدأ هذا المجلد من أثناء الآية ١٣ من سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ إلى نهاية سورة النساء.

وأولها قوله: «.. نظرنا إلى الكفار فرأيناهم يضعفون علينا».

وهي بخط نسخي جيد، ومشكول، وعليها تعليقات مأخوذة من الكشاف،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٥).

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص:٤٧٧).

وتفسير البغوي، وحواشي البيضاوي. ولم يقيد المعلق اسمه عليها.

وقد كتبت في زمن المؤلف، ونظر فيها وصححها، ثم قوبلت بأصله، وقد قرأها مرتين في مجالس محمد بن أحمد بن معمر المقرئ في مسجد الرقي، المرة الأولى في واحد وعشرين مجلساً، والمرة الثانية: في ثلاث وأربعين مجلساً، وبآخرها سماع لجماعة من العلماء.

وفي آخر هذا الجزء : أنهاه مصنفه نظراً وتصحيحاً ثم قوبل بالأصل.

وفي الصفحة الأخيرة بالحاشية ما نصه : نقله وما قبله محمد إسماعيل بن الدينوي حامداً لله، ومصلياً على نبيه.

وفيه أيضاً: آخر المجلد الثاني بخط الفقير إلى رحمة ربه أبي نصر بن عثمان الموصلي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين، وذلك في شهر ربيع الآخر، سنة أربع وثلاثين وستمائة، ويتلوه السفر الثالث سورة المائدة ، والحمد لله.

٢-النسخة الثانية:

الموجود منها ثلاثة أجزاء، هي: الثاني، والثالث، والرابع.

الجزء الثاني: محفوظ في المكتبة الظاهرية بدمشق (مكتبة الأسد اليوم) ويحمل رقم (٥٢٨-تفسير١٣٣).

ويبدأ من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ الآية (١٢٨) من سورة الأنعام، وينتهي بنهاية سورة الإسراء.

وعدد أوراقه (٢٣٤)، في كل ورقة (٢٧) سطراً.

في أوله: الثاني من تفسير الرسعني رحمه الله، الحمد لله رب العالمين.

وفيه: هذا الجزء الثاني ، وقبله جزء ، وبعده جزءان من تفسير القرآن العظيم للرسعني باسم حسن بن محمد بن داود الججيني الكناني الشافعي.

وأهمل اسم الناسخ في آخره، وقد سقط من (التوبة) خمس وثلاثون آية، وعليه أختام وتملكات لبعض العلماء.

الجزء الثالث: ويحمل رقم (٦٣٦-تفسير-٥١٠)، وهو من مقتنيات المكتبة الظاهرية بدمشق.

ويبدأ من أول الكهف، وينتهي بسورة فاطر، وعدد أوراقه (٢٠٧) في كل ورقة (٢٧) سطراً.

وقد سقط من آخره سورة الكهف وأول مريم، وآخر طه، وأول الأنبياء.

في أوله : رموز الكنوز في التفسير ، حاشية على القرآن.. المشتغلين بمذهب الشافعي بالمدرسة الشامية البرانية .. حسن بن محمد الججيني. وبقية هذا النص غير واضح ، والخط في غاية الرداءة ويصعب قراءته.

هذا وفي الصفحة الأولى منه ترجمة للمؤلف الرسعني ، وهي منقولة من ذيل ابن رجب كما أشار الكاتب في آخره ، حيث قال: ملخص من ذيل ابن رجب . وكل ما سبق كتب على هذه النسخة بخط مختلف عن خط ناسخ الكتاب.

وقد كتب في آخره: «آخر الجزء الثالث، ويتلوه إن شاء الله الجزء الرابع من أول سورة يس إلى آخر القرآن».

ولم يقيد الناسخ اسمه.

وعلى هذه النسخة تعليقات بخطين مختلفين.

الجزء الرابع: محفوظ أيضاً في المكتبة الظاهرية بدمشق، ويحمل رقم (٥٨٣٣)،

وعدد أوراقه (٢٦٦)، في كل صفحة (٢٧) سطراً، ويبدأ من سورة يس، وينتهي بنهاية القرآن العظيم.

وهو من ممتلكات الشيخ ابن بدران، كما هو واضح من تصحيح اسم المؤلف في الغلاف. وكتب في آخره: «وافق الفراغ منه رابع عشر شعبان المكرم، سنة أربع وستين وسبعمائة..، وكتبه أفقر عباد الله إليه محمد بن يحيى المقدسي الحنبلي عفا الله عنه».

وقد رمزت لهذه النسخة بنسخة (الأصل).

٣-النسخة الثالثة:

وتقع هذه النسخة في ست مجلدات؛ الموجود منها جزءان، وهما: الرابع، والسادس.

الجزء الرابع: محفوظ في مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا الغربية برقم (١٢٨٢).

ويبدأ من أول سورة الكهف، وينتهي بنهاية سورة العنكبوت.

وعدد أوراقه (٢٥٨)، في كلِّ صفحة (٢١) سطراً، وكل سطر ١٠-١٢ كلمة.

وخطه جميل ومقروء، والكلمات مضبوطة بالشكل، وعلى النسخة تصويبات.

وجاء في آخر هذا الجزء: آخر السفر الرابع من رموز الكنوز، وكان الفراغ منه في غرة جمادى الآخر من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، على يد العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى أحمد بن محمد بن سلمان الشيرجي الحنبلي، تجاوز الله عن سيئاته

وغفر له موبقات زلاته، ولجميع المسلمين آمين، ولله الحمد.

ويتلوه في الخامس إن شاء الله تعالى سورة الروم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على أشرف المرسلين محمد وآله الطاهرين وسلّم.

وفي هامشها: بلغ معارضة بالأصل فصحّ بحسب الإمكان.

الجزء السادس: محفوظ في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم (٦٣٧-تفسير-٥١١).

ويبدأ من أول سورة الحجرات إلى نهاية القرآن، وعدد أوراقه (٢٧١)، في كل ورقة (٢١) سطراً.

وقد سقط من أوله ورقة العنوان، والكلام على أول سورة الحجرات.

وجاء في آخر هذا الجزء: «نجز الكتاب والحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما يحب ربنا وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله. وكان الفراغ منه على يد الفقير إلى الله تعالى: أحمد بن محمد بن سليمان الشيرجي الحنبلي البغدادي، تجاوز الله عن سيئاته، وغفر له موبقات زلاته، في ثاني عشرين رجب الحرام من سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة الهلالية. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وما من كاتب إلا سيبلى ويُبقي الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتبْ بخطك غير شيء يسرُّك في القيامة أن تراه»

وفي الهامش: «بلغ مقابلة وتصحيحاً بأصله المنقول منه، وهي نسخة عليها خط المصنف، فصحّ بحسب الإمكان.

وعلى النسخة مكتوب: فرغ من تصنيفه في عشرين رمضان من سنة خمس وثلاثين وستمائة».

وهو مضبوط بالشكل، ويوجد على هامش هـذا الجـزء تعليقـات تـضمنت تخريج بعض الأحاديث، ومعاني كلمات غريبة.

وقد رمزت لهذه النسخة بنسخة (ب).

كما أنه توجد نسخة أخرى لم أقف عليها ، وفيما يلي وصفها:

الجزء الثاني تحت رقم ٢٧٧٧، بمكتبة الإمام أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه العامة بالنجف ، وعدد أوراقه ٢٣٠ ورقة، ولم أجد مـن أشـار إلى هـذه النـسخة سوى مجلة معهـد المخطوطـات العربيـة المجلـد ٢٠ الجـزء الأول ص ٣٨ عـام ١٣٩هـ.

فمن هذا العرض لمخطوطات الكتاب يتبين لنا عدة أمور:

١-سقط من أول الكتاب المقدمة والفاتحة والبقرة وصدر آل عمران.

٢-سقط منه سورة المائدة كلها، ومائة وسبع وعشرين آية من الأنعام، وأوائل وأواخر بعض السور. كما تقدم بيانه في موضعه.

٣- النصف الأخير من الكتاب له نسختان، أي من الكهف إلى الحجرات.

نماذج من المخطوطات

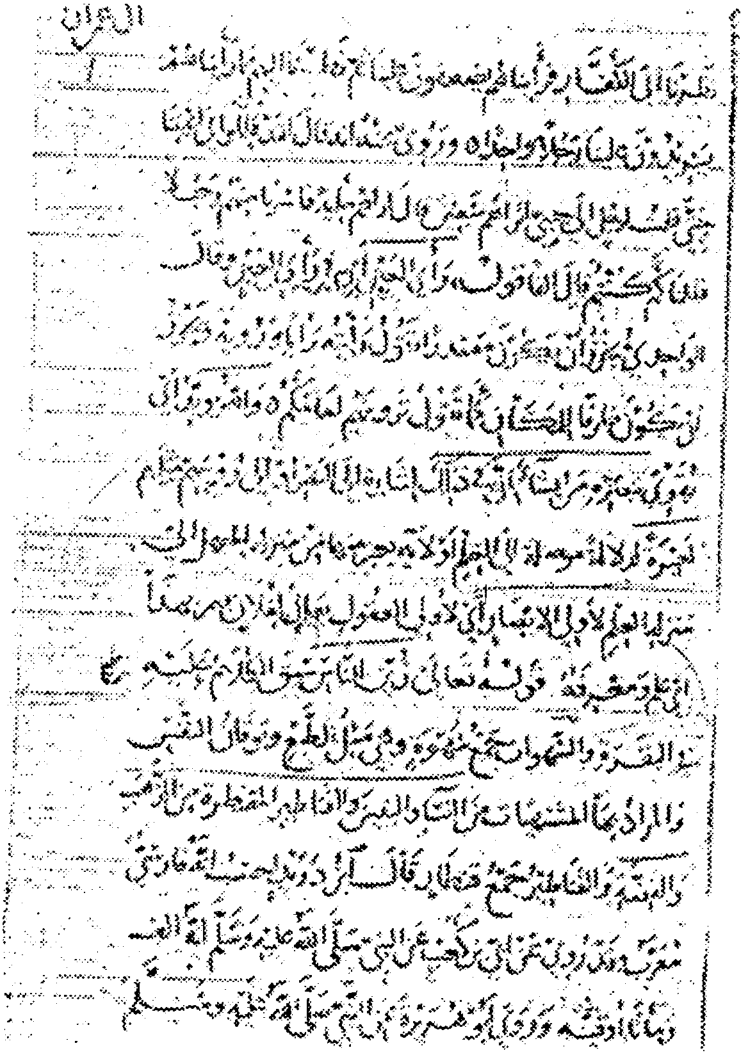

النسخة الأولى نسخة باريس – الصفحة الأولى من المجلد الثاني

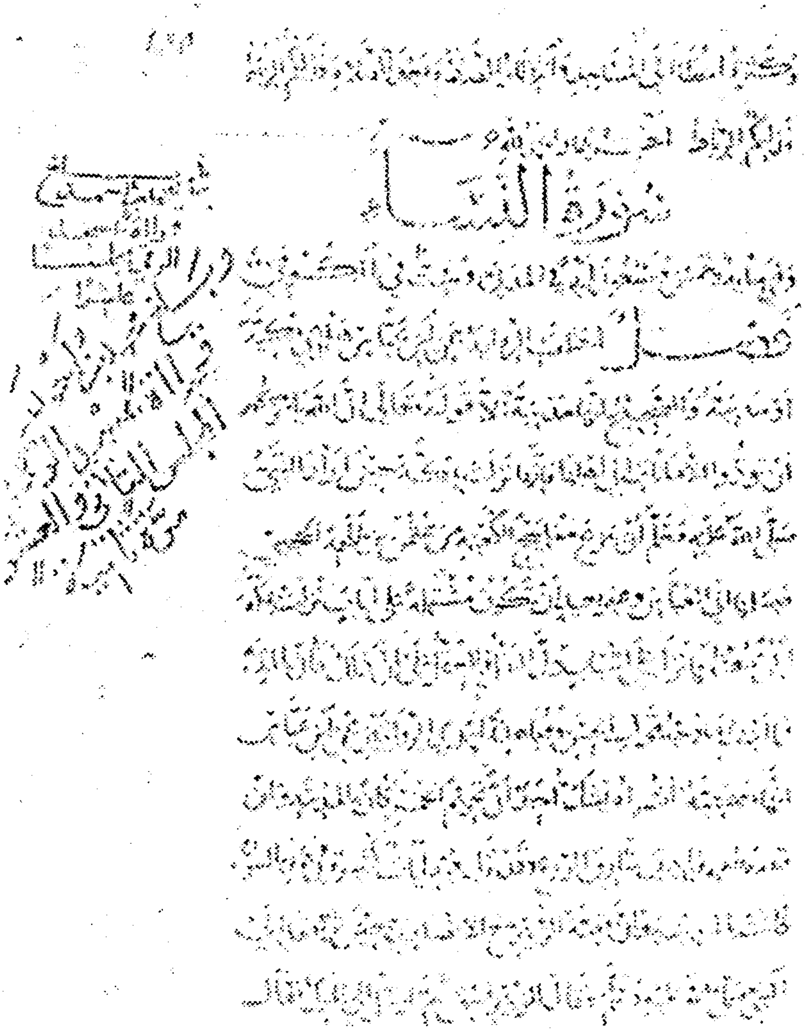
سورة النساء

النسخة الأولى نسخة باريس - الصفحة الأولى من سورة النساء

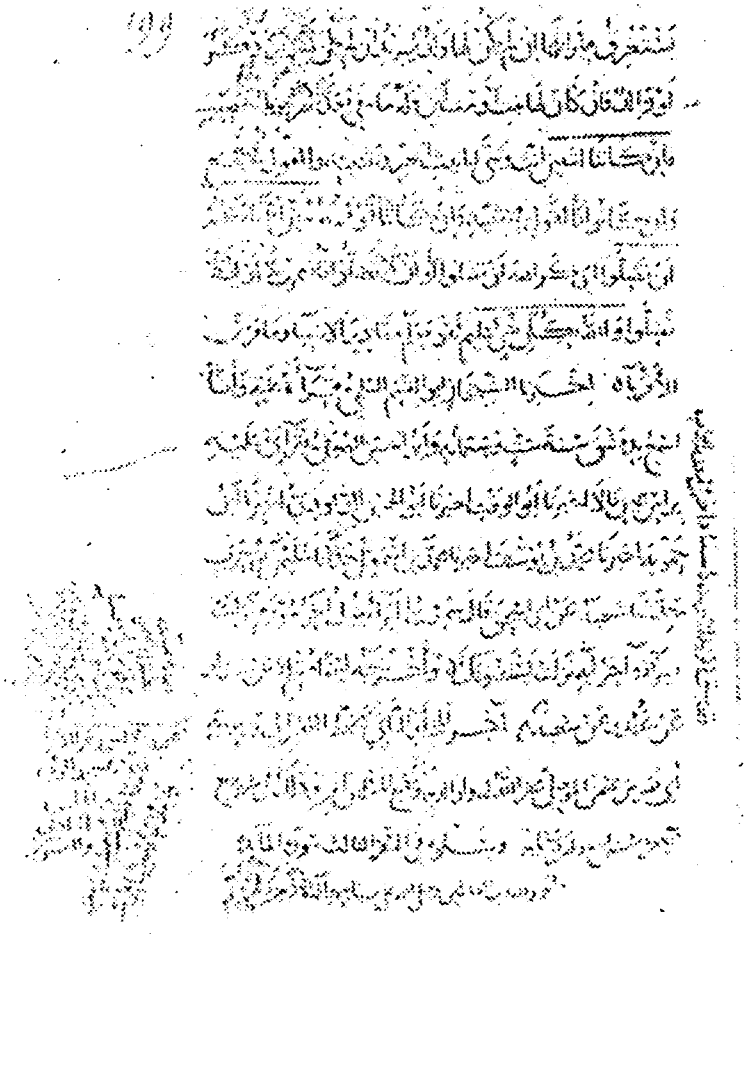

النسخة الأولى نسخة باريس – الصفحة الأخيرة من المجلد الثاني

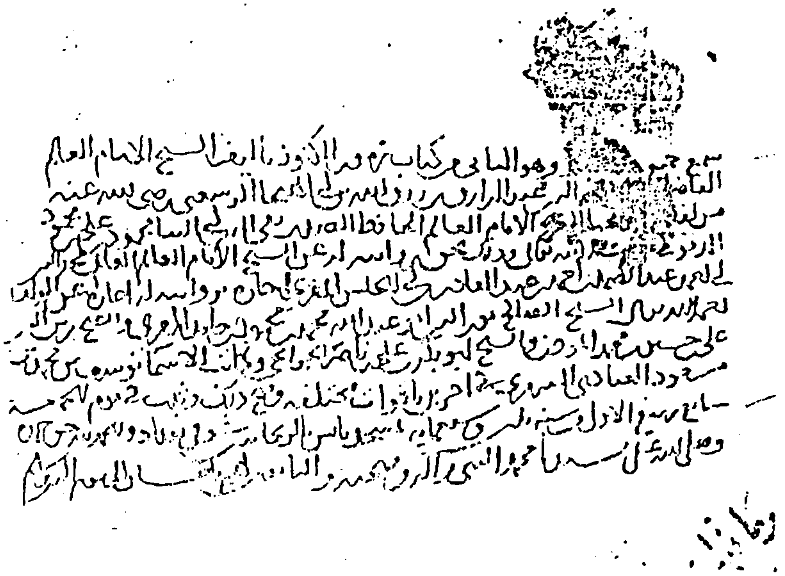

صفحة السماع المثبت في آخر المجلد الثاني من نسخة باريس

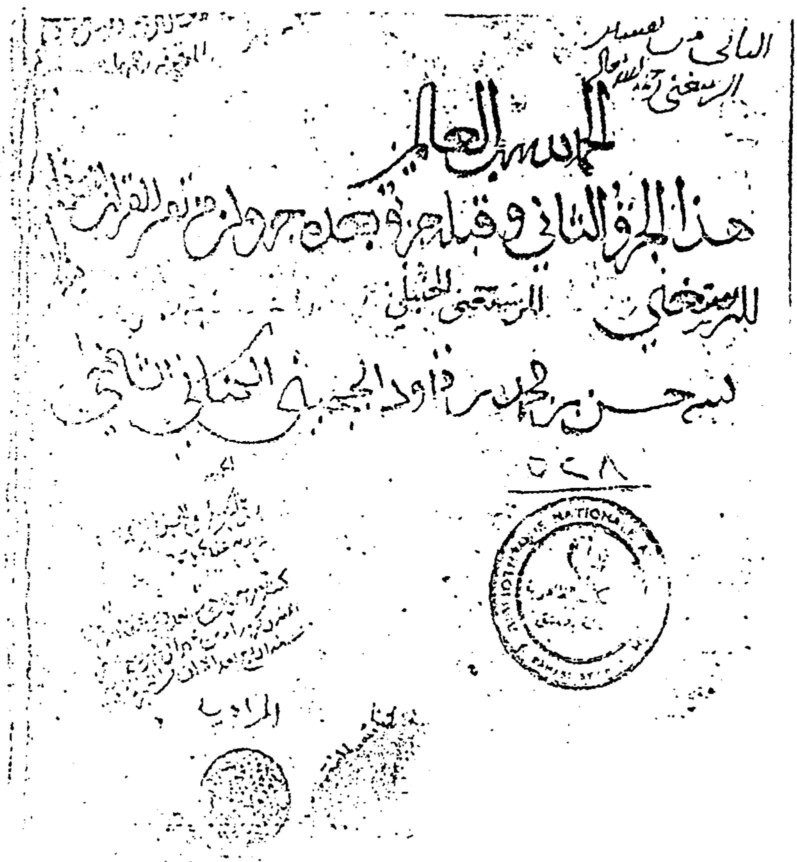

النسخة الثانية الظاهرية ـ غلاف المجلد الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن انك ولي ذلك

النسخة الثانية الظاهرية - الورقة الأولى من المجلد الثاني

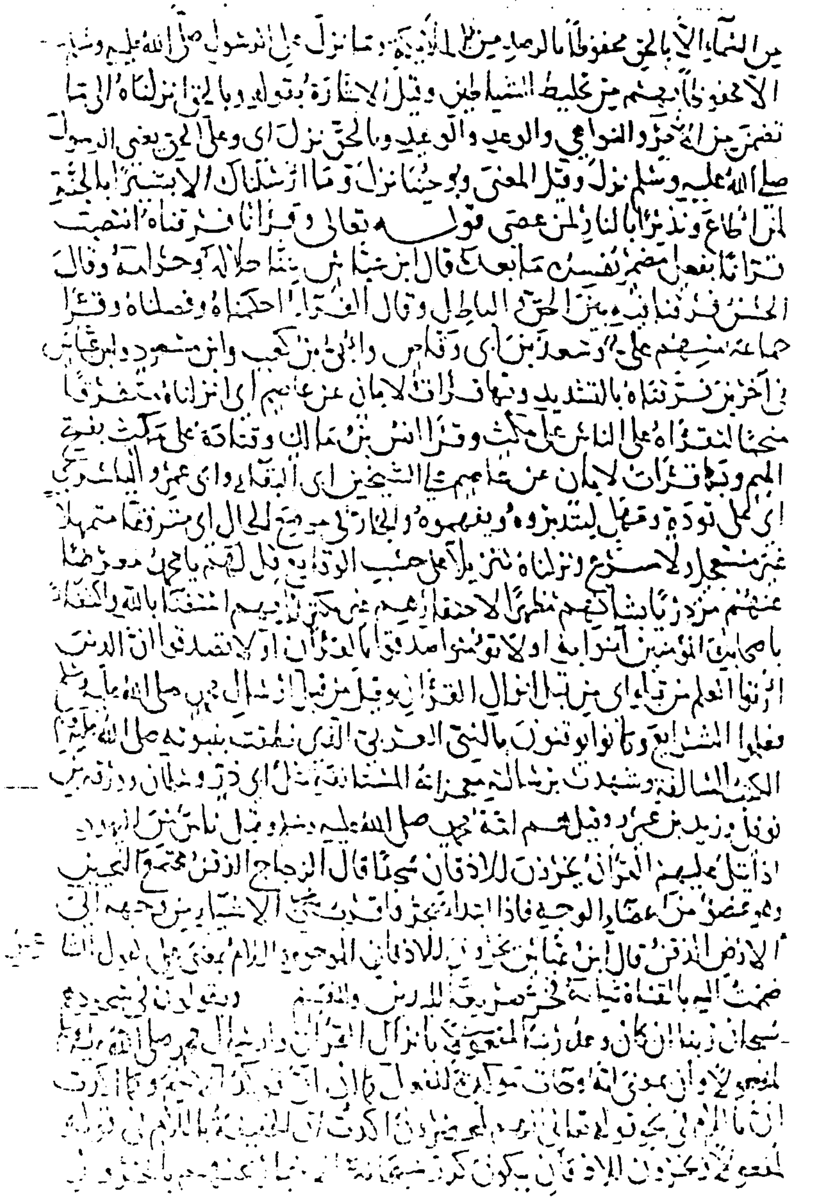
من السماء إلا بالحق محفوظا بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم
إلا محفوظا بهم من تخليط الشياطين وقيل الإشارة بقوله وبالحق أنزلناه إلى ما
تضمن من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد وبالحق نزل أي وعلى الحق يعني الرسول
صلى الله عليه وسلم نزل وقيل المعنى وبوحينا نزل وما أرسلناك إلا مبشرا بالجنة
لمن أطاع ونذيرا بالنار لمن عصى قوله تعالى وقرآنا فرقناه انتصب
قرآنا بفعل مضمر يفسره ما بعده قال ابن عباس بيناه حلاله وحرامه وقال
الحسن فرقنا فيه بين الحق والباطل وقال الفراء أحكمناه وفصلناه وقرأ
جماعة منهم علي وسعد بن أبي وقاص وأبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس
في آخرين فرقناه بالتشديد ومنها قراءات لأبان عن عاصم أي أنزلناه متفرقا
شيئا لتقرأه على الناس على مكث وقرأ أنس بن مالك وقتادة على مكث بفتح
الميم وقد قرأت لأبان عن عاصم في الشيخين أبي البقاء وأبي عمرو والباقون بضمها
أي على تؤدة وتمهل ليتدبروه ويفهموه والجار في موضع الحال أي مترسلا متمهلا
غير مستعجل لا سريع ونزلناه تنزيلا على حسب الوقائع قل لهم يا محمد معرضا
عنهم مزدريا بشأنهم مظهرا للاحتقار بهم غير مكترث بإيمانهم [illegible]
بإيمان المؤمنين آمنوا به أو لا تؤمنوا صدقوا بالقرآن أو لا تصدقوا إن الذين
أوتوا العلم من قبله أي من قبل إنزال القرآن وقيل من قبل إرسال النبي صلى الله عليه وسلم
علموا الشرائع وكانوا يؤمنون بالنبي العربي الذي نعتت بنبوته صلى الله عليه في
الكتب السالفة وشهدت برسالته معجزاته المتتابعة مثل أبي ذر وسلمان وورقة بن
نوفل وزيد بن عمرو وقيل هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل ناس من اليهود
إذا تلي عليهم القرآن يخرون للأذقان سجدا قال الزجاج الذقن مجمع اللحيين
وهو عضو من أعضاء الوجه فإذا ابتدأ يخر فأقرب الأشياء من وجهه إلى
الأرض الذقن قال ابن عباس يخرون للأذقان الوجوه واللام بمعنى على يقول [illegible]
ضممت إليه بالقناة ثيابه فخر صريعا لليدين وللفم ويقولون في سجودهم
سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا بإنزال القرآن وإرسال محمد صلى الله عليه
لمفعولا وإن بمعنى إنه [illegible]
[illegible]
[illegible]

النسخة الثانية الظاهرية - الورقة الأخيرة من المجلد الثاني

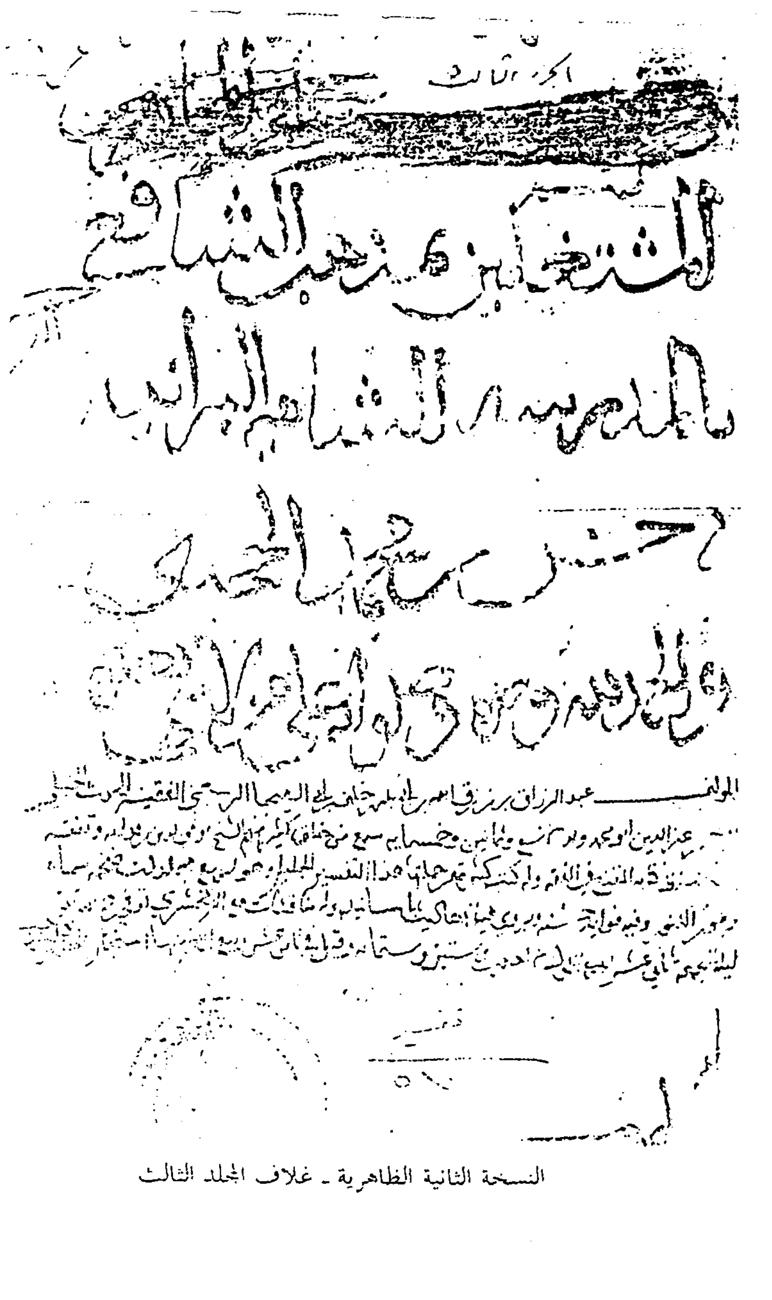

النسخة الثانية الظاهرية ـ غلاف المجلد الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم [illegible]
سورة الكهف وهي مائة آية وإحدى عشرة آية مكية
[illegible] ابن عباس وأصحابه وقال مقاتل [illegible]
الذين آمنوا وعملوا الصالحات [illegible]
[illegible] أخبركم أبو منصور [illegible] قال حدثنا الإمام أبو محمد
الحسين بن مسعود البغوي أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور
السمعاني أخبرنا أبو جعفر [illegible] حدثنا حميد بن زنجويه حدثنا حفص بن عمر
حدثنا همام عن قتادة حدثنا سالم بن أبي الجعد الغطفاني عن معدان بن أبي
طلحة عن أبي الدرداء يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من حفظ عشر آيات
من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال هذا حديث صحيح أخرجه مسلم
عن محمد بن المثنى عن معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة وبهذا الإسناد قال حدثنا
حميد بن زنجويه حدثنا أبو الأسود حدثنا ابن لهيعة عن زبان بن فائد عن سهل
ابن معاذ عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ أول سورة الكهف
وآخرها كانت له نورًا من قدمه إلى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورًا من
الأرض إلى السماء قوله تعالى الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب [illegible]
[illegible] على المنعم عليهم بالإسلام وإرسال محمد عليه الصلاة والسلام و
إنزال القرآن الذي هو سبب الفوز والسعادة [illegible] ولم يجعل له عوجًا [illegible]
على معنى غير مجعول له عوجًا وقد ذكرنا الفرق بين العوج والعوج في آل عمران
والعوج في المعاني كالعوج في المباني [illegible]
[illegible]

النسخة الثانية الظاهرية ـ الورقة الأولى من المجلد الثالث

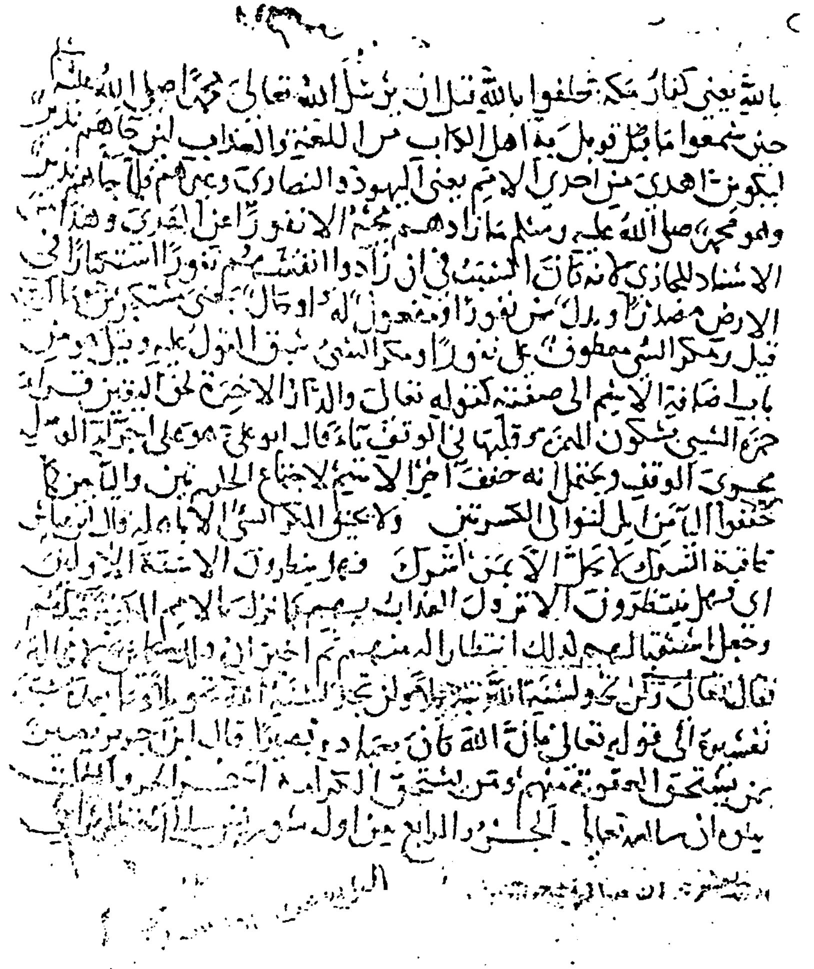

بالله يعني كفار مكة حلفوا بالله قبل ان يرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم
حين سمعوا ما بلغ توبيخه اهل الكتاب من اللعنة والعذاب لئن جاءهم نذير
ليكونن اهدى من احدى الامم يعني اليهود والنصارى وغيرهم فلما جاءهم نذير
وهو محمد صلى الله عليه وسلم ما زادهم مجيئه الا نفورا اعني التباعد عن الحق وهذا
الاسناد المجازي لانه كان السبب في ان زادوا انفسهم نفورا استكبارا في
الارض مصدر او بدل من نفورا او مفعول له [illegible]
[illegible] ومكر السيئ معطوف على نفورا ومكر السيئ [illegible]
باب اضافة الاسم الى صفته كقوله تعالى والدار الاخرة [illegible]
[illegible] السيئ بسكون الهمزة [illegible] قال ابو علي هو على اجراء الوصل
مجرى الوقف ويحتمل انه خفف [illegible] الاسم لاجتماع الحركات [illegible]
خففوا الياء من [illegible] الكسرتين ولا يحيق المكر السيئ الا باهله [illegible]
[illegible] الشرك لا يحل الا بمن اشرك فهل ينظرون الا سنة الاولين
اي فهل ينتظرون الا نزول العذاب بهم كما نزل بالامم [illegible]
[illegible]
تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا [illegible]
[illegible] الى قوله تعالى فان الله كان بعباده بصيرا [illegible]
من يستحق العقوبة منهم ومن يستحق الكرامة [illegible]
[illegible] الجزء الرابع [illegible]

النسخة الثانية الظاهرية ـ الورقة الأخيرة من المجلد الثالث

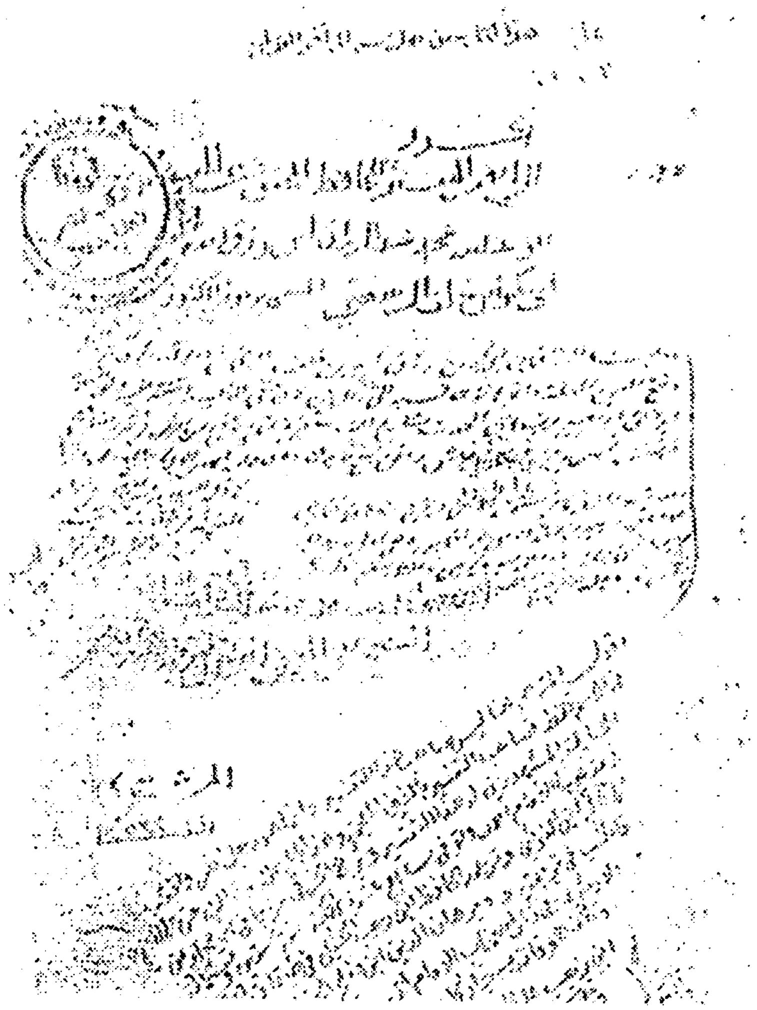

النسخة الثانية – غلاف المجلد الرابع من الظاهرية

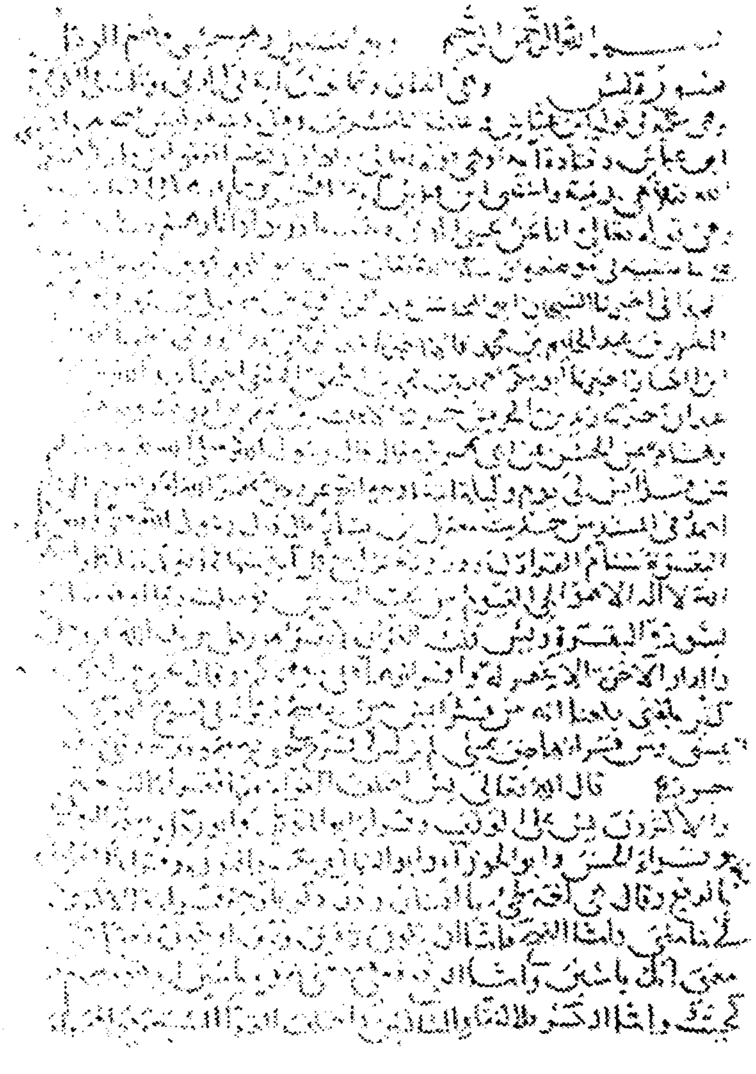
بسم الله الرحمن الرحيم

النسخة الثانية – الورقة الأولى من المجلد الرابع من الظاهرية

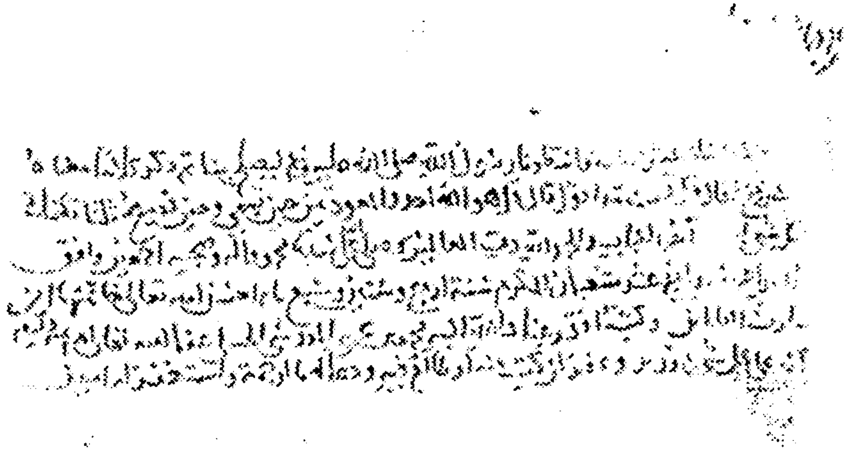

النسخة الثانية – الورقة الأخيرة من المجلد الرابع من الظاهرية

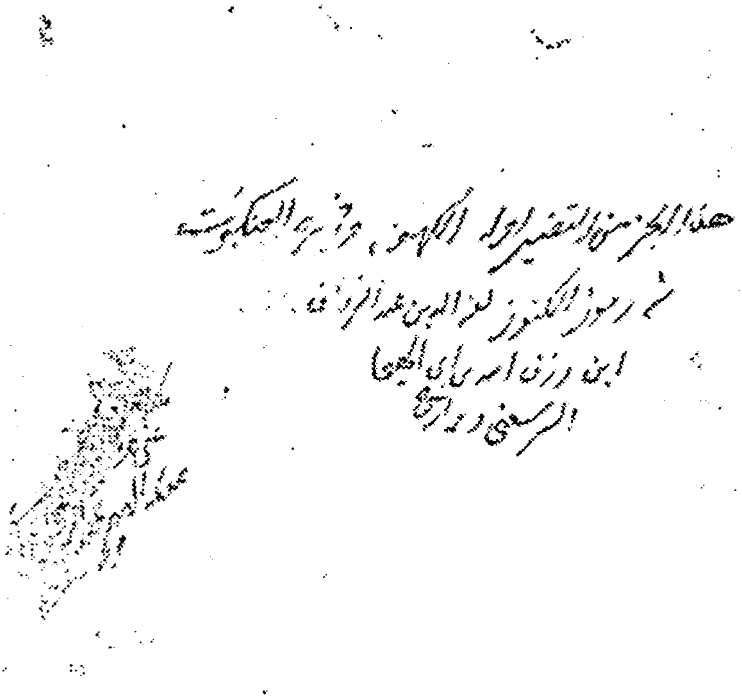
هذا الجزء من التفسير أوله الكهف، وآخره العنكبوت
من رموز الكنوز لعز الدين عبد الرزاق
ابن رزق الله بن أبي الهيجا
الرسعني رحمه الله

النسخة الثالثة – غلاف المجلد الرابع من النسخة الألمانية

سورة الكهف وهي مائة وإحدى عشرة آية

النسخة الثالثة – الورقة الأولى من المجلد الرابع من النسخة الألمانية

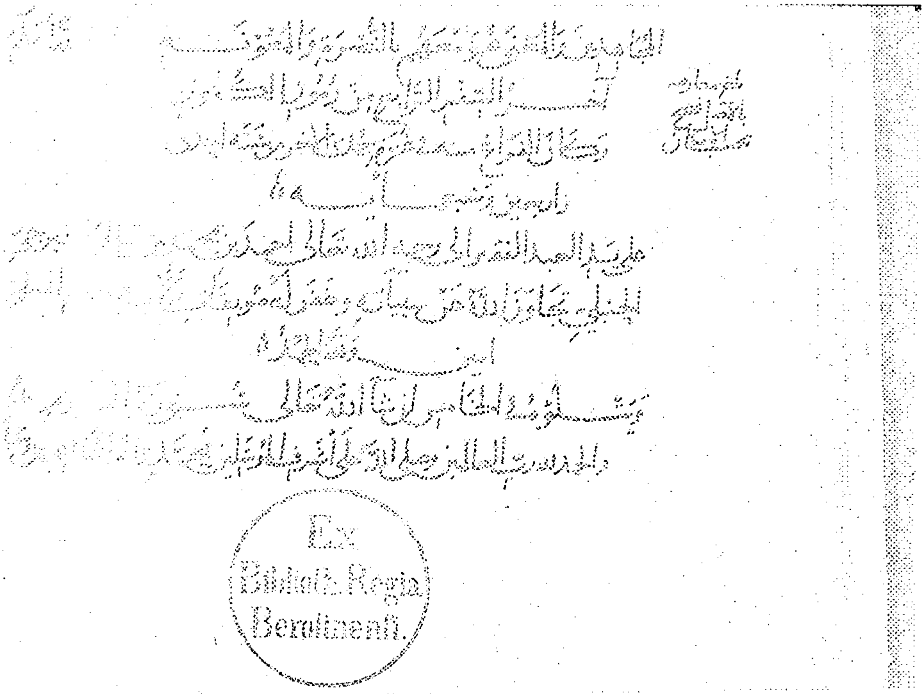

النسخة الثالثة — الورقة الأخيرة من المجلد الرابع من النسخة الألمانية

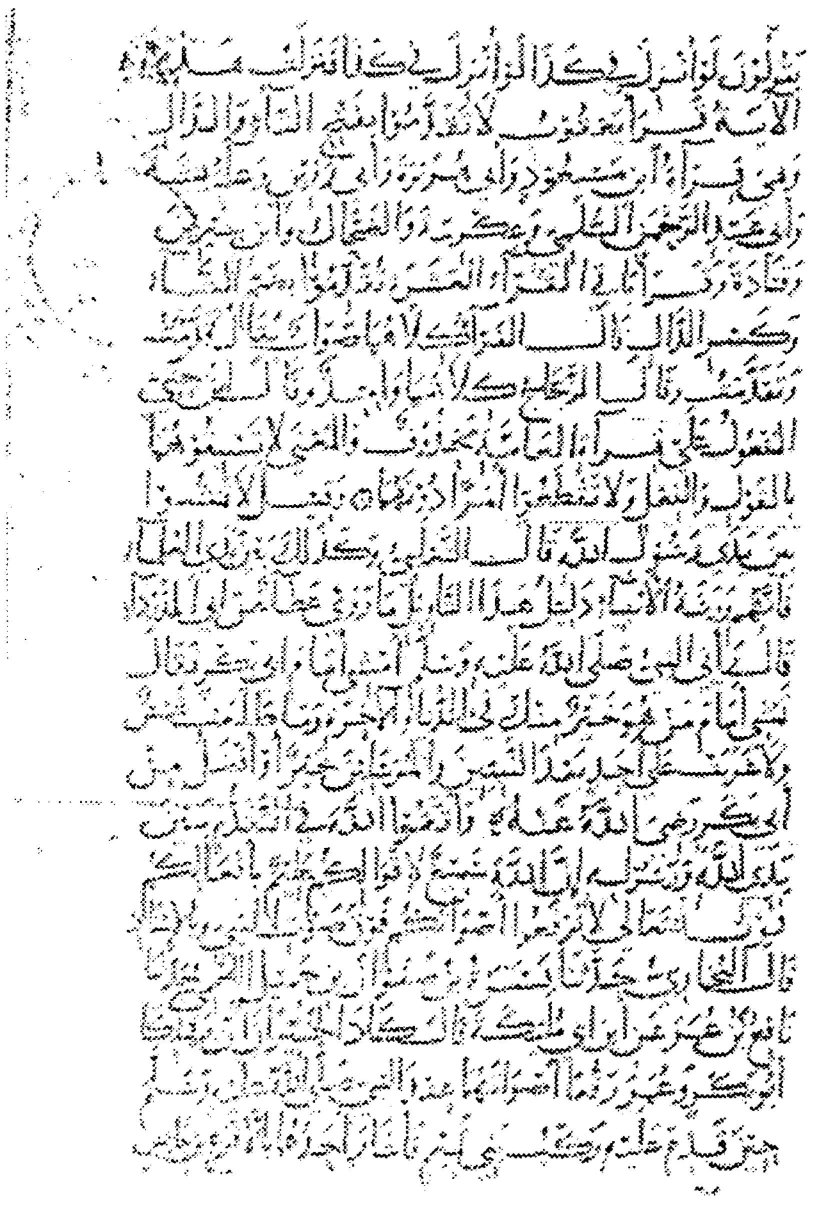

النسخة الثالثة — الورقة الأولى من المجلد السادس من الظاهرية

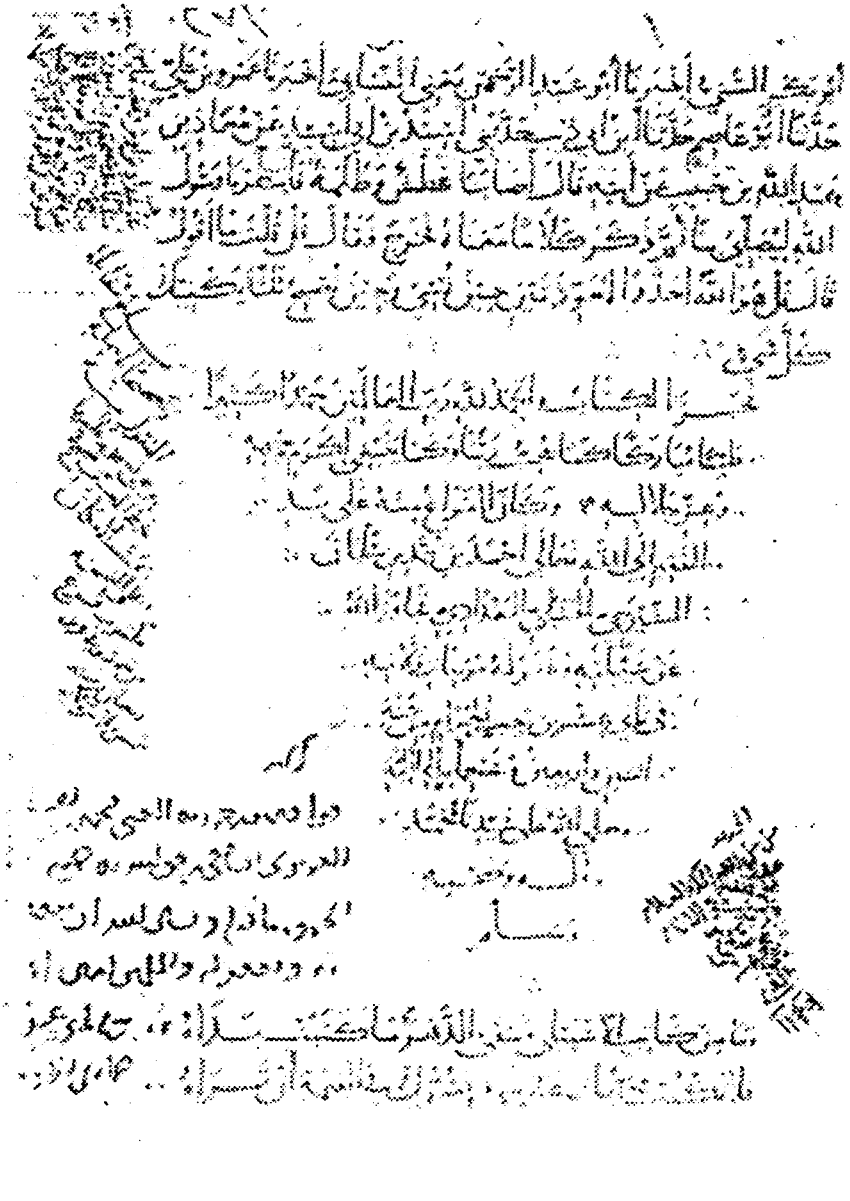

النسخة الثالثة – الورقة الاخيرة من المجلد السادس من الظاهرية

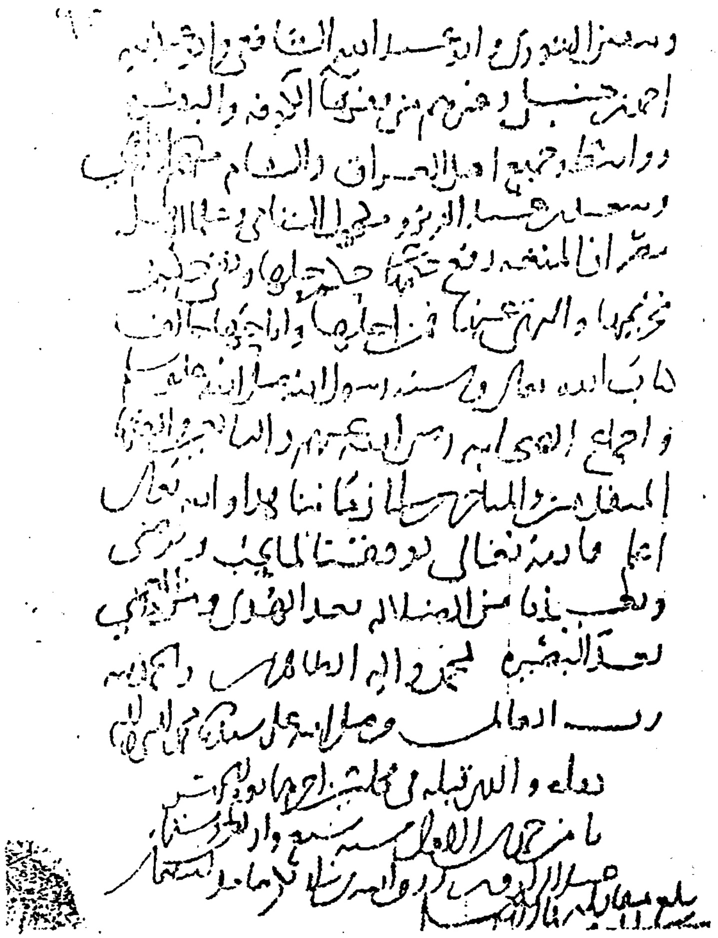

الورقة الأخيرة من كتاب الحرز والمنعة بخط المؤلف ويبدو فيه اسمه عبد الرازق واضحا

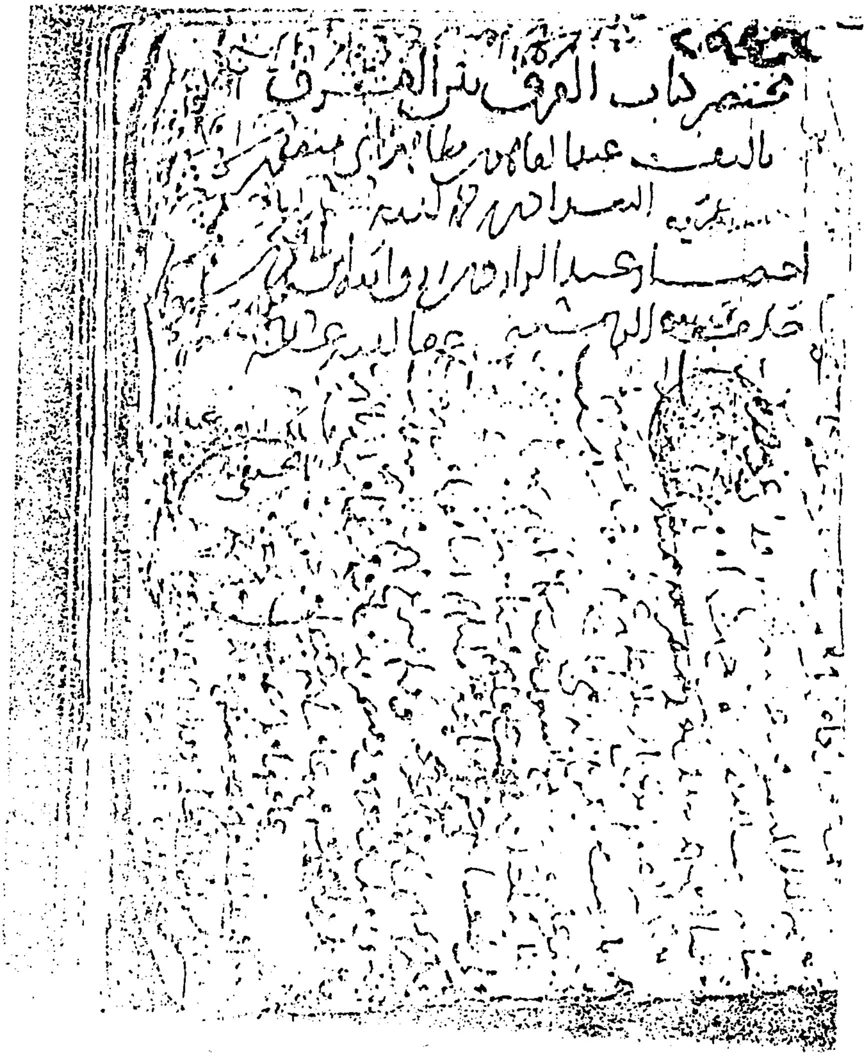

مختصر كتاب الفرق بين الفرق

غلاف مختصر الفرق بين الفرق بخط المؤلف

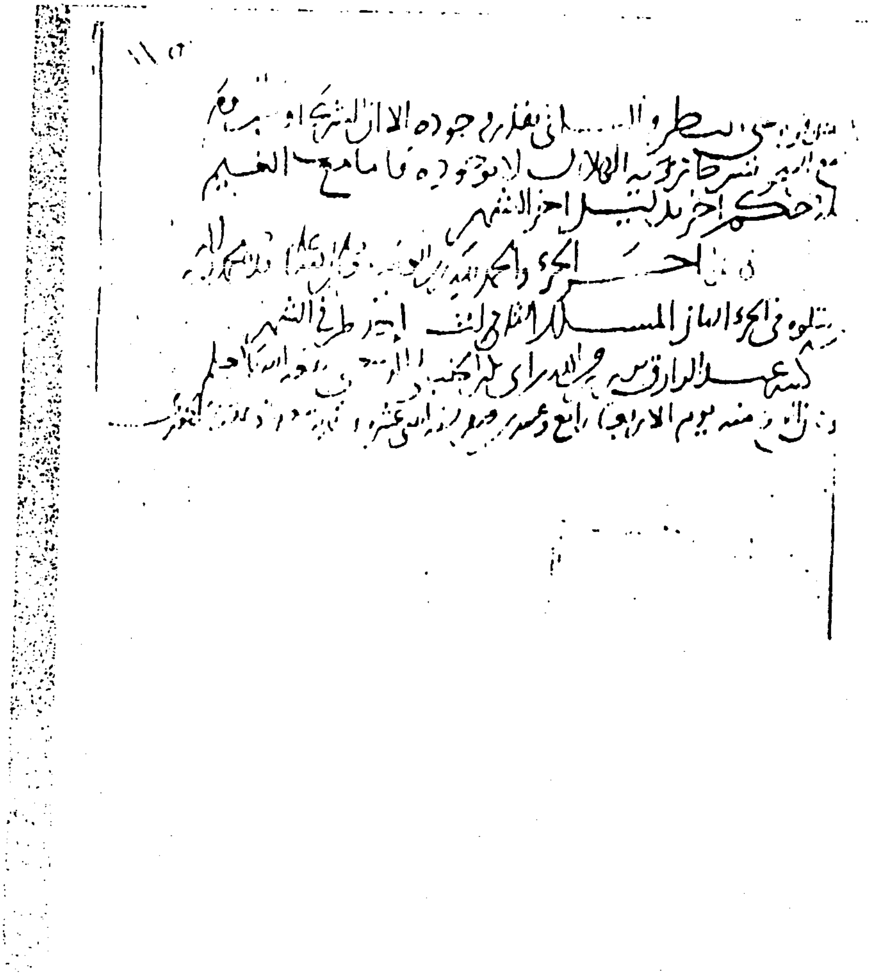

الورقة الأخيرة من كتاب درء اللوم والضيم وفيها اسم المؤلف

عبد الرازق بخط يده

رموز الكنوز

في تفسير الكتاب العزيز

لعبد الرّازق بن رزق الله الرّسْعَني الحنبلي

النص المحقق

سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

[قال ابن مسعود: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً.

وقال في رواية أخرى: لقد قلّلوا في أعيننا، حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين. قال: أراهم مائة][1]: فأسرنا منهم رجلاً، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً[2].

قوله: ﴿رأي العين﴾ أي: في رأي العين.

وقال الواحدي[3]: يجوز أن يكون مصدراً[4]، تقول: رأيته رَأْياً ورُؤْيَةً، ويجوز

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من زاد المسير (١/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ١٩٨)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٧٤) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٣) علي بن أحمد بن محمد الواحدي، أبو الحسن النيسابوري، كان أوحد عصره في التفسير، لازم أبو إسحاق الثعلبي، صنف التفاسير الثلاثة: البسيط، والوسيط، والوجيز. توفي سنة ثمان وستين وأربعمائة (طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٩٤، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٣٩).

(٤) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن (١/ ٨٨): «رأي العين» مصدر، تقول: فعل فلان كذا رأي عيني وسمع أذني.

أن يكون ظرفاً للمكان، كما تقول: ترونهم أمامكم[١].

﴿والله يؤيد﴾ أي: يقوّي.

﴿بنصره من يشاء إن في ذلك﴾ إشارة إلى النصر، أو إلى رؤيتهم مِثْلَيْهم.

﴿لعبرةً﴾ لدلالة موصلة إلى العلم، أو لآية يُعبَر منها من منزلة الجهل إلى منزلة العلم.

﴿لأولي الأبصار﴾ أي: لأولي العقول. يقال: لفلان بَصَرٌ بهذا، أي: علم ومعرفة.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿زُيِّن للناس﴾ سبق الكلام عليه في البقرة.

و﴿الشهوات﴾ جمع شهوة، وهي: ميل الطبع وتوقان النفس، والمراد بها: المشتهيات.

﴿من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ والقناطير: جمع قنطار.

قال ابن دريد[٢]: أحسِبُ أنه فارسي معرَّب.

---

(١) الوسيط (١/ ٤١٧).

(٢) في جمهرة اللغة (٣/ ٣٤٠).

=

وقد روي عن أُبَيِّ بن كعب عن النبي ﷺ: أنه ألفٌ ومائتا أوقية(١).

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: أنه اثنا عشر ألف أوقية(٢).

وروى الحسن البصري عن النبي ﷺ: أنه ألفٌ ومائتا دينار(٣).

وفيه أقاويل متعددة عن الصحابة والتابعين(٤).

والذي يظهر في نظري: أن المنقولَ عن النبي ﷺ، وعنهم في ذلك: ليس على سبيل التحديد لزنة القنطار، وإنما هو على سبيل التنظير للمال الكثير، صيانة لروايات الثقات ولأقوال العلماء الأثبات عن التناقض والتهافت.

والذي يؤيد ما ذكرته، ويوضح ما اخترته، قول أبي عبيدة(٥): هو مِلء

=

وابن دريد هو: محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، أبو بكر البصري، إمام عصره في اللغة والآداب والشعر، توفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٦، ووفيات الأعيان ٤/ ٣٢٣).

(١) أخرجه الطبري (٣/ ١٩٩)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٠٨) عن معاذ. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦١) وعزاه لابن جرير.

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٥٢): وهذا حديث منكر أيضاً.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢٠٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦١) وعزاه لأحمد وابن ماجه.

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٢٠٠)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٠٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦١) وعزاه لابن جرير.

(٤) انظر: الطبري (٣/ ١٩٩-٢٠١)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٠٧-٦٠٩).

وفي تفسير ابن عباس (ص:١٢٥): القنطار اثنا عشر ألف درهم، أو ألف دينار. وفي تفسير مجاهد (ص:١٢٣): القنطار: سبعون ألف دينار.

(٥) مجاز القرآن (١/ ٨٩).

مَسْك[١] ثورٍ ذهباً، ومعلوم أن هذا غير محدود.

وحكى أبو عبيدة[٢] عن بعض العرب: أن القنطار وزن لا يُحَدّ.

وقال الربيع بن أنس: هو المال الكثير بعضه على بعض[٣].

قال الفراء[٤]: «والمقنطرة»: المُضَعَّفَة، كأن القناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة.

وقال ابن قتيبة[٥]: «المقنطرة»: المكمَّلة، كما تقول: بَدْرَةٌ مُبَدَّرة، وأَلْفٌ مُؤَلَّفَة[٦].

وسُمِّيَ النقدان ذهباً وفضة؛ للذّهاب والانفضاض.

﴿والخيل﴾: جمع، واحده: فرس، من غير لفظه؛ كالنساء؛ سمي به لاختياله.

و﴿المسومة﴾: الراعية.

قال ابن قتيبة[٧]: يقال: سامت الخيل، فهي سائمة؛ إذا رعت[٨]، وأَسَمْتُها فهي مُسَامة، وسوّمتها فهي مسوّمة؛ إذا رعيتها.

وقيل: المسوّمة: المُعَلَّمة بالشِّيات[٩] والألوان.

---

(١) المَسْك -بالفتح-: الجلد (اللسان، مادة: مسك).

(٢) مجاز القرآن (١/ ٨٨).

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٢٠١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦٢) وعزاه لابن جرير.

(٤) معاني الفراء (١/ ١٩٥).

(٥) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد الكاتب الدينوري النحوي اللُّغوي، صاحب التصانيف المشهورة، كان ثقة ديناً فاضلاً. توفي سنة ست وسبعين ومائتين (ميزان الاعتدال ٤/ ١٩٨، وتاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠).

(٦) تفسير غريب القرآن (ص:١٠٢).

(٧) المصدر السابق.

(٨) انظر: اللسان (مادة: سوم).

(٩) الشيات: جمع شية. والوَشْيُ: خلط لون بلون (اللسان، مادة: وشي).

رُوِيَا عن ابن عباس[١].

والثاني قول قتادة[٢] واختيار الزجاج[٣].

وقال عكرمة ومجاهد: المسوَّمة: الحِسان[٤].

﴿والأنعام﴾: الإبل والبقر والغنم، الواحد: نَعَمْ، والنَّعم جمع لا واحد له من لفظه.

﴿والحرث﴾: الزَّرْع. و﴿المآب﴾: المرجع.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

قوله: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ يعني: بخير من الشهوات المذكورة في الآية، ﴿للذين اتقوا عند ربهم جَنَّاتٌ﴾، اللام في «للذين» يتعلق «بخير»، وارتفع «جناتٌ» على معنى: هو جنات، ويجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً. وفيه دلالة على ما هو خير.

---

(١) أخرج القولين الطبري (٣/ ٢٠٢-٢٠٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦١٠)، وذكرهما السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦٢-١٦٣) وعزاهما لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢٠٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦١١).

(٣) معاني الزجاج (١/ ٣٨٤)، وقد استحسن القول الأول.

(٤) أخرجه الطبري (٣/ ٢٠٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦١٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦٣) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

وفي تفسير مجاهد (ص:١٢٣) قال: المسومة: المصورة حسناً.

﴿ورضوان من الله﴾ قرأ جمهور القرَّاء بكسر الراء، وهي لغة قريش، وقرأ أبو بكر عن عاصم «ورُضوان» بضم الراء حيث جاء، وهي لغة تميم وقيس[١].

قال الزجاج[٢]: تقول رضيت الشيء أرضاه، رضاً، ومرضاةً، ورِضواناً، ورُضواناً.

﴿والله بصير بالعباد﴾ فيعلم المتقين وغيرهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾﴾

﴿الذين يقولون﴾ في موضع نصب على المدح، أو في موضع جر بدل من «الذين»، أو في موضع رفع، على معنى «هم الذين يقولون»[٣].

﴿الصابرين﴾ على الطاعة وعن المعصية، ﴿والصادقين﴾ في الأقوال والأفعال، ﴿والقانتين﴾ يعني: المطيعين، ﴿والمنفقين﴾ من الحلال في الطاعة، ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ جمع سَحَر، وهو الوقت الذي قبيل طلوع الفجر.

قال الحسن: «مَدُّوا الصلاة إلى السَحَر ثم استغفروا»[٤].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ١٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٥٧)، والكشف لمكي (١/ ٣٣٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٢).

(٢) معاني الزجاج (١/ ٣٨٥).

(٣) وفيه أيضاً وجه ضعيف، وهو أن يكون نعتاً لـ "العباد"؛ لأن فيه تخصيصاً لعلم الله تعالى، وهو جائز على ضعفه (انظر: التبيان ١/ ١٢٨، والدر المصون ٢/ ٣٨).

(٤) أخرجه الثعلبي (٣/ ٣٠).

وكان ابن عمر يُحيي الليل، فإذا جاء وقت السَحَر قعد يستغفر ويدعو حتى يصبح[١].

وذهب جماعة، منهم مجاهد وقتادة [والضحاك][٢]، إلى أن المراد بالمستغفرين: المُصلُّون[٣].

وقال ابن كيسان: يعني صلاة الصبح في جماعة[٤].

وتوسط الواو بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل صفة.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٠٨)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦١٦)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦٤) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وقد ذكره المؤلف بمعناه.

(٢) زيادة من زاد المسير (١/ ٣٦١).

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٢٠٨) عن قتادة.

(٤) أخرجه الثعلبي (٣/ ٣٠) عن ابن كيسان، وابن أبي شيبة (٧/ ١٨٦)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦١٦) كلاهما عن زيد بن أسلم. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦٤) وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.

قوله: ﴿شهد الله﴾ نزلت في مخاصمة نصارى نجران.

وقال ابن السائب[١]: نزلت في حَبْرَيْن من أحبار الشام، قدما على النبي ﷺ، فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان؟ فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة، فقالا: أنت محمد؟ قال: «نعم»، قالا: وأحمد؟ قال: «نعم»، قالا: نسألك عن شهادة، فإن أخبرتنا بها آمنا بك؟ فقال: «سَلاَني»، فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله؟ فنزلت هذه الآية، فأسلما[٢].

وقال سعيد بن جبير: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان لكل حيّ من العرب صنم أو صنمان، فلما نزلت هذه الآية خرَّت الأصنام سُجَّداً[٣].

قال الزجاج[٤]، وابن كيسان وغيرهما في قوله: ﴿شهد الله﴾ أي: بيَّن وأظهر بعجائب صنعته، وبدائع قدرته ﴿أنه لا إله إلا هو﴾[٥]، ﴿والملائكة﴾ بالإقرار، ﴿وأُولوا العلم﴾ بما صح لهم من البراهين اللامعة، والدلائل القاطعة. ﴿قائماً بالقسط﴾ أي: بالعدل.

و"قائماً" حال مؤكدة إما من فاعل "شهد" أو من "هو" في ﴿لا إله إلا هو﴾،

---

(١) هو: محمد بن السائب بن بشر الكلبي، صاحب التفسير، وكان رأساً في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث، توفي سنة ست وأربعين ومائة (سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٤٨، ووفيات الأعيان ٤/ ٣٠٩).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٢)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٠١)، وهذا من مراسيل الكلبي.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) معاني الزجاج (١/ ٣٨٥).

(٥) زاد المسير (١/ ٣٦٢).

أو نصب على المدح[١].

وقال الفرّاء[٢]: هو نصب على القطع، كأن أصلَه: القائم، وكذلك في حرف عبد الله[٣]، فلما قطعت الألف واللام نصب، كقوله: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ [النحل:٥٢]، أو صفة للمنفي، تقديره: لا إله قائماً بالقسط إلا هو، فإنهم توسّعوا في الفصل بين الصفة والموصوف.

قال جعفر الصادق رحمه الله: إنما كرر ﴿لا إله إلا هو﴾ لأن الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم، أي: قولوا: لا إله إلا هو[٤].

وفي الحديث عن النبي ﷺ، قال: «قال موسى ﷺ: يا رب علِّمني شيئاً أذْكُرُكَ به، أو أدعوك به، فقال: يا موسى لا إله إلا الله، قال: يا رب، كلُّ عبادك يقولها، إنما أريد شيئاً تخصّنيه، قال: يا موسى؛ لو أنَّ السموات السبع وعامرهن، والأرضين السبع وعامرهن وُضعن في كِفَّة، ولا إله إلا الله في كِفَّة، لَمَالَتْ بهنَّ لا إله إلا الله»[٥].

ووجه قراءة ابن مسعود: "القائم بالقسط" أنه بدل من "هو"، أو خبر مبتدأ محذوف.

قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ كلام مستأنف.

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٢٨)، والدر المصون (٢/ ٤١-٤٢).

(٢) معاني الفراء (١/ ٢٠٠).

(٣) أي: في قراءة عبد الله بن مسعود. انظر: معاني الفرّاء (١/ ٢٠٠)، والبحر المحيط (٢/ ٤٢٢).

(٤) زاد المسير (١/ ٣٦٢).

(٥) أخرجه النسائي (٦/ ٢٠٨)، وابن حبان (١٤/ ١٠٢)، والحاكم (١/ ٧١٠).

وقرأ الكسائي: «أن الدين» بفتح الهمزة[١] على البدل من «أنه»، التقدير: شهد الله أن الدين عنده الإسلام. والمعنى: أن الدين المرضي عند الله الإسلام لا اليهودية، ولا النصرانية.

قوله عز وجل[٢]: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب﴾ وهم اليهود والنصارى، والذي اختلفوا فيه: دين الإسلام، ونبوة محمد ﷺ، ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ وهو البيان الواضح على صحة نبوته بما عرفوه من صفته.

وقيل: الذي اختلف اليهود فيه: التوراة، والنصارى: عيسى. ﴿من بعد ما جاءهم العلم﴾ بما في التوراة من نعت عيسى بأنه عبد الله ورسوله.

﴿بغياً﴾ مفعول له، أي: اختلفوا لأجل البغي، لا لقصد الحق[٣]. وقد فسَّرنا في البقرة[٤] معنى: ﴿سريع الحساب﴾.

قوله: ﴿فإن حاجُّوك﴾ أي: إن خاصمك اليهود والنصارى بعد ظهور معجزاتك، ووضوح بيِّناتك، فقد عاندوا، ﴿فقل﴾ معرضاً عن مخاصمتهم: ﴿أسلمت وجهي﴾ أي: نفسي وجملتي، أو أخلصت عملي ﴿لله﴾، أو قصدت بعبادتي إليه، ﴿ومن اتبعني﴾ عطف على الضمير في "أسلمت"، أو يكون التقدير: مع مَن اتبعني، فيكون مفعولاً معه[٥].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ١٠)، والحجة لابن زنجلة (١٥٧-١٥٨)، والكشف (١/ ٣٣٨)، والنشر (٢/ ٢٣٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٢).

(٢) كتب مقابلها في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً ثانياً، مرة ثانية.

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٢٩)، والدر المصون (٢/ ٤٩).

(٤) عند تفسير الآية: ٢٠٢.

(٥) انظر: التبيان (١/ ١٢٩)، والدر المصون (٢/ ٥٠).

﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾: وهم اليهود، والنصارى. ﴿والأُميِّين﴾: وهم مشركو العرب، ﴿أأسلمتم﴾؟ قال الزجاج[١]: استفهام بمعنى الأمر، تقديره: أسلموا، ومثله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

أو يكون التقدير: أأسلمتم أم أنتم على كفركم.

﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولَّوا فإنما عليك البلاغ﴾ أي: ليس عليك إلا أن تُبلِّغ الرسالة، فيكون منسوخاً بآية السيف[٢]، وهذا مذهب جمهور المفسِّرين[٣]. وذهب بعضهم إلى أنه محكم[٤]، وأن المراد منه تسكين نفس النبي ﷺ، حين امتنعوا من الإسلام، وكان حريصاً على إيمانهم.

ويحتمل عندي أن يقال في تقرير إحكامها، وأنها غير منسوخة: ليس إليك يا محمد، ولا عليك إلا البلاغ، وأما الهداية، واستقرار الإيمان في القلوب، فهذا لا يدخل في وسعك.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم

(١) معاني الزجاج (١/ ٣٩٠).

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿فإذا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥].

(٣) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٦٠)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٠)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٣٧).

(٤) زاد المسير (١/ ٣٦٥).

﴿مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾

قوله: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ روى أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عُبَّاد بني إسرائيل، فأمروا مَن قتلوهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار، فهم الذين ذكرهم الله في كتابه، وأنزل الآية فيهم»[1].

وإنما دخلت الفاء في خبر «إنَّ» في قوله: ﴿فبشرهم﴾ لتضمن اسمها معنى الجزاء، لأن «إنَّ» لا تغيِّر معنى الابتداء، كأن معنى «إنَّ الذين يكفرون»: مَن يكفر فبشرهم، ولو كان مكان «إنَّ» ليت، ولعل، لم يجز دخول الفاء[2].

وما بعده سبق تفسيره، إلى قوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ٢٤ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢٥﴾

السببُ في نزولها ما روى عكرمة، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال:

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢١٦)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢١)، والثعلبي (٣/ ٣٦).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٢٩)، والدر المصون (٢/ ٥١).

«دخل رسول الله ﷺ بيت المِدْراس[1] في جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على مِلَّة إبراهيم، فقالا: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال لهم رسول الله ﷺ: فهلموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله هذه الآية»[2].

وروي عن ابن عباس: أنها نزلت في قصة اليهوديين اللذين زنيا وحكم عليهما رسول الله ﷺ بالرجم، فقالوا: جِرْت علينا يا محمد، ليس عليهما الرجم، فقال: «بيني وبينكم التوراة»، فجاء بها ابن صوريا، فقرأها: فلما بلغ آية الرجم وضع كفَّه عليها، فقال ابن سلام: قد جاوزها، ثم قام فرفع كفَّه عنها، فإذا هي تلوح، فأمر بهما رسول الله فرجما، فغضب اليهود، فأنزل الله هذه الآية[3].

وبّخهم الله سبحانه وتعالى، وعجّب رسوله والمؤمنين من توليهم وإعراضهم مع كونهم أهل كتاب، وكان ينبغي لهم إذا دعوا إليه أن يبادروا.

والنصيب: الحظ. والكتاب الذي دعوا إليه: التوراة؛ على قول الأكثرين، ومقتضى سبب النزول.

---

(١) بيت المدراس: هو بيت عبادة اليهود، سمي بذلك؛ لأنهم يتدارسون فيه كتبهم (اللسان، مادة: درس).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢١٧)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧٠) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٠٢).

(٣) أخرجه الثعلبي (٣/ ٣٨).

وقد أخرج البخاري (٦/ ٢٥١٠)، ومسلم (٣/ ١٣٢٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قصة رجم الزانيين.

وقال الحسن وقتادة: هو القرآن[1].

والمعنى: ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ وهم علماؤهم، ﴿وهم معرضون﴾ يريد: الأَتْبَاع.

وقيل: «ثم يتولى فريق منهم» بأبدانهم، «وهم معرضون» بقلوبهم، أو هو توكيد.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى التولّي والإعراض، ﴿بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً﴾ وقد سبق تفسيرها في البقرة[2]، ﴿وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي: يكذبون في قولهم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨].

﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ أي: كيف يكون حالهم، أو كيف يصنعون إذا جمعناهم، وهو استفهام يتضمن الاستعظام لهول ما أُعِدَّ لهم من العذاب. ﴿إذا جمعناهم ليوم﴾، أي: لجزاء يوم، أو لحساب يوم.

وقيل: اللام بمعنى «في».

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢١٨)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٢)، والثعلبي (٣/ ٣٧) كلهم من حديث قتادة. وذكره الماوردي (١/ ٣٨٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧٠) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) عند تفسير الآية: ٨٠.

تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿قل اللَّهمَّ مالك الملك﴾ السبب في نزولها: ما روي عن ابن عباس وأنس بن مالك، قالا: لما فتح رسول الله مكة وعد أمته فارس والروم، فقال اليهود والمنافقون: هيهات هيهات، فنزلت هذه الآية[١].

وقال السُّدِّي: قالت اليهود: لا نطيع رجلاً رَامَ نقل النبوة من بني إسرائيل، فنزلت[٢].

وكسرت اللام من «قُلِ» لالتقاء الساكنين. «اللَّهم» بمعنى: يا الله، والضمة التي في الهاء: ضمة المنادى المفرد، والميم المشددة عوض من «يا»، فلذلك لا يجتمعان. وقوله: «يا اللهم» شاذ، وهذا قول الخليل، وسيبويه[٣].

وقال الفرّاء[٤]: المعنى: يا الله أُمَّ بخير، فألقيت الهمزة، وطرحت حركتها على ما قبلها.

ويلزم على قول الفرّاء جواز دخول «يا» عليها، وليس بمختار في الكلام.

﴿مالك الملك﴾ أي: بيده زمامه، ﴿تؤتي الملك مَن تشاء﴾ محمداً، وأمته،

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٢٢)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٤)، والثعلبي (٣/ ٤٠) كلهم عن قتادة. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٠٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٦٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٦٨) عن أبي سليمان الدمشقي.

(٣) انظر: الكتاب لسيبويه (٢/ ١٩٦).

(٤) معاني الفراء (١/ ٢٠٣).

﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ فارس والروم، وكذلك ﴿وتعز مَن تشاء وتذل من تشاء﴾.

وقيل: تُعِزُّ مَن تشاء بالطاعة، وتُذِلُّ مَن تشاء بالمعصية.

وقيل: تُعِزُّ مَن تشاء بالقناعة، وتُذِلُّ من تشاء بالحرص.

﴿بيدك الخير﴾ قال ابن عباس: النصر والغنيمة[(١)].

وقيل: المعنى: بيدك الخير والشر، فاكتفى بذكر المرغوب فيه.

﴿إنك على كل شيء﴾ من ذلك وغيره ﴿قدير﴾.

﴿تولج الليل في النهار﴾ قال ابن عباس: ما ينقص من أحدهما يَزيد في الآخر[(٢)].

قال السدي: حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات[(٣)]، وكذلك النهار يزيد والليل ينقص.

﴿وتخرج الحي من الميِّت﴾ قرأ نافع وأهل الكوفة إلا أبا بكر: «الميت» بالتشديد وخففه الباقون[(٤)]، وتفرّد نافع بالتشديد في ثلاثة مواضع: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً﴾ [الأنعام:١٢٢]، و﴿الأَرْضُ المَيْتَةُ﴾ [يس:٣٣]، و﴿لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾ [الحجرات:١٢]،

---

(١) زاد المسير (١/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٥)، ومجاهد (ص:١٢٤). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ١٧٣) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٥). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ١٧٣) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ١١-١٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٥٩)، والكشف (١/ ٣٣٩)، والنشر (٢/ ٢٢٤-٢٢٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٣).

وكلهم شدد ما لم يَمُتْ، نحو: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر:٣٠]، وخفف ما هو [ميت][1] لما فيه هاء التأنيث، نحو: ﴿بَلْدَةً مَّيْتاً﴾ [الزخرف:١١]، والقراءتان[2] لغتان فاشيتان، قال الشاعر:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بمَيْتٍ إِنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[3]

فجمع بين اللغتين، والأصل التشديد، والتخفيف فرع عليه، لثقل التشديد والكسر على الياء. وأصله عند البصريين «مَيْوِت» على فَيْعِل، ثم قلبت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء التي قبلها، والمحذوف في قراءة من خفَّف هو الواو التي قلبت ياء، وهي عين الفعل، كما قالوا: هائر وهارٍ، وسائر وسارٍ، فغيّروا العين، وحذفوها بعد القلب[4].

والمعنى: يُخرج الحيوانَ من النطفة، والنطفة من الحيوان، وكذلك يخرج الفرخ من البيضة، والبيضة من الطائر[5].

وقيل: يخرج الحي، وهو المؤمن، من الميت وهو الكافر، ويخرج الميت من

---

(١) في الأصل: نعت. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الكشف (١/ ٣٣٩).

(٣) البيت لعدي بن الرعلاء الغساني. انظر: الحجة للفارسي (٢/ ١٢)، واللسان، مادة: (موت)، والأصمعيات (ص:١٥٢)، وأمالي ابن الشجري (١/ ١٥٢)، وابن يعيش (١٠/ ٦٩)، والأشموني (٢/ ١٦٩)، والدر المصون (٢/ ٥٧)، وتهذيب اللغة (١٤/ ٣٤٣).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ١٢)، والكشف (١/ ٣٣٩).

(٥) أخرجه الطبري (٣/ ٢٢٤)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٦) كلاهما من حديث ابن مسعود. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧٣) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن مسعود.

الحي، وهو الكافر من المؤمن[(١)].

والقولان عن ابن عباس[(٢)]. والأول قول الجمهور، والثاني قول الحسن.

وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ دخل على بعض نسائه، فرأى عندها امرأة حسنة الهيئة، فقال: من هذه؟ قالت: إحدى خالاتك. فقال: أي خالاتي؟ قالت: خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث. فقال رسول الله: سبحان الذي يُخْرِج الحي من الميت! وكانت امرأة صالحة، وكان أبوها مات كافراً»[(٣)].

وقال الزجاج[(٤)]: المعنى: يُخْرِجُ النبات الغضَّ من الحب اليابس، والحب اليابس من النبات الحي النَّامِي.

وما بعده مفسّر في البقرة[(٥)].

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٢٥)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٧) كلاهما من حديث الحسن. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧٤) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ عن الحسن.

(٢) زاد المسير (١/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٢٢٦)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٦)، والثعلبي (٣/ ٤٦)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٤٨)، كلهم عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، مرسلاً.

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٢٧٣).

(٥) عند الآية رقم: ٢١٢.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ
لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ
﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

قوله: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ نزلت في عبادة بن الصامت، وكان قال يوم الأحزاب: يا رسول الله؛ معي خمسمائة من اليهود من حلفائي أريد أن أستظهر بهم على العدو(١).

وقيل: نزلت ناهية لجماعة من الأنصار على مباطنة اليهود وموالاتهم وملاطفتهم، فإنهم كانوا يفعلون ذلك لما كان بينهم من الحلف والرضاع(٢).

والقولان عن ابن عباس(٣).

---

(١) أخرجه الثعلبي (٣/ ٤٧). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٠٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧١).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢٢٨)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧٦) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) قال ابن عباس في تفسيره (ص:١٢٦) عند ذكر هذه الآية: نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف، ويخالفوهم في الدين، وذلك قوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾.

وقال المقاتلان ابن سليمان[١]، وابن حيّان: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ممن كان يظهر المودّة لأهل مكة[٢].

قال الزجاج[٣]: معنى قوله: ﴿من دون المؤمنين﴾ أي: لا يجعل المؤمن ولايته لمن هو غير مؤمن، أي: لا يتناول الولاية مِن مكان دون مكان المؤمنين. وهذا كلام جرى على المثل في المكان. تقول: زيد دونك، ولست تريد المكان، ولكنك جعلت الشرف بمنزلة الارتفاع في المكان، والخسة كالاستفال.

ثم توعَّدهم، فقال: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾، أي [فالله بريء منه][٤].

قوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ يقال: تَقَيْتُه تُقَاةً وتُقًى وتَقِيَّةً، والمعنى: إلا أن تخشوا منهم أمراً، تحتاجون معه إلى التَّقِيَّة، فتصانعوهم بألسنتكم، وتُفارقوهم بقلوبكم وأعمالكم، والتَّقِيَّة رخصة لا عزيمة، نص عليه إمامنا رحمة الله عليه قولاً، ودان به فعلاً في فتنة الاعتزال[٥]، وذلك حين دُعِيَ إلى القول بخَلْقِ القرآن، وقيل له تلك الأيام: إن عُرِضتَ على السيف تجيب؟ قال: لا، إذا أجاب العالم تَقِيَّةً، والجاهل بجهله، فمتى يظهر الحق؟[٦].

---

(١) مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني، أبو الحسن البلخي، نزيل مرو، قال البخاري: منكر الحديث. توفي سنة خمسين ومائة (الضعفاء والمتروكين ٣/ ١٣٦، والتقريب ص:٥٤٥).

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ١٦٤).

(٣) معاني الزجاج (١/ ٣٩٦).

(٤) في الأصل: هو بريء من الله، والتصويب من زاد المسير (١/ ٣٧١).

(٥) انظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص:٣٨٥).

(٦) زاد المسير (١/ ٣٧٢).

فللَّه درُّه ما كان أصبره على تلك الشدة، وأشبهه بأبي بكر الصدِّيق أيام الرِدَّة.

وقال شيخ الإسلام الأنصاري[١] رحمة الله عليه: عُرِضتُ على السيف أربع مرات، وما قيل لي أُترك مذهبك، إنما قيل لي: أُسكت عن مخالفيك، فلم أفعل[٢].

ثم هدَّدَهم وتوعدهم بقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، أي: عذاب نفسه، ﴿وإلى الله المصير﴾.

قوله: ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم﴾ الصدر محل القلب، ويُعبَّر به عنه، والمعنى: إن تُخفوا ما في صدوركم، من موالاة الكفار، ومعاداتهم وغير ذلك، ﴿يعلمه الله﴾ المعنى: ويجازيكم عليه، ثم أكد ذلك بتمام الآية.

قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ العامل في "يوم تجد": "يُحذِّركم"، أو فعل مضمر، أو "تَوَدُّ"[٣].

وقال ابن الأنباري[٤]: يجوز أن يكون متعلقاً بقوله: "وإلى الله المصير" أي: وإلى الله المصير يوم تجد[٥].

---

(١) عبد الله بن محمد الأنصاري، أبو إسماعيل الهروي، الفقيه، المفسر الحافظ، الواعظ، إمام الحنابلة في عصره. كان شديداً على المبتدعة، متمسكاً بالسُّنَّة، توفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة بهراة (المنتظم ٩/ ٤٤-٤٥، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٠٣، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ٥٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٠٩).

(٣) انظر: الدر المصون (٢/ ٦٢-٦٣).

(٤) محمد بن القاسم بن محمد، أبو بكر بن الأنباري، النحوي، صاحب التصانيف الكثيرة في علوم القرآن وغريب الحديث والمشكل، وكان علامة وقته في الآداب وأكثرهم حفظاً لها، توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة (إنباه الرواة ٣/ ٢٠١، ووفيات الأعيان ٤/ ٣٤١).

(٥) انظر: زاد المسير (١/ ٣٧٢).

والمعنى: تجد جزاء ما عملت، أو بيان ما عملت في صحائف الأعمال.

والأمد: الغاية.

قال الطِّرِمَّاح[١]:

كلُّ حيٍّ مستكمل عدة العُمـ ـر ومُوْدٍ إذا انْقَضَى أَمَده[٢]

أي: غاية أجله.

قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿قل إن كنتم تحبون الله﴾ قال ابن عباس: قال كفارُ قريش: إنما نعبد الأصنام حباً لله ليقرِّبونا إلى الله زلفى[٣].

وقال اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، فأنزل الله: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[٤].

وقال الحسن: إن ناساً قالوا: إنَّا لنحب ربنا حباً شديداً، فأحب الله أن يجعل لحبّه علماً، فأنزل هذه الآية[٥].

وكان ابن المبارك، رحمه الله، ينشد لنفسه:

---

(١) الطِّرِمَّاح بن حكيم بن نفر الطائي، أبو نفر، كان شاعراً وخطيباً (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص:٣٨٨).

(٢) البيت للطرماح. انظر: ديوانه (ص:١١٢).

(٣) أخرجه الثعلبي (٣/ ٥٠). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٠٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٣).

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٠٦). وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٣).

(٥) أخرجه الطبري (٣/ ٢٣٢)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٣٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧٨) وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

تَعْصِي الإلَهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّه هذا مُحَالٌ في المقال بَدِيعُ
لو كانَ حُبُّكَ صَادقاً لأطَعْتَه إن المحبَّ لمن يُحِب مُطِيعُ[١]

قال ابن عباس: لما أنزلت هذه الآية قال عبد الله بن أُبَيّ: إنَّ محمداً يأمرنا أن نحبّه كما أحبت النصارى عيسى، وبجعل طاعته كطاعة الله، فأنزل الله: ﴿قل أطيعوا الله والرسول... الآية﴾[٢].

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى الأمير فقد عصاني»[٣].

قوله[٤]: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً﴾ أي: اختارهم واجتباهم للنبوة. وقد سبق القول في آدم[٥]. وأما نوح فاسمه «السكن»، وسمي نوحاً؛ لِنَوْحِه على نفسه.

قال الإمام أحمد في كتاب الزهد[٦]: حدثنا عبد الرزاق، عن وهيب ابن الورد، قال: لما عاتب الله نوحاً في ابنه فقال: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾

---

(١) انظر البيتان في: روح المعاني (٣/ ١٢٩)، وشعب الإيمان (١/ ٣٨٥-٣٨٦)، ومختصر شعب الإيمان (١/ ٣٠)، وكشف الخفاء (٢/ ١٢٨١)، ومختصر تاريخ دمشق (١/ ١٨٨٧).

(٢) أخرجه الثعلبي (٣/ ٥١). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦١١ ح٦٧١٨)، ومسلم (٣/ ١٤٦٦-١٤٦٧ ح١٨٣٥) كلاهما من حديث أبي هريرة.

(٤) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً أولاً. وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً ثالثاً، مرة ثانية.

(٥) في سورة البقرة عند تفسير الآية: ٣١.

(٦) الزهد (ص:٦٦).

[هود:٤٦]، بكى ثلاثمائة عام، حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول.

وقيل: إنه كان ينوح لمعاصي أهله وقومه.

وقيل: إنه مرَّ بكلب مجذوم، فقال: اخسأ يا قبيح، فأوحى الله إليه: أَعِبْتَنِي أم عبتَ الكلب؟

قوله: ﴿وآل إبراهيم﴾ قال ابن عباس والحسن: هم أهل دينه[1].

وقال مقاتل[2]: «آلُه»: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

وقيل: أُقحمت «الآل» تفخيماً. والمراد: إن الله اصطفى آدم ونوحاً وإبراهيم. وقد سبق مثله في سورة البقرة[3].

﴿وآل عمران﴾ قال الحسن ووهب: هو عمران والد مريم[4]. فعلى هذا «آله»: مريم، وعيسى.

وقال مقاتل[5]: هو عمران بن قاهث، فآله: موسى وهارون، وبين العمرانين ألف وثماني مائة سنة.

والأظهر: أنه عمران بن ماثان، لقوله عقيب ذلك: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾.

قوله: ﴿ذرية﴾ بدل من "آل إبراهيم وآل عمران"، أو حال، أو نصب على القطع. ﴿بعضها من بعض﴾ يعني: الآلَيْن بعضها من بعض في التناسل. وقيل: في

---

(١) انظر زاد المسير (١/ ٣٧٤).

(٢) تفسير مقاتل (١/ ١٦٥).

(٣) عند الآية رقم: ١٣٢.

(٤) أخرجه الثعلبي (٣/ ٥٢). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٥).

(٥) تفسير مقاتل (١/ ١٦٦).

التناصر. ﴿والله سميع عليم﴾ بمن يصلح للاصطفاء، أو «سميع عليم» لقول امرأة عمران.

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

فعلى هذا «إذ» في قوله: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ منصوب به. وقيل: بإضمار اذكر[١].

وقال الزجاج[٢]: العامل في «إذ» معنى الاصطفاء، فيكون المعنى: «اصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران».

وقال أبو عبيدة وابن قتيبة[٣]: «إذ» ملغاة.

وامرأةُ عمران اسمها: حنّة، وهي أم مريم بنت عمران بن ماثان، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم، وملوكَهم.

قال ابن إسحاق وغيره: كانت رأت طائراً يَزُقُّ فَرْخَهُ[٤] بعد أن أَسَنَّت ويئست من الولد، فهيَّجها على التحنن على الولد، فَدَعَتْ ربها أن يهب لها ولداً، فأجيبت،

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٣١)، والدر المصون (٢/ ٧١).

(٢) معاني القرآن (١/ ٤٠٠).

(٣) مجاز القرآن (١/ ٩٠)، وتفسير غريب القرآن (ص:١٠٣)، وتأويل مشكل القرآن (ص:٢٥٢).

(٤) زَقَّ الطائر الفرخ يَزُقُّهُ زقاً: أي أطعمه بفِيه (اللسان، مادة: زقق).

فقالت شكراً لله: ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾[١] أي: خالصاً، عتيقاً من رق الدنيا، حبيساً على العبادة، وسدانة البيت المُقَدَّس.

قال القاضي أبو يعلى ابن الفرّاء رحمه الله: وهذا نذرٌ صحيح في شريعتنا أيضاً، فإنه إذا نذر الإنسانُ أن يُنَشِّئَ ولده الصغير على عبادة الله، وطاعته، وأن يعلِّمه القرآن والفقه وعلوم الدين؛ صح النذر[٢].

و«محرراً» حال من «ما»[٣]. والتَّقبُّل: الأخذ بالرضى.

﴿إنك أنت السميع﴾ لدعائي ﴿العليم﴾ بنِيَّتي.

﴿فلما وضعتها﴾ الضمير يرجع إلى قوله: لـ﴿ما في بطني﴾، وإنما أُنِّث حملاً على المعنى، لأن ما في بطنها كانت أنثى في علم الله، أو على تأويل الحَبْلَة، أو النفس، أو النَسَمة؛ ﴿قالت رب إني وضعتها﴾ أي وضعت النَسَمة ﴿أنثى﴾، وهو كلام يلوح منه أسفها على خيبة رجائها، فإنها رَجَتْهُ ذَكَراً، ولذلك حرَّرته للعبادة والسدانة.

وفي قوله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ تعريضٌ بتعظيم مريم، وتجهيل لـ «حنّة» بما استودع في تلك الأنثى من السر الإلَهي، ونيط بها من الآية العظيمة.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم: "بما وضعْتُ" بسكون العين وضم التاء[٤]، فيكون من تمام كلامها.

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٣٥). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٦).

(٢) زاد المسير (١/ ٣٧٦).

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٣١)، والدر المصون (٢/ ٧١).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ١٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٦٠)، والكشف (١/ ٣٤٠)، والنشر (٢/ ٢٣٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٤).

وفي قراءة ابن عباس: "وضعْتِ"[١] بسكون العين وكسر التاء، فيكون من مخاطبة الله لها، على معنى: إنك لا تعلمين قدر هذا المولود.

﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ جائزٌ أن يكون من تمام كلامها أيضاً، خارجاً مخرج الاعتذار من مصادفة تحريرها أنثى، والأنوثية مانعة من استقصاء الوفاء بما نَذَرَتْهُ، والقيام بما نَوَتْهُ.

وجائز أن يكون من تتمة التعريض بتعظيم مريم، فتكون اللام للعهد، التقدير: وليس الذكر الذي أردتِ كالانثى التي ولدتِ.

﴿وإني سَمَّيْتُها﴾ عطف على «وَضَعْتُها». و﴿مريم﴾ بلغتهم: العابدة، فسمّتها بذلك تفاؤلاً بمطابقة الفعل للاسم، ألا تراها تقول: ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾.

قال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان حين يولد فَيَسْتَهِلُّ[٢] صارخاً من نَخْسَةِ الشيطان إلا ابن مريم وأمه، ثم قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم: ﴿وإني أُعيذها بك وذُرِّيتها من الشيطان الرجيم﴾»[٣].

ولقد عجبتُ من جُرْأة المعطلين على هذه الشريعة، وتسميتهم المتمسكين بها

---

(١) مختصر ابن خالويه في شواذ القرآن (ص: ٢٠).

(٢) الاستهلال: رفع الصوت. وقد استهلَّ الصبي: رفع صوته بالبكاء (القاموس المحيط ص: ١٣٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٥٥ ح٤٢٧٤)، ومسلم (٤/ ١٨٣٨ ح٢٣٦٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٣ ح٧١٨٢، ٢/ ٢٧٤ ح٧٦٩٤).

أهل حشو، فتراهم يبادرون إلى تكذيب الأخبار النبوية، المنقولة على ألسنة العلماء الثقات الأثبات، بناء على خيالات فاسدة، يتوهمونها، لكن شؤم البدعة سلبهم وصف التوفيق، فحال بينهم وبين التصديق والتحقيق، وعَمِيَتْ عليهم مسالك الهدى، فتورَّطوا في مهالك الردى. هذا صاحب الكشّاف الزّمخشري يقول في تفسيره[1]: وما روي من الحديث: «ما من مولود...»، ثم ساق الحديث إلى آخره، ثم قال: إن صَحَّ، فمعناه: أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه، إلا مريم وابنها، واستهلاله صارخاً [من مَسِّهِ][2] تخييل [وتصوير][3] لِطَمَعِهِ فيه. وأما حقيقة المس والنخس كما يَتَوَهَّمُ أهل الحشو فكلا، [ولو][4] سُلِّط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً.

قلت: ولست أعجب من قوله عن حديث اتفق أئمة الإسلام على تصحيحه وتدوينه، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري ومسلم في صحيحيهما: "إن صَحَّ"؛ لأن الرجل كان جاهلاً بهذا العلم الجليل، ولكن من صفاقة وجهه في رد الحديث على تقدير التصحيح، والتمحل لتعطيل اللفظ الصريح، مع أنه لا منافاة في ذلك بين النقل والعقل، لأن العقل لا يحيل ذلك لذاته، ولا يلزم منه محال على تقدير إثباته.

وأما قوله: "لو سُلِّط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً

---

(١) الكشاف (١/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٢) زيادة من الكشاف (١/ ١٨٦).

(٣) زيادة من الكشاف (١/ ١٨٦).

(٤) في الأصل: لو. والتصويب من الكشاف (١/ ١٨٦).

وعياطاً"، فكلام يُشمِتُ به أعداءه، لا، بل يحزنهم عليه، فما أحقه بإنشاد قول الشاعر:

أغرى يديه بكشف عورته | من أذن الله في فضيحته

لأن نبينا ﷺ لم يخبر بتسليط الشيطان على الإنسان بالنخس إلا حالة الولادة، فكيف يتوجه منه هذا الإلحاد؟ ومن أين يلزم أن تمتلئ الدنيا صراخاً وعياطاً؟ ولعله إذا استقرئ البلد العظيم، وتصفح مَن ولد فيه في يوم، لا يبلغ عدداً يوجب أضعاف أضعافه بعض ما توهمه، من امتلاء الدنيا صراخاً. فسبحان من حفظ هذا الدين بحملةٍ عدول، يَنْفُون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. اللَّهم فاحفظنا من ضلالات الأهواء، وعافنا من خيالات الآراء.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿فتقبلها ربُّها بقبول حسن﴾ القَبُول: مصدر، والقياس فيه: الضم؛ كالدُّخول والخروج.

قال سيبويه: خمس مصادر جاءت على فَعُول منها: قَبُول.

والمعنى: رضيها ربّها بدل الذي نذرته.

قال ابن عباس: سلك بها طريق السعداء[1].

﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ القَبول والنَّبات مصدران يخالفان المصدر هاهنا.

---

(١) أخرجه الثعلبي (٣/ ٥٦).

قال الفرَّاء[(١)]: هو مثل قولك: تكلمت كلاماً.

قال القَطَامِي[(٢)]:

وخيرُ الأمر ما استقبلتَ منه　　　وليس بأن تَتَبَّعَهُ اتِّباعَا[(٣)]

وقال آخر:

....　　　وإن شئتم تَعاودنا عوادا[(٤)]

لم يقل: تتبعاً ولا تعاوداً.

وقال ابن الأنباري والمفضل[(٥)]: التقدير: وأنبتها فنبتت نباتاً [حسناً][(٦)].

قال ابن عباس: كانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام[(٧)]، فيكون إشارة إلى كمال نشوئها.

وقال قتادة: حُدِّثنا أنها كانت لا تصيب الذنوب[(٨)]، فيكون استعارة عن

---

(١) لم أقف عليه في معاني الفراء، ونقله عنه الثعلبي (٣/ ٥٦).

(٢) عمير بن شييم بن عمرو التغلبي، الملقب بالقطامي، شاعر غزل فحل (طبقات الشعراء: ص:١٦٥، والشعر والشعراء لابن قتيبة: ص:٤٨٣، والأعلام للزركلي ٥/ ٨٨).

(٣) البيت للقطامي. انظر: ديوانه (ص:٣٥)، والكتاب (٤/ ٨٢)، والدر المصون (٢/ ٧٦)، واللسان، مادة: (تبع)، والقرطبي (٤/ ٦٩)، وزاد المسير (٨/ ٣٧٢).

(٤) عجز بيت لم أعرف قائله. وهو في الخصائص لابن جني (٢/ ٣٠٩) وقال محققه: إنه لشقيق ابن جزء.

(٥) المفضل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب، لغوي عالم بالأدب، توفي سنة ثلاثمائة (إنباه الرواة ٣/ ٣٠٥، ومعجم الأدباء ١٩/ ١٦٣، والأعلام للزركلي ٧/ ٢٧٩).

(٦) انظر: زاد المسير (١/ ٣٧٧). وما بين المعكوفين زيادة منه.

(٧) أخرجه الثعلبي (٣/ ٥٦).

(٨) أخرجه الطبري (٣/ ٢٤٠).

طهارتها من دنس الآثام.

وقيل: هو استعارة عن حُسْن التربية.

قوله: ﴿وكفَّلها زكريا﴾ قرأ أهل الكوفة: «كفلها» بالتشديد، «زكريا» بالقصر، حيث جاء، إلا أبا بكر عن عاصم، فإنه يمد "زكريا" حيث جاء كالباقين(١).

قال ابن دريد(٢): هو اسم أعجمي.

الإشارة إلى القصة

قال العلماء بالتفسير والسِّيَر: لما وضعت حنّة مريم لفّتها في خرقة وحملتها إلى البيت المُقَدَّس، وفاءً بنذرها، فوضعتها عند الأحبار، أبناء هارون، وهم يومئذ يلونه كما تلي الحَجَبة الكعبة، فقالت: دونكم بهذه النذيرة، فتنافسوا فيها، لأنها بنتُ إمامهم، وصاحب قربانهم، فقال زكريا: أنا أحق بها، وعندي خالتُها، فامتنعوا إلا أن يقترعوا، فساروا إلى نهر الأردن، وكانوا سبعة وعشرين رجلاً(٣).

قال ابن عباس: قالوا: نطرح أقلامنا، فمن صعد قلمه مغالباً لجرية الماء فهو أحق بها(٤).

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ١٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٦١)، والكشف (١/ ٣٤١)، والنشر (٢/ ٢٣٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٤-٢٠٥).

(٢) جمهرة اللغة (٢/ ٣٢٤).

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٢٤٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٣٩)، والثعلبي (٣/ ٥٦)، والبيهقي (١٠/ ٢٨٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٨٥) وعزاه للبيهقي في سننه عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٩).

وقال السدي: ألقوا أقلامهم التي يكتبون بها، فَجَرَت الأقلام كلها، وثبت قلم زكريا(١).

قال الحسن: لم ترتضع ثدياً قط(٢).

وذكر مقاتل(٣): أنه استأجر لها ظِئْراً.

قوله: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ "كلما" منصوب على الظرف(٤)، أي: وجد كلما دخل.

وقال الزجاج(٥): المحراب في اللغة: الموضع العالي الشريف.

قال الشاعر وضّاح اليمن(٦):

رَبَّةُ مِحْرَابٍ إذا جِئْتُهَا ... لَمْ أَلْقَهَا أَوْ أَرْتَقِي سُلَّمَا(٧)

وقال أبو [عبيدة](٨): المحراب سيد المجالس، ومقدمها وأشرفها، وكذلك هو

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٤٣)، والثعلبي (٣/ ٥٧)، ومجاهد (ص:١٢٥) ولفظه: ساهمهم بقلمه فسهمهم. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٨١).

(٢) ذكره الماوردي (١/ ٣٨٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٠).

(٣) تفسير مقاتل (١/ ١٦٧). والظئر -بالكسر-: المُرْضِعَة (القاموس المحيط ص:٥٥٥).

(٤) انظر: التبيان (١/ ٢٣)، والدر المصون (٢/ ٧٨).

(٥) معاني الزجاج (١/ ٤٠٣).

(٦) عبد الرحمن بن إسماعيل بن كلال. سمي الوضاح؛ لجماله. له قصص تروى مع أم العينين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك، فقتله.

(٧) البيت لوضاح اليمن. انظر: اللسان، مادة: (حرب)، وجمهرة اللغة (١/ ٢١٩)، والأغاني (٦/ ٢٢٣)، ومجاز القرآن (٢/ ١٤٤)، والدر المصون (٢/ ٧٨)، والقرطبي (٤/ ٧١)، والوسيط (١/ ٤٣٢).

(٨) في الأصل: أبو عبيد، والصواب ما أثبتناه. انظر: مجاز القرآن (١/ ٩١).

من المسجد.

وقال غيره: يقال للمسجد محراب، ومنه: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب﴾ [سبأ:١٣]، أي: مساجد.

وأظنُّ الشاعرَ أراد ذلك في قوله:

جَمَعَ الشجاعةَ والخشوع لربه ... ما أحسن المحراب في المحراب[١]

قال ابن إسحاق: ضمّها إلى خالتها أم يحيى، حتى إذا شبّت وبلغت مبلغ النساء بنى لها محراباً في المسجد، لا يصعد إليها غيره، فكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها كل يوم[٢].

قال ابن عباس: كانت تصلي في غرفتها الليل والنهار.

وقال مقاتل[٣]: كانت مريم إذا حاضت أخرجها إلى منزله تكون مع خالتها أم يحيى[٤]، فإذا طهرت ردها إلى بيت المقدس.

ويروى عن ابن عباس: أنها لم تكن تحيض[٥].

قال الربيع بن أنس: كان زكريا إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، فإذا دخل وجد عندها رزقاً[٦].

قال ابن عباس: هو ثمار الجنة، كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف،

---

(١) انظر البيت في: وفيات الأعيان (١/ ٤٠٩)، وروح المعاني (٣/ ١٣٩، ٢٢/ ١١٨).

(٢) أخرجه الثعلبي (٣/ ٥٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٨١) عن ابن عباس.

(٣) تفسير مقاتل (١/ ١٦٧).

(٤) واسمها: أيليشفع بنت عمران، كما في تفسير مقاتل، الموضع السابق.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٧) من قول السدي.

(٦) أخرجه الطبري (٣/ ٢٤٥)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٤٠).

وفاكهة الصيف في الشتاء[١].

فلما عاين زكريا هذه الآية: ﴿قال يا مريم أنّى لكِ هذا﴾ أي: من أين لكِ هذا الرزق الموجود في غير زمانه؟ الواصل إليكِ والأبواب مغلقة عليكِ؟ ﴿قالت هو من عند الله﴾.

وقوله: ﴿إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب﴾ جائز أن يكون من تمام كلامها، وجائز أن يكون ابتداء كلام من الله. وقد سبق تفسيره.

ويروى: أنها تكلمت وهي صغيرة[٢] كما تكلم عيسى في المهد. وفيه بُعْد لما سنذكره عن قريب إن شاء الله تعالى[٣].

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٤٤). وذكره الماوردي (١/ ٣٨٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٨٦) وعزاه لابن جرير.

(٢) انظر: زاد المسير (١/ ٣٨٠).

(٣) عند الآية رقم: ٤٦ من هذه السورة.

قال المفسِّرون: فلما عاين زكريا هـذه الآيـة، ورأى خَـرْقَ الله العـادة بإيجـاد الفاكهة في غير أوانها، طمع في الولد على الكبر، فذلك قوله: ﴿هنالك دعا زكريـا ربه﴾[١].

قال المفضل: أكثر ما يقال "هنالك" في الزمان، و"هناك" في المكان، وقد يُجعل هذا مكان هذا[٢].

وقال غيره: يستعار: هنا، وثَمَّ، وحيث، للزمان.

وجائز أن يكون معنى "هنالك": في ذلـك المكـان عنـد مـريم في المحـراب. وجائز أن يكون في ذلك الوقت.

والذُرِّية تقع على الواحد والجمع، والذكر والأنثى، والمراد هنا واحد، بـدليل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً﴾ [مريم:٤]، وأَنَّثَ «طَيِّبَةً» لتأنيـث لفـظ الذُرِّيـة. و«سميع» بمعنى: سامع أو مجيب.

قوله تعالى[٣]: ﴿فنادته الملائكة﴾ قرأ حمزة والكسائي: «فناداه»، بـألف ممالـة. وقرأ الباقون: فنادته[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٤٧-٢٤٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٨٧) وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٢) القرطبي (٤/ ٧٢).

(٣) كتب مقابلها في الهامش: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً رابعاً، مرة ثانية.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ١٨)، والحجة لابـن زنجلـة (ص:١٦٢)، والكـشف (١/ ٣٤٢)، والنـشر (٢/ ٢٣٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٥).

قال أبو علي[١]: من قرأ «فناداه»، فهو كقوله: ﴿وقال نسوة﴾[٢] [يوسف:٣٠].

وقال غيره: الذي ناداه: جبريل، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: "فناداه جبريل"[٣]، فيكون الجمع على قراءتهما للتعظيم، أو لبيان أن النداء جاء من ذلك الجنس، كما تقول: ركبت السفن.

وسُمِّيَ المحراب محراباً؛ لشرفه، كما ذكرنا، أو لمحاربة الشيطان فيه.

﴿أَنَّ اللهَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة: «إن الله» بكسر الهمزة على إضمار القول، أو لأن النداء في معنى القول. وقرأ الباقون بالفتح[٤]، على معنى: نادته بأن الله. فلما حذف الحرف الجار وصل الفعل فنصب.

قرأ حمزة: «يَبْشُرُكَ» بالتخفيف في كل القرآن، إلا في قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر:٥٤].

ووافقه الكسائي على التخفيف في خمسة مواضع: في آل عمران موضعان، وفي "سُبْحَانَ" موضع، وفي الكهف موضع، وفي الشورى موضع[٥]، وشدَّد ذلك

---

(١) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي، كان من أكابر أئمة النحو، صنَّف كتباً عجيبة حسنة لم يُسبق إلى مثلها، توفي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة (تاريخ بغداد ٧/ ٢٧٥).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ١٨).

(٣) انظر: الطبري (٦/ ٣٦٤).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ١٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٦٢)، والكشف (١/ ٣٤٣)، والنشر (٢/ ٢٣٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٥).

(٥) في آل عمران عند الآية: ٣٩ و ٤٥. وفي الإسراء عند الآية: ٩. وفي الكهف عند الآية: ٢. وفي الشورى عند الآية: ٢٣.

الباقون، غير أن ابن كثير وأبا عمرو خففا التي في الشورى[١]، وهما لغتان مشهورتان. يقال: بَشَّر يُبَشِّرُ تَبشيراً، وبَشَر يَبْشُرُ بَشْراً وبُشُوراً[٢].

وأنشد الفرَّاء للأعشى[٣]:

وَإِذا رَأَيْتَ البَاهِشِينَ إِلى النَّدَى غُبْراً أَكُفُّهُمُ بقَاعٍ مُمْحِلِ
فَأَعِنْهُمْ وابْشِرْ بما بَشِرُوا بهِ وَإِذا هُمُ نَزَلُوا بضَنْكٍ فَانْزِلِ[٤]

وقد ذكرنا معنى البشارة في البقرة.

قال المفسرون: رأى زكريا جبريل في صورة شاب عليه ثياب بياض، فناداه: ﴿أن الله يبشرك بيحيى﴾[٥].

وهو اسم أعجمي، وقيل: عربي، ومنعه الصرف: التعريف وصيغة الفعل.

قال ابن عباس: أحيا الله قلبه بالإيمان[٦].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٠)، والكشف (١/ ٣٤٣-٣٤٤)، والنشر (٢/ ٢٣٩-٢٤٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٥-٢٠٦).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (بشر).

(٣) ميمون بن قيس بن جندل البكري، الأعشى، الشاعر المشهور المقدم، مات باليمامة في زمن النبي ﷺ (معجم الشعراء ص:٤٠١).

(٤) معاني الفرّاء (١/ ٢١٢). والبيتان ليسا للأعشى كما قال المصنف، وإنما هما لعبد قيس بن خفاف البرجمي، كما في المفضليات (ص:٣٨٥)، والحجة للفارسي (٢/ ٢٠)، واللسان، (مادة: كرب، بشر)، وتهذيب اللغة (١١/ ٣٥٩)، والطبري (٣/ ٢٥١)، والقرطبي (٤/ ٧٥)، وزاد المسير (١/ ٣٨٢).

(٥) أخرجه الثعلبي (٣/ ٦٠).

(٦) ذكره الماوردي (٢/ ٣٩٠) بلا نسبة بنحوه، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٢).

وقال في رواية: أحيا به عقر أمه[١].

﴿مصدِّقاً بكلمة من الله﴾ أي: مؤمناً بعيسى، فإنه أوّل مَن آمن بـه[٢]، وكـان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر.

وقيل: قبل رفع عيسى إلى السماء.

وسُمِّي عيسى «كلمة»؛ لتكوينه بها من غير أب.

وقال أبو عبيدة[٣]: الكلمة: كتاب الله. تقول العرب: أنـشدني كلمـة فـلان، يعنون: قصيدته. وقال زهير في كلمته كذا وكذا.

﴿وسيداً وحصوراً﴾ السيد: الذي يَسُود قومه، أي: يفـوقهم في الـشرف[٤]. والذي سادهم به: كرامته على الله، وحلمه وتقواه.

والحَصُور: الذي لا يأتي النساء، من الحَصْر، وهو الحَبْس[٥].

والذي عليه جمهور العلماء: أنه لم يكن له آلة الوطء[٦].

وقال سعيد بن المسيب: كان له كالنواة[٧].

---

(١) أخرجه الثعلبي (٣/ ٦٢). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٢).

(٢) فرض على يحيى أن يصدق بعيسى وأن يبشر الناس برسالته، فهذا معنى التصديق. أما اتباعه فغير ممكن؛ لأن عيسى لم يبدأ رسالته إلا بعد قتل يحيى (هامش الوسيط ١/ ٤٣٤).

(٣) مجاز القرآن (١/ ٩١).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (سود).

(٥) انظر: اللسان، مادة: (حصر).

(٦) انظر: الطبري (٣/ ٢٥٥)، وزاد المسير (١/ ٣٨٣)، والدر المنثور (٢/ ١٩٠).

(٧) أخرجه الطبري (٣/ ٢٥٦). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ١٩١) وعزاه لابن جرير.

وقال ابن عباس: كان لا ينزل الماء[1].

وقيل: كان يمنع نفسه شهواتها.

قال النبي ﷺ: «كلُّ بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذَنْبٌ إلا ما كان من يحيى بن زكريا. ثم دلى رسول الله يده إلى الأرض، فأخذ عوداً صغيراً، ثم قال: وذلك أنه لم يكن له ما للرجال إلا مثل هذا العود»[2].

لذلك سماه الله: ﴿سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾، أي: ونبياً كائناً من الصالحي الحال عند الله.

وقيل: المعنى: أنه من نسل الصالحين، وأولاد الأنبياء.

﴿قال رب أنّى يكون لي غلام﴾ ليس على وجه الشك في ما جاءه من عند الله؛ لأن الأنبياءَ معصومين من مثل هذه الحالة، ولا على وجه الاستبعاد، كما زعم جماعة من العلماء؛ لأن كمالَ معرفته بالله تنفي استبعاد ما ينفعل عن القدرة الإلَهية، ثم إن دلالة الحال، وإقدامه على السؤال تنفي استبعاده لذلك، وإنما هو استعلام عن الحالة التي يتكوّن الولد فيها. المعنى: أيأتينا الولد على الحالة التي أنا عليها من الكبر، وامرأتي من العقر؟ أم يأتينا بعد رد شبابي؟ وإزالة العقر عن امرأتي؟ هذا قول جماعة منهم: الحسن، وابن الأنباري، وابن كيسان[3].

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٤٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٩٠) وعزاه لأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢٥٥)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٤٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٤، ٤/ ٢٧٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٩٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر.

(٣) ذكره الماوردي (١/ ٣٩١)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٤).

قال بعض اللغويين: الغُلام فُعَال من الغُلْمة، وهي شدة شهوة النكاح، ويقال للكهل: غلام[١]. ومنه قول ليلى الأخيلية[٢] في الحجّاج:

.... غلامٌ إذا هَزَّ القناةَ سقاها[٣]

وقد سبق.

والمعنى: قد كان مرة غلاماً، وقولهم للطفل: غلام، على معنى التفاؤل، أي سيصير غلاماً.

﴿وقد بلغني الكبر﴾ قال الزجاج[٤]: كل شيء بلغتَه فقد بلغك.

قال ابن عباس: كان يوم بُشِّرَ بالولد ابن مائة وعشرين سنة، وامرأته بنت ثمان وتسعين[٥].

والعاقر من الرجال والنساء: المنقطع، والأصل فيه للنساء، فأجري مُجْرى طالق وحائض.

﴿قال كذلك﴾ أي: مثل خلق الولد بين شيخ هرم وعجوز عاقر، يفعل ما يشاء من الآيات الخارقة للعادات.

---

(١) زاد المسير (١/ ٣٨٤).

(٢) ليلى بنت الأخيل بن عقيل بن كعب، وهي من أشعر النساء، وقد هاجت النابغة الجعدي (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص:٢٩١).

(٣) عجز بيت لليلى الأخيلية، وصدره: (شفاها من الداء العضال الذي بها) انظر ديوانها (ص:١١٨)، وفيه: "شفاها" بدل "سقاها". وانظر: اللسان، مادة: (عضل)، والدر المصون (١/ ٥٦٧)، والقرطبي (١١/ ٢١)، وزاد المسير (١/ ٢٦٩)، وروح المعاني (١٥/ ٣٣٨).

(٤) معاني الزجاج (١/ ٤٠٨).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٣٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥).

﴿قال رب اجعل لي آية﴾ علامة، أعرف بها وجود الحمل. سأل العلامة على وجود ما أمّله ورامه، ليتلقى النعمة بالشكر، ويتعجل السرور، ﴿قال آيتك ألاّ تكلّم الناس ثلاثة أيّام﴾، يريد: بلياليها، لقوله تعالى في موضع آخر: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١١].

﴿إلاّ رمزاً﴾ استثناء منقطع أو متصل. حسن استثناؤه من الكلام لنيابته منابه في الإفهام. والرَّمْزُ: الإشارة، وأكثر ما يستعمل في الشفتين.

قال ابن عباس: جعل يكلّم الناس بيده[١]، وإنما عُقِلَ لسانه عن مخاطبة الناس، ولم يُعقَل عن ذكر الله.

قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزيّ، رضي الله عنه[٢]: جمهور العلماء على أنه إنما اعتقل لسانه آية على وجود الحمل[٣].

وقال قتادة والربيع بن أنس: كان ذلك عقوبة له إذ سأل الآية والأمارة بعد مشافهة الملائكة له بالبشارة[٤].

قال الثعلبي[٥]: قول قتادة قول أكثر المفسِّرين.

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٦١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٩٢) وعزاه لابن جرير.

(٢) زاد المسير (١/ ٣٨٦).

(٣) في تفسير مجاهد (ص:١٢٦-١٢٧) عن عطاء بن السائب قال: اعتقل لسانه من غير مرض.

(٤) أخرجه الطبري (٣/ ٢٦٠)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٤٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٩٢) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٥) تفسير الثعلبي (٣/ ٦٦). والثعلبي هو: أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، أبو إسحاق الثعلبي، صاحب التفسير، كان أوحد زمانه في علم القرآن. توفي سنة سبع وعشرين وأربعمائة (طبقات المفسِّرين للداوودي ١/ ٦٦، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٣٥).

قلت: وهو قولٌ يخالف ظاهر القرآن[١].

فإن قيل: ما الحكمةُ في اختصاص الآية باعتقال لسانه عن مخاطبة الناس فقط؟

قلت: ليوفِّر زمانه على شكر هذه النعمة العظيمة، والمنة الجسيمة.

﴿واذكر ربك كثيراً﴾ أي: ذكراً كثيراً. ﴿وسبح﴾ بمعنى: صَلِّ، في قول عامة المفسِّرين. وسميت الصلاة تسبيحاً؛ لاشتمالها على تنزيه الله تعالى وتسبيحه. والعشيّ: جمع عشيّة، وهي من وقت نزول[٢] الشمس إلى أن تغيب[٣]، والإِبْكار مصدر: أَبْكَرَ يُبْكِرُ. ويقال: بَكَّرَ يُبَكِّرُ[٤]، والمراد: ما بين طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

قوله: ﴿وإذ قالت الملائكة﴾ وهو جبريل، ﴿يا مريم إنّ الله اصطفاك﴾ بالقبول

---

(١) قال النحاس: قول قتادة إن زكريا عوقب بترك الكلام، قول مرغوب عنه؛ لأن الله تعالى لم يخبرنا أنه أذنب، ولا أنه نهاه عن هذا (إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٥).

(٢) أي: من الزوال، وانظر: الماوردي (١/ ٣٩١).

(٣) انظر: تفسير مجاهد (ص:١٢٧).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (بكر).

والنَّبات الحسن، وتكليم جبريل، وولادة المسيح عيسى من غير أب، وغير ذلك، ﴿وطهّرك﴾ من دنس الآثام.

وقال ابن عباس: من الحيض[١].

وقيل: طهّرك من مسّ الرجال[٢].

وقال مجاهد: من الكفر[٣].

وقال مقاتل[٤]: من الفاحشة والإثم.

﴿واصطفاك﴾ ثانياً على نساء عالمي زمانك بالفضل، أو هو على عمومه. ويكون الاصطفاء الذي امتازت به على نساء العالمين: ولادتها عيسى من غير أب.

وفي الصحيحين من حديث علي، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ»[٥].

وفي صحيح مسلم[٦]: «فأشار وكيع إلى السماء والأرض».

وفيهما أيضاً من حديث أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَرْيَمُ بنْتُ عِمْرَانَ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٦٤٧) عن السدي. وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٣٥)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٩٥) وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٣٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٧).

(٣) ذكره الماوردي (١/ ٣٩٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٧).
وفي تفسير مجاهد (ص:١٢٧): جعلك طيبة إيماناً.

(٤) تفسير مقاتل (١/ ١٧٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٦٥ ح٣٢٤٩)، ومسلم (٤/ ١٨٨٦ ح٢٤٣٠).

(٦) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٨٦ ح٢٤٣٠).

وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[١].

قوله عز وجل: ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ قال ابن عباس: قومي في الصلاة بين يدي ربك[٢].

وقال مجاهد: أطيلي القيام في الصلاة[٣].

وقال قتادة: أطيعي ربك[٤].

فإن قيل: كيف قدّم السجود على الرّكوع؟

قلت: الواو للجمع، لا للترتيب لأنها نظير التثنية، على أنّه قد قيل: إن السجود في شريعتهم كان مقدَّماً على الركوع[٥].

وفي قوله: ﴿واركعي مع الراكعين﴾ أَمْرٌ لها بالجماعة، أو يكون المعنى: كوني في عِدادِ الراكعين، وانتظمي في سلكهم.

وأراد بالراكعين: الرجال والنساء، إذ لو كان المراد النساء فقط لقال: مع الراكعات.

قال مجاهد: سجدت حتى قرحت[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٥٢ ح٣٢٣٠)، ومسلم (٤/ ١٨٨٦ ح٢٤٣١).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٣٦).

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٢٦٤). وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٣٦)، والسيوطي في الدر (٢/ ١٩٥) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري (٣/ ٢٦٥). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ١٩٥) وعزاه لابن جرير.

(٥) ذكره أبو سليمان الدمشقي. انظر: زاد المسير (١/ ٣٨٨).

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٨).

وقال الأوزاعيّ: قامت في الصلاة حتى تورّمت قدماها وسالتا دماً وقيحاً[١].

قوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما اقتصه على نبيّه ﷺ، من أخبار زكريا، ويحيى، ومريم، وعيسى.

﴿من أنباء الغيب﴾ أي: مما غاب عنك يا محمّد علمه.

﴿نوحيه إليك﴾ أي: نلقيه عليك بإرسال جبريل إليك، ﴿وما كنت لديهم﴾ أي: ما كنت حاضراً عندهم، ﴿إذ يلقون أقلامهم﴾ وهي التي يكتبون بها. وقيل: عصيّهم، ﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ أيهم يكفل مريم تنافساً فيها.

فإن قيل: معلومٌ قطعاً أنه لم يكن عندهم، فما الفائدة في الإخبار عن ذلك؟

قلت: إقامةُ الحُجَّة على الكفار برسالة محمد ﷺ، لأنّ طريق العلم بالشيء، إما الرؤية أو السماع، وقد علموا قطعاً أن محمداً لم يكن من أهل الكتاب، ولا متشاغلاً بسماع العلم ولا دراسته، ولا كان حاضراً عند أسلافهم.

فإذا حدّثهم بما لا يعلمه إلاّ الراسخون في العلم منهم، من أنباء أنبيائهم وقصص أسلافهم، ظهرت الحُجَّة عليهم بأنه بطريق الوحي.

فإن قيل: لم سمّي عيسى المسيح؟

قلت: فيه أوجه:

أحدها: أنه لم يمسح ذا عاهة إلا برأ[٢]. ففعيل هنا في تأويل فاعل.

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٦٥) والثعلبي (٣/ ٦٧)،. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٩٥) وعزاه لابن جرير.

(٢) الوسيط (١/ ٤٣٧-٤٣٨)، وزاد المسير (١/ ٣٨٩).

الثاني: أنه كان مسيح القدمين، رواية عن ابن عباس[١].

الثالث: أنه كان ممسوحاً بالبركة. قاله الحسن[٢].

الرابع: لكونه ولد ممسوحاً بالدّهن. حكاه أبو سليمان[٣] الدمشقي[٤]، وفعيل في تأويل مفعول على هذه الأقوال.

الخامس: لكونه مسح الكفر.

السادس: أن المسيح: الصِّدِّيق. قاله مجاهد[٥]، وهو ينزع إلى قول الحسن، لأنه لما مُسح بالبركة، وطُهِّر من الذنوب صار صِدِّيقاً.

السابع: أنه سمّي مسيحاً؛ لأنه مَسَحَ الأرض، وقطعها بالسّياحة[٦]. فعلى هذا القول: الميم زائدة، وعلى الأقوال التي قبله: الميم أصلية.

وسمّي الدجّال مسيحاً؛ إما لكونه ممسوح إحدى العينين؛ أو لقطعه الأرض

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٩).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢٧٠) عن سعيد. وذكره الماوردي (١/ ٣٩٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٩)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٩٨) وعزاه لابن جرير عن سعيد.

(٣) محمد بن عبد الله بن سليمان السعدي، أبو سليمان الدمشقي، كان شافعياً، أشعرياً، كثير الاتباع للسُنَّة، صنف كتباً في التفسير (طبقات المفسِّرين للسيوطي ص:١٠٣، وطبقات المفسِّرين للداودي (٢/ ١٦٤).

(٤) زاد المسير (١/ ٣٨٩).

(٥) أخرجه الطبري (٣/ ٢٧٠)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٥١) كلاهما عن إبراهيم النخعي. وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٣٨) من قول النخعي، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٩) من قول مجاهد، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٩٨) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي.

(٦) زاد المسير (١/ ٣٨٩).

بالسياحة[١]. فالأول: فعيل في تأويل مفعول. والثاني: في تأويل فاعل. قال الشاعر:

.... إِنَّ المَسِيحَ يَقْتُلُ المَسِيحَا[٢]

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

فإن قيل: ما الحكمة في نسبته إليها حين واجهها الملك بالبشارة، فقال: ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾.

قلت: تنبيهاً على أنه آيةٌ لله، مُصوَّرٌ بكلمته، وليس له أب يُنسب إليه، إنما ينسب إليها.

قوله: ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ قال الزّجّاج[٣]: الوجيه: ذو المنزلة الرفيعة عند ذي القدر والمعرفة.

والمعنى: وجيهاً في الدنيا بالنبوّة، والآيات التي خُصَّ بها، وفي الآخرة بالشفاعة، وارتفاع المنزلة عند الله.

---

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ٦٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٨٩).

(٢) انظر الرجز في: اللسان، مادة: (مسح)، وتهذيب اللغة، مادة: (مسح)، والقرطبي (٤/ ٨٩)، ودلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٦٩).

(٣) معاني الزجاج (١/ ٤١٢).

«وجيهاً» حال من «كلمة».

فإن قيل: «كلمة» نكرة، فكيف يصحّ الحال منها؟

قلت: تَخَصَّصَتْ بالوصف، فقربت من التعريف، ومثل ذلك: ﴿ومن المقربين﴾[١].

﴿ويكلمُ الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾ أي: يبشركِ به موصوفاً بهذه الأوصاف.

قوله: ﴿في المهد وكهلاً﴾ حالان من الضمير في «يُكَلِّمُ»[٢].

قال ابن عباس: تكَلَّمَ ساعة في مهده، ثم لم يتكلّم حتى بلغ مبلغ النطق[٣].

أخرجا في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لم يَتكَلَّمْ في المَهْدِ إلا ثَلاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ... ثم ساق الحديث إلى آخره»[٤].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كَانَتْ اللَّيْلَةُ التي أُسْرِيَ بي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَولادِها، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذاتَ يَوْم إِذ سَقَطَ المُدرِيُّ مِنْ يدها فَقَالَتْ: بسم الله، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْن: أَبِي؟ قَالَتْ: لا، وَلَكِن رَبِي وَرَبُّ أَبِيكِ الله، قَالَت: أُخبره بذا؟ فقالَت: نَعم، فَأَخْبَرَتْهُ، فَدَعَاهَا فقَالَ: يَا فُلانة، وَإِنَّ لَكِ رَبّاً

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٣٤)، والدر المصون (٢/ ٩٥-٩٦).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٣٤)، والدر المصون (٢/ ٩٧).

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٩٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٦٨ ح٣٢٥٣)، ومسلم (٤/ ١٩٧٦-١٩٧٧ ح٢٥٥٠).

غَيْرِي؟ قَالَت: نَعم، رَبي وَرَبُّك الله، فَأَمَرَ ببَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلادهَا فِيهَا، قَالَت: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَة، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَت: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا، قَالَ: ذاك لَكِ عَلَيْنَا [من الحق][1]، قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا، فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِداً وَاحِداً، إِلى أَن انْتَهَى ذلِكَ إِلَى صَبيٍّ لَهَا يرْضع، فكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ[2] مِنْ أَجْلِهِ، قَال: يَا أُمَّاه، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَاب الآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ.

قال ابن عباس: تَكَلَّمَ أَرْبَعَة صغار: عِيسى ابن مَرْيَم، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُف، وَابْنُ مَاشِطَةِ [ابْنَةِ][3] فِرْعَوْنَ»[4].

فإن قيل[5]: ما الحكمة في تكليمه الناس في المهد؟

قلت: الحكمة في ذلك تنزيه أمه، وتحقيق معجزته.

قال ابن الأنباري[6]: من أربى على الثلاثين فقد دخل في الكهولة. سمّي بذلك؛ لاجتماع قوّته، وكمال شبابه، من قولهم: اكْتَهَلَ النَّبات[7].

---

(١) زيادة من مسند أحمد (١/ ٣٠٩).

(٢) قَعَسَ وتَقَاعَسَ: تأخر ورجع إلى خلف (اللسان، مادة: قعس).

(٣) زيادة من مسند أحمد (١/ ٣٠٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٩ ح٢٨٢٢). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٨٠): ويحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيداً بالمهد، وكلام غيرهم من الأطفال بغير مهد.

(٥) كتب مقابلها في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً خامساً ثانية.

(٦) انظر: زاد المسير (١/ ٣٩٠).

(٧) انظر: اللسان، مادة: (كهل).

وقال ابن فارس[١]: الكهل: الرجل حين وَخَطَهُ[٢] الشّيب[٣].

وقد روي عن ابن عباس أنه قال في قوله: «وَكَهْلاً» قال: ذلك بعد نزوله من السماء[٤].

وفي الإخبار لها بأنه يتكلم كهلاً بشارة عظيمة بحياته، وأنه يبلغ سن الكهولة.

﴿قالت﴾ على وجه التعجّب والاستعلام، مخاطبة لله عز وجل. وقيل: لجبريل، بمعنى: يا سيّدي، فإنّ الرب يطلق بمعنى: السيّد، ﴿رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ أي: لم يجامعني رجل، ﴿قال كذلكِ الله يخلق ما يشاء﴾ بسبب، وغير سبب.

وما بعده إلى آخر الآية مفسّر في البقرة.

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين، اللغوي، القزويني، كان نحوياً على طريقة الكوفيين، توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة (إنباه الرواة ١/ ١٢٧، وبغية الوعاة ١/ ٣٥٢).

(٢) الوَخْطُ: فُشُوُّ الشَّيْب في الرأس (اللسان، مادة: وخط).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٥/ ١٤٤).

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٩٠).

وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

قوله: ﴿ونعلّمه الكتاب﴾ وقرأ نافع وعاصم: "ويُعلِّمه" بالياء[١]، عطفاً على "يبشرك"، و"يكلّم".

قال ابن عباس: نعلمه كتب النبيين وعلمهم، [﴿والحكمة﴾: الفقه][٢] وقضاء النبيين[٣].

وقيل: الكتاب: الكتابة.

﴿ورسولاً﴾ أي: ويكلِّم الناس رسولاً، أو: ونجعله رسولاً. أو هو معطوف على "وجيهاً"[٤].

﴿أنّي أخلق لكم﴾ موضعه خفض، بدل من «آية»، أو رفع على معنى: الآية:

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢١)، ولابن زنجلة (ص:١٦٣)، والكشف (١/ ٣٤٤)، والنشر (٢/ ٢٤٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٦).

(٢) في الأصل: والفقه والحكمة. والتصويب من زاد المسير (١/ ٣٩١).

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٩١).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٣٥)، والدر المصون (٢/ ١٠٠) وما بعدها.

أنّي أخلق[١].

وقرأ نافع: «إنّي أخلق» بكسر الهمزة[٢] على الاستئناف.

ومعنى «أخلق لكم»: أقدّر لكم، ﴿من الطين كهيئة الطير﴾ وهو جمع طائر؛ كزائر وزَوْر، ﴿فأنفخ فيه﴾ أي: في الشيء المشابه لهيئة الطير، فيكون الضمير للكاف، وكذا الضمير للكاف في قوله في المائدة: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ [المائدة:١١٠]، ولا يرجع إلى الهيئة، لأنها ليست من خلق عيسى.

وقال أبو عليّ الفارسي[٣]: جائز أن يكون «فيه» للطير، و«فيها» للهيئة. وجائز أن يكون ذَكَّرَ الطير على [المعنى الجمع، وَأَنَّثَ][٤] على معنى الجماعة.

وقال غيره: «فأنفخ فيه»: أي: في الطين[٥].

قال ابن عباس: أخذ طيناً فصنع منه خُفَّاشاً[٦]، ونفخ فيه، فإذا هو يطير[٧].

ويقال: لم يخلق سوى الخُفَّاش[٨].

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٣٥)، والدر المصون (٢/ ١٠٤).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢١)، ولابن زنجلة (ص:١٦٤)، والكشف (١/ ٣٤٤)، والنشر (٢/ ٢٤٠).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢٢).

(٤) في الأصل: معنى الجميع فأنث. والتصويب من الحجة (٢/ ٢٢).

(٥) انظر: الزجاج في معاني القرآن (١/ ٤١٣).

(٦) الخُفَّاش: طائر يطير بالليل؛ لأنه يَشُقُّ عليه ضوء النهار (اللسان، مادة: خفش).

(٧) أخرجه الطبري (٣/ ٢٧٥) عن ابن إسحاق. وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٣٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٩٢). وبنحوه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢١٤) وعزاه لابن جرير عن ابن إسحاق.

(٨) زاد المسير (١/ ٣٩٢).

قال أبو سعيد الخدري: قال لهم عيسى: ماذا تريدون؟ قالوا: الخُفَّاش. فسألوه أشدّ الطير خلقاً، لأنه يطير بغير ريش[١].

وقال وهب: كان الذي صنعه عيسى يطير ما دام الناس ينظرونه، فإذا غاب عنهم سقط ميتاً؛ ليتميز فعل الخلق من فعل الخالق[٢].

قرأ نافع هنا وفي المائدة: «فيكون طائراً»[٣] على معنى: فيكون ما أخلق طائراً[٤].

قوله: ﴿وأبرئ الأَكْمَهَ﴾ وهو الذي يولد أعمى.

وقيل: هو الأعمى مطلقاً.

وقد قيل: لم يولد في هذه الأمّة أَكْمَه سوى قتادة بن دعامة السدوسي، صاحب التفسير.

﴿والأَبْرَص﴾ الذي به وَضَحٌ[٥]، وكان الغالب عليهم[٦] طلب الطِّبّ، فأيَّد

---

(١) ذكره الطبري (٣/ ٢٧٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه الثعلبي (٣/ ٧١). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٩٢).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢١)، ولابن زنجلة (ص:١٦٤)، والكشف (١/ ٣٤٥)، والنشر (٢/ ٢٤٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٤-١٧٥)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٦).

(٤) وقرأ بقية القرّاء: "فيكون طيراً". قال الطبري (٣/ ٢٧٥): وأعجب القراءات إليّ في ذلك قراءة من قرأ: ﴿كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً﴾ على الجماع فيهما جميعاً؛ لأن ذلك كان من صفة عيسى أنه يفعل ذلك بإذن الله، وأنه موافق لخط المصحف، واتباع خط المصحف مع صحة المعنى واستفاضة القراءة به أعجب إليّ من خلاف المصحف.

(٥) الوَضَحُ: بياض الصبح والقمر والبرص والغرة والتحجيل في القوائم وغير ذلك من الألوان (اللسان، مادة: وضح).

(٦) أي: قوم عيسى عليه السلام.

الله حُجّته، وشيد معجزته بأن أبرأ على يديه ما لا يقدر حُذَّاق الأطباء عليه.

قال وهب: ربما اجتمع على عيسى من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفاً، وإنما كان يداويهم بالدعاء[1].

قوله: ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ قال المفسِّرون: أحيا أربعة أنفس: عازر[2]، وكان صديقاً له، أحياه بعد ثلاثة أيام، وابن العجوز أحياه بعد أن حُمِل على نعشه، فرجع إلى بيته حاملاً نعشه، وابنة عشار، وسام بن نوح[3].

قال ابن عباس: بقي الأربعة حتى وُلِد لهم إلا سام بن نوح[4].

وروي أن عيسى دعاه باسم الله الأعظم، فخرج سام من قبره فقال: قد قامت القيامة؟ فقال عيسى: لا ولكن دعوتك باسم الله الأعظم، ثم قال له: مُتْ، قال: سَلِ الله أن يعيذني من سكرات الموت، فدعا الله ففعل[5].

قال ابن السائب: كان عيسى يحيي الأموات بـ«يا حيّ يا قيوم»[6].

قوله: ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ قال سعيد بن جبير: كان

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٧٨)، والثعلبي (٣/ ٧٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢١٥) وعزاه لابن جرير.

(٢) عازر كان صديقاً لعيسى عليه السلام، فأرسلت أخته إلى عيسى أن عازر يموت، فسار إليه وبينهما ثلاثة أيام، فوصل إليه وقد مات منذ ثلاثة أيام، فأتى قبره فدعا له، فعاش وبقي حتى ولد له (الكامل لابن الأثير ١/ ٢٤٢).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٣٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٩٢).

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٩٢).

(٥) ذكره البغوي في تفسيره (١/ ٣٠٤).

(٦) أخرجه الثعلبي (٣/ ٧٣). وذكره القرطبي (٣/ ٢٧١).

عيسى في المكتب يقول للغلام: إن أهلك قد هيئوا لك كذا وكذا[١].

وقيل: ما تأكلون من المائدة، وما تدخرون منها[٢].

والأصل في "تَدَّخِرُون": تَذْتَخِرُونَ، تَفْتَعِلُونَ مِن الذُّخْر، ولكن الدال حرف مجهور، والتاء مهموسة، فأبدل من مخرج التاء حرف يشبه الذال في جهرها وهو الدال، فصارت: تذدخرون، ثم أدغمت الذال في الدال.

قوله: ﴿ومصدِّقاً﴾ أي: وجئتكم مصدِّقاً.

فإن قيل: هل يجوز أن يكون عطفاً على «وجيهاً» و«رسولاً»؟

قلت: يمنعه من ذلك قوله: ﴿لما بين يديَّ﴾، ولم يقل: لما بين يديه[٣].

﴿ولأُحلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم﴾ قال أبو عبيدة[٤]: معناه: كل الذي حُرِّم عليكم.

وأنكر ذلك عليه أبو إسحاق[٥]، لأن "بعضاً" لا يكون بمعنى "كل"، ولا أَحَلَّ لهم كُلَّ الذي حُرِّم عليهم[٦].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٣/ ١٠٤٣)، والطبري (٣/ ٢٧٩)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٥٦). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٢٢١) وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢٨٠)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٥٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢١) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر.

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٣٦)، والدر المصون (٢/ ١٠٨-١٠٩).

(٤) مجاز القرآن (١/ ٩٤).

(٥) هو الزجاج.

(٦) انظر: معاني الزجاج (١/ ٤١٥). قال النحاس في معاني القرآن (١/ ٤٠٣): وهذا القول -يعني قول أبي عبيدة- غلط عند أهل النظر من أهل اللغة، لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل.

قال قتادة: كان موسى حرَّم عليهم الإبل، والثُّروب[١]، وأشياء من الطير، فأحلّها عيسى[٢].

ثم بَرْهَنَ على النبوة بقوله: ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾.

ثم نفى البنوّة بقوله: ﴿إن الله ربي وربكم﴾، ثم أمرهم بالتوحيد بقوله: ﴿فاعبدوه هذا﴾ إشارة إلى ما قدم ذكره ﴿صراط مستقيم﴾: طريق مستوٍ يفضي بكم إلى الجنة[٣].

قوله: ﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفر﴾ أي: عَلِمَهُ منهم علماً لا لبس فيه[٤]، كعلم ما يُدرَك بالحواس، اللائي هي إحدى مدارك اليقين. تقول: أَحْسَسْتُ بالشَّيْءِ وحَسَسْتُ به، فهو مُحَسٌّ، وقول الناس: مَحْسُوس؛ خطأ.

﴿قال مَن أنصاري إلى الله﴾ قال الأكثرون: «إلى» بمعنى «مع»، كقوله: ﴿إلى المرافق﴾ [المائدة:٦]. والعرب تقول: الذَّوْدُ إلى الذَّود إبل[٥].

وقيل: المعنى: مَن أنصاري إلى أن أبيّن أمر الله.

وقيل: «إلى» تتعلق بمحذوف، حالاً من الياء، أي مَن أنصاري ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه[٦]. قال ذلك حين كفروا به، وهمُّوا بقتله.

---

(١) الثُّروب: جمع، واحده: ثَرْب، وهو شحم رقيق يغشى الكَرِش والأمعاء (اللسان، مادة: ثرب).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢٨٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٢) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٣) كتب مقابلها: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً ثانياً.

(٤) قاله الزجاج (١/ ٤١٦)، والفرّاء (١/ ٢١٦).

(٥) انظر: الطبري (٣/ ٢٨٤).

(٦) قاله الزمخشري في الكشاف (١/ ٣٩٣).

﴿قال الحواريون﴾ أصل التَّحْوير: التنظيف والإخلاص، ومنه: الدقيق الحُوَّاري[١]؛ لنظافته وخلوصه، والحَوَارِيَّات: الحواضر من النساء؛ سُمِّين بذلك لنظافتهن عن قشف البوادي[٢].

قال الزّجّاج[٣]: الحُذَّاق باللغة يقولون: الحواريون صفوة الأنبياء الذين أخلصوا في التصديق بهم ونصرتهم.

ومنه قوله عليه الصلاة السلام: «الزُّبَيْرُ ابْنُ عَمَّتِي وَحَوَارِيَّ مِنْ أُمَّتِي»[٤].

قال ابن عباس: الحواريون أصفياء عيسى عليه السلام، قال: وكانوا اثني عشر رجلاً، يصطادون السمك[٥].

وقال في رواية أخرى: كانوا قَصَّارين[٦]، يُحَوِّرُون الثياب[٧]، أي: يُبَيِّضُونَهَا.

وقال ابن المبارك: سمُّوا حواريين؛ لأنهم كانوا ربانيين[٨]، عليهم أثر العبادة

---

(١) أي: الأبيض الخالص.

(٢) انظر: اللسان، مادة: (حور).

(٣) معاني الزجاج (١/ ٤١٧).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٤ ح١٤٤١٤).

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٦) القَصَّارون: جمع قَصَّار، وهو الذي يغسل الثياب.

(٧) أخرجه الطبري (٣/ ٢٨٧) عن أبي أرطاة، وبنحوه في ابن أبي حاتم (٢/ ٦٥٩) عن الضحاك، ومجاهد (ص:١٢٨). وذكره الماوردي (١/ ٣٩٥) من قول ابن أبي نجيح ، والواحدي في الوسيط (١/ ٤٤١) عن عطاء، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٣) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن أبي أرطاة.

(٨) في تفسير الثعلبي: نورانيين.

ونورها، وحسنها، قال الله تعالى: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾[١] [الفتح:٢٩].

وحكى ابن الأنباري: أنهم المجاهدون[٢]، وأنشدوا:

.... وَنَحْنُ حَوَارِيُّونَ حِينَ نُزَاحِفُ[٣]

وقد سبق إنشاد البيتين عند قوله: ﴿فمن خاف من موص جنفاً﴾ [البقرة:١٨٢].

﴿نحن أنصار الله﴾ أي: أنصار دينه ورسوله، ﴿آمنا بالله واشهد﴾ يا عيسى أو يا ربنا ﴿بأنّا مسلمون﴾.

﴿ربنا آمنّا بما أنزلت﴾ يعنون: الإنجيل، ﴿واتبعنا الرسول﴾ عيسى، ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي: أثبت أسماءنا مع الذين شهدوا للأنبياء بالصدق.

قال ابن عباس: هم محمد ﷺ وأمته[٤].

قوله: ﴿ومكروا ومكر الله﴾، المكْر: الاحتيال، والخديعة.

قال ابن عباس: عامة بني إسرائيل كفروا بعيسى، وهمُّوا بقتله اغتيالاً، فجازاهم الله على مكرهم، فرفع عيسى إلى السماء، وألقى شبهه على من دَلَّهم عليه،

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي (٣/ ٧٧)، والبغوي (١/ ٣٠٦).

(٢) زاد المسير (١/ ٣٩٤).

(٣) عجز بيت وصدره: (ونحنُ أناسٌ يملأُ البيضَ هَامُنا). انظر البيت في: زاد المسير (١/ ٣٩٤)، والدر المصون (٢/ ١١٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٦٦٠)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٧٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٣) وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

فَصُلِب[١].

قال رجل للجنيد[٢]: كيف رضي المكرَ لنفسه، وقد عاب به غيره؟ فقال: ما أدري ما تقول، ولكن أنشدتني فلانة [الطبرانية][٣]:

فَدَيْتُكَ قَدْ جُبِلْتُ عَلَى هَوَاكَا فَنَفْسِي لا تُنَازِعُنِي سِوَاكَا
أُحِبُّكَ لا بِبَعْضِي بَلْ بِكُلِّي وَإِنْ لَمْ يُبْقِ حُبُّكَ بِي حِرَاكَا
وَيَقْبحُ مِنْ سِوَاكَ الفِعْلُ عِنْدِي وَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا[٤]

فقال الرجل: أسألك عن آية من كتاب الله، وتجيبني عن شعر فلانة الطبرانية، فقال: ويحك! قد أجبتك إن كنتَ تعقل، إن تخليته إياهم مع المكر به، مكر منه بهم[٥].

﴿والله خير الماكرين﴾ أقواهم مكراً وأنفذهم كيداً.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ

---

(١) ذكره الطبري (٦/ ٤٥٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٩٥).

(٢) الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز، أبو القاسم القواريري، الزاهد المشهور، شيخ الصوفية، وأحد العارفين، شيخ وقته وفريد عصره في علم الأحوال والكلام، وله أخبار مشهورة وكرامات مأثورة. توفي ببغداد سنة ثمان وتسعين ومائتين (حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥، وتاريخ بغداد ٧/ ٢٤١، ووفيات الأعيان ١/ ٣٧٣).

(٣) في الأصل: الطنبرانية. والمثبت من تفسير الثعلبي. وكذا وردت في الموضع التالي.

(٤) الأبيات لأبي نُواس، انظر ديوانه: (ص:٤٧٣).

(٥) ذكره الثعلبي (٣/ ٧٩).

مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك﴾ «إذ» ظرف لـ «خير الماكرين»، أو لـ «مكر الله»(١).

قال ابن قتيبة(٢): التوفّي من استيفاء العدد. يقال: تَوَفَّيْتُ واسْتَوْفَيْتُ(٣).

قال الحسن وابن جريج وابن قتيبة(٤) والفرّاء(٥) في آخرين: المعنى: إني قابضك [من الأرض](٦) وافياً تاماً، من غير أن تنالَ اليهود منك شيئاً(٧).

﴿ورافعك﴾ من الدنيا، ﴿إليّ﴾ من غير موت.

وقال الربيع بن أنس: المعنى: إني مُنيمك، ورافعك إليّ في نومك(٨)، من قوله:

---

(١) قاله الزمخشري في الكشاف (١/ ٣٩٤).

(٢) انظر: زاد المسير (١/ ٣٩٦).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (وفى).

(٤) تفسير غريب القرآن (ص:١٠٦).

(٥) معاني الفرّاء (١/ ٢١٩).

(٦) زيادة من الوسيط (١/ ٤٤١)، وزاد المسير (١/ ٣٩٦).

(٧) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩٠)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٦١-٦٦٢) عن الحسن. وذكره الماوردي (١/ ٣٩٧)، والواحدي في الوسيط (١/ ٤٤١)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٩٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٨) أخرجه الطبري (٣/ ٢٨٩)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٦١). وذكره الماوردي (١/ ٣٩٧).

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم باللَّيْلِ﴾ [الأنعام:٦٠].

وقال بعض أهل المعاني: إني متوفيك عن شهواتك، وحظوظ نفسك[١].

قال وهب بن منبه: كساه الله الريش وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، فصار ملكياً إنسياً، سمائياً أرضياً[٢].

فعلى هذه الأقوال الكلام على نظمه.

وروي عن ابن عباس أنه قال: "إني متوفيك" أي: مميتك[٣].

ثم اختلف فيه على قولين:

أحدهما: أنه على نظمه أيضاً.

قال وهب: توفاه الله ثلاث ساعات من النهار، ثم رفعه إليه[٤].

الثاني: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، معناه: إني رافعك إليّ ومطهرك ومتوفيك بعد إنزالك من السماء[٥].

وتكون الحكمة في إعلامه بوفاته بعد إنزاله من السماء تعريفه أن رفعه إلى

---

(١) نسبه الثعلبي في تفسيره (٣/ ٨٢) إلى أبي بكر الواسطي.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣/ ٩٤) من حديث ابن إسحاق. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ١١٨) وعزاه لابن عساكر عن وهب.

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩٠)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٦١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٤) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩١)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٦١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره الطبري (٣/ ٢٩١). ورواه ابن أبي حاتم (٢/ ٦٦١) عن قتادة. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٥) وعزاه لابن أبي حاتم عن قتادة.

السماء غيرُ عاصم له من الموت المحتوم على أولاد آدم.

قوله: ﴿ورافعك إليّ﴾ قال سعيد بن المسيب: رُفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة[١].

وقال غيره: حملت به مريم وهي ابنة ثلاث عشرة سنة، وولدته ببيت لحم من أرض أُوْرِي شَلَّمْ[٢] لمضي خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل، وأوحي إليه على رأس ثلاثين سنة، ورُفع وهو ابن ثلاث وثلاثين، فكانت نبوته ثلاث سنين[٣].

قال مقاتل[٤]: رفع من بيت المقدس ليلة القدر في رمضان.

وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين[٥]، ولما صُلِب شَبَهُهُ جاءت مريم تبكي عنده، فجاءها عيسى فقال: عَلامَ تبكين؟ قالت: عليك، فقال: إن الله

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٥٩٠، ٧/ ٣٨٨)، والحاكم (٣/ ٣٠٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٦) وعزاه لابن سعد وأحمد في الزهد والحاكم.

(٢) هو اسم بيت المقدس، ومعناه بالعبرانية: بيت السلام (اللسان، مادة: أور).

(٣) أخرج الحاكم نحوه (٢/ ٦٥١) عن وهب. وذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ٨٠)، وذكره أيضاً في عرائس المجالس (ص٤٠٢-٤٠٣)، ونسبه إلى التوراة. وذكر نحوه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٥) وعزاه للحاكم عن وهب.

وفي هامش الأصل: عن ابن عباس: كانت مدة الحمل ساعة واحدة، كما حملته نَزَرَتْهُ. وقيل: ستة أشهر، وقيل: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية. ولم يعش مولود وُضع لثمانية إلا عيسى. وقيل: حملته في ساعة، وصُوِّر في ساعة، ووضعته في ساعة. هذا ذكر في سورة مريم [انظر: الآية رقم: ٢٢].

(٤) تفسير مقاتل (١/ ١٧٣).

(٥) تفسير الثعلبي (٣/ ٨٠)، وزاد المسير (١/ ٣٩٧).

رفعني، ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شُبِّهَ لهم[١].

قال وهب: طرقوا عيسى في بعض الليل ليصلبوه، فلما أرادوا صلبه أظلمت الأرض، فأرسل الله الملائكة فحالوا بينه وبينهم، وصلبوا مكانه رجلاً يقال له: يهوذا، وهو الذي دَلَّهُم عليه، وذلك أن عيسى عليه السلام جمع الحواريين تلك الليلة وأوصاهم، ثم قال: لَيكفرنّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك، ويبيعني بدراهم يسيرة، فخرجوا وتفرَّقوا، وكانت اليهود [تطلبه][٢]، فأتى الحواري إلى اليهود، فقال: ما تجعلون لي إنْ دَلَلْتُكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين[٣] درهماً، فأخذها ودلَّهم عليه، فألقى الله عليه شَبَهَ عيسى لما دخل البيت، ورُفع عيسى، فأُخِذَ الذي دلّهم عليه، فقال: أنا الذي دَلَلْتُكم عليه، فلم يلتفتوا إلى قوله وقتلوه وصلبوه، وهم يظنون أنه عيسى[٤].

قوله: ﴿ومطهرُك من الذين كفروا﴾ أي: مُخْرِجك من بين أظهرهم، فإنهم أرجاس.

﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ قال ابن زيد: هم النصارى، ﴿فوق الذين كفروا﴾ وهم اليهود، فاليهود مقهورون مستذلون[٥].

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١٣) عن وهب، والثعلبي (٣/ ٨٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٣٠) وعزاه لابن جرير عن وهب.

(٢) في الأصل: تطلبهم. والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) في تفسير الثعلبي (٣/ ٨٠): مائتي درهم.

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ١٣)، والثعلبي في تفسيره (٣/ ٧٩-٨٠)، وفي عرائس المجالس (ص: ٤٠٠). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٧٢٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٥) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩٣). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٢٢٧) وعزاه لابن جرير.

وأنكر هذا القول حُذَّاق العلماء، وقالوا: والله ما اتبعه مَن ادعاه رباً[١].

قال قتادة والربيع والشعبي في آخرين: «وجاعل الذين اتبعوك»: هم أمة محمد، لأنهم صدَّقوا بنبوته، وأنه روح الله وكلمته[٢].

وعلى قول ابن زيد: معنى المتابعة لعيسى: محبته والميل إليه.

﴿فوق الذين كفروا﴾ بالبراهين والحجج، أو بالعزّ والغلبة، ﴿ثم إليّ مرجعكم﴾ هذا رجوع من المغايبة إلى المخاطبة، ﴿فأحكم بينكم﴾ حكم مجازاة، وإلا فقد حكم بينهم بالحجج والبراهين وبيان الحق من الباطل.

ألا تراه يقول: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا﴾ بالقتل والسبي والنفي والجزية والعار، ﴿والآخرة﴾ بالنار.

﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فنوفيهم أجورهم﴾ قرأ حفص «فيوفيهم» بالياء، وهي قراءة الحسن، حملاً على ما قبله من لفظ الغيبة في قول الله: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك﴾. وقرأ الباقون: «فنوفيهم» بالنون، على الإخبار عن الله تعالى[٣].

﴿ذلك﴾[٤] إشارة إلى ما سبق من خبر عيسى وغيره، وهو مبتدأ، خبره ﴿نتلوه عليك من الآيات﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون «ذلك»

---

(١) الوسيط (١/ ٤٤٢).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩٢)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٦٢)، والثعلبي (٣/ ٨٣). وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٤٢)، والسيوطي في الدر (٢/ ٢٢٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٦٤)، والكشف (٥/ ٣٤٥)، والنشر (٢/ ٢٤٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٥)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٦).

(٤) كتب مقابلها: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً سادساً مرة ثانية.

منصوباً بمضمر[١] يفسره «نتلوه».

﴿من الآيات﴾ وهي الدلالات على صدقك، وصحة نبوتك، ﴿والذكر الحكيم﴾ هو القرآن المحكم في نظمه، ومعانيه.

وقيل: الذكر الحكيم: اللوح المحفوظ، وهو دُرَّة بيضاء معلَّقة بالعرش.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

وقد روي عن الحسن البصري قال: جاء راهبا نجران[٢] إلى رسول ﷺ فعرض عليهما الإسلام، فقالا: إنا قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من ذلك ثلاث: أكلكما الخنزير، وعبادتكما الصليب، وقولكما: لله ولد. قالا: فمن أبو عيسى؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله ... -إلى قوله:- فلا تكن من الممترين﴾[٣].

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٣٧)، والدر المصون (٢/ ١١٧).

(٢) وهما السيد والعاقب؛ كما في الدر المنثور (٢/ ٢٢٨) عن ابن عباس وقتادة والسدي وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٦٦٤)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٠٦-١٠٧). وذكره السيوطي في لباب النقول (ص:٥٢) وعزاه لابن أبي حاتم.

والمعنى: إن مَثَلَ عيسى عند الله في الخلق والإنشاء من غير أب وإيجاده إيجاداً خارقاً للعادة، كمَثَلِ آدم، وكون آدم خُلِق من غير أبوين لا يمنع من تشبيه عيسى به في أحد الطرفين، إذ المماثلة لا تقتضي المشاركة من كل وجه، وفي ضمن تمثيل عيسى بآدم قطعٌ لحُجَّة الخصم بأبلغ الطرق، حيث اعتقد استحقاق عيسى للإلهية بإيجاده من غير أب، فأورد عليه ما هو أعجب من عيسى، وهو آدم.

وبلغنا أن بعضَ العلماء أسرته الروم، ففاوضوه يوماً في ذكر عيسى، فقال: لِمَ تعبدونه؟ فقالوا: لأنه لا أب له، قال: فآدم أولى لأنه لا أبوين له، قالوا: كان يُحْيي الموتى، قال: فحزقيل[١] أولى، لأن عيسى أحيا أربعة أنفس وحزقيل أحيا ثمانية آلاف، قالوا: فكان يبرئ الأكمه والأبرص، قال: فجرجيس[٢] أولى لأنه طُبخ وأُحْرِق، ثم قام سالماً[٣].

قوله: ﴿خلقه من تراب﴾ يعني: صوَّره وقدَّره جسداً من طين، لا روح فيه. ﴿ثم قال له﴾ أي لآدم، وقيل: لعيسى، ﴿كن فيكون﴾ أي: فكان، وقد قررنا مثل ذلك في قوله: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة:١٠٢].

﴿الحق من ربك﴾، أي: هذا الحق من ربك، أو أتاك الحق، أو هو مبتدأ وخبر. ثم خاطب المؤيّد بالعصمة بالنهي عن الامتراء، وهو: الشك فيما جاءه من

---

(١) حزقيل وهو الذي يقال له: ابن العجوز؛ لأن أمه سألت الله الولد وقد كبرت فوهبه الله لها، وهو الذي دعا للقوم الموتى فأحياهم الله (الكامل ١/ ١٦٠). والله أعلم بصحة هذه الرواية.

(٢) جرجيس: رجل صالح من أهل فلسطين، أدرك بقايا من حواريي عيسى عليه السلام (الكامل ١/ ٢٨٥، والمنتظم ٢/ ١٤٨).

(٣) ذكره النسفي في تفسيره (١/ ١٥٧).

الأنباء، لينبه الغافل، ويثبت العاقل، فقال: ﴿فلا تكن من الممترين﴾.

قوله: ﴿فمن حاجّك فيه﴾ أي: في عيسى، وقيل: في الحق.

﴿فقل تَعَالَوْا﴾ قال الفرَّاء: أصلها من العلو، ثم إن العرب لكثرة استعمالهم إياها صارت عندهم بمنزلة «هلم» حتى استجازوا أن يقولوا للرجل وهو فوق شرف: تعال، أي: اهبط[١].

وقرأ الحسن: تعالُوا -بضم اللام-[٢]، والأصل فيه: تعالَيُوا، تفاعَلُوا من العلو، فاستثقلوا الضمة على الياء فأسكنوها ثم حذفوها وبقيت اللام على فتحها[٣]. ومَن ضمّ نقل حركة الياء المحذوفة إلى اللام.

﴿نَدْعُ أبناءنا﴾ أي: يَدْعُ كل مني ومنكم. وأبناؤه ﷺ فاطمة وابناها[٤]، ﴿وأنفسنا وأنفسكم﴾ يعني: نفسه الكريمة.

قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رحمة الله عليه[٥]: في قوله: «وأنفسنا»، خمسة أقوال:

أحدها: أنه أراد عليّ بن أبي طالب. قاله الشعبي، والعرب تُخبر عن ابن العم بأنه نفس ابن عمه.

والثاني: أنه أراد الإخوان. قاله ابن قتيبة[٦].

---

(١) لم أقف عليه في معاني الفراء. وعزاه ابن الجوزي له في زاد المسير (١/ ٣٩٩).

(٢) إعراب القراءات الشواذ (ق/ ٤٣/ أ)، وهي قراءة شاذة.

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٣٨)، والدر المصون (٢/ ١٢١).

(٤) أي: أبناء فاطمة؛ الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين.

(٥) زاد المسير (١/ ٣٩٩).

(٦) تفسير غريب القرآن (ص:١٠٦).

والثالث: أراد أهل دينه. قاله أبو سليمان الدمشقي.

والرابع: أراد الأزواج.

والخامس: القرابة القريبة.

وفي صحيح مسلم من حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ عَلِيّاً وَفَاطِمَةَ وَحَسَناً وَحُسَيْناً، فقال: اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلِي»[١].

قال العلماء بالتفسير: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ وفد نجران إلى المباهلة[٢]، وخرج رسول الله ﷺ محتضناً الحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعليّ خلفها، وهو يقول: إذا أنا دعوتُ فأمّنوا. فقال أَسْقُفّ[٣] نجران: يامعشر النصارى! إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً عن مكانه لأزاله، فلا تُباهِلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة. ثم قبلوا الجزية، وصالحوا رسول الله ﷺ أن يؤدوا إليه في كل سنة ألفي حُلَّة وثلاثين درعاً من حديد، عارية مضمونة، وانصرفوا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن العذاب قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لَمُسِخوا قردة وخنازير، ولاضْطَرَّم الوادي عليهم ناراً، ولاسْتَأْصَلَ الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر، ولَمَّا حال

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٧١ ح٢٤٠٤).

(٢) المباهلة: الملاعنة، وهي أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا (اللسان، مادة: بهل).

(٣) الأسقف: رئيس من رؤساء النصارى فوق القسيس ودون المطران (المعجم الوسيط ١/ ٤٣٦).

الحَوْل على النصارى حتى هلكوا»[١].

﴿ثم نَبْتَهِل﴾ نَفْتَعِل، من البُهْلَة -بضم الباء وفتحها- وهي اللَّعْنَة، ويكون الابتهال بمعنى: الدعاء والتضرع، فالمعنى: نجتهد في الدعاء على الكاذب. والمعنيان مرويان عن ابن عباس[٢].

قوله: ﴿إن هذا﴾ يعني: الذي أوحاه إليه، ﴿لهو القصص الحق﴾ "هو" فصل، وجاز دخول اللام عليها -وهي فصل- لأنها أقرب إلى المبتدأ من الخبر.

والخبر تدخل عليه اللام التي أصلها للمبتدأ، فدخولها على ما هو أقرب أولى، أو يقال: «لهو» مبتدأ، "القصص" خبره، والجملة خبر «إنّ»[٣].

﴿وما من إله إلا الله﴾ ردٌّ على النصارى، وتكذيبٌ لهم في اعتقادهم التثليث. ودخلت «مِنْ» هاهنا توكيداً للنفي[٤].

و«إله» في موضع رفع بالابتداء، والخبر «إلا الله»[٥].

﴿فإن تولَّوا﴾ أعرضوا عن المباهلة، أو عن هذا البيان الواضح، ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ فيستحقون مضاعفة العذاب، مضافاً إلى العذاب المستحق بسبب

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٢٩٩-٣٠١)، والحاكم (٢/ ٦٤٩). وذكره الثعلبي (٣/ ٨٥)، والواحدي في الوسيط (١/ ٤٤٤)، وأسباب النزول (ص:١٠٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٣٠-٢٣١) وعزاه للحاكم وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٦٦٨)، وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٤٥)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٣٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٣٨)، والدر المصون (٢/ ١٢٣).

(٤) ذكر هذا الزجّاج في معانيه (١/ ٤٢٤).

(٥) انظر: التبيان (١/ ١٣٨)، والدر المصون (٢/ ١٢٣).

الكفر، ويشهد لذلك قوله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

قوله: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة﴾ وهي: «لا إله إلا الله»، ولعمري إنها كلمات، ولكن العرب تسمى الكلام المشتمل على شرح قصة: "كلمة"، وقد سبق ذكره.

﴿سواء بيننا وبينكم﴾ أي: عدل بيننا وبينكم، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود[(١)].

قال الزجاج[(٢)]: يقال للعدل: سَواء وسَوىً وسُوىً. قال زهير بن أبي سلمى:

أَرُونِي خُطَّةً لاَ ضَيْمَ فِيهَا يُسَوِّي بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ
فَإِنْ نَزَلَ السَّوَاءُ فَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكُم بَنِي حصن بَقَاءُ[(٣)]

---

(١) انظر: مختصر الشواذ لابن خالويه (ص:٢٣)، والطبري (٣/ ٣٠٣).

(٢) معاني الزجاج (١/ ٤٢٥).

(٣) البيتان لزهير بن ربيعة المزني، شاعر جاهلي، أحد أصحاب المعلقات. انظر: ديوانه (ص: ٢١)، وفيه: «أرونا سنة» بدل «أروني خطة». وانظر البيت الأول في: اللسان، مادة: (سوا)، والبحر المحيط (٢/ ٥٠٧)، والدر المصون (١/ ١٠٤، ١٢٥)، والقرطبي (٤/ ١٠٦، ١١/ ٢١٢)، وزاد المسير (١/ ٤٠٢)، والحجة للفارسي (١/ ١٦٢)، وتهذيب اللغة (١٣/ ١٢٦).

فالمعنى: هلموا إلى كلمة عادلة، مستوية بيننا وبينكم، لا تختلف فيها التوراة والإنجيل والقرآن.

وقرأ الحسن البصري: «سواءً»، بالنصب، على معنى: استوت سواء[(١)].

«ألا نعبد» بدل من «كلمة»، أو في موضع رفع، على معنى: هي[(٢)].

﴿ألا نعبد إلا الله ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ كما اتخذتم عيسى وعُزيراً، وهم بشر مثلنا، أو لا نطيع الأحبار في ما حرَّموا وحلَّلوا من غير شريعة، كما قال: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً من دُونِ الله﴾ [التوبة:٣١].

﴿فإن تولَّوا﴾ أعرضوا عن التوحيد، وعن ما أتيتم به من الهدى والبيان ﴿فقولوا﴾ على وجه التضليل لآرائهم، والتقريع لهم: ﴿اشهدوا﴾ اعْلَموا، وأَعْلموا مَن وراءكم، ﴿بأنّا مسلمون﴾ مستسلمون منقادون للحق، إذ تعاصيتم عليه، ونكصتم عنه. وبهذه الآية العظيمة دعا رسول الله ﷺ قيصرَ ملكَ الروم إلى الإسلام حين كتب إليه يقول: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إِلَى قيصر عَظِيمِ الرُّومِ: سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْد: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلام أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ[(٣)]، و﴿يَا أَهْلَ الكِتَاب تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلا الله وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بأَنّا مُسْلِمُون﴾»[(٤)].

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢/ ٥٠٦).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٣٨)، والدر المصون (٢/ ١٢٥).

(٣) المراد بهم: الخَدَمُ والخَوَلُ، يعني: بصده لهم عن الدين (تاج العروس، مادة: أرس).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٩ ح٧)، ومسلم (٣/ ١٣٩٦ ح١٧٧٣).

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في إبراهيم﴾ قال ابن عباس: اجتمع عند النبي ﷺ أحبار اليهود، ونصارى نجران، فقال هؤلاء: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقال هؤلاء: ما كان إلا نصرانياً، فنزلت هذه الآية[1].

﴿وما أنزلت التوراة﴾ التي حدثت اليهودية بعد نزولها، ﴿والإنجيل﴾ الذي نزلت النصرانية بعد نزوله، ﴿إلا من بعده﴾ أي: من بعد موت إبراهيم بدهر طويل، فبين إبراهيم وموسى نحو من ستمائة سنة، وبين موسى وعيسى ألف وثمانمائة سنة.

﴿أفلا تعقلون﴾ استحالة ما ادعيتم، وقبح ما أتيتم، فتُحجمون عن الجدال بالمحال.

قوله: ﴿ها أنتم﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بتليين الهمز مع المد، وقرأ ابن كثير

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٣٠٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٣٥) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير والبيهقي في الدلائل. وذكره في لباب النقول (ص:٥٣).

بالقصر والهمز، على وزن: هَعَنْتُمْ، وقرأ الباقون بالمد والهمز[١]، وأصله: «ءأنتم» فقلبت الهمزة هاء، فعلى هذا هو استفهام في معنى التعجب من جهلهم.

و قيل: «ها» للتنبيه، «أنتم» مبتدأ، ﴿هؤلاء﴾ خبره[٢].

﴿حاججتم﴾ جملة مستأنفة مبيِّنة للجملة الأولى، على معنى: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى، وبيان حماقتكم وجهلكم أنكم ﴿حاججتم فيما لكم به علم فلِمَ تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾، وقيل: "هؤلاء" [بمعنى: الذين، و"حاججتم"][٣] صلته، ﴿والله يعلم﴾ دين إبراهيم، ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك.

ثم [وصفه بالحنيفية][٤] ونزَّهه عمَّا نسبوه إليه من اليهودية والنصرانية فقال: ﴿ما كان إبراهيم ... الآية﴾.

قوله عز وجل: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود، حين قالوا للنبي ﷺ: لقد علمت أنّا أولى بدين إبراهيم منك، إنه كان يهودياً، وما بك إلا الحسد[٥].

وقيل: إنها نزلت في مخاصمة جعفر بن أبي طالب، وعمرو بن العاص عند

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٢-٢٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٦٥)، والكشف (١/ ٣٤٦)، والنشر (١/ ٤٠١-٤٠٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٥-١٧٦)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٧).

(٢) انظر: التبيان للعكبري (١/ ١٣٩)، والدر المصون (٢/ ١٢٩).

(٣) ما بين المعكوفين غير ظاهر في الأصل، والمثبت من الكشاف (١/ ٣٩٨).

(٤) ما بين المعكوفين بياض في الأصل، ولعله كما أثبتناه.

(٥) ذكره الواحدي أسباب النزول (ص:١٠٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٣).

النجاشي، وكان من حديثهم ما رواه أبو صالح[١] عن ابن عباس، وعبد الرحمن بن غنم[٢] عن أصحاب رسول الله، ويونس بن بكير[٣] عن محمد بن إسحاق رفعه، دخل حديث بعضهم في بعض، قالوا: لما هاجر جعفر بن أبي طالب وأصحابه إلى الحبشة، واستقرت بهم الدار، وهاجر رسول الله إلى المدينة، وكان من أمر بدر ما كان، اجتمعت قريش في دار الندوة، وقالوا: إنّ لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمد ثأراً ممن قُتل منكم ببدر، فاجمعوا مالاً وأهدوه للنجاشي لعله يدفع إليكم مَنْ عنده من قومكم، ولينتدب[٤] لذلك رجلان من ذوي آرائكم، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط معهم الهدايا والأدم[٥] وغيره، فركبا البحر وأتيا النجاشي، فلما دخلا على النجاشي سجدا له وسلَّما عليه، وقالا له: إنّ قومنا لك ناصحون وشاكرون، ولصلاحك محبّون، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك من هؤلاء القوم الذين قدموا عليك؛ لأنهم قوم رجل كذَّاب، خرج فينا يزعم أنه رسول الله، ولم يتابعه أحد منّا إلا السفهاء، وإنّا كنا قد ضيَّقنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شِعْب بأرضنا، لا يدخل عليهم أحد، ولا يخرج منهم أحد، فلمّا

---

(١) أبو صالح هو مولى أم هانئ (التقريب ص: ١٢٠).

(٢) عبد الرحمن بن غنم -بفتح المعجمة وسكون النون- الأشعري، شيخ أهل فلسطين وفقيه الشام. وكان مولده في حياة النبي ﷺ. توفي سنة ثمان وسبعين (تذكرة الحفاظ ١/ ٥١).

(٣) يونس بن بكير بن واصل الشيباني، أبو بكر الجمّال، الكوفي، المحدِّث، صاحب المغازي. توفي سنة تسع وتسعين ومائة (تهذيب الكمال ٣٢/ ٤٩٧).

(٤) ندب القوم إلى الأمر يندبهم ندباً: دعاهم وحثّهم (اللسان، مادة: ندب).

(٥) الإدم بالكسر والأدم بالضم: ما يؤكل مع الخبز أيّ شيء كان (النهاية في غريب الحديث، مادة: أدم).

اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه[١] ليفسد عليك دينك ومُلكك ورعيتك، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم.

قالوا: وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك، ولا يحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس، رغبةً عن دينك وسُنَّتك.

قال: فدعاهم النجاشي، فلما حضروا صاح جعفر بالباب: يستأذن عليك حزبُ الله، فقال لهم النجاشي: مروا هذا الصائح فليُعِدْ كلامه، ففعل جعفر، فقال النجاشي: نعم، فليدخلوا بأمان الله وذمته، فنظر عمرو بن العاص إلى صاحبه فقال: ألا تسمع كيف يَرْطُنُون[٢] بحزب الله، وما أجابهم به النجاشي، فساءهما ذلك. ثم دخلوا عليه ولم يسجدوا له، فقال عمرو بن العاص: ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك؟ فقال لهم النجاشي: ما منعكم أن تسجدوا لي، وتحيوني بالتحية التي يحييني بها من أتاني من الآفاق؟ قالوا: نسجد لله الذي خلقك ومَلَّكك، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث الله منّا نبياً صادقاً، وأمرنا بالتحية التي رضيها الله لنا وهي السلام، تحية أهل الجنة، فعرف النجاشي أن ذلك حق، وأنّه في التوراة والإنجيل. قال: أيكم الهاتف: يستأذن عليك حزب الله؟ قال جعفر: أنا، قال: يتكلم، قال: إنك ملك من ملوك الأرض، ومن أهل الكتاب، ولا يصلح عندك كثرة الكلام، ولا الظلم، وأنا أحب أن أجيب عن أصحابي، فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما ولينصت الآخر، فتسمع محاورتنا. فقال عمرو

---

(١) يعني: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) قال في النهاية: يرطنون بحزب الله، أي: يكنون ولم يصرِّحوا بأسمائهم (النهاية في غريب الحديث، مادة: رطن).

لجعفر: تكلم، فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين: أَعَبيدٌ نحن أم أحرار؟ فإن كنا عبيداً أَبَقْنَا من أربابنا، رُدَّنا إليهم، فقال النجاشي: أَعَبيدٌ هـم يـا عمـرو أم أحرار؟ قال: بل أحراراً كرام، فقال النجاشي: نجوا مـن العبوديـة. قـال جعفـر: فسلهما: هل أهرقنا دماً بغير حق فيُقتص منا؟ فقـال عمـرو: لا، ولا قطـرة. قـال جعفر: سلهما: هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها؟ قال النجاشي: يا عمرو؛ إن كان قنطاراً فعليّ قضاؤه. قال عمرو: [لا][1] ولا قيراط، قال النجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال عمرو: كنا وهم على دين واحد وأمر واحد، على دين آبائنا، فتركوا ذلك الدين واتبعوا غيره، ولزمناه نحن، فبعثنا إليك قومنا وقومهم لتدفعهم إلينا، فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي كنـتم عليـه، والـدين الـذي اتبعتمـوه؟ أُصْدُقني، قال جعفر: أما الدين الذي كنا عليه وتركناه، فهو دين الشيطان وأمره، كنا نكفر بالله تعالى، ونعبد الحجارة. وأما الدين الذي تحوَّلنا إليه: فدين الإسلام، جاءنا به من الله رسول كريم، وكتاب مثلُ كتـاب ابـن مـريم موافقـاً لـه، فقـال النجاشي: يا جعفر؛ تكلمتَ بأمر عظيم، فعلى رِسْلِك.

ثم أمر النجاشي فضُرِب النَّاقُوس[2]، فاجتمع إليه كل قسيس وراهـب، فلـما اجتمعوا قال: أنشدكم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى ابـن مـريم صـلى الله عليه، هل تجدون بين عيسى وبين القيامة نبياً [مرسلاً][3]؟ قالوا: اللَّهم نعـم، قـد

---

(١) زيادة من تفسير الثعلبي (٣/ ٨٩)، وأسباب النزول (ص:١١٠).
(٢) الناقوس: مِضْراب النصارى الذي يضربونه لأوقات الصلاة (اللسان، مادة: نقس).
(٣) زيادة من تفسير الثعلبي (٣/ ٨٩)، وأسباب النزول (ص:١١٠).

بشَّرنا به عيسى ابن مريم[١]، وقال: مَن آمن به فقد آمن بي، ومن كفر به فقد كفر بي، فقال النجاشي: يا جعفر، هي! بمَ يقول لكم هذا الرجل وما يأمركم به وما ينهاكم عنه؟ قالوا: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، ويأمر بحُسْنِ الجوار، وصِلَةَ الرَّحِم، وبرّ اليتيم، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له، فقال له: اقرأ عليّ شيئاً مما يقرأ عليكم، فقرأ عليه سورة العنكبوت والروم، ففاضت أعين النجاشي وأصحابه من الدمع، وقالوا: يا جعفر؛ زدنا من هذا الحديث الطيب. فقرأ عليهم سورة الكهف. فأراد عمرو أن يُغْضِب النجاشي، فقال: إنهم يشتمون عيسى وأمه، فقال النجاشي: ما تقولون في عيسى وأمه؟ فقرأ عليهم جعفر سورة مريم، فلما أتى على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي نفثة[٢] من سواكه قدر ما تقذي العين، فقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا.

ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم سُيُومٌ[٣] بأرضي، يقول: آمنون، مَن سبَّكم أو آذاكم غَرِم، ثم قال: أبشروا ولا تخافوا، فلا دهورة[٤] اليوم على حزب إبراهيم، فقال عمرو للنجاشي: ومَن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاءوا من عنده ومن اتبعهم، فأنكر ذلك المشركون

---

(١) ومصداق ذلك من القرآن، قوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعد اسمه أحمد ... الآية﴾ [الصف:٦].

(٢) النفثة والنفاثة: الشظية من السواك تبقى في فم الرجل فينفثها (اللسان، مادة: نفث).

(٣) سيوم: أي: آمنون (النهاية في غريب الحديث، مادة: سيم).

(٤) الدهورة: جمعك الشيء وقذفك به في مهواة. كأنه أراد لا ضيعة عليهم، ولا يترك الله حفظهم وتعهدهم (النهاية في غريب الحديث، مادة: دهر).

وادّعوا في دين إبراهيم، ثم ردّ النجاشي على عمرو وأصحابه المال الـذي حملـوه، وقال: إنما هديتكم إليّ رشوة، فاقبضوها، فإن الله ملَّكني ولم يأخذ مني رشوة، قال جعفر: فانصرفنا فكنا في خير دار، وأكرم جوار، فأنزل الله تعالى في ذلك اليـوم في خصومتهم في إبراهيم على رسوله ﷺ وهو بالمدينة: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ على مِلَّته وسُنَّته ﴿وهذا النبي﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿والـذين آمنـوا والله ولي المؤمنين﴾[(١)].

أنبأنا حنبل بن عبد الله بن الفرج بن شعبان أبو علي[(٢)]، أخبرنا أبو القاسم هبة الله بن الحصين[(٣)]، أخبرنا أبو علي بن المذهب[(٤)]، أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي[(٥)]، أخبرنا عبد الله -يعني: ابن الإمام أحمـد- قـال: حـدَّثني أبي، حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي الـضحى، عـن مـسروق، عـن

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٠٨-١١١)، والثعلبي في تفسيره (٣/ ٨٨-٩٠) مرسلاً، والسيوطي في الدر (٢/ ٢٣٧) وعزاه لعبد بن حميد من طريق شهر بن حوشب عن ابن غنم.

(٢) كان يكبر بجامع المهدي وينادي في الأملاك، سمع مسند الإمام أحمد جميعه مـن أبي القاسـم ابـن الحصين. توفي سنة أربع وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٣١، وتكملة الإكمال ٢/ ٣١٥).

(٣) هبة الله بن محمد بن الحصين الشيباني، أبو القاسم البغدادي، الكاتب، مسند العـراق. تـوفي سـنة خمس وعشرين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٣٦).

(٤) الحسن بن علي التميمي، أبو علي الواعظ، سمع المسند والزهد للإمام أحمد. توفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة (التقييد لابن نقطة ١/ ٢٧٩، والعبر ٢/ ٢٨٥، وشذرات الذهب ٣/ ٢٧١).

(٥) أحمد بن جعفر بن حمدان البغدادي، أبو بكر القطيعي الحنبلي، الشيخ العالم المحدِّث، مسند العراق، راوي مسند الإمام أحمد وغيره. توفي في ذي الحجّة سـنة ثـمان وسـتين وثلاثمائـة (لـسان الميـزان ١/ ١٤٥، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٢١٠).

عبدالله[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ نَبيٍّ وُلاةٌ مِن النَّبِيِّينَ، وإنَّ وَلِيِّي مِنهُمْ أَبي وَخَلِيلُ رَبي، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبـيُّ وَالَّـذِينَ آمَنُوا والله ولي المؤمنين﴾»[٢].

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

قوله: ﴿ودّت طائفة من أهل الكتاب﴾[٣] قال ابن عباس: نزلت في قول اليهود لمعاذ بن جبل، وعمار بن ياسر: تركتما دينكما، واتبعتما دين محمد[٤].

قوله تعالى: ﴿لِمَ تكفرون بآيات الله﴾ يعني: القرآن، والآيات المشتملة على نعته، والشهادة برسالته في التوراة والإنجيل ﴿وأنتم تشهدون﴾ أنها حق.

---

(١) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٠ ح٣٨٠٠).

(٣) كتب مقابلها في الأصل: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً سابعاً، مرة ثانية.

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١١١)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٤).

قوله: ﴿لِمَ تَلْبسون الحق بالباطل﴾ وهو إيمانهم بالنبي أول النهار، وكُفْرهم به آخره.

يقصدون بذلك إدخال الشبهة، وإيقاع الريبة في قلوب المسلمين، وقد سبق تفسير الآية في البقرة[(١)].

قوله: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ قال الحسن: تواطأ اثنا عشر رجلاً من أحبار اليهود، فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد باللسان أول النهار، واكفروا آخره، وقولوا: بأنَّا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت، المبعوث آخر الزمان، فيشك أصحابه في دينهم. ويقولون: هم أهل الكتاب، وهم أعلم منا، فيرجعون إلى دينهم[(٢)]، فنزلت هذه الآية[(٣)].

ووجه النهار: أوله[(٤)].

وأنشدوا:

---

(١) الآية رقم (٤٢).

(٢) في أسباب النزول: فيرجعون عن دينهم إلى دينكم.

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٣١١-٣١٢) عن السدي بمعناه، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٧٩). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١١٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٥) كلاهما عن الحسن والسدي. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٤١) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي.

(٤) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن (١/ ٩٦)، والزجاج في معاني القرآن (١/ ٤٢٩)، والنحاس في معاني القرآن (١/ ٤٢٠)، وابن قتيبة في غريب القرآن (ص:١٠٦).

مَـنْ كَـانَ مَـسْرُوراً بِمَقْتَـلِ مَالِـكٍ   فَلْيَـأْتِ نِـسْوَتَنَا بِوَجْـهِ نَهَـارِ
يَجِـدِ النِّـسَاءَ حَـوَاسِراً يَنْدُبْنَـهُ   قَـدْ قُمْـنَ قَبْـلَ تَبَلُّجِ الأَسْـحَارِ[١]

قوله: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ هـذا مـن تمـام كـلام اليهـود، يقـول علماؤهم لقلّتهم: لا تُصَدِّقوا إلا مَن تبع دينكم، وجاء باليهودية.

واللام في قوله «لِمَنْ» صلة[٢].

ولا تصدقوا أن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم مـن العلـم، وفَلْـقِ البحـر، والمـن والسلوى، وغير ذلك، ولا تصدقوا أنهم يحاجوكم عند ربكم، لأنكم أقومُ منهم قيلاً، وأهدى سبيلاً.

ويكون قوله على هذا: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ كلاماً معترضاً من الله تعالى، وهذا معنى قول مجاهد والأخفش[٣].

وقيل: إن قوله: «ولا تؤمنوا» متعلقٌ بقوله: «أن يؤتى» على معنى: لا تُظهروا إيمانكم أن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب، إلا لمن تبع دينكم مـن الأحبـار والأشياخ الذين يُؤمَن تزلزلهم ورجوعهم عن دينهم فقط، ولا تفـشوا ذلـك إلى

---

(١) البيتان للربيع بن زياد العبسي يبكي مالك بن زهير بن خزيمة العبسي الذي قتل في عوف ابن بدر. وانظرهما في: معاني الزجاج (١/ ٤٢٩)، وزاد المسير (١/ ٤٠٥-٤٠٦)، والخزانة (٣/ ٥٨٣).
والمعنى: من كان مسروراً بمقتله فخليق به أن يُسرّ؛ لأن حزننا عليه أصابنا بكل هذا.
ومعنى "حواسراً يندبنه": أي يكشفن عن وجوههن، وأصبحن لا يبالين أن يراهن الأجانب لما حلَّ بهنّ من المهانة.

(٢) قال النحاس في إعراب القرآن (١/ ٣٨٦): هذه الآية من أشكل ما في السورة، والإعراب بَيِّنها.

(٣) انظر: الطبري (٣/ ٣١٤)، وزاد المسير (١/ ٤٠٦).

المسلمين، فيزدادوا ثباتاً على دينهم، وجرأة علينا، ولا تُظهروه للمشركين فيرغبوا في الإسلام.

﴿أو يحاجوكم﴾ عطف على «أن يوتى»، على معنى: لا تُظهروا إيمانكم أن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم، أو أنهم يحاجوكم عند ربكم، ويكون لهم الغلبة، إلا لأهل دينكم، وعلى هذا يكون «قل إن الهدى هدى الله» كلاماً معترضاً.

وقيل: تم كلام اليهود عند قوله: «لمن تبع دينكم»، فقال الله لنبيه: «قل إن الهدى»، «إن» واسمها «هدى الله» بدل من «الهدى»، «أن يؤتى» خبر «إنَّ»، والمعنى: قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والحق الذي جاءكم به موسى فغيَّرتموه وبدَّلتموه حتى «يحاجوكم عند ربكم»، أي: في حكم ربكم، كما تقول: هذه المسألة عند أحمد كذا، وعند الشافعي كذا، أي: في حكمه، أو يكون المعنى: حتى يحاجوكم عند الله يوم القيامة، فيقرعوا باطلكم بحقهم.

وقيل أيضاً: تم كلام اليهود عند قوله: «تبع دينكم»، «قل» لهم يا محمد: "إن الهدى" الذي ينبغي أن يُهتدى ويُقتدى به "هدى الله". وقل لهم موبخاً لهم: «أن يؤتى»: لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم، دعاكم إلى قول ما قلتم[1].

ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن كثير: «أأن يؤتى أحد»[2] بتحقيق الهمزة الأولى،

---

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ١٣٦) وما بعدها.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٦)، ولابن زنجلة (ص:١٦٥)، والكشف (٧/ ٣٤٧)، والنشر (١/ ٣٦٥-٣٦٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٦)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٧).

وتليين الثانية، والفصل بألف على الاستفهام للتوبيخ، بمعنى «أَأَنْ يؤتى أحد»[(١)].

فإن قيل: كيف يرتبط «أو يحاجوكم» بما قبله على هذا المعنى؟

قلت: التقدير: فعلتم ما فعلتم، وقلتم ما قلتم، لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، ولما يتصل به [عند كفركم به][(٢)] من محاجتهم لكم عند ربكم، فحملكم على ذلك الحسد، ألا تراه يقول: «إن الفضل بيد الله».

ولقراءة ابن كثير وجوه من المعاني والإعراب، فإن قلنا: هو من تمام كلام اليهود، فيكون في موضع رفع بالابتداء، خبره محذوف، تقديره: تعترفون وتظهرون. أو في موضع نصب بتقدير: تشيعون وتظهرون ذلك الذي أوتوه.

وإن قلنا: هو من كلام الله، فجائز أن يكون توبيخاً لليهود كما سبق. وجائز أن يكون خطاباً للمؤمنين، على معنى: لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أيها المؤمنون يحسدونكم، ويفعلون ما يفعلون.

وقرأ الحسن البصري والأعمش: «إن يؤتى» بكسر الهمزة[(٣)]، على معنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، وقولوا لهم: ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم حتى يحاجوكم عند ربكم، يعني: ما تؤتون مثله، فلا يحاجوكم، فيكون من كلام اليهود بعضهم لبعض.

---

(١) وقد ضَعَّف أبو علي الفارسي قراءة ابن كثير فقال: وهذا موضع ينبغي أن تُرَجَّحَ له قراءةُ غير ابن كثير على قراءته؛ لأن الأسماء المفردة ليس بمستمر فيها أن تدل على الكثرة (انظر: الحجة ٢/ ٢٨).

(٢) زيادة من الكشاف (١/ ٤٠١).

(٣) مختصر ابن خالويه (ص:٢١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٦)، والقراءات الشاذة للقاضي (ص:٣٥).

وقيل على هذه القراءة: هو من كلام الله بلا اعتراض، ويكون كلام اليهود تاماً عند قوله: «تبع دينكم»، فالمعنى: قل يا محمد؛ إن الهدى هدى الله ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد «أو يحاجوكم» بمعنى: إلا أن يحاجوكم اليهود بالباطل، فيقولون: نحن أفضل منكم.

وقوله: «عند ربكم» أي: عند فعل ربكم بكم ذلك. وتكون «أو» على هذا القول بمعنى الجحد والنفي. وهذا معنى قول سعيد بن جبير، والحسن[1]، ومقاتل[2].

قال الفرّاء[3]: ويجوز أن تكون «أو» بمعنى حتى. كما يقال: تَعَلَّقْ به أو يعطيك حقك، أي: حتى يعطيك حقك.

وقال امرؤ القيس[4]:

فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّما ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

أي: حتى نموت.

﴿قل إن الفضل بيد الله﴾ النبوة والكتاب، ﴿يؤتيه مَن يشاء﴾ لا من تشاءون أنتم أيها اليهود، ﴿والله واسع عليم﴾ بمن يصلح للاصطفاء والاجتباء.

---

(١) الماوردي (١/ ٤٠٢)، وزاد المسير (١/ ٤٠٦).

(٢) تفسير مقاتل (١/ ١٧٨).

(٣) معاني الفراء (١/ ٢٢٣).

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي، جاهلي، من الطبقة الأولى من الشعراء (طبقات الشعراء ص:٤٩، ومعجم الشعراء ص:٩). انظر البيت في: ديوانه (ص:٦٦)، والدر المصون (٢/ ١٣٩)، والخصائص (١/ ٦٣)، وابن يعيش (٧/ ٢٢)، والقرطبي (٧/ ٢١٨، ١٠/ ٣٩١، ١٦/ ٢٧٣)، والطبري (١٣/ ١٩٢).

﴿يختص برحمته﴾ وهي النبوة، في قول مجاهد[١]، والقرآن والإسلام، في قول ابن جريج[٢].

﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ على أوليائه وأهل طاعته.

۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾[٣] قال ابن عباس: أَوْدَعَ رجلٌ عبد الله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأدّاها إليه، فمدحه الله بهذه الآية، وأودع رجل فنحاص بن عازوراء[٤] ديناراً، فخانه، فذمّه الله بهذه الآية[٥].

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٣١٦)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٨٢)، ومجاهد (ص:١٢٩). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٢٤٢) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٣١٦). وذكره الماوردي (١/ ٤٠٢)، والواحدي في الوسيط (١/ ٤٥٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٤٢) وعزاه لابن جرير.

(٣) كتب مقابلها في الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً ثالثاً.

(٤) فنحاص بن عازوراء: من أحبار اليهود الذين كانوا يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه ويأتونه اللبس ليلبسوا الحق بالباطل، من بني قينقاع، وكان من علمائهم وصاحب بيت مدراسهم، وهو الذي نسب الفقر إلى الله والغنى لليهود (السيرة لابن هشام ٣/ ٩٦-٩٧).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٥١)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٨).

وقال مقاتل[١]: الأمانة ترجع إلى من أسلم من أهل الكتاب، والخيانة إلى مَن لم يسلم.

وقيل: أن الذين يؤدون الأمانة: النصارى؛ لغلبة الأمان عليهم، والذين لا يؤدونها: اليهود؛ لغلبة الخيانة عليهم[٢].

والباء بمعنى: على، وقد سبق ذكر القنطار[٣].

والدينار[٤]: فارسي معرب، وأصله دِنَّارٌ، كما قدَّمنا ذكره، وهو وإن كان معرَّباً، فليس تَعْرفُ له العرب اسماً غير الدينار، فقد صار كالعربي، ولذلك اشتقوا منه [فعلاً][٥]، فقالوا: رجل مُدَنَّرٌ: كثير الدنانير، وبِرْذَوْنٌ مُدَنَّرٌ: [أشهب][٦] مستدير النقش ببياض وسواد[٧].

والمراد بقوله: ﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾ لزوم التقاضي.

---

(١) تفسير مقاتل (١/ ١٧٧) بمعناه. وانظر: زاد المسير (١/ ٤٠٩).

(٢) فائدة: قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٩): فإن قيل: لم خصَّ أهل الكتاب بأن فيهم خائناً وأميناً، والخلق على ذلك؟

فالجواب: أنهم يخونون المسلمين استحلالاً لذلك.

(٣) عند الآية (١٤) من هذه السورة.

(٤) الدينار: (٢٤) قيراطاً، والقيراط (٣) حبات من وسط الشعير، فوزنه (٧٢) حبة. والدينار: هو المثقال، والقنطار ٤ أرباع، والربع (٣٠) رطلاً، والرطل (١٢) أوقية، والأوقية (١٦) درهماً، والدرهم (٣٦) حبة شعير (انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٥، ومعجم ألفاظ القرآن، مادة: دنر).

(٥) زيادة من زاد المسير (١/ ٤٠٩).

(٦) مثل السابق.

(٧) زاد المسير (١/ ٤٠٩).

فصل

اختلف القراء في الهاء المتصلة بالفعل المجزوم، فقرأ أبو بكر[1] وأبو عمرو وحمزة[2]: «يُؤَدِّهِ»، و«لاَ يُؤَدِّهِ»، و«نُؤْتِهِ مِنْها»[3] في موضعين في هذه السورة. وفي النساء: «نُوَلِّهِ»، «ونُصْلِهِ»[4]، وفي الشورى: «نُؤْتِهِ مِنْها»[5] بإسكان الهاء في السبعة[6]، وقرأ ذلك قالون بكسر الهاء من غير ياء. وقرأ الباقون بصلة الهاء بياء في الوصل.

وحُجَّة من قرأ بالإسكان: أن هذه الأفعال قد حُذفت الياء التي قبل الهاء فيها

---

(١) شعبة بن عياش الكوفي، أبو بكر، الإمام، أحد رواة الإمام عاصم. توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة (طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٣٢٥، وميزان الاعتدال ٧/ ٣٣٧-٣٤٠).

(٢) حمزة بن حبيب الزيات، أبو عمارة الكوفي، أحد القراء السبعة، توفى سنة ست وخمسين ومائة (طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٢٦١، والجرح والتعديل ٣/ ٢٠٩).

(٣) الآية: ١٤٥.

(٤) الآية: ١١٥.

(٥) الآية: ٢٠.

(٦) وقد طعن الزجاج في هذه القراءة فقال: هاء الإسكان الذي رُوي عن هؤلاء غَلَطٌ بَيِّنٌ؛ لأن الهاء لا ينبغي أن تجزم ولا تسكَّن في الوصل، إنما تسكَّن في الوقف. وأما أبو عمرو فأراه كان يختلس الكسرة فَغُلِطَ عليه كما غُلِطَ عليه في ﴿بارئكم﴾ [البقرة: ٥٤] (انظر: معاني الزجاج ١/ ٤٣٢).

وقال السمين الحلبي في الدر المصون (٢/ ١٤١): وهذا الردّ من الزجاج ليس بشيء؛ لوجوه، منها: أنه فَرَّ من السكون إلى الاختلاس، والذي نصَّ على أن السكون لا يجوز نصَّ على أن الاختلاس أيضاً لا يجوز، بل جعل الإسكان في الضرورة أحسن منه في الاختلاس.

ومنها: أن هذه لغة ثابتة عند العرب حَفِظَها الأئمة الأعلام؛ كالكسائي والفراء، فيسكّنون الهاء كما يسكّنون ميم (أنتم) و(فمنهم) وأصلها الرفع.

للجزم، وصارت الهاء في موضع لام الفعل، وحلّت محلها، فأسكنت كما تسكن لام الفعل.

ألا ترى أنهم قد قالوا: لم يَقْرَ فلان القرآن، فحذفوا حركة الهمزة للجزم وأبدلوا من الهمزة الساكنة ألفاً لانفتاح ما قبلها، ثم حذفوا أيضاً الألف للجزم، كذلك حذفوا الباء قبل الهاء للجزم، وأسكنوا الهاء للجزم، إذ حلت محل لام الفعل.

وليست هذه العِلَّة بالقوية.

وفيه عِلَّة أخرى: وذلك أن مِنَ العرب مَنْ يُسكِّن هاء الكناية إذا تحرك ما قبلها، فيقولون: ضَرَبْتُهْ ضرباً شديداً. يحذفون صلتها، ويُسكِّنونها كما يفعلون بميم الجمع، فالهاء إضمار والميم إضمار، فجريا مجرىً واحداً في جواز الإسكان. وقد كان يجب أن يكون الحذف مع الهاء أقوى منه مع الميم، لأن صلة الميم أصل من الاسم المضمر، وصلة الهاء إنما هي تقوية، فإذا حسن حذف ما هو أصل، فحذف ما هو غير أصل أقوى. وهذا الوجه أقوى من الأول على ضعفه أيضاً.

وحُجَّة مَن قرأ بالكسر من غير ياء: أنه أجرى على أصله، قبل الجزم.

وحُجَّة من وصل بياء: أن الهاء حرف ضعيف خفي، فقوي بالياء في الكسر، وبالواو في الضم[1].

والسبعة وجمهور القرّاء على ضم الدال من «دُمْتَ»، وهي لغة أهل الحجاز[2]،

---

(١) انظر: الحجة لابن زنجلة (ص:١٦٦)، والسبعة في القراءات (ص:٢٠٧-٢١٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٦).

(٢) انظر: الدر المصون (٢/ ١٤٣).

لأنها من دَامَ يَدُومُ.

وقرأ يحيى بن وثَّاب[1]: «دِمْت» -بكسر الدال- من دَامَ يَـدَامُ، مثـل: خَـافَ يَخَافُ، وهَابَ يهَابُ[2].

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ترك الأداء بسبب قولهم: ﴿ليس علينا في الأميين﴾، أي لا يتطرق علينـا إثـم، ولا ذم بـما نختـان مـن أمـوال العـرب، يـشيرون بـذلك إلى استحلالهم أموال المسلمين، ومَن خالفهم من العرب.

﴿ويقولون على الله الكذب﴾ وهو قولهم: "ليس علينـا في الأميـين سـبيل"، ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون، لأنهم قرؤوا في التوراة لزوم الوفاء، وأداء الأمانة.

قوله: ﴿بلى﴾ رَدٌّ عليهم، وإثبات من الله لما نفوه من السبيل، وهو وقف تـام، ويجوز أن يكون استأنف جملة الكلام بقوله: ﴿بلى من أوفى بعهده﴾ أي بعهد الله.

وقيل: بعهد الموفي.

﴿واتقى﴾ فأدى الأمانة، واجتنب الخيانة، ﴿فإن الله يحب المتقين﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

---

(١) يحيى بن وثاب الأسدي مولاهم، كوفي تابعي ثقة، كان يقرئ أهل الكوفة في زمانه. توفي سنة ثلاث ومائة (طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٣٨٠، ومعرفة الثقات ٢/ ٣٥٨).

(٢) مختصر ابن خالويه من شواذ القرآن (ص:٢١)، وإعراب القرآن للنحاس (١/ ٣٤٥)، وهي قراءة شاذة.

قوله: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾.

أخرجا في الصحيحين: أن الأشعث بن قيس قال: «كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِن اليَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبي ﷺ، فَقَالَ لي رَسُولُ الله ﷺ: أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟ قُلْتُ: لا، فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: احْلِفْ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِذاً يَحْلِفُ فَيَذْهَبُ بِمَالِي، فَأَنْزَلَ الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ ... الآيَةِ﴾»[1].

وفي صحيح مسلم من حديث أَبي أُمَامَة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقَالَ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ الله لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الجَنَّةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يا رسول الله؛ وَإِنْ كَانَ شَيْئاً يَسِيراً. قَالَ: وَإِنْ كان قَضِيباً مِنْ أَرَاكٍ»[2].

هذا هو المشهور في التفسير.

وقال عكرمة ومقاتل[3]: نزلت في الذين كتموا صفة النبي ﷺ من اليهود، لِمَا كانوا يأخذونه من سفلتهم من الدنيا[4].

فالعهد -على القول الأول-: ما أخذه عليهم من لزوم الطاعة.

وعلى القول الثاني: ما أخذه عليهم من بيان صفة النبي محمد عليه السلام.

﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي لا نصيب لهم في الجنة ونعيمها، ﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم﴾ لهوانهم عليه، أو هو كناية عن غضب الله عليهم، وإعراضه عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٩٤٨ ح٢٥٢٣)، ومسلم (١/ ١٢٢-١٢٣ ح١٣٨).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١٢٢ ح١٣٧).

(٣) تفسير مقاتل (١/ ٧٩).

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤١١).

قال الزجاج[١]: تقول: فلان لا ينظر إلى فلان ولا يكلمه، معناه: أنه غضبان عليه.

﴿ولا يزكيهم﴾ أي: لا يُطهّرهم من دنس كفرهم وذنوبهم، أو لا يثني عليهم.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر[٢] عن النبي ﷺ قال: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُم الله يَوْمَ القِيَامَةِ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلا يُزَكِّيهِم، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. فقَالَ أَبُو ذرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا يَا رَسُولَ الله، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: المُسْبلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكَاذِبِ»[٣].

فإن قيل: إن حملت الآية على اليهود فلا إشكال فيها، وإن كانت في حق الذين يفعلون ذلك من المسلمين فما وجهها؟ وقد علمنا بالدليل القطعي أن فسقهم لا يوجب انتفاء نصيبهم من الجنة، ولا لزوم ما ذكر؟.

قلت: إما أن يُحمل على التغليظ، وإما أن يُراد به: لا خلاق لهم بأول وهلة، بل لا بد من عذابهم، وإيقاع ما يستحقونه بهم، ولا يكلمهم الله كلاماً ينفعهم، ولا يثني عليهم.

---

(١) معاني القرآن (١/ ٤٣٤).

(٢) أبو ذر: هو جُندب بن جُنادة بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار، أبو ذر الغفاري (الإصابة ٧/ ١٢٥).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ١٠٢ ح١٠٦).

والمُنَفِّق -بالتشديد-: من النَّفاق، وهو ضد الكساد (اللسان، مادة: نفق).

والمُسْبل: الذي يُطَوِّل ثوبه ويُرْسِله إلى الأرض إذا مشى، وإنما يفعل ذلك كِبْراً واختيالاً (اللسان، مادة: سبل).

والمنَّان: هو الذي لا يعطي شيئاً إلا منَّه واعتدَّ به على من أعطاه (اللسان، مادة: منن).

وإما أن يكون من الوعيد لمن فعل ذلك مستحلاً فإنه يكفر، ويستحق جميع ما تُوعّد به.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وإن منهم﴾[1] يعني: أهل الكتاب، ﴿لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ أي: يقلبونها بالتحريف والزيادة.

والألْسِنَة: جمع لِسَان، كَحِمَار وأَحْمِرَة.

قال أبو عمرو: واللسان يُذكَّر ويُؤنَّث، فمن ذَكَّره جمعه: أَلْسِنَة، ومَن أنَّثه جمعه: أَلْسُناً[2].

وقال الفرّاء[3]: اللسان بعينه لم نسمعه من العرب إلا مُذكَّراً، تقول العرب: سبق من فلان لسان؛ يعنون به الكلام، فيُذكِّرونه.

---

(١) جاء في هامش المخطوط ما نصه: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً ثامناً، مرة ثانية.

(٢) لسان العرب، مادة: (لسن).

(٣) لم أقف عليه في معاني الفراء، وهو في زاد المسير (١/ ٤١٢).

أنشد ابن الأعرابي(١):

[لِسانُكَ](٢) مَعْسُولٌ وَنَفْسُكَ شَحَّةٌ ... وَعِنْدَ الثُّرَيَّا من صَدِيقِكَ مَالِكا(٣)

وأنشد ثعلب(٤):

نَدِمْتُ عَلى لِسَانٍ كَانَ مِنِّي ... فَلَيْتَ بأَنَّهُ في جَوْفِ عِكْمِ(٥)

فذَكَّر اللسان لإرادته الكلام.

وأنشد ثعلب:

أَتَتْنِي لِسَانُ بَنِي عَامِرٍ ... أَحَادِيثُها بَعْدَ قَوْلٍ نُكُرِ(٦)

فأَنَّث اللسان؛ لأنه عنى الكلمة والرسالة.

قوله عز وجل: ﴿ما كان لبشر... الآية﴾ قال ابن عباس: سبب نزولها أن قوماً من رؤساء اليهود والنصارى قالوا: يا محمد؛ أتريد أن نتخذك رباً، فقال: «معاذ الله، ما بذلك بعثني ربي»(٧).

---

(١) محمد بن زياد أبو عبد الله، ابن الأعرابي، كان نحوياً عالماً باللغة والشعر. توفي سنة ثلاثين -وقيل: سنة إحدى وثلاثين- ومائتين (إنباه الرواة ٣/ ١٢٨، والأعلام للزركلي ٦/ ١٣١).

(٢) في الأصل: لسانه. والتصويب من زاد المسير (١/ ٤١٢).

(٣) البيت لم أعرف قائله. وهو في زاد المسير (١/ ٤١٢)، واللسان مادة: (شحح).

(٤) أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني، أبو العباس النحوي، المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين (الأعلام للزركلي ١/ ٢٦٧).

(٥) البيت للحطيئة. انظر: ديوانه (ص:٣٤٧)، واللسان، مادة: (عكم، لسن)، وزاد المسير (١/ ٤١٢). والعِكْم: العِدْل، داخل الجنب، في الثوب.

(٦) البيت لم أعرف قائله. وهو في زاد المسير (١/ ٤١٢)، واللسان، مادة: (لسن).

(٧) أخرجه الطبري (٣/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٩٣)، والثعلبي (٣/ ١٠١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٥٠) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في

وقال الضحَّاك: نزلت في نصارى نجران حيث عبدوا عيسى[(١)].

فعلى القول الأول: المراد بالكتاب: القرآن.

وعلى القول الثاني: الإنجيل.

والمعنى: ما ينبغي ولا يصلح لبشر خصّه الله بإنزال الكتاب عليه، وأنعم عليه بالحكمة والنبوة أن يدعوَ الخلق إلى غير الحق.

﴿ولكن كونوا ربانيين﴾ أي: ولكن يقول لهم كونوا ربانيين.

قال المبرد[(٢)]: الرَّبَّاني الذي يَرُبُّ العلم، ويَرُبُّ الناس، أي: يعلمهم ويصلحهم[(٣)].

وحكى ابن الأنباري[(٤)] عن بعض اللغويين[(٥)]: الرَّبَّاني منسوب إلى الرَّبّ، لأن العلم مما يُطاع الله به، فدخلت الألف والنون[(٦)] في النسبة للمبالغة، كما قالوا: رجل =

الدلائل. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١١٥-١١٦) من طريق الكلبي وعطاء، والسيوطي في لباب النقول (ص:٥٤).

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ١٠١)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١١٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤١٣).

(٢) محمد بن يزيد الأزدي، أبو العباس المبرد، إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. توفي سنة ست وثمانين ومائتين (الأعلام للزركلي ٧/ ١٤٤).

(٣) انظر قول المبرد في: الوسيط (١/ ٤٥٦).

(٤) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر بن الأنباري النحوي، من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، وأكثرهم حفظاً للشعر والأخبار، توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة (الأعلام للزركلي ٦/ ٣٣٤).

(٥) انظر: زاد المسير (١/ ٤١٣).

(٦) في الأصل: واللام. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

لِحْيَاني، إذا بالغوا في وصفه بكبر اللِّحْيَة.

قال عليّ رضي الله عنه: الربانيون: الذين يغذون الناس بالحكمة، ويربونهم عليها[١].

وقال ابن عباس: هم الفقهاء العلماء الحكماء[٢].

وقد روي عن محمد ابن الحنفية أنه قال يوم مات ابن عباس: اليوم مات رباني هذه الأمة[٣].

﴿بما كنتم تُعلّمون الكتاب﴾ قرأ ابن عامر[٤] وأهل الكوفة: «تُعلّمون» بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف[٥]. فمَن شدَّد فلما فيه من المبالغة في الوصف بالعلم والتعليم، ومَن خفَّفه حمله على قوله: ﴿تَدْرُسون﴾، فطابق بين الفعلين وجانس بين اللفظين.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤١٣).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٣٢٦)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٩١)، ومجاهد (ص:١٣٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٥٠-٢٥١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ١٠٢).

(٤) عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم اليَحْصَبيّ الدمشقي، أبو عمران المقرئ، توفي سنة ثمان عشرة ومائة (التقريب ص:٣٠٩).

(٥) وفتح التاء واللام.

انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٢٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٦٧)، والكشف (١/ ٣٥١)، والنشر (٢/ ٢٤٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٦-١٧٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٣).

وفي حرف ابن مسعود: «تُدَرِّسُون» بالتشديد[(١)].

قوله: ﴿ولا يَأمُرَكم﴾ قرأ الأكثرون بالرفع، ونصبه ابن عامر وعاصم[(٢)] وحمزة عطفاً على «يقول»[(٣)]. وفيه وجهان:

أحدهما: أن تجعل «لا» مزيدة لتأكيد النفي في قوله: «ما كان لبشر». والمعنى: ما كان لبشر أن يختصه الله للنبوة والحكمة وينصبه لدعاء الخلق إلى الله، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له، كما تقول: ما كان لزيد أن أكرمَه ثم يُهينني.

والثاني: أن تجعل «لا» غير مزيدة، على معنى: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب، ثم يقول: ولا أن يأمركم[(٤)].

ومن رفع قطعه مما قبله[(٥)].

---

(١) انظر قراءة ابن مسعود في: زاد المسير (١/ ٤١٤). وقد نسبت هذه القراءة إلى غيره (انظر: مختصر ابن خالويه ص:٢١، والمحتسب ١/ ١٦٣).

(٢) عاصم بن بَهْدَلة، وهو ابن أبي النَّجُود الأسدي، مولاهم الكوفي، أبو بكر، أحد القراء السبعة، تابعي كان ثقة في القراءات، توفي سنة سبع وعشرين ومائة (الأعلام للزركلي ٣/ ٢٤٨).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢٨)، ولابن زنجلة (ص:١٦٨)، والكشف (١/ ٣٥٠)، والنشر (٢/ ٢٤٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٣).

(٤) وهو اختيار الطبري (٣/ ٣٢٩).

(٥) قال السمين الحلبي في الدر المصون (١/ ١٥٠): قال الواحدي: ومما يدل على الانقطاع من الأول قراءة عبد الله: "ولَنْ يأمركم".

قال الفراء (١/ ٢٢٤-٢٢٥): فهذا دليل على انقطاعها من النَّسَق وأنها مستأنفة، فلما وقعت (لا) موقع (لن) رُفعت، كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ [البقرة:١١٩]، وهي في قراءة عبد الله: "ولن تسأل".

والضمير في «ولا يأمركم»، وفي «أيأمركم» للبشر[١].

وقيل: لله.

﴿أيأمركم بالكفر﴾ استفهام بمعنى الإنكار. وفي قوله: ﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾ دليل على أن الخطاب للمسلمين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ قال الزجاج[٢]: موضع «إذ» نصب، المعنى: اذكر في أقاصيصك إذ أخذ الله.

قال ابن عباس: والميثاق: العهد، وهو العهد الذي أخذه الله على الأنبياء بتصديق محمد ﷺ[٣].

أو بتصديق بعضهم بعضاً، أو بتبليغ ما أرسلوا به، أو هو الميثاق الذي أخذه الأنبياء على أممهم، أو هو على حذف المضاف، أي: ميثاق أولاد النبيين، وهم بنو إسرائيل. ويدل عليه قراءة ابن مسعود: «ميثاق الذين أوتوا الكتاب».

---

(١) وهو اختيار الطبري (٣/ ٣٢٩).

(٢) معاني الزجاج (١/ ٤٣٦).

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٣٣٢)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٩٣).

وكان مجاهد والربيع بن أنس يقرآنها كابن مسعود ويحكمان بغلط الكاتب[١]، واحتج الربيع بقوله: ﴿ثم جاءكم رسول﴾[٢].

ولا حُجَّة فيه؛ لما ذكرناه من حذف المضاف.

أو يكون التقدير: ثم جاءكم يا أمم النبيين الذين أخذ عليهم الميثاق، فلزمهم ما لزم أنبياءهم.

أو يكون التقدير: ميثاق النبيين وأممهم، فاكتفى بذكر المتبوع عن التابع.

قوله: ﴿لَمَا آتيتكم﴾ وقرأ حمزة «لِما» بكسر اللام.

وقرأ نافع: «آتيناكم»[٣]. فمَن فتح اللام -قال الزجاج[٤]-: هي لام التحقيق دخلت على «ما» الجزاء كما تدخل على «إنْ».

ومعناه: لمهما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدِّق لما معكم لتؤمنن به. وتكون «اللام» في ﴿لتؤمنن به﴾ جواب الجزاء.

ومن كسر اللام جعلها متعلقة بـ«أخذ»، أي: أخذ ميثاقهم للذي آتاهم.

وجائز أن تكون «ما» على القراءتين موصولة، أي للذي آتيتكموه لتؤمنن به.

﴿ثم جاءكم رسول﴾ وهو محمد ﷺ، ﴿قال ءأقررتم﴾ أي: قال الله للنبيين:

---

(١) تفسير مجاهد (ص:١٣٠).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٣٢١) عن مجاهد والربيع بن أنس. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٥٢) وعزاه لعبد بن حميد والفريابي وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠-٣٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٦٨-١٦٩)، والكشف (١/ ٣٥٠)، والنشر (٢/ ٢٤٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٣-٢١٤).

(٤) معاني الزجاج (١/ ٤٣٧).

﴿ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري﴾ أي: عهدي.

وقرأت لعاصم من رواية أبي بكر: "أُصْري"، بضم الهمزة[١].

قال أبو علي[٢]: يشبه أن يكون الضم لغة.

﴿قال فاشهدوا﴾، أي قال الله للنبيين: «فاشهدوا» على أممكم، وقيل: اشهدوا على أنفسكم وعلى أتباعكم. ﴿وأنا معكم﴾، عليكم وعليهم ﴿من الشاهدين﴾ وقيل: قال للملائكة: اشهدوا عليهم وأنا معكم من الشاهدين.

﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ قال ابن عباس: أي من أعرض عما جئتَ به، وأنكر ما عاهد الله عليه، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الخارجون عن العهد والإيمان.

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٤-٣٥)، والسبعة في القراءات (ص: ٢١٤).

(٢) الحجّة للفارسي (٢/ ٣٥).

عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ
ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ
بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

قوله: ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ قرأ أبو عمرو بالياء، و«ترجعون» بالتاء المعجمة من فوق، وقرأهما الباقون بالتاء فيهما، إلا حفصاً فإنه قرأهما بالياء المعجمة من تحت بنقطتين[1].

قال ابن عباس: اختصم أهل الكتاب، فزعمت كل فرقة أنها أولى بدين إبراهيم، فقال النبي ﷺ: «كلا الفريقين بريءٌ من دين إبراهيم»، فغضبوا، وقالوا: والله ما نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك، فنزلت: ﴿أفغير دين الله يبغون﴾[2]، وهو دين محمد ﷺ.

﴿وله أسلم﴾ أي: انقاد وخضع ﴿من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ يوم[3] ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] أو هو إقرارهم أن الله خالقُهم ورازقُهم

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧٠)، والكشف (١/ ٣٥٣)، والنشر (٢/ ٢٤١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٤).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ١٠٥)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١١٦).
قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (ص:٢٧): لم أجد له إسناداً.

(٣) أي: يوم قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

وإن أشرك بعضهم، أو هو استسلامهم لنفاذ أمر الله فيهم، أو يكون إسلام الكافر إذا رأى بأس الله، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ﴾ [غافر:٨٤] أو سجود ظله، أو هو من العام الذي أريد به الخاص، تقديره: مَن في السموات والأرض من المسلمين.

قوله: ﴿قل آمنا بالله ... الآية﴾ سبق تفسيرها في سورة البقرة[١]. وإنما أتى هاهنا بحرف الاستعلاء وفي البقرة بحرف الانتهاء لصحة المعنيين؛ لأن الوحي ينزل من السماء وينتهي إلى المؤمنين والأنبياء.

وقيل: إنما قال هاهنا: ﴿وما أنزل علينا﴾ لأن الأمر بالقول للنبي ﷺ، وفي البقرة: الأمر للمؤمنين، والوحي ينتهي إليهم، والرسل يأتيهم الوحي بطريق الاستعلاء[٢]، وأَوْرَدُوا على هذا القول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [النساء:١٠٥]، ﴿وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [النحل:٤٤]، ﴿آمِنُوا بالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [آل عمران:٧٢]، فلم يُرَاعَ هذا المعنى.

ويمكن أن يقال في الجواب عن هذا: الفرق المذكور صالح للتعليل به، وتجويز غيره لا يمنع من صلاحية التعليل به.

---

(١) عند الآية: ١٣٦.

(٢) قاله الراغب الأصفهاني. وحكاه السمين في الدر المصون (٢/ ١٥٩).

وقد ردّ هذا القول الزمخشري في الكشاف (١/ ٤٠٨) فقال: ومن قال إنما قيل "علينا" لقوله: "قل"، و"إلينا" لقوله: "قولوا" تفرقةً بين الرسول والمؤمنين؛ لأن الرسول يأتيه الوحي عن طريق الاستعلاء، ويأتيهم على وجه الانتهاء، فقد تعسَّف. ألا ترى إلى قوله: ﴿بما أنزل إليك﴾ [البقرة:٤]، ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ [المائدة:٤٨]، وإلى قوله: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا﴾ [آل عمران:٧٢].

وما بعده مفسرٌ أو ظاهرٌ إلى قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا﴾ هم طائفة ارتدوا عن الإسلام، منهم الحارث بن سويد، فندم وعاد إلى الإسلام، فاستثناه الله بقوله: ﴿إلا الذين تابوا﴾[١].

وقيل: نزلت في اليهود، كفروا بالنبي ﷺ حسداً بعد إيمانهم به قبل مبعثه[٢]. والقولان عن ابن عباس.

والاستفهام هاهنا بمعنى الجحد، أي: لا يهدي الله قوماً هذا شأنهم. ومثله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة:٧].

ومثله قول ابن الرقيات[٣]:

---

(١) أخرجه النسائي في الصغرى (٧/ ١٠٧)، وأحمد (١/ ٢٤٧)، والحاكم (٢/ ١٥٤)، والبيهقي في سننه (٨/ ١٩٧)، وابن حبان (١٠/ ٣٢٩)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٩٩)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١١٦-١١٧) كلهم عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٥٧) وعزاه للنسائي وابن حبان وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس.
وانظر: لباب النقول (ص:٥٥).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٣٤١)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٩٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٥٨) وعزاه للطبري وابن أبي حاتم.
والقول الأول أصح، والثاني اختيار الطبري.

(٣) عبيد الله بن قيس بن شريح القرشي ابن الرقيات، شاعر قريش، كان أكثر شعره الغزل، وله مدح وفخر، لقب بابن قيس الرقيات، لأنه كان يتغزل بثلاث نسوة اسم كل واحدة: رقية. توفي سنة ٨٥هـ (الأعلام للزركلي ٤/ ١٩٦).

كَيْفَ نَوْمِي عَلَى الفِرَاشِ وَلَمَّا تَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةٌ شَعْوَاءُ
تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِي عَنْ خِدَامِ المَلِيحَةُ الحَسْنَاءُ[١]

﴿وشهدوا﴾ عطف الفعل على ما اشتمل عليه الاسم من معنى الفعل، تقديره: بعد أن آمنوا وشهدوا، أو تكون الواو للحال، أي: وقد شهدوا[٢].

قوله: ﴿خالدين فيها﴾ أي: في عذاب اللعنة.

ثم استثنى من تاب وأناب فقال: ﴿إلا الذين تابوا ... ﴾ الآية.

قوله: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم﴾ وهم الذين ارتدوا مع الحارث ولم يرجعوا عن كفرهم، قالوا: نقيم بمكة ونتربص بمحمد رَيْبَ المنون[٣].

وقيل: هم اليهود والنصارى، كفروا بمحمد بعد إيمانهم بصفته، ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بإقامتهم على كفرهم، لأنه كلما تجدد إنزال الوحي تجدد كفرهم به.

أو هم اليهود كفروا بعيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن.

﴿لن تقبل توبتهم﴾ قال ابن عباس: عزموا على أن يظهروا التوبة ويضمروا الكفر[٤].

---

(١) البيتان لابن قيس الرقيات. انظر: ديوانه (ص:٩٦)، وشرح المفصل لابن يعيش (٩/ ٣٦)، وأمالي ابن الشجري (١/ ٣٨٣)، والدر المصون (٢/ ١٦٠)، واللسان، مادة: (خدم، شعا) وفيه: "العقيلة العذراء" بدل "المليحة الحسناء"، والقرطبي (٤/ ١٢٩)، والطبري (٣٠/ ٣٤٤)، والوسيط (١/ ٤٦٠)، ومعاني الفراء (١/ ٤٣٢).

والخِدام: الخَلْخال (اللسان، مادة: خدم).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٤٣)، والدر المصون (٢/ ١٦١).

(٣) المنون: الموت (اللسان، مادة: منن).

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤١٩).

وقيل: هذا إيذانٌ بموتهم على كفرهم، لأن الذي لا تُقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر. وهذا معنى قول الحسن ومجاهد[١].

قوله: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ قال الزمخشري[٢]: إن قلتَ: لِمَ قيل في إحدى الآيتين «لن تقبل» بغير فاء، وفي الأخرى «فلن يقبل»؟

قلت: قد أوذن بالفاء أن الكلام بني على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر. وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ [وخبر][٣]، ولا دليل فيه على التسبيب، كما تقول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل المجيء له سبباً في استحقاق الدرهم بخلاف قولك: فله درهم.

قال الزجاج[٤]: ملء الشيء: مقدار ما يملؤُه.

قال سيبويه[٥] والخليل: المَلْءُ -بفتح الميم- الفعل، تقول: مَلأْتُ الشيء أَمْلؤُهُ مَلأً، المصدر بالفتح لا غير.

و"ذهباً" منصوب على التمييز[٦].

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٣٤٤)، وابن أبي حاتم (٢/ ٧٠١) كلاهما عن السدي. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٥٩) وعزاه لابن جرير عن السدي.

(٢) الكشاف (١/ ٤٠٩).

(٣) في الأصل: أو خبر. والتصويب من الكشاف (١/ ٤٠٩).

(٤) معاني الزجاج (١/ ٤٤٢).

(٥) الكتاب (٢/ ٤٢).

(٦) انظر: التبيان (١/ ١٤٣)، والدر المصون (٢/ ١٦٤).

وقرأ الأعمش "ذَهَبٌ"[(١)] بالرفع، ردّه إلى «مِلْءُ»، كما تقول: عندي عشرون نفساً رجالٌ.

قال ابن فارس[(٢)]: ربما أُنِّث الذهب، فقيل: ذَهَبة، وتُجمع على الأذهاب.

قال الفرّاء[(٣)]: الواو في قوله: ﴿ولو افتدى به﴾ قد يستغنى عنها، ولو حذفت كان صواباً، كقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

قال الزجاج[(٤)]: هذا غلط، لأن فائدة الواو بَيِّنَة، فليست مما تلغى، قال: والمعنى: لو قَدَّمَ ملء الأرض ذهباً يتقرب به إلى الله لم ينفعه ذلك مع كفره، ولو افتدى من العذاب بملء الأرض ذهباً لم يتقبل منه.

وقال غيره[(٥)]: «ولو افتدى به»: كلامٌ محمول على المعنى، كأنه قيل: فلن يُقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً.

ويجوز أن يراد: ولو افتدى بمثله؛ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ [الزمر:٤٧].

والمِثْل يحذف كثيراً في كلامهم، كقولك: ضربته ضرب زيد، تريد: مِثْل ضربه، كما أنه يراد في نحو قولهم: مِثْلك لا يفعل كذا، يريد: أنت.

والسرُّ فيه أن المثلين يسد أحدهما مَسَدّ الآخر، فكانا في حكم شيء واحد.

---

(١) ذكر هذه القراءة في: البحر المحيط (٢/ ٥٤٣).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٢/ ٣٦٢).

(٣) معاني الفراء (١/ ٢٢٦).

(٤) معاني الزجاج (١/ ٤٤١).

(٥) قاله الزمخشري في الكشاف (١/ ٤١٠-٤١١).

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقَالُ لِلْكَافِرِ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً، أَكُنْتَ مفتدياً بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ سُئِلْتَ ما هو أَيْسَرَ مِنْ ذلِكَ»[١].

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر﴾[٢] قال ابن عباس: هو الجنة[٣].

وقال الحسن: المعنى: لن تكونوا أبراراً[٤].

قال القاضي أبو يعلى[٥]: لم يُرِد نفي الأصل، وإنما نفي وجود الكمال[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٦١ ح٢٨٠٥).

(٢) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً رابعاً. وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً تاسعاً، مرة ثانية.

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٣٤٧) عن عمرو بن ميمون والسدي. وابن أبي حاتم (٢/ ٧٠٣) عن ابن مسعود. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٦٢) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود. ومن طريق آخر عن عمرو بن ميمون والسدي ومسروق.

وذكره الماوردي (١/ ٤٠٩) من قول السدي، والواحدي في الوسيط (١/ ٤٦٣) من قول مسروق وعمرو بن ميمون.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره (١/ ٣٢٥).

(٥) محمد بن الحسين بن محمد البغدادي، ابن الفرّاء، أبو يعلى الحنبلي، عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون، صاحب التعليقة الكبرى، والتصانيف المفيدة في المذهب. توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٨٩، والأعلام للزركلي ٦/ ٩٩).

(٦) انظر: زاد المسير (١/ ٤٢٠).

﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ أي: حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها.

والمراد بذلك: النفقة في وجوه الطاعات والقربات إلى الله، سواء أكانت فرضاً كالزكاة، أو نفلاً.

ولما نزلت هذه الآية بادر ذوو النيات إلى العمل بها.

ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك قال: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالاً من نخل، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَا[١]، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ النبي ﷺ يَدْخُلُهَا فَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ. قَالَ أَنَس: فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ: يا رسول الله، إِنَّ الله يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرَحَا، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله، فَضَعْهَا حيثُ أراكَ الله، فقَالَ: بَخٍ، ذلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، أو رايح -شك الراوي-، وقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا في الأَقْرَبِينَ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ»[٢].

وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها، فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها النبي ﷺ أسامة بن زيد، فكأنَّ زيداً وجد في نفسه، وقال: إنما أردت أن أتصدق به. فقال رسول الله ﷺ: «أما إن الله قد قبلها منك»[٣].

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (١/ ١١٤): هذه اللفظة كثيراً ما تختلف ألفاظ المحدثين فيها، فيقولون: بيرحا، بفتح الباء وكسرها، وبفتح الراء وضمها والمد فيهما، وبفتحهما والقصر. وهي اسم مال وموضع بالمدينة.

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٥٣٠ ح١٣٩٢)، ومسلم (٢/ ٦٩٣ ح٩٩٨).

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٣٤٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٠٤)، والثعلبي (٣/ ١١٠).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (ص:٢٧): وهو معضل.

وأعتقت امرأة جارية لا تملك غيرها، فقال النبي ﷺ: «حَجَبَتْكِ من النار»(١).

ويروى أن ابن عمر رضي الله عنهما قرأ هذه الآية يوماً، فقال: لا أجد شيئاً أحب إليّ من جاريتي رُمَيْثَة، هي حُرَّة لوجه الله تعالى. ثم قال: لولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، فأنكحها نافعاً مولاه، فهي أم ولده(٢).

وأخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد(٣) بإسناده: أن الربيع بن خُثَيم(٤) جاءه سائل في ليلة باردة، فخرج إليه فرآه كأنه مَقْرُور(٥)، فقال: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، فنزع برنساً له، فأعطاه إياه.

ووقف سائل على بابه مرة أخرى، فقال: أطعموه سُكَّراً، فقالوا: الخبز أنفع له، فقال: ويحكم، أطعموه سُكَّراً فإن الربيع يحب السُّكَّر(٦).

۞ ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ١١٠) بغير إسناد، عن حوشب.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٤٧)، والثعلبي (٣/ ١١١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٦٠) وعزاه لعبد بن حميد والبزار.

(٣) الزهد (ص:٣٩٩).

(٤) الربيع بن خثيم -بضم المعجمة وفتح المثلثة- بن عائذ بن عبد الله الثوري، أبو يزيد الكوفي، من عباد أهل الكوفة وزهادهم والمواظبين منهم على الورع الخفي والعبادة الدائمة. توفي سنة إحدى أو ثلاث وستين (التقريب ص:٢٠٦، ومشاهير علماء الأمصار ص:٩٩).

(٥) أي: بارد.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٣٩٧)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٤٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١١٥)، وهناد في الزهد (١/ ٣٤٤)، والثعلبي في تفسيره (٣/ ١١١).

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

قوله: ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل﴾ السبب في نزولها: أن النبي ﷺ قال: «أنا على مِلَّة إبراهيم. فقالت اليهود: وكيف وأنت تأكل لحوم الإبل، وتشرب ألبانها؟ فقال: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم، فقالوا: كل شيء نُحرِّمه [نحن][1] فإنه كان مُحرَّماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا، فأكذبهم الله بهذه الآية»[2].

والحِلّ والحَلال كالحُرُم والحَرَام، واللُّبس واللِّبَاس. وجائز أن يكون الحل مصدراً، ولذلك استوى في الوصف المذكَّر والمؤنث، والواحد والجمع، نحو قوله: ﴿لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [الممتحنة:١٠].

﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه لحوم الإبل وألبانها. روي عن النبي ﷺ[3]، وهو قول ابن عباس في رواية أبي صالح، والحسن، وعطاء.

والثاني: زائدتا الكَبد، والكليتان، والشحم إلا ما على الظهر. قاله عكرمة.

والثالث: العروق. قاله مجاهد وقتادة[4]، وروي عن ابن عباس[5].

---

(١) زيادة من زاد المسير (١/ ٤٢٢).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ١١٢)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١١٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٢).

(٣) من حديث شهر بن حوشب عن ابن عباس الآتي.

(٤) أخرجه مجاهد (ص:١٣٢).

(٥) ذكره الثعلبي (٣/ ١١٢-١١٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٢-٤٢٣).

وكان السبب في تحريمه له ما روى شهر بن حوشب عن ابن عباس: «أنَّ عِصَابَةً مِنَ اليَهُودِ حَضَرَتْ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالُوا: أخبرنا يا أحمدُ أَيُّ الطَّعَام حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاة؟ فقَالَ النبي ﷺ: أَنْشُدُكُم بالله الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ يَعْقُوبَ مَرِضَ مَرَضاً شَدِيداً، فَطَالَ سَقَمُهُ منه، فَنَذَرَ لله لَئِنْ عافاه الله مِنْ سَقَمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطعام والشَّرَاب إِلَيْهِ، وكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الإِبلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَاب إِلَيْهِ أَلبَانُهَا، فَقَالُوا: اللهمَ نَعَمْ»[1].

وروي عن ابن عباس: أن الأطباء وصفوا له اجتناب ما حرَّمه، فحرَّمه[2].

وروي عن ابن عباس: أنه شكى عرق النَّسَا، فحرَّم العروق[3].

واختلفوا هل حرَّم ذلك بإذن الله أم باجتهاده؟ على قولين[4].

واختلفوا لماذا ثبت تحريمه على اليهود؟ فقال ابن عباس: قال يعقوب: لئن عافاني الله لا يأكله لي ولد[5].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٤ ح٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٣٦ ح٩٠٧٢)، وأحمد (١/ ٢٧٣ ح٢٤٧١).

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٣).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٠٥) ، والحاكم (٢/ ٣٢٠)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٨). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٢٦٣) وعزاه لعبد بن حميد والفريابي والبيهقي في سننه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٤) انظر: القرطبي (٤/ ١٣٥).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٦٣) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال الضحاك: وافقوا أباهم في التحريم[١].

وقال ابن السائب: حرّمه الله بعد التوراة، لا فيها، وكانوا إذا أصابوا ذنباً عظيماً حُرِّم عليهم طعام طيب، أو صُبَّ عليهم العذاب[٢].

﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ لتعرفوا أن هذا التحريم كان من جهة يعقوب، ولم يكن من زمن إبراهيم ولا نوح، ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تدَّعون من التحريم.

ومعنى الآية: أن المطاعمَ كلَّها كانت حلالاً لبني إسرائيل من قبل نزول التوراة، وتحريم ما حُرِّم عليهم منها لظلمهم وبغيهم، لم يحرّم منها شيء قبل ذلك سوى المطعوم الذي حرَّمه يعقوب على نفسه، فتبعه أولاده على تحريمه.

وتتضمن الآية أيضاً تكذيبهم حيث أرادوا براءة ساحتهم مما عيَّرهم الله به في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ ... إلى قوله: ﴿عذاباً أليماً﴾ [النساء:١٦٠-١٦١]، وفي قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾... إلى قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٦]، فقالوا: لسنا بأول من حُرِّم عليه هذا، وإنما هو محرَّم على نوح وإبراهيم، حتى انتهى التحريم إلينا فحرِّم علينا، فكذبهم الله بهذه الآية.

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٢). وذكره الماوردي (١/ ٤١٠) بلا نسبة.

وهذا القول أصح الأقوال.

(٢) أخرجه الثعلبي (٣/ ١١٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٣).

فصل

وقد تضمنتْ هذه الآية فوائد؛ منها:

١- التنبيهُ على جواز النسخ الذي يُنكرونه، وأن الأطعمةَ كانت محلَّلة لهم قبل نزول التوراة، إلا ما استثناه الله، ثم حُرِّمت عليهم طيبات كانت حلالاً لهم، بسبب ظلمهم.

٢- ومنها تأكيدُ صدقه ﷺ، حيث قاضاهم إلى كتابهم وأخبرهم بحقيقة ما فيه.

٣- ومنها إيضاحُ الحُجَّة على رسالته، لكونه أخبرهم بما يعلمون صحته، ولم يكن من أهل العلم بذلك، لولا الوحي.

وقد روي أنهم لم يجسروا على محاققته بالمرافعة إلى التوراة، خوف الفضيحة من ظهور باطلهم.

قوله تعالى: ﴿فمن افترى﴾ أي: اختلق ﴿على الله الكذب من بعد ذلك﴾ ونسب ما لم يكن محرماً على نوح وإبراهيم إليهما، معرضاً عن هذا البيان، ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ الذين شأنهم الظلم، وعدم الاتصاف بالإنصاف.

قوله تعالى: ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿صدق الله﴾ فيما أخبر به من دين إبراهيم وشريعته. المعنى: وكذبتم أنتم، ﴿فاتبعوا مِلَّة إبراهيم حنيفاً﴾ وهي مِلَّة محمد ﷺ، وتخلَّصوا من اليهودية التي اضطرتكم إلى التحريف، والتبديل، والاجتراء على تكذيب الرسل والكذب عليهم.

وفي قوله: ﴿وما كان من المشركين﴾ تعريض بشرك أهل الكتاب، لأنهم إنما نسبوه إلى اليهودية أو النصرانية.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾

قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾ قال مجاهد: فَخَرَ المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل من الكعبة، وقال المسلمون: الكعبة أفضل؛ فنزلت هذه الآية[1].

قال أبو هريرة: كانت الكعبة حشفة[2] على الماء، عليها ملكان يسبحان الليل والنهار قبل الأرض بألفي سنة[3].

وقال ابن عباس: وُضِع البيت على الماء على أربعة أركان، قبل أن تخلق الدنيا بألفي سنة، ثم دحيت[4] الأرض من تحت البيت[5].

---

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ١١٤)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١١٨-١١٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٤).

(٢) الحشفة: صخرة رخوة حولها سهل من الأرض، أو صخرة تنبت في البحر (القاموس المحيط ص:١٠٣٤).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٦٥) وعزاه لابن المنذر.

(٤) الدَّحْوُ: البَسْط، دحا الأرض يدحوها دحواً: بسطها (اللسان، مادة: دحا).

(٥) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٨١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣١٠) وعزاه لعبد بن حميد.

وفي هامش الأصل: قيل: إن الله تعالى بنى في السماء بيتاً، وهو البيت المعمور، ويسمى ضراح، وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة في الأرض بحياله على قدره ومثاله. وقيل: أول من بنى الكعبة آدم واندرس زمن الطوفان، ثم أظهره الله لإبراهيم حتى بناه. معالم تنزيل [تفسير البغوي ١/ ١١٥].

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأَرْضِ أَوَّلاً؟ قَالَ: المَسْجِدُ الحَرَامُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: المَسْجِدُ الأَقْصَى، قال: قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً»[١].

وفي آخر حديث البخاري: «ثم الأرض لك مسجد، فحيث ما أدركتك الصلاة فَصَلِّ، فإن الفضل فيه»[٢].

وقد أوردنا عند قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة:١٢٧] ما يدل على أوّليته أيضاً.

واختلفوا في بكة ومكة؛ فقال الضحاك: هما واحد[٣]، واحتجوا بأن الباء تبدل من الميم؛ كلازم ولازب، وسَبَّدَ رأسه وسَمَّدَه؛ إذا استأصله[٤].

وذهب الأكثرون إلى أن بينهما فرقاً، فقالوا: مكة -بالميم-: اسم لجميع البلد، وبكة: اسم للبقعة المبنى فيها البيت. قاله ابن عباس ومجاهد وإبراهيم في آخرين[٥].

وقال الزهري: بكة -بالباء-: اسم للمسجد والبيت، ومكة: اسم للحرم كله[٦].

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٣١ ح٣١٨٦)، ومسلم (١/ ٣٧٠ ح٥٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٦٠ ح٣٢٤٣).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ١٣٨). وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٦٦) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٥)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٦٧) وعزاه لابن جرير.

(٤) انظر: اللسان، مادة: (سبد، سمد).

(٥) انظر: الطبري (٤/ ٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٠٩)، والثعلبي (٣/ ١١٥).

(٦) أخرجه الطبري (٤/ ١٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٠٩)، والثعلبي (٣/ ١١٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٦٧) وعزاه لابن جرير.

والبَكُّ في اللغة: الازدحام والدَّقّ[١]، فسُمِّيَ البيت بذلك؛ لأنه مزدحم الطائفين وقاصم أعناق الجبارين الباغين له السوء.

وقال قطرب[٢]: هو من بَكَكْتُ الرَّجُل؛ إذا وضعتُ منه ورددت نَخْوَته[٣]، فهو يضع من نخوة المتجبرين[٤].

وقوله: ﴿مباركاً﴾ حال من المستكنّ في الظرف[٥]، أي: استقر ببكة في حال بركته، ﴿وهدى للعالمين﴾ لأنه مطافُهم ومزارُهم، وقِبْلتُهم.

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «من طاف بالبيت لم يرفع قدماً ولم يضع أخرى، إلا كتب الله له بها حسنة، وحط عنه بها خطيئة، ورفع له بها درجة»[٦].

قوله: ﴿فيه آيات بيِّنات﴾ وقرأ ابن عباس ومجاهد: «آية بيِّنة»[٧].

﴿مقام إبراهيم﴾ عطف بيان[٨]، وصح بيان الجماعة بالواحد على قراءة الأكثرين؛ لاشتمال مقام إبراهيم على آيات متعددة؛ منها:

- تأثير قدميه في صخرةٍ صَمَّاء، آيةً لله، ومعجزة لإبراهيم.

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (بكك).

(٢) محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقطرب، عالم بالأدب واللغة، أخذ عن سيبويه، وقطرب لقب دعاه به أستاذه سيبويه فلزمه. توفي سنة ست ومائتين (الأعلام للزركلي ٧/ ٩٥).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (بكك).

(٤) انظر: زاد المسير (١/ ٤٢٥).

(٥) انظر: التبيان (١/ ١٤٤)، والدر المصون (٢/ ١٦٩).

(٦) أخرجه الترمذي (٣/ ٢٩٢ ح٩٥٩)، وأحمد (٢/ ٣ ح٤٤٦٢)، والحاكم (١/ ٦٦٤).

(٧) أخرجه مجاهد (ص:١٣٢). وانظر: مختصر ابن خالويه (ص:٢٣)، والطبري (٤/ ١٠).

(٨) قاله الزمخشري في الكشاف (١/ ٤١٥).

- وإلانة بعضها دون بعض.
- وحفظها مع كثرة أعداء الحق وأهله.

قال ابن جرير[1]: فيه إضمار تقديره: منها مقام إبراهيم.

قال المفسِّرون: والآيات فيه كثيرة؛ منها:

- مقام إبراهيم.
- وامتناع الطير من العلوّ عليه، واستشفاء المريض منها به.
- وتعجيل العقوبة لمن انتهك حرمته[2].

وقال علي رضي الله عنه: الآيات البينات: مقامُ إبراهيم، وأمنُ مَن دخله[3].

وقال القاضي أبو يعلى[4]: يجتمع الكلب والظبي في الحرم، فلا الكلب يهيج الظبي، ولا الظبي يستوحش منه.

فإن قيل: تأويل عليّ رضي الله عنه يستلزم إطلاق الجمع على التثنية.

قلت: هي آيات باعتبار تعدد الذوات الآمنة فيه.

قوله: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ قال القاضي أبو يعلى[5]: لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر، تقديره: من دخله فأمنوه.

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ١١).

(٢) ذكره الماوردي (١/ ٤١١)، والواحدي في الوسيط (١/ ٤٦٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٧).

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٦).

(٤) انظر: زاد المسير (١/ ٤٢٦).

(٥) انظر: زاد المسير (١/ ٤٢٧).

وقال الضحاك: المعنى: مَنْ حَجَّه كان آمناً من ذنوبه التي اكتسبها قبل ذلك[١].

قال جعفر الصادق رضي الله عنه: مَن دخله على الصفاء كما دخله الأنبياء والأولياء كان آمناً من عذاب الله[٢].

وقال أبو النجم القرشي الصوفي: كنتُ أطوف بالبيت، فقلت: يا سيدي! قلتَ: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾، من أي شيء؟ فسمعتُ قائلاً من ورائي: آمناً من النار، فالتفتُّ فلم أَرَ شيئاً[٣].

قوله: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص «حِجُّ» -بكسر الحاء-، وفتحها الباقون[٤].

وقوله: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ بدل من "الناس".

وسئل النبي ﷺ عن الاستطاعة فقال: «الزاد والراحلة»[٥].

وهذا مذهب أكثر العلماء[٦].

وقال مالك: إن وثق من نفسه بالقوة على المشي لزمه الحج[٧].

---

(١) أخرجه الثعلبي (٣/ ١٥٠).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ١٥١)، والقرطبي (٤/ ١٤١-١٤٢).

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ١٥١).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧٠)، والكشف (١/ ٣٥٣)، والنشر (٢/ ٢٤١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٤).

(٥) أخرجه الترمذي (٣/ ١٧٧، ٥/ ٢٢٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٦٧).

(٦) انظر: المغني (٣/ ٩٨).

(٧) انظر: بداية المجتهد (١/ ٣٧٢).

وقال الضحاك: إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع[١].

ثم هدَّد الله اليهود حيث قابلوا وجوب الحج بالجحود، فقال: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ أي: من كفر بوجوب الحج، وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد والأكثرين[٢].

وقال السدي: مَن وجد ما يحج به ثم لم يحج حتى مات فهو كفر به[٣].

وقال عمر رضي الله عنه: لقد هممتُ أن أبعث رجالاً إلى الأمصار فينظرون إلى من كان له مال ولم يحج فيضربون عليهم الجزية[٤].

وقال ابن عمر: مَن أمكنه الحج فلم يحج حتى مات، وُسِمَ بين عينيه: كافر[٥].

وروي مرفوعاً إلى النبي ﷺ من حديث أبي أمامة قال: «من لم يمنعه من الحج حاجة ظاهرة، ولا مرض حابس، ولا سلطان جائر، فمات ولم يحج، فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً»[٦].

---

(١) أخرج نحوه ابن أبي حاتم (٣/ ٧١٤). وانظر: المغني (٣/ ٨٦).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ١٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧١٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٧٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٢١).

(٤) أخرج نحوه البيهقي في سننه الكبرى (٤/ ٣٣٤)، والثعلبي (٣/ ١٥٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٧٥) وعزاه لسعيد بن منصور في سننه بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٠٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧١٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٧٥) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الدارمي في السنن (٢/ ٤٥ ح١٧٨٥)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٣٤ ح٨٤٤٣)، وشعب الإيمان (٣/ ٤٣٠ ح٣٩٧٩)، وأبو يعلى (١/ ١٩٦ ح٢٣١).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾[1] هم اليهود والنصارى، ﴿لم تكفرون﴾ توبيخ وتقريع لهم ﴿بآيات الله﴾ وهي الآيات والمعجزات التي جاء بها محمد ﷺ.

﴿والله شهيد﴾ أي: شاهد لا يغيب عنه شيء من عملكم، والواو في «والله» للحال.

﴿يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدون﴾ وقرأ الحسن: «تُصِدُّونَ»، بضم التاء وكسر الصاد[2].

﴿عن سبيل الله مَن آمن﴾ وكانوا يحتالون لإفتان المؤمنين تارة بكتمان صفة النبي ﷺ، وتارة بالدخول في الإسلام والخروج منه في اليوم الواحد؛ لإيقاع الريبة في قلوب المسلمين، وتارة بالتحريش بين الأوس والخزرج، وبذكرهم الأحقاد والحروب التي كانت بينهم ليعودوا لمثلها.

﴿تبغونها عوجاً﴾ في محل الحال[3]، والكناية للسبيل، وهي تُذكَّر وتؤنَّث. والمراد: تبغون أهل السبيل الضلال، والميل عن الهدى.

---

(١) كتب في هامش الأصل: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً عاشراً، مرة ثانية.

(٢) مختصر ابن خالويه في شواذ القرآن (ص:٢٢).

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٤٤)، والدر المصون (٢/ ١٧٣).

قال أبو [عبيدة][١]: العِوَج -بكسر العين-: في الدين والكلام والعمل، والعَوَج -بفتحها-: في الحائط والجذع.

وقال الزجاج[٢]: العِوَج -بكسر العين-: فيما لا ترى له شخصاً، وما كان له شخص قلت: عَوَج -بفتحها-.

وروى ابن الأنباري عن ثعلب قال[٣]: العِوَج عند العرب -بكسر العين-: في كل ما لا يحاط به. وبفتحها: في كل ما يتحصل، فيقال: في الأرض عِوَج، وفي الدين عِوَج، لأن هذين يتسعان، ولا يُدركان. وفي العصا عَوَج، وفي السن عَوَج، لأنهما يُحاط بهما ويُبلغ كُنْهَهُما[٤].

وقال ابن فارس[٥]: العَوَج -بفتح العين- في كل منتصب؛ كالحائط. والعِوَج: ما كان في بساط، أو أرض[٦]، أو دين، أو معاش.

﴿وأنتم شهداء﴾ هذه واو الحال[٧]، والمعنى: وأنتم شهداء بصحة ما صَددتم عنه، وبطلان ما أنتم عليه. وهذا قول ابن عباس وقتادة والأكثرين[٨].

وقيل: «وأنتم شهداء» ثقات عدول عند أهل دينكم، فيكون خارجاً مخرج

---

(١) في الأصل: عبيد. والتصويب من زاد المسير (١/ ٤٣٠)، وهو في مجاز القرآن (١/ ٩٨).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٢٦٧).

(٣) انظر: زاد المسير (١/ ٤٣٠).

(٤) كُنْه الشيء: نهايته (مختار الصحاح، مادة: كنه).

(٥) معجم مقاييس اللغة (٤/ ١٨٠).

(٦) في معجم مقاييس اللغة: أمر.

(٧) انظر: الدر المصون (٢/ ١٧٥).

(٨) الطبري (٤/ ٢٢)، وزاد المسير (١/ ٣٤٠).

التذكير لهم بنِعَمِ الله عليهم وإحسانه إليهم.

وقال القاضي أبو يعلى[(١)]: «وأنتم شهداء» أي: عُقلاء.

ثم هدَّدهم فقال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب... الآية﴾ سبب نزولها: أن رجلاً من اليهود يقال له: شاس بن قيس -وكان شيخاً يهودياً عاسياً[(٢)] عاتياً شديد الشكيمة في كفره-، مرّ بمجلس فيه نفر من الأوس والخزرج، فغاظه اتفاقهم على الإيمان، بعد افتراقهم زمن عبادة الأوثان، فحمله البغي والعناد على إيقاد نار الفساد، فأنشدهم أشعارَ بُعَاث[(٣)]؛ ليبعثهم على الشر، وهو يومٌ عظيم من أيام حروبهم، وكان الظفر فيه للأوس، فتنازع الحيَّان عند ذلك، وتفاخروا، وأخذتهم الأنفة، والحمية، حتى دعوا بدعوى الجاهلية، وأخذوا السلاح، واصطفوا للقتال، فأنزل الله هذه الآية وما في حيزها؛ فأقبل بها نبي الرحمة حتى وقف بين الصَّفَّيْن، فقرأها، ورفع بها صوته، فأنصتوا، وعلموا أنها نزغة

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٤٣٠).

(٢) عَسَا الشيخُ يَعْسُو عَسْواً وعُسُوّاً وعُسِيّاً: كَبرَ (اللسان، مادة: عسا).

(٣) يوم بُعاث: كان فيه حرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وهو يوم من مشاهير أيام العرب (انظر: اللسان، مادة: بعث). وكان الظهور فيه للأوس.

الشيطان، فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً، وجَثُوا[1] يبكون[2].

﴿وكيف تكفرون﴾ استفهام في معنى التعجب والإنكار، المعنى: من أين يتطرق الكفر إليكم؟ ﴿وأنتم تتلى عليكم آيات الله﴾ يعني: القرآن، ﴿وفيكم رسوله﴾ محمدٌ تشرق أنوار رسالته، وهدايته في أبصاركم وبصائركم:

كَأَنَّهُ الشَّمْسُ في البُرْجِ المُنِيفِ بِهِ عَلَى البَرِيَّةِ لا نَارٌ عَلَى عَلَمِ[3]

﴿ومن يعتصم بالله﴾ فَيَلُوذُ ببابِهِ، وَيَعُوذُ بجَنَابِهِ، ﴿فقد هُدي إلى صراط مستقيم﴾. أخبر عنه بصيغة الماضي لتحقق حصوله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ قال ابن مسعود: هو أن يُطاع

---

(١) جَثَا يَجْثُو جُثُوّاً وجثياً: جلس على ركبتيه للخصومة ونحوها (انظر: اللسان، مادة: جثا).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٣) عن محمد بن إسحاق قال: حدثني الثقة عن زيد بن أسلم، به. وأخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٧١٨). وذكره الثعلبي (٣/ ١٥٨-١٥٩)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١١٩-١٢٠)، كلهم عن زيد بن أسلم، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٧٨-٢٧٩) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن زيد بن أسلم، والسيوطي أيضاً في لباب النقول (ص:٥٥-٥٦) وعزاه لابن إسحاق وأبي الشيخ عن زيد بن أسلم. وانظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٩٣-٩٤).

(٣) البيت لابن الرومي، انظر: حياة الحيوان الكبرى (٢/ ٥٠٨).

فلا يُعصَى، وأن يُذكر فلا يُنسَى، وأن يُشكر فلا يُكفر[1].

ورواه مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

وقال ابن عباس: هو أن تجاهدوا في الله حق جهاده، وأن لا تأخذكم في الله لومة لائم، وأن تقوموا لله بالقسط، ولو على أنفسكم، وآبائكم وأبنائكم[2].

فصل

ذهب ابن عباس -في رواية- وسعيد بن جبير وقتادة وأكثر المفسِّرين إلى أن هذا منسوخ بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[3] [التغابن:١٦]، والذاهبون إلى إحكامه جعلوا قوله: "مَا اسْتَطَعْتُمْ" مفسراً لقوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٣)، والطبري (٤/ ٢٧-٢٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٢)، وابن المبارك في الزهد (ص:٨)، والطبراني في الكبير (٩/ ٩٢)، والنحاس في ناسخه (ص:٢٨١)، كلهم من طريق زبيد اليامي، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفاً. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٨٢-٢٨٣) وعزاه لابن المبارك في الزهد وعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن جرير والنحاس في ناسخه والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه.

وأخرجه الثعلبي (٣/ ١٦١) عن أبي النضر، عن محمد بن طلحة، عن زبيد، عن مرة، عن عبدالله، رفعه.

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٨-٢٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٢)، والنحاس في ناسخه (ص:٢٨٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٨٣) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه.

(٣) الطبري (٤/ ٢٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٢)، والناسخ والمنسوخ لابن الجوزي (ص:٢٤٢).

(٤) قال النحاس في ناسخه (ص:٢٨٣): كل ما ذكر في الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ، وهذا هو قول النبي ﷺ: "أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً".

=

قوله: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ قال صاحب الكشاف[١]: معناه: لا تموتن على حال سوى حال الإسلام، إذا أدرككم الموت، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدو: لا تأتني إلا وأنت على حصان، لا تنهاه عن الإتيان، [ولكنك][٢] تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان.

قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ قال الزجاج[٣]: "اعتصموا": استمسكوا.

قال ابن مسعود: "حبل الله": كتابه[٤].

وقال في رواية أخرى: الجماعة[٥].

وقال مجاهد: عهد الله[٦].

= وانظر: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٦٢)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٤١) وما بعدها، وزاد المسير (١/ ٤٣٢).

(١) الكشاف (١/ ٤٢٣).

(٢) في الأصل: ولكنه. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) معاني الزجاج (١/ ٤٥٠).

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ٣١)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢١٢)، وسعيد بن منصور (٣/ ١٠٨٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٨٤) وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني بسند صحيح.

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ٣٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٣)، والطبراني في الكبير وسعيد بن منصور، الموضعان السابقان. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٨٥) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني.

(٦) أخرجه الثعلبي (٣/ ١٦٢)، والطبري (٤/ ٣١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٣) عن قتادة. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٧٢٣) وعزاه لابن أبي حاتم عن قتادة.

و«جميعاً» نصب على الحال[1].

﴿ولا تفرَّقوا﴾ أصلها: تتفرقوا، فحذفت التاء الثانية الأصلية؛ لاتفاقهما في الجنسية.

فإن قيل: هلاَّ حُذفت التاء الأولى -لمكان زيادتها- وأقرّتِ الأصلية؟

قلتُ: لأن الأُولى دخلت لمعنى الاستقبال، فكان حذف ما لا معنى فيه أولى.

وابن كثير في رواية البزي[2] يشدِّد التاء على الإدغام، وهذا مذهبه في كل ما أصله تاءان، مثل: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ﴾ [البقرة:٢٦٧]، ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢]، وذلك في إحدى وثلاثين موضعاً في القرآن[3].

والمعنى: لا تختلفوا وتتفرقوا، كما تفرقت اليهود والنصارى.

﴿واذكروا﴾ أيها الأوس والخزرج ﴿إذ كنتم أعداء﴾ تتناحرون، ورحى الحرب تدور بينكم مائة وعشرين سنة ﴿فألَّف بين قلوبكم﴾ بالإسلام، وبمحمد عليه الصلاة والسلام، ﴿فأصبحتم﴾ أي: فَصِرْتُم ﴿بنعمته إخواناً﴾ يعني: إخوة في الدين ﴿وكنتم على شفا حفرة﴾ أي: على حرف هوة ﴿من النار﴾ وهو تمثيل لقربهم من الهلاك، على معنى: ليس بينكم وبين الخلود في النار سوى مفارقة هذه الدار، ﴿فأنقذكم منها﴾ بمحمد ﷺ.

---

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ١٧٧).

(٢) أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، أبو الحسن المكي، من كبار القراء، قال ابن الجزري: أستاذ محقق ضابط متقن، توفي سنة خمسين ومائتين (طبقات القراء لابن الجزري ١/ ١٢٠، والأعلام للزركلي ١/ ٢٠٤).

(٣) النشر (٢/ ٢٣٢).

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثاً، وَرَضِيَ لَكُمْ ثَلاثاً. رَضِيَ لَكُمْ أنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً، وَأنْ تَنْصَحُوا لِوُلاةِ الأمْرِ. وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَإضَاعَةَ المَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»[1].

﴿كذلك﴾ أي: مثلُ ذلك البيان الواضح ﴿يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ إرادة أن تزدادوا هدى.

ويروى: أن أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ هذه الآية فقال: والله ما أنقذهم منها، وهو يريد أن يوقعهم فيها، فقال ابن عباس: خذوه من غير فقيه[2].

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٧ ح٨٣١٦).

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ١٢١-١٢٢).

قوله: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ «مِنْ» للتبعيض، لأنه لا يصلح للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا العالِم بما يجوز في ذلك وما لا يجوز: و«الخير»: الإسلام، و«المعروف»: طاعة الله وطاعة رسوله، و«المنكر»: معصية الله ومعصية رسوله.

﴿وأولئك﴾ يعني: الذين يدعون إلى الخير، ويأمرون وينهون، ﴿هم المفلحون﴾.

قال علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[(١)].

وأخرج الإمام في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْر الله عَلَيْهِ فِيهِ مَقَال أن يقول، فَيَقُولُ الله: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: رَب، خَشِيتُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: وَأَنَا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى»[(٢)].

قرأت على أبي المجد محمد بن الحسين القزويني[(٣)]، أخبركم أبو منصور محمد بن أسعد الطوسي[(٤)]، أخبرنا أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري[(٥)]، أخبرنا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٤). وانظر: تفسير أبي السعود (٢/ ٦٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧ ح١١٤٥٨).

(٣) محمد بن الحسين القزويني، أبو المجد الصوفي. المحدّث. توفي بالموصل سنة اثنتين وعشرين وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٤٩، وشذرات الذهب ٥/ ١٠١).

(٤) محمد بن أسعد الطوسي، أبو منصور العطاري، المعروف بحفدة، واعظ من فقهاء الشافعية. توفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٩، والأعلام للزركلي ٦/ ٣١).

(٥) أحمد بن الحسن النيسابوري، أبو بكر الحيري، الشافعي، المحدث الفقيه. توفي سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٥٦).

حاجب بن أحمد الطوسي(١)، حدثنا عبد الرحيم بن منيب(٢)، حدثنا يعلى(٣)، عن الأعمش، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الواقع في حدود الله والمداهن(٤) فيها، كمثل قوم ركبوا في السفينة، فاستهموا عليها، فركب قوم علوها، وركب قوم سفلها، وكانوا إذا استقوا آذوهم، وأصابوهم بالماء، فقالوا: إنكم قد آذيتمونا، مما تمرون علينا، فأعطوا رجلاً فأساً فنقب عندهم نقباً، قالوا: ما هذا الذي تصنعون؟ قالوا: تأذيتم بنا فننقب عندنا نقباً نستقي منه، فإن تركوهم هلكوا، وأهلكوا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا»(٥). هذا حديث صحيح أخرجه البخاري، عن عمر بن حفص، عن أبيه، عن الأعمش.

قوله: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا﴾، وفيهم قولان:

أحدهما: أنهم اليهود والنصارى. قاله ابن عباس والحسن(٦).

---

(١) حاجب بن أحمد النيسابوري، أبو محمد الطوسي، مسند نيسابور، روى عن محمد بن رافع وجماعة. توفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٣٦، وميزان الاعتدال ٢/ ١٦٤).

(٢) لم أجد له ترجمة، وقد ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٣٦) عرضاً في سياق ترجمة حاجب النيسابوري، إذ قال: "روى عن عبد الرحمن بن منيب" يقصد حاجب النيسابوري.

(٣) يعلى بن عبيد بن أبي أمية، الكوفي، أبو يوسف الطَّنَافِسي، ثقة إلا في حديثه عن الثوري ففيه لين، وقال أبو حاتم: صدوق. توفي سنة بضع ومائتين (لسان الميزان ٧/ ٤٤٦، وتهذيب الكمال ٣٢/ ٣٨٩، والتقريب ص:٦٠٩).

(٤) قال في اللسان (مادة: دهن): والمداهنة والإدهان: المصانعة واللين، وقيل: المداهنة إظهار خلاف ما يُضمر، والإدهان: الغش.

(٥) أخرجه البخاري (٢/ ٩٥٤ ح٢٥٤٠).

(٦) أخرجه الطبري (٤/ ٣٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٨) كلاهما عن الحسن. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٨٩) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

والثاني: أنهم الحرورية. قاله أبو أمامة[(١)].

قوله: ﴿يوم تَبْيَضُّ وجوه وتَسْوَدُّ وجوه﴾ «يوم» نصب على الظرف، وهو «لهم»، أو بإضمار "اذكروا"[(٢)].

قال ابن عباس -في رواية عطاء-: يوم تَبْيَضُّ وجوه المهاجرين والأنصار، وتَسْوَدُّ وجوه قريظة والنضير[(٣)].

وقال -في رواية سعيد بن جبير-: يوم تَبْيَضُّ وجوه أهل السنة، وتَسْوَدُّ وجوه أهل البدعة[(٤)].

وقيل: يوم تَبْيَضُّ وجوه المؤمنين، وتَسْوَدُّ وجوه الكافرين، وقيل: المنافقين.

﴿فأما الذين اسْوَدّت وجوههم﴾ وهم أهل البدعة، أو اليهود والنصارى، على اختلاف القولين، أو جميع الكفار أو المنافقين، على القولين الآخرين، ﴿أكفرتم﴾ على إضمار القول، أي فيقال لهم: أكفرتم ﴿بعد إيمانكم﴾ بمحمد ﷺ قبل مبعثه.

وإن أريد به الحرورية، فالمعنى: "أكفرتم" غطيتم الحق، وفارقتم الجماعة، وسللتم سيف البغي على المؤمنين ﴿بعد إيمانكم﴾.

وإن أريد به جميع الكفار، فالمعنى: أكفرتم بعد إيمانكم يوم ﴿ألست بربكم﴾ [الأعراف:١٧٢].

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٤٠). وذكره الثعلبي (٣/ ١٢٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٣٥).

(٢) التبيان (١/ ١٤٥)، والدر المصون (٢/ ١٨١).

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ١٢٤) عن عطاء، والواحدي في الوسيط (١/ ٤٧٥) كرواية المصنف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٦٥)، والخطيب في تاريخه (٧/ ٣٧٩). وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٧٥-٤٧٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٩١) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي نصر في الإبانة والخطيب في تاريخه واللالكائي في السُنَّة.

وإن أريد به المنافقون، فالمعنى: بعد إيمانكم بألسنتكم.

﴿فذوقوا العذاب﴾ أصل الذَّوْق بالفم، ثم استعير لما يُتعرَّف. تقول العرب: ذق الفرس فاعرف ما عنده. وأنشدوا:

فَإِنَّ اللهَ ذاقَ حُلُومَ قَيْسٍ فَلَمَّا رَأَى خِفَّتَها قَلاَهَا[(١)]

وفي كتاب الخليل: كُلُّ ما نزل بإنسان من مكروه فقد ذاقه.

أخبرنا الإمام أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي[(٢)]، أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن عبد الواحد القزاز[(٣)]، أخبرنا الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن مهدي الخطيب، أخبرنا أبو نصر محمد بن عبيد الله بن الحسن، حدثنا أبو حفص عمر بن محمد بن علي الزيات[(٤)]، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن أيوب، سمعت الحسن بن [حماد][(٥)] سَجّادة يقول: بلغني أن أم إسحاق الأزرق قالت له: يا بني؛ إن بالكوفة رجلاً يستخف بأصحاب الحديث، وأنت على الحج،

---

(١) البيت ليزيد بن الصعق، كما في الحيوان للجاحظ (٥/ ٣٠).

(٢) زيد بن الحسن بن زيد ، أبو اليمن الكندي البغدادي، المقرئ والنحوي واللغوي، مسند الشام، ولد سنة عشرين وخمسمائة، وقد حفظ القرآن الكريم وقرأه بالروايات العشر وهو صغير، وهو شيخ الحنفية (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٤).

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الواحد، أبو منصور الشيباني، القزاز، كان صحيح السماع. توفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة (المنتظم ١٠/ ٩٠، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٦٩).

(٤) عمر بن محمد بن علي البغدادي، أبو حفص، المشهور بابن الزيات، كان ثقة أميناً. توفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢٣).

(٥) في الأصل: الحسن بن محمد، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه. وهو: ابن كُسَيب، الحضرمي، أبو علي البغدادي. توفي سنة إحدى وأربعين ومائتين (التقريب ص:١٦٠).

فأسالك بحقي عليك أن لا تسمع منه شيئاً. قال إسحاق: فدخلت الكوفة، فإذا الأعمش قاعد وحده، فوقفت على باب المسجد، فقلت: أمي والأعمش، وقد قال النبي ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[١]، فدخلت المسجد فسلّمت، فقلت: يا أبا محمد؛ حدِّثني فإني رجل غريب، فقال: من أين أنت؟ قلت: من واسط[٢]، قال: فما اسمك؟ قلت: إسحاق بن يوسف الأزرق[٣]، قال: فلا حييت ولا حييت أمك، أليس حرجت عليك أن لاتسمع مني شيئاً؟ قلت: يا أبا محمد؛ ليس كل ما بلغك يكون حقاً، قال: لأحدثنك بحديث ما حدَّثتُ أحداً قبلك، فحدَّثني عن ابن أبي أوفى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخَوَارِجُ هُمْ كِلابُ النَّارِ»[٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٨١ ح٢٢٤)، وابن حبان في المجروحين (١/ ١٤١).

قال السيوطي في شرحه على ابن ماجه (١/ ٢٠): سئل الشيخ محيي الدين النووي عن هذا الحديث فقال: إنه ضعيف، وإن كان صحيحاً.

وقال تلميذه الحافظ جمال الدين المزي: هذا الحديث روي من طرق تبلغ رتبة الحسن، وهو كما قال، فإني رأيت له خمسين طريقاً، وقد جمعتها في جزء.

(٢) واسط: بلدة مشهورة في العراق، وسميت بذلك؛ لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة (معجم البلدان ٥/ ٣٤٧).

(٣) إسحاق بن يوسف بن مِرْداس المخزومي، الواسطي، المشهور بالأزرق، الحافظ الثقة، كان من أعلم الناس بالحديث. توفي سنة خمس وتسعين ومائة (تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٠، وطبقات الحفاظ ص:١٣٨-١٣٩).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١/ ٦١ ح١٧٣)، وأحمد (٤/ ٣٥٥).

وفي مسند الإمام من حديث سَيَّار[١] قَالَ: «جِيءَ بِرُؤُوسٍ مِنْ قِبَلِ العِرَاقِ، فَنُصِبَتْ عِنْدَ بَابِ المَسْجِدِ، وَجَاءَ أَبُو أُمَامَةَ[٢] فَدَخَلَ المَسْجِدَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ -ثَلاثاً- وَخَيْرُ قَتْلَى تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ مَنْ قَتَلُوهُ، وَقَالَ: كِلابُ النَّارِ -ثَلاثاً- ثُمَّ إِنَّهُ بَكَى، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُمْ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: يَا أَبَا أُمَامَةَ؛ أَرَأَيْتَ هَذَا الحَدِيثَ حَيْثُ قُلْتَ: "كِلابُ أَهْلِ النَّارِ" شَيْءٌ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أَوْ شَيْءٌ تَقُولُهُ بِرَأْيِكَ؟ قَالَ: سُبْحَانَ الله، إِنِّي إِذاً لَجَرِيءٌ، لَقد سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ مَرَّةً، وَمَرَّتَيْنِ، حَتَّى ذكَرَ سَبْعاً، فَقَالَ الرَّجُلُ: لأَيِّ شَيْءٍ بَكَيْتَ؟ قَالَ رَحْمَةً لَهُمْ»[٣].

وفي رواية أخرى عنه: «ثم قرأ: ﴿يوم تَبْيَضُّ وجوه وتَسْوَدُّ وجوه... إلى آخر الآية﴾»[٤].

قوله: ﴿ففي رحمة الله﴾ يعني: الجنة.

قال ابن قتيبة[٥]: وسمى الجنة رحمة؛ لأن دخولهم إياها كان برحمته.

وقوله: ﴿هم فيها خالدون﴾ موقعه موقع الاستئناف. وكأنه قيل: كيف

---

(١) سيار بن عبد الله الأموي الدمشقي، مولى لآل معاوية، قدم البصرة، روى عن أبي الدرداء وابن عباس وأبي أمامة والخولاني، أخرج له الترمذي (تهذيب التهذيب ٤/ ٢٥٧).

(٢) صدى بن عجلان بن وهب، أبو أمامة الباهلي، صحابي جليل، سكن الشام وبها توفي سنة إحدى وثمانين (تهذيب التهذيب ٤/ ٣٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٢٦ ح ٣٠٠٠) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (١/ ٦٢ ح١٧٦)، وأحمد (٥/ ٢٥٠ ح٢٢٢٠٥).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦ ح٢٢٢٦٢).

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص:١٤٥).

يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون، لا يظعنون ولا يموتون.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[1] نزلت حين قالت طائفة من اليهود للمسلمين: ديننا خير، ونحن أفضل[2].

قال الزجاج[3]: الخطاب لأصحاب رسول الله ﷺ وهو يعمُّ سائر أمته. وفي الحديث: «إنَّكُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أنتم خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا على الله عزَّ وجل»[4].

---

(١) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس الحادي عشر، مرة ثانية.

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٤٣) عن عكرمة بسند صحيح. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٢١)، والثعلبي في تفسيره (٣/ ١٢٦) عن عكرمة ومقاتل، ومقاتل في تفسيره (١/ ١٨٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٩٣) وعزاه لابن جرير وابن المنذر عن عكرمة.

(٣) معاني الزجاج (١/ ٤٥٦).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣)، والترمذي (٥/ ٢٢٦ ح٣٠٠١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٣ ح٤٢٨٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٩٤ ح٦٩٨٧) كلهم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

والمعنى: كنتم في اللوح المحفوظ، أو في علم الله، أو كنتم مذ كنتم، أو كنتم بمعنى: خلقتم، أو كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به.

وذكر الفراء[١] والزجاج[٢]: أن معنى «كنتم»: أنتم، كقوله: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء:٩٦].

ومعنى الكلام: كنتم خير الناس للناس، وأنفع لهم.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم السلمي[٣]، وأبو الحسن علي بن أبي بكر الصوفي[٤]، قالا: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى[٥]، قال: أخبرنا أبو الحسن، عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود[٦] قراءة عليه في سنة خمس وستين وأربعمائة، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه بن أحمد بن

---

(١) معاني الفراء (١/ ٢٢٩).

(٢) لم أقف عليه في معاني الزجاج. ونقله عن الزجاج ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٣٩). وقد أخرجه مجاهد في تفسيره (ص:١٣٣).

(٣) أحمد بن عبد الله بن عبد الصمد السلمي، البغدادي، المحدث، صالح ثقة صدوق، انتقل إلى دمشق فسكنها إلى توفي سنة خمس عشرة وستمائة (التقييد ١/ ١٤٦).

(٤) علي بن أبي بكر بن رُوْزَبَة البغدادي، أبو الحسن القلانسي، العطار الصوفي، سمع من أبي الوقت صحيح البخاري، وحدَّث به في حلب وبغداد ورأس عين، حدَّث عنه عز الدين الرسعني، توفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٨٨، وذيل التقييد ٢/ ٢٣٠).

(٥) عبد الأول بن عيسى السجزي، أبو الوقت الهروي، مسند الدنيا، شيخ الإسلام، سمع صحيح البخاري من الداوودي، وتوفي ببغداد سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٠٣، والشذرات ٤/ ١٦٦).

(٦) الداوودي، مسند الوقت، سمع من السرخسي وغيره، توفي سنة سبع وستين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢٢).

يوسف بن أعين السرخسي[١]، سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفربري[٢]، سنة ست عشرة وثلاثمائة، حدثنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، حدثنا محمد بن يوسف، عن سفيان، عن ميسرة، عن أبي حازم[٣]، عن أبي هريرة: «﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام». هذا حديث صحيح[٤].

وقيل: المعنى: كنتم خير الأمم التي أخرجت للناس.

﴿تأمرون بالمعروف﴾ كلام مستأنف، مبين لكونهم خير أمة.

و«المعروف»: التوحيد، و«المنكر»: الشرك[٥].

قوله: ﴿منهم المؤمنون﴾ كعبد الله بن سلام، وأصحابه، ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ وهم الذين أصرُّوا على الكفر، وخرجوا عن الطاعة.

---

(١) راوي صحيح البخاري، سمعه من الفربري، توفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٩٢، وشذرات الذهب ٣/ ١٠٠).

(٢) حدّث عن البخاري، وسمعه منه مرتين، توفي سنة عشرين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٠، والتقييد ص:١٢٥).

والفِرَبْري نسبة إلى فِرَبْر، بكسر أوله وقد فتحه بعضهم وثانيه مفتوح ثم باء موحدة ساكنة وراء: بليدة بين جيحون وبخارى، وقد خرج منها جماعة من العلماء والرواة (معجم البلدان ٤/ ٢٧٩).

(٣) سلمان الأشجعي، أبو حازم الأعرج، الكوفي، ثقة، مولى عزة الأشجعية. توفي على رأس المائة (سير أعلام النبلاء ٥/ ٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٠ ح٤٢٨١).

(٥) أخرجه مجاهد (ص:١٣٣).

ومما يدل على قِلَّة مَن آمن منهم؛ ما أخرج في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ آمَنَ بي عَشَرَةٌ من اليَهُودِ، لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلاَّ أَسْلَمَ»[١].

قوله: ﴿لن يضروكم﴾ يعني: اليهود، ﴿إلا أذى﴾ أي: ضرراً مقتصراً على أذى، من بُهْتٍ[٢] يختلقونه، وباطل يلقونه.

ثم ضمن الله النصر للمسلمين، فقال: ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾. وقوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾ جملة معطوفة على الشرط والجزاء. والتقدير: ثم أخبركم وأبشركم أنهم لا ينصرون، ولذلك لم يجزم.

قوله[٣]: ﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا﴾ أي: أينما وجدوا، وقد سبق تفسيره في البقرة[٤]، ﴿إلا بحبل من الله﴾ في موضع الحال[٥]، على معنى: إلا معتصمين، أو متمسكين بحبل من الله، أي عهد منه، وعهد من الناس[٦]، الذين هم ناس على الحقيقة، وهم المسلمون، وعهدهم عقد الذمة لأهل الكتاب، ونسبته إلى الله لصدور الإذن فيه من جهته.

قال الزجاج[٧]: وما بعد الاستثناء في قوله: ﴿إلا بحبل من الله﴾ ليس من

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٤٣٤ ح٣٧٢٥)، ومسلم (٤/ ٢١٥١ ح٢٧٩٣).

(٢) بَهَتَ فلانٌ فلاناً: إذا كذب عليه (اللسان، مادة: بهت).

(٣) كتب بالهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً خامساً.

(٤) عند الآية: ٦١.

(٥) انظر: التبيان (١/ ١٤٦)، والدر المصون (٢/ ١٨٨).

(٦) تفسير مجاهد (ص:١٣٣).

(٧) معاني الزجاج (١/ ٤٥٧).

الأول، وإنما المعنى: أنهم أذلاء إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه.

وباقي الآية مُفسَّر في البقرة[١].

۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ يعني: اليهود، ثم بيَّن ما به وقع انتفاء المساواة، فقال: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾[٢] مستقيمة عادلة.

قال ابن عباس: قائمة على الحق، وعلى أمر الله، لم يتركوه، كما تركه الآخرون[٣].

---

(١) عند قوله: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة... الآية﴾ [البقرة:٦١].

(٢) في الأصل: «منهم أمة قائمة» وهو خطأ.

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٥٣-٥٤)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٣٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٩٧) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال السدي: قائمة بطاعة الله[١].

﴿يتلون﴾ في موضع رفع صفة لـ«أمة»[٢]، ومثله: ﴿يؤمنون﴾. والمعنى: يقرؤون كتاب الله، ﴿آناء الليل﴾ ساعاته، واحدها: إِنْي، مثل: نِحْي[٣]، أو: إِنَى، مثل: مِعَى.

قال السدي: "آناء الليل": جوف الليل[٤].

وروى سفيان عن منصور: أنها ما بين المغرب والعشاء[٥].

وقال قتادة: هي ساعات غير معينة[٦].

﴿وهم يسجدون﴾ أي: يصلون النوافل، وقيل: هو السجود المعروف.

فعلى القول الأول: تكون الواو للحال[٧].

﴿ويأمرون بالمعروف﴾ وهو اتباع محمد ﷺ، ﴿وينهون عن المنكر﴾ وهو مخالفته ﷺ، ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ يبادرونها خوف الفوت بحلول الموت.

---

(١) أخرجه الثعلبي (٣/ ١٣٠). وذكره الطبري (٤/ ٥٣)، والواحدي في الوسيط (١/ ٤٨١).

(٢) ويجوز أن يكون حالاً من "أمة"، أو حالاً من الضمير في "قائمة". (انظر: التبيان ١/ ١٤٦، والدر المصون ٢/ ١٩٠).

(٣) النِّحْيُ: زقّ السَّمن (اللسان، مادة: نحا).

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ٥٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٣٨)، والثعلبي (٣/ ١٣١). وذكره الماوردي (١/ ٤١٧).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ٥٥-٥٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٣٩)، والثعلبي (٣/ ١٣٢). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٢٩٨) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الطبري (٤/ ٥٤-٥٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٣٩) كلاهما عن قتادة والربيع بن أنس. وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٢٩٧) وعزاه لابن جرير عن الربيع.

(٧) انظر: التبيان (١/ ١٤٦)، والدر المصون (٢/ ١٩٠).

ومعنى الآية: من أهل الكتاب أمّة موصوفون بهذه الصفات، وهم الذين أسلموا من اليهود؛ كعبد الله بن سلام، ومنهم من أَصَرَّ على يهوديته وكفره، وهم الأكثرون، وإنما اقتصر على الإخبار عن أمة واحدة؛ لوضوح المعنى وظهوره؛ كقوله: ﴿أَمَّن هو قانت﴾ [الزمر:٩]، ولم يذكر ضده، ومثل ذلك قول الشاعر:

وَمَا أَدْرِي إِذا يَمَّمْتُ أَرْضاً ... أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

أَأَلخَيْرُ الذي أَنَا أَبْتَغِيهِ ... أَمِ الشَّر الذي هُوَ يَبْتَغِينِي[1]

أراد: أريد الخير، وأتقي الشر، ولذلك قال: «أيهما يليني»، وقال: «أم الشر».

قوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير فلن تكفروه﴾ خطابٌ لأمة محمد ﷺ.

وقرأ حمزة والكسائي "وما يفعلوا" بالياء، "فلن يكفروه" بالياء أيضاً[2]، رداً إلى "الأمة القائمة"، وإخباراً عنهم.

والمعنى: لن يضل عنكم ثوابه، ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي: بالمحتجزين بالإيمان عن الشرك، والإيقان عن الشكّ.

قوله: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا﴾ قال مجاهد: نزلت في نفقات الكفار يوم بدر[3].

---

(١) البيتان للمثقب العبدي من قصيدة طويلة. انظر: ديوانه (ص:٢١٢)، والقرطبي (١٠/ ١٦٠)، والطبري (٢٢/ ١٥١)، وزاد المسير (١/ ١٨٣، ٤٤٣)، وروح المعاني (٢٢/ ٢١٥).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦)، ولابن زنجلة (ص:١٧٠-١٧١)، والكشف (١/ ٣٥٤)، والنشر (٢/ ٢٤١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٥).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٥٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٤١). وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٨٢)، والسيوطي في الدر (٢/ ٢٩٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال مقاتل[(١)]: في نفقة [سفلة][(٢)] اليهود على علمائهم.

﴿كمثل ريح فيها صِرّ﴾ وهو البرد الشديد، وقيل: النار، سميت بذلك؛ لتصويتها عند التهابها، فأعلمهم الله عز وجل أن ضرر نفقتهم في طاعة الشيطان ومعصية الله على أنفسهم؛ كضرر هذه الريح على هذا الزرع.

وقوله: ﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم﴾، بالكفر والمعاصي، ومنع حق الله منه، فإنهم إذا كانوا بهذه المثابة، كان سخط الله عليهم أشد، وكانت العقوبة في حقهم أعظم.

وقيل: ظلموا أنفسهم بالزرع في غير أوانه.

فإن قيل: الغرضُ تمثيلُ نفقتهم في ضياعها وذهاب نفعها بما أهلكته الريح، فكيف قال: «كمثل ريح»، والمثل ليس للريح، وإنما هو لما أهلكته؟

قلت: قد سبق الكلام على نظائره.

ويجوزُ أن يكونَ المعنى: مَثَلُ إهلاك نفقتهم كمثل إهلاك الريح، أو مثلها كمثل مهلك الريح، وهو الحرث.

قوله: ﴿وما ظلمهم الله﴾ يعني: المُنْفِقِين، ما ظلمهم إذ لم يتقبل نفقتهم، ﴿ولكن أنفسهم يظلمون﴾ حيث لم يسلكوا بها مسلك ما يُتقبل من النفقات التي يُتقرب بها إلى الله، وتجدي على أصحابها نفع الدنيا والآخرة.

ويجوز أن يكون المعنى: وما ظلم الله أصحاب الحرث الذين اجتاحت الريح

---

(١) تفسير مقاتل (١/ ١٨٨). وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٨٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٥).

(٢) زيادة من المصادر السابقة.

زرعهم بالعقوبة، ولكن أنفسهم يظلمون حيث ارتكبوا ما أوجبوا ذلك من الكفر والمعاصي.

ويجوز أن يعود الضمير في: «وما ظلمهم الله» للمنافقين الذين ضُرِب المثل لهم وبهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ نزلت ناهية لطائفة من المؤمنين، كانوا يواصلون رجالاً من اليهود والمنافقين لما بينهم من الحِلْف، والرَّضاع، والقرابة، والجِوار، والصداقة[(١)].

وبطانة الرَّجُل: خَاصَّتُه الذين يَسْتَبْطِنُونَ أمره، ويَظْهَرُون على سره، مأخوذ

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٦١) عن ابن عباس، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٤٣) عن محمد بن أبي محمد. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٢٣-١٢٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٦) كلاهما من قول ابن عباس ومجاهد، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٩٩) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

من بطَانة الثوب[١].

ومنه قوله ﷺ: «الأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي»[٢]. أي: جماعتي، وموضع سري، وقوله: «الأنصار شعار، والناس دِثار»[٣].

وقوله: «من دونكم» أي: من دون أبناء جنسكم[٤]، وهم المسلمون. ويجوز أن يكون متعلقاً بـ «لا تتخذوا بطانة» على معنى: بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم.

ثم علَّل ذلك فقال: ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ أي: فساداً، أو شراً. والمعنى: لا يدعون من جهدهم شيئاً في إدخال الفساد عليكم. يقال: ألاَ في الأمر يَألُو أَلْواً؛ إذا قَصَّر فيه[٥].

ومنه قول ابن مسعود حين بايعوا عثمان رضي الله عنهما: «ولم نَأْلُ عن خَيْرنا ذي فُوق»[٦].

و«خبالاً» تمييز، أو مصدر، أو مفعول ثان[٧]، على معنى: لا يمنعونكم، ولا ينقصونكم خبالاً.

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (بطن).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٨٣ ح٣٥٨٨)، ومسلم (٤/ ١٩٤٩ ح٢٥١٠).
والعَيْبَة من الرَّجُل: موضِعُ سِرّه (اللسان، مادة: عيب).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٥٧٤ ح٤٠٧٥)، ومسلم (٢/ ٧٣٩ ح١٠٦١).

(٤) قال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٠): ﴿من دونكم﴾ من دون أهل دينكم وملتكم، يعني: من غير المؤمنين.

(٥) انظر: اللسان (مادة: ألا).

(٦) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٦٣)، والثعلبي في التفسير (٣/ ١٣٤).

(٧) انظر: التبيان (١/ ١٤٧)، والدر المصون (٢/ ١٩٣-١٩٤).

﴿ودوا ما عَنِتُّم﴾ «ما» مصدرية، والمعنى: أحبوا عنتكم وإدخال المشقة عليكم، والإضرار لكم في دينكم ودنياكم.

والعَنَتُ: شِدَّةُ الضَّرَر، والمَشَقَّة[١].

﴿قد بَدَتِ البغضاء من أفواههم﴾ بما تسمعون منهم، من شتمكم، والكذب عليكم، ﴿وما تُخْفِي صدورهم﴾ من الغِلّ والحِقْد والحَسَد ﴿أكبر﴾ مما يبدون من أفواههم.

قال القاضي أبو يعلى: في هذه الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العمالات، والكتابة، ولهذا قال الإمام أحمد: لا يستعين الإمام بأهل الذمة على قتال أهل الحرب[٢].

وقد روي أن عمر رضي الله عنه، كتب إلى أبي موسى -وقد بلغه أنه استكتب ذمياً-: لا تردوهم إلى العز بعد إذ أذلهم الله[٣].

قوله: ﴿ها أنتم﴾ قال صاحب الكشاف[٤]: «ها» للتنبيه، «أنتم» مبتدأ، «أولاء» خبره، أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب.

قوله: ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ بيان لخطئهم في موالاتهم، حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. وقيل: [«أولاء»][٥] موصول، «تحبونهم» صلته، والواو في

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (عنت).

(٢) انظر: زاد المسير (١/ ٤٤٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢٧)، وشعب الإيمان (٧/ ٤٣).

(٤) الكشاف (١/ ٤٣٥).

(٥) في الأصل: هؤلاء. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

«وتؤمنون» للحال، وانتصابها من «لا يحبونكم»، أي: [لا][(١)] يحبونكم، والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم، وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم. وفيه توبيخ شديد، بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم، ونحوه: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤]. وبها تمام كلامه[(٢)].

وقيل: معنى الآية: أنتم تحبونهم؛ لأنكم تريدون لهم الإسلام، ولا يحبونكم؛ لأنهم يريدون لكم الضلال.

﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ هو اسم جنس، يريد: الكتب كلها.

﴿وإذا لقوكم﴾ يعني: المنافقين، وقيل: يعني: اليهود، ﴿قالوا آمنا وإذا خلوا عَضُّوا﴾ أي: كَدَمُوا[(٣)] ﴿عليكم الأنامل﴾ أي: أطراف الأصابع ﴿من الغيظ﴾.

وقيل: إن عضّ الأنامل هاهنا استعارة لشدة الحنق والحقد، وإن لم يكن ثَمَّ عض على الحقيقة، كقول الشاعر:

إِذَا رَأَوْنِي أَطَالَ اللهُ غَيْظَهُمْ ... عَضُّوا مِنَ الغَيْظِ أَطْرَافَ الأَبَاهِيمِ[(٤)]

ومثله قول أبي طالب:

---

(١) زيادة من الكشاف (١/ ٤٣٥).

(٢) أي: الزمخشري في الكشاف.

(٣) كَدَمَهُ يَكْدِمُهُ وَيَكْدُمُهُ: عَضَّهُ بأدنى فمه (اللسان، مادة: كدم).

(٤) البيت للفرزدق، انظر البيت في: البحر المحيط (٣/ ٤٤)، والدر المصون (٢/ ١٩٧)، والقرطبي (٤/ ١٨٢).

وَقَدْ صَالَحُوا قَوْماً عَلَيْنَا أَشِحَّةً يَعَضُّونَ غَيْظاً خَلْفَنَا بالأَنَامِلِ[(١)]

وسببُ غيظهم: ما كانوا يرونه من انتظام المسلمين، وائتلاف قلوبهم، واستفحال أمرهم، ﴿قل﴾ لهم يا محمد على وجه الدعاء عليهم بأن يدوموا على حنقهم إلى الموت: ﴿موتوا بغيظكم﴾ أي: اهلكوا كَمَداً بحنقكم.

﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: بحقيقة ما في القلوب، من خير وشر، فهو يعلم ما في قلوب اليهود والمنافقين من الغيظ والبغضاء، وما يقولون ويتناجون به في الخلاء.

قال ابن الأنباري: تأنيث «ذات» لمعنى الحقيقة، كما تقول العرب: لقيته ذات يوم، فيؤنِّثون، لأن مقصدهم: لقيته مرة في يوم.

قوله عز وجل: ﴿إن تمسسكم حسنة﴾[(٢)] أي: نصر وغنيمة، وحال مستقيمة، ﴿تسؤهم وإن تصبكم سيئة﴾ قتل وهزيمة ﴿يفرحوا بها﴾، ﴿وإن تصبروا﴾ على أذاهم، ﴿وتتقوا﴾ الشرك والمعاصي ﴿لا يضرّكم﴾ جواب الشرط، وهو من ضَارَ يَضِيرُ، ومنه: «لا ضَيْرَ».

وقرأ الضحاك[(٣)] كذلك، إلا أنه ضم الضاد، من ضَارَ يَضُورُ، وهي لغة قليلة[(٤)].

---

(١) البيت لأبي طالب. انظر: ديوانه (ص:٧٠، ١٩٠)، ورواية الديوان: (وقد حالفوا قوماً علينا أظنَّةً). وهو في ديوان الفرزدق (ص:٨٥٥)، والبحر (٣/ ٤٤)، والدر المصون (٢/ ١٩٧)، والمقتضب (٤/ ٩٠).

(٢) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس الثاني عشر، مرة ثانية.

(٣) لم أقف على قراءة الضحاك هذه.

(٤) انظر: الصحاح (٢/ ٧٢٣)، ولم يشر إلى أنها لغة قليلة.

وقرأ أهل الكوفة وابن عامر: «يضُرُّكم»[١] بضم الضاد، وتشديد الراء وضمّها[٢]، أصله: يضرركم، فاجتمعت راءان، والأولى ساكنة، فأدغمت في الثانية، ونقلت ضمة الراء الأولى إلى الضاد، وضمت الراء الأخيرة، إتْباعاً لأقرب الحركات إليها وهي الضاد، طلباً للمشاكلة؛ كقولهم: مُدِّ يا هذا، أو تكون «لا» بمعنى: ليس.

وفي هذه الآية دلالة على أن سهام الكيد لا تنفذ في دروع الصبر والتقوى، وإرشاد للعباد أن يستعينوا بهما في غمرات المهالك، ومخاوف المسالك.

وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: «احْفَظ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظ الله تَجِدْهُ أَمَامَكَ»[٣]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

وقد قال الحكماء: إذا أردتَ أن تكبتَ من يحسُدك، فازدد فضلاً في نفسك[٤].

﴿إن الله بما يعملون﴾ من الصبر والتقوى، ﴿محيط﴾ أي: عالِم، فهو يفعل بكم ما أنتم أهله.

وقرأ الحسن والأعمش [«تعملون» بالتاء][٥] على معنى: بما يعملون في

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧١)، والكشف (٥١/ ٣٥٥)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٥).

(٢) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: "يَضِرْكُم" (انظر: المصادر السابقة).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٦٧ ح٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٣٠٧ ح٢٨٠٤) من حديث ابن عباس.

(٤) ذكره النسفي في تفسيره (١/ ١٧٥).

(٥) في الأصل: «يعملون» بالياء. وهو خطأ. والصواب ما أثبتناه. انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٣٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧١)، والكشف (٥١/ ٣٥٥)، والنشر (٢/ ٢٤٢).

=

عداوتكم، محيط فهو يجازيهم ويعاقبهم.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ غدوت من أهلك﴾ أي: واذكر إذ أصبحت ذاهباً من بيت عائشة، وذلك يوم أحد.

وقال مجاهد ومقاتل[١]: يوم الأحزاب[٢].

وروي عن الحسن: أنه يوم بدر[٣].

والأول أصح[٤]، لقوله: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ وكان ذلك يوم أُحُد.

﴿تبوئ المؤمنين﴾ أي: تنزلهم، والمباءة: المنزل[٥]، ﴿مقاعد﴾ أي: مراكز ومواطن ﴿للقتال﴾ قال مجاهد والكلبي والواقدي: غدا رسول الله ﷺ من منزل

= وقراءة الحسن ذكرها ابن خالويه في مختصر شواذ القرآن (ص:٢٢)، وهي قراءة شاذة.

(١) تفسير مقاتل (١/ ١٨٩).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٧٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٤٨) كلاهما عن الحسن. وذكره الماوردي (١/ ٤٢٠) من قول الحسن ومجاهد.

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ١٣٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٩). وقد أخرج الطبري (٤/ ٧٠) وابن أبي حاتم (٣/ ٧٤٨) عن الحسن: أنه يوم الأحزاب.

(٤) وهو اختيار الطبري.

(٥) انظر: اللسان، مادة: (بوأ).

عائشة رضي الله عنها يمشي على رجليه إلى أُحُد، فجعل يصفُّ أصحابه للقتال[١]، كأنما يُقَوِّم بهم القداح، إن رأى صدراً خارجاً قال: «تأخَّر».

وذلك أن المشركين نزلوا بأُحُد -على ما ذكره السدي ومحمد بن إسحاق- يوم الأربعاء، فلما سمع رسول الله ﷺ بنزولهم استشار أصحابه، ودعا عبد الله بن أُبَيّ بن سلول -ولم يدعه قط-، فاستشاره، فقال عبد الله بن أُبَيّ وأكثر الأنصار: أقم يا رسول الله بالمدينة، لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيفَ وأنت فينا؟! فَدَعْهُمْ يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشَرِّ مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا، فَأَعْجَبَ رسول الله ﷺ هذا الرأي.

وقال بعض أصحابه: يا رسول الله؛ أُخرج بنا إلى هذه الأكلب[٢]، لا يرون أنّا جَبُنَّا عنهم، وضعفنا. وأتاه النعمان بن مالك الأنصاري فقال: يا رسول الله؛ لا تحرمني الجنة، فوالذي بعثك بالحق لأدخلن الجنة، فقال له: «بمَ»؟ قال: بأني أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأني لا أفرّ من الزحف، قال: «صدقتَ»، فقُتِل يومئذ، فقال رسول الله ﷺ: «إني رأيت في منامي بقراً، فأوَّلتُها خيراً، ورأيت في ذُبَابَ سيفي ثَلْماً[٣]، فأوَّلتها هزيمة، ورأيتُ أني أدخلتُ يدي في درع حصينة، فأوَّلتها المدينة،

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٦٩). وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٨٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٩).

(٢) الأكلب: على مثال أفعل، جمع كلب (معجم ما استعجم ١/ ١٨٣).

(٣) ثَلَمَ الإناءَ والسيفَ يَثْلِمُهُ ثَلْماً: كَسَر حَرْفَه (اللسان، مادة: ثلم).

=

فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعوهم، فإن أقاموا أقاموا بشَرّ، وإن هم دخلوا المدينة قاتلناهم فيها»، وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيُقَاتَلوا في الأزقة.

فقال رجال من المسلمين ممن فاتهم يوم بدر، وأكرمهم الله بالشهادة يوم أُحُد: اخرج بنا إلى أعدائنا.

فلم يزالوا برسول الله ﷺ، من حبهم للقاء العدو، حتى دخل رسول الله ﷺ فلبس لأْمَتَهُ[1]، فلما رأوه وقد لبس السلاح، ندموا، وقالوا: نُشير على رسول الله والوحي يأتيه، فقاموا واعتذروا إليه، وقالوا: اصنع ما شئت، فقال ﷺ: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأْمَتَهُ فيضعها حتى يقاتل». وكان قد أقام المشركون بأُحُد يوم الأربعاء والخميس، فراح رسول الله ﷺ يوم الجمعة بعد ما صَلَّى بأصحابه الجمعة، وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار، فصلَّى عليه، ثم خرج إليهم، فأصبح بالشِّعْب من أُحُد يوم السبت للنصف من شوَّال، سنة ثلاث من الهجرة، وكان من أمر حرب أُحُد ما كان، فذلك قوله: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم﴾[2].

= وذُبابُ السيف: طَرَفَهُ المُتطَرِّفُ الذي يُضْرَبُ به. وقيل: حَدُّه (اللسان، مادة: ذبب).

(١) اللأْمَةُ: الدّرع (اللسان، مادة: لأم).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٧٠-٧١). وذكره الثعلبي في تفسيره بطوله (٣/ ١٣٧-١٣٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٠٣-٣٠٥) وعزاه لابن إسحاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن شهاب ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم، كل حدث بعض الحديث عن يوم أحد. وانظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٨٤٠).

والمعنى: سميعٌ لما تُظهرون، عليم بما تُضمرون.

قوله: ﴿إذ هَمَّتْ طائفتان منكم أن تفشلا﴾: "إذ همَّت" بدل من "وإذ غدوت"، أو عمل فيه "سميع عليم"[1].

والطائفتان: حيَّان من الأنصار؛ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس[2]. وكانا جناحي العسكر، وكان رسولُ الله ﷺ خرج في ألف، وقيل: في ألف إلا خمسين.

وذكر الزجاج[3]: أنهم كانوا ثلاثة آلاف، وكان المشركون في ثلاثة آلاف.

ووعد رسول الله ﷺ أصحابه الفتح إن صبروا، فَانْخَزَلَ[4] عبد الله بن أُبَيّ الخزرجي في ثلاثمائة رجل، فقال: عَلامَ نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عبد الله بن حرام، أبو جابر السلمي، فقال: أنشدكم الله في نبيكم، وفي أنفسكم، فقال عبد الله بن أُبَيّ: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٧]، فهمَّت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف، فعصمهم الله تعالى، فثبتوا، فذكَّرهم الله نعمته بعصمته إياهم[5].

ومعنى «تَفْشَلا»: تَجْبُنا وتَخُورا.

---

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ٢٠٣).

(٢) تفسير مجاهد (ص:١٣٤).

(٣) قال في معاني الزجاج (١/ ٤٦٦): وكانوا في يوم أحد سبعمائة، والكفار في يوم أحد ثلاثة آلاف. وهو الصحيح.

(٤) انْخَزَلَ: أي: انْفَرَدَ (اللسان، مادة: خزل).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ٧٣) عن السدي. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٠٥) وعزاه لابن جرير عن السدي.

﴿والله وليُّهما﴾: ناصرهما.

قال جابر بن عبد الله لفرط استبشاره بإنزال الله آية ناطقة بثنائه عليهم، وولايته لهم: والله ما يسرنا أنّا لم نَهُمَّ بالذي هممنا به، وقد أخبرنا الله أنه وليّنا[1].

وفي الصحيحين من حديث جابر: نحن الطائفتان؛ بنو حارثة، وبنو سلمة، وما يسرني أنها لم تنزل، لقول الله تعالى: ﴿والله وليُّهما﴾[2].

وقرأ ابن مسعود: "والله وليُّهم"[3]، مثل قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات:٩].

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ التوكل: الاعتماد على الغير، وإظهار العجز[4]. يقال: فلان وُكَلَةٌ تُكَلَةٌ، أي: عاجِزٌ، يَكِلُ أمره إلى غيره[5].

فالتوكلُ على الله: تفويضُ الأمر إليه، والاعتماد عليه ثقة بحسن تدبيره، وتفويضاً إلى قضائه وتقديره.

قوله: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾: بدر[6]: اسم لماء بين مكة والمدينة،

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٧٢) عن قتادة. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٠٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٨٨ ح٣٨٢٥، ٤/ ١٦٦٠ ح٤٢٨٢)، ومسلم (٤/ ١٩٤٨ ح٢٥٠٥).

(٣) انظر: الطبري (٤/ ٧٤)، والبحر المحيط (٣/ ٥١).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (وكل). وهذا حد التوكل في اللغة.

(٥) انظر: اللسان، مادة: (وكل). يقال: رجل وُكَلة تُكَلة؛ إذا كان عاجزاً، يَكِلُ أَمْرَه إلى غيره، ويَتَّكِلُ عليه؛ والتاء في تُكَلَةٍ أَصلها الواو، قلبت تاء؛ وكذلك التُّكْلانُ، أَصله وُكْلان.

(٦) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، بينه وبين الجار، ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة، أو بدر بن قريش، وبه سميت الوقعة المباركة؛ لأنه كان احتفرها. وبهذا الماء كانت =

كان لرجل يسمى بدراً، فَسُمِّيَ به، ﴿وأنتم أذلَّة﴾ لِقِلَّة العَدد والعُدد، وذلك أنهم خرجوا من المدينة في ثلاثمائة وثلاثة عشر، سبعة وسبعون من المهاجرين، والباقون من الأنصار.

وكان صاحبَ راية رسول الله ﷺ والمهاجرين: عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وصاحب راية الأنصار: سعد بن عبادة، فانطلقوا على النواضح[1]، يعتقبُ النفرُ على البعير الواحد، وكان معهم سبعون بعيراً، وفرسان، أحدهما للمقداد، والآخر لمرثد بن أبي مرثد، وكان معهم ستة أدرع، ونصرهم الله عز وجل مع قِلَّتهم وقِلَّة عُدَدهم على المشركين، وكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً، وكان معهم مائة فرس، فقتلوا منهم سبعين من صناديدهم، وأسروا سبعين، ولم يُقتل من المسلمين في ذلك اليوم سوى ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار. وهذه أول غزوة قاتل فيها رسول الله ﷺ[2].

الإشارة إلى مغازيه ﷺ

جميع ما غزا رسول الله ﷺ بنفسه ست وعشرون غزوة، قاتل منها في تسع، أولها:

=

الواقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرّق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة (معجم البلدان ١/ ٣٥٧-٣٥٨).

(١) النواضح: مفردها: ناضح، وهي الإبل التي يُستقى عليها (اللسان، مادة: نضح).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٥٩)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٤٧).

١- بدر، وكانت يوم الجمعة، السابع والعشرين[1] من شهر رمضان، سنة اثنين من الهجرة. وفيها حُوِّلت القِبْلة، وماتت رقية بنت رسول الله ﷺ، وبنى بعائشة، وتزوج علي فاطمة، وفُرِض صوم رمضان، وفُرِضت زكاة الفطر.

٢- ثم أُحُد، وكانت في شوال، سنة ثلاث من الهجرة. وفيها تزوج رسول الله ﷺ حفصة، وزينب[2]، وتزوج عثمان بن عفان أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، وفيها وُلِد الحسن بن علي رضي الله عنهما، وفيها عَلِقَت فاطمة بالحسين، وبين ولادتها للحسن وعلوقها بالحسين خمسون ليلة.

٣- وفيها غزوة بني النضير. وفيها حُرِّمت الخمر.

٤ وَ ٥- ثم غزاة الخندق، وبني قريظة، وذلك في شوال سنة أربع وفيها قصرت الصلاة، ووُلِد الحسين، وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة، وفيها سقط عقد عائشة، فنزلت آية التيمم، وقيل: كانت غزوة الخندق وبني قريظة سنة خمس.

٦ وَ ٧- ثم غزا بني المصطلق، وبني لِحْيان، وذلك في شعبان سنة خمس، وفيها تزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، وفيها نزل الحجاب. وقيل: كانت غزوة المصطلق سنة ست. وفيها قال أهل الإفك ما قالوا. وفيها قال ابن أُبَيّ: «لئن رجعنا إلى المدينة».

٨- ثم غزاة خيبر، وكانت سنة ست. وفيها كانت:

٩- غزوة الحديبية، وفيها استسقى رسول الله ﷺ في رمضان، ومطر الناس.

---

(١) والصحيح: أنها في السابع عشر من رمضان (انظر: السيرة لابن هشام ٣/ ١٧٣، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٢٦٩).

(٢) حفصة بنت عمر بن الخطاب، وزينب بنت خزيمة القيسية، من بني هلال ابن عامر.

وقيل: كانت خيبر سنة سبع.

١٠- ثم غزاة الفتح، وكانت في رمضان سنة ثمان. وفيها كانت:

١١- مؤتة، فأصيب بها زيد بن حارثة، وجعفر، وعبد الله بن رواحة. وفيها أسلم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن أبي طلحة. وفيها بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل. وفيها وُلِد إبراهيم ابن رسول الله ﷺ. وفيها توفيت زينب بنت رسول الله. وفيها طلَّق رسول الله سودة بنت زمعة[1]، فجعلت يومها لعائشة فراجعها. وفيها قالوا: يا رسول الله؛ سعِّر لنا، وكان قد غلا السعر[2].

١٢ وَ ١٣- ثم غزاة حنين، ثم الطائف، وكانتا في شوال أيضاً سنة ثمان.

قوله: ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ نعمته عليكم، إذ نصركم مع ضعفكم على أضعافكم.

إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٦٣) عن عائشة مرسلاً. وأخرج الترمذي (٥/ ٢٤٩ ح٣٠٤٠)، والطيالسي في مسنده (ص:٣٤٩)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٨٤ ح١١٧٤٦)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٢٩٧ ح١٤٥١٢) كلهم عن سليمان بن معاذ، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ، فقالت: لا تطلقني وأمسكني وأجعل يومي لعائشة".

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٢٧٢ ح٣٤٥١)، والترمذي (٣/ ٦٠٥ ح١٣١٤)، وابن ماجه (٢/ ٤٧١ ح٢٢٠٠) كلهم عن حماد بن سلمة، عن قتادة وثابت وحميد، عن أنس قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله؛ سَعِّر لنا ، فقال: «إن الله هو المُسَعِّر... الحديث».

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا
يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا
بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ
﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ
مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

قوله: ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ وذلك يوم بدر، على الصحيح.

وقال الضحاك ومقاتل[(١)]: يوم أُحُد[(٢)].

فعلى الأول: «إذ» ظرف لـ"نَصَرَكُم"، وعلى الثاني: هو بدل ثاني من «إِذْ غَدَوْتَ».

فإن قيل: القصة -على هذا القول الصحيح- واحدة، فكيف قال هاهنا: ﴿بثلاثة آلاف﴾، ﴿بخمسة آلاف﴾؟ وقال في الأنفال في قصة بدر أيضاً: ﴿إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ﴾ [الأنفال:٩]؟.

قلت: قال قتادة: أمدّهم الله بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف.

فإن قيل: كيف ساغ لهذين العالمين أن يقولا: كان ذلك يوم أُحُد، والآية قد

(١) تفسير مقاتل (١/ ١٩٠).

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٥١).

صرحت بإمداد الملائكة، وكان ذلك يوم بدر، بغير خلاف(١)، ثم إنهم يوم أُحُد قد كُسِروا وانهزموا، فكيف يكون ذلك مع وجود الملائكة ونزولهم لنصرتهم؟

قلت: نزول الملائكة -على هذا القول- كان مشروطاً بالصبر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿إن تصبروا وتتقوا﴾... ﴿يمددكم ربكم﴾ فانتفى لانتفائهما.

قوله: ﴿ألن يكفيكم﴾(٢) إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف. والإمداد: إعطاء الشيء بعد الشيء(٣).

فإن قيل: هل تضمَّن قوله: ﴿منزَلين﴾ معنى مطلوباً للمبشَّرين بذلك؟

قلت: نعم، فإن المقصود من بشارتهم بإمدادهم بالملائكة إظهارُ شرفهم وتطييبُ قلوبهم، ليثقوا بنصر الله لهم، وليزدادوا جرأة على أعدائهم، فإذا علموا أنهم ليسوا من ملائكة الأرض، وأنهم من ملائكة السماء المكرمين، المخصوصين بزيادة القُرب من الله، ازدادوا شرفاً، وطمأنينة في أنفسهم، وإقداماً على المشركين.

فإن قيل: فما وجه قراءة ابن عامر «مُنَزَّلين»(٤) بالتشديد؟

قلت: لأنهم نزلوا من مقام إلى مقام، حتى انتهوا إلى الأرض.

فإن قيل: فما وجه قراءة من قرأ «مُنْزِلِين» بكسر الزاي؟(٥).

---

(١) يعني قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]، ولا خلاف أن هذا كان يوم بدر.

(٢) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الثالث عشر، مرة ثانية.

(٣) انظر: اللسان، مادة: (مدد).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧٢)، والكشف (١/ ٣٥٥)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٥).

(٥) ذكرها الثعلبي في تفسيره (٣/ ١٤٣)، وهي قراءة شاذة.

قلت: وجهه أنهم أَنْزَلُوا النصر، وجاؤوا به.

قوله: ﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد «لن». المعنى: بل يكفيكم الإمداد، فأوجب الكفاية بهم، ثم قال: ﴿إن تصبروا﴾ يعني عند لقاء الأعداء، وتتقوا مخالفة الرسول، ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾ يعني المشركين. والفور: مصدر فار يفور فوراً، وأصله غليان القِدْر، ويقال للغضبان: فَارَ فَائِرُهُ؛ إذا اشتدّ[١].

ثم استعير للسرعة، وعدم التعريج على شيء، ويقال: قَفَلَ فلان من فَوْره؛ إذا رجع من سفره لا يلوي على شيء يصدُّه عن الرجوع[٢].

قال ابن عباس: "ويأتوكم من فورهم": من وجههم هذا، أي: يأتوكم مسرعين من وجههم وسفرهم.

وقال مجاهد: "من فورهم": أي: من غضبهم[٣].

وكانوا غضبوا لِمَا أصابهم يوم بدر.

وقرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو: «مُسَوِّمِين» بكسر الواو، وفتحها الباقون[٤].

فمن كَسَرَ فعلى معنى: أنهم قد سوَّموا أنفسهم، أو خيلهم، ويؤيده الحديث،

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (فور).

(٢) مثل السابق.

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٨٠-٨١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٥٣)، ومجاهد (ص:١٣٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٠٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧-٣٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧٣)، والكشف (١/ ٣٥٥)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٦).

وهو قوله ﷺ يوم بدر: «سَوِّموا فإن الملائكة قد سَوَّمت»(١)، فنسب الفعل إليها.

ومَن فَتَحَ فعلى معنى: أنهم قد سُوِّموا وعُلِّموا، من السِّيما، وهي العلامة.

الإشارة إلى نبذة من خبر الملائكة يوم بدر

قال علي وابن عباس رضي الله عنهم: كانت عليهم يوم بدر عمائم بيض، قد أرسلوها بين أكتافهم(٢).

وقال علي: كان سِيما خيل الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض في آذانها ونواصيها(٣).

وقال هشام بن عروة: كانت الملائكة على خيل بُلْق، وعليهم عمائم صُفْر(٤).

وقال عبد الله بن الزبير: كانت على الزبير مُلاءَة(٥) صفراء، أو عمامة صفراء

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٢/ ٣٣٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٣٧ ح٣٢٧٢٢)، والطبري (٤/ ٨٢) كلهم عن ابن عون، عن عمير بن إسحاق، به. وعمير بن إسحاق تابعي فهو مرسل.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٨٩) عن ابن عباس. وذكره الثعلبي (٣/ ١٤٤)، وابن هشام في السيرة (٣/ ١٨٢)، والواحدي في الوسيط (١/ ٣٨٩) عن ابن عباس، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٠٩) وعزاه لابن إسحاق والطبراني عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٣٧، ٧/ ٣٥٤)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٥٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣١٠) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ٨٣). وذكره الماوردي (١/ ٤٢٢)، والسيوطي في الدر (٢/ ٣١٠) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن عروة.

والبَلَقُ: سواد وبياض، يقال: فرس أبلق، وفرس بَلْقاء (اللسان، مادة: بلق).

(٥) الملاءة: الإزار والريطة (النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣٥٢).

يوم بدر، فنزلت الملائكة يوم بدر مسوَّمين بعمائم صُفْر[1].

وروى الزبير بن المنذر عن جده أبي أُسيد[2] -وكان بدرياً-، قال: لو أن بصري فرج منه ثم ذهبتم معي إلى بدر، لأريتكم الشِّعْب الذي خرجت منه الملائكة في عمائم صُفْر، قد طرحوها بين أكتافهم[3].

قال مجاهد: كانت أذناب خيولهم مجزوزة[4]، وفيها العِهْن[5].

وروى ابن عباس عن رجل من غفار قال: حضرتُ أنا وابن عم لي بدراً ونحن على شركنا، فأقبلت سحابة، فلما دنت من الجبل سمعنا فيها حمحمة الخيل، وسمعنا فارساً يقول: أقدم حيزوم، فأما صاحبي فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك، ثم انتعشت[6].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٣٧)، والطبري (٤/ ٨٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٥٥). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٣٠٩) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وغيرهم.

(٢) مالك بن ربيعة بن البَدَن، أبو أُسَيد الساعدي، مشهور بكنيته، شهد بدراً وغيرها، توفي سنة ثلاثين، وقيل بعد ذلك (التقريب ص:٥١٧).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٨٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣١٠) وعزاه لابن جرير.

(٤) الجز: قص الشعر والصوف (النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٦٨).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٣٦)، والطبري (٤/ ٨٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٥٤)، ومجاهد (ص:١٣٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣١٠) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم. والعهن: الصوف (مختار الصحاح، مادة: عهن).

(٦) أخرجه الطبري (٤/ ٧٧). وذكره ابن هشام في السيرة (٣/ ١٨١).

ويشهد له ما أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٨٤) عن ابن عباس قال: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم... الحديث».

وروى جبير بن مُطْعِم عن علي رضي الله عنه، قال: بينا أنا أَمْتَحُ[١] من قليب بدر جاءت ريح شديدة، فلم أر أشد منها، ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التي قبلها، ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها، فكانت الريح الأولى جبريل، نزل في ألفين من الملائكة، وكان مع رسول الله ﷺ، وكانت الريح الثانية ميكائيل، نزل في ألفين من الملائكة عن يمين رسول الله، وكانت الريح الثالثة إسرافيل، نزل في ألف من الملائكة عن يسار رسول الله ﷺ، وكنت أنا [عن][٢] يساره، وهزم الله أعداءه[٣].

وقال أبو واقد الليثي: إني لأتبع يوم بدر رجلاً من المشركين لأضربه، فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفتُ أن غيري قد قتله[٤].

فصل

واختلفوا في عدد الملائكة يوم بدر:

فقال علي رضي الله تعالى عنه وأكثر المفسِّرين: كانوا خمسة آلاف[٥].

وقال الشعبي: أربعة آلاف[٦].

---

(١) مَتَحَ الماء يَمْتَحُه مَتْحاً: إذا نزعه (اللسان، مادة: متح).

(٢) في الأصل: من. والتصويب من زاد المسير (١/ ٤٥٣).

(٣) زاد المسير (١/ ٤٥٣).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٠)، والطبري (٤/ ٧٧) عن أبي داود المازني. وانظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٨١).

(٥) ذكره الماوردي (١/ ٤٢٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٥٣).

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٥٣).

وقال مجاهد: ألفاً[١].

وذكر الزجاج[٢]: تسعة آلاف.

ونقل بعضُ المفسِّرين: ثمانية آلاف[٣].

والأول أشهر وأكثر، ولعل مجاهداً أخذ بقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ... الآية﴾ [الأنفال:٩]، ولعل الشعبي احتج بها، وبقوله: ﴿يمدكم ربكم بثلاثة آلاف﴾. وما حكاه الزجاج مستفاد من مجموع الأعداد في الآيات، الألف، والثلاثة الآلاف، والخمسة الآلاف.

ولعل صاحب القول الأخير نظر إلى العدد المذكور في الآيتين هاهنا، والله أعلم[٤].

قوله: ﴿وما جعله الله﴾ يعني: الإمداد بالملائكة ﴿إلا بشرى لكم﴾ بشارة لكم بالنصر ﴿ولتطمئن﴾ أي: تسكن ﴿قلوبكم به﴾ في الحرب، ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ لا بالعُدد ولا بالعَدد، ﴿العزيز﴾ الذي لا يُغلب من نصره، ﴿الحكيم﴾ فيما قضاه وقدره.

قوله: ﴿ليقطع﴾ متعلق بـ"نَصَرَكُم"، أو "يُمْدِدْكُم". و"الطَّرَف": حِرْف الشيء[٥]، والمعنى: ليهدم ركناً من أركان الشرك بالقتل والأسر.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٥٣).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٠٤).

(٣) ذكره الماوردي (١/ ٤٢٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٥٤).

(٤) انظر: الجمع بين الآيات في الصفحة السابقة.

(٥) قال الطبري (٤/ ٨٥): الطرف: الطائفة والنفر. وانظر: اللسان، مادة: (طرف).

﴿أو يكبتهم﴾، قال الخليل بن أحمد: الكَبْتُ في اللغة: الصَّرْعُ في الوَجْه[١].

والمراد به: الهزيمة؛ في قول ابن عباس[٢].

والخِزْي؛ في قول قتادة ومقاتل[٣].

والهلاك؛ في قول أبي عبيدة[٤].

واللَّعْن؛ في قول السدي[٥].

وغيظهم؛ في قول النضر بن شميل وابن قتيبة[٦].

والظفر؛ في قول المبرد[٧]، وكل ذلك يرجع إلى أصل الكلمة بطريق المجاز.

قال ابن قتيبة[٨]: أهل النظر يرون أن التاء فيه منقلبة عن الدال، وكان الأصل فيه: «يَكْبُدُهُم»، أي: يصيبهم في أكبادهم بالحزن والغيظ، وشدة العداوة. والدال والتاء متقاربتا المخرج، والعرب تدغم إحداهما في الأخرى، وتبدل إحداهما من الأخرى، كقولهم: هَرَتَ الثوب، وهَرَدَهُ؛ إذا خَرَّقه[٩]، وكَبَتَ العدوّ وكَبَدَهُ.

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٤٥٤).

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٥٤). وهو قول الزجاج أيضاً في معانيه (١/ ٤٦٧).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٨٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٥٦) كلاهما عن قتادة. وانظر: تفسير مقاتل (١/ ١٩٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣١١) وعزاه لابن جرير عن قتادة.

(٤) انظر: مجاز القرآن (١/ ١٠٢). -والمشهور عن أبي عبيدة كقول الخليل. ونقل ما ذكر المصنف عن أبي عبيدة-، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص:١١٠).

(٥) زاد المسير (١/ ٤٥٤).

(٦) زاد المسير (١/ ٤٥٥)، وتفسير غريب القرآن (ص:١١٠).

(٧) زاد المسير (١/ ٤٥٥).

(٨) تفسير غريب القرآن (ص:١١٠-١١١).

(٩) انظر: اللسان، مادة: (هرت).

﴿فينقلبوا خائبين﴾ لم يدركوا ما أمّلوا.

قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾؛ أخبرنا القاضي أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الأنصاري الحَرَسْتاني بدمشق سنة تسع وستمائة، أخبرنا عبد الكريم بن حمزة السُلمي[١]، حدثنا عبد العزيز بن أحمد الكناني[٢] الحافظ، حدثنا الحافظ أبو القاسم تمّام بن محمد بن عبد الله الرازي[٣]، حدثنا أبو الحارث أحمد بن محمد بن عمارة الليثي[٤]، حدثنا علي بن أحمد بن مروان بواسط، حدثنا حميد بن الربيع الخزاز[٥]، حدثنا هشيم، عن حميد الطويل، وداود بن أبي هند، عن أنس بن مالك، قال: «لما كان يوم أُحُد كُسِرت رباعية النبي ﷺ، وشُجَّ في وجهه، فجعل يمسحه بيده ويقول: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله عز وجل، فنزلت: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم

---

(١) عبد الكريم بن حمزة السلمي، أبو محمد الدمشقي الحداد، وكيل المقرئين، الثقة المسند، محدِّث عصره، توفي سنة ست وعشرين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٦٠٠، وشذرات الذهب ٤/ ٧٨).

(٢) عبد العزيز بن أحمد التميمي، أبو محمد الدمشقي، الكناني الحافظ محدِّث دمشق، توفي سنة ست وستين وأربعمائة (الأنساب ١٠/ ٣٥٣، والسير ١٨/ ٢٤٨).

(٣) تمام بن محمد بن عبد الله البجلي، أبو القاسم الرازي، ثم الدمشقي، الحافظ، محدِّث الشام، توفي سنة أربع عشرة وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٨٩، والوافي بالوفيات ١٠/ ٣٩٧).

(٤) أحمد بن محمد بن عمارة الليثي الكناني مولاهم، أبو الحارث الدمشقي، الشيخ المسند المحدِّث، توفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٧٠، وشذرات الذهب ٣/ ٤٠).

(٥) حميد بن الربيع بن حميد بن مالك بن سحيم الخزاز اللخمي، أبو الحسن، الكوفي. روى عن هشيم وابن عيينة. وروى عنه محمد بن إسحاق بن خزيمة وغيره (ميزان الاعتدال ١/ ٦١٠).

ظالمون﴾»[١]. هذا حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم السلمي، وأبو الحسن علي بن رُوزبة البغداديان قالا: أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا الداودي، أخبرنا السرخسي، أخبرنا الفربري، أخبرنا البخاري، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد، أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع، فربما قال -إذا قال: "سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد"-: اللَّهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللَّهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف. يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته، في صلاة الفجر: اللَّهم العن فلاناً وفلاناً، لأحياء من العرب، حتى أنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾»[٢].

ورواه أيضاً البخاري من حديث الزهري، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، «أنه سمع رسول الله ﷺ، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: "اللَّهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً". بعدما يقول: "سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد"، فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء -إلى قوله:- فإنهم ظالمون﴾»[٣]. وهذا حديث صحيح.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤١٧ ح١٧٩١) بغير السند الذي ساقه المؤلف. وأما سند المؤلف فهو عند الترمذي (٥/ ٢٢٧ ح٣٠٠٣) عن حميد، عن أنس.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦١ ح٤٢٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦١ ح٤٢٨٣).

والمعنى: إنما أنت عبدٌ من عبادي، خصصتك برسالتي، وبعثتك منذراً لهم ليس لك من عذابهم أو استصلاحهم، أو ليس لك من النصر والهزيمة شيء.

و«لك» بمعنى: إليك[١]. "أو يتوب عليهم" عطف على "أو يكبتهم"، و"ليس لك من الأمر شيء" اعتراض[٢]. وقيل: "أو يتوب" منصوب بإضمار «أَنْ»، فيكون في حكم اسم معطوف على "الأَمْر"، أو على "شَيْء" أي: ليس لك من أمرهم شيء، أو من التوبة عليهم، أو من تعذيبهم، أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم[٣].

وقيل: «أو» بمعنى: «إلاّ أنْ»[٤]؛ كقولك: لأَلْزَمَنَّكَ أو تعطيَني حقي، على معنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتشتفي منهم.

ثم أثبت الأمر كله لنفسه، فقال عز وجل: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً، ﴿يغفر لمن يشاء﴾ -من الموحِّدين- الكبائر، ﴿ويعذب من يشاء﴾ من المشركين على الصغائر. هذا مروي عن ابن عباس[٥].

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ

---

(١) انظر: الطبري (٤/ ٨٦).

(٢) انظر: الدر المصون (٢/ ٢٠٩).

(٣) انظر: المرجع السابق.

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٤٩)، والدر المصون (٢/ ٢٠٩)، والطبري (٤/ ٨٦).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٩١).

وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ
وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي
ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ
فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ
وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا﴾ نزلت في ربا الجاهلية[1]، وكان الرجل يقول لصاحبه: أخِّر عني دَيْنك وأزيدك في المال، فيستوعب بالشيء الطفيف المال الكثير[2].

﴿أضعافاً﴾ حال، ﴿مضاعفة﴾ نعت لـ"أضعافاً"[3].

وفي قوله: ﴿واتقوا النار﴾ تهديد شديد للمؤمنين الذين يأكلون الربا، حيث خوَّفهم بالنار، التي أعدَّها لمن كفر به.

قال أبو حنيفة: هذه أخوفُ آية في القرآن[4].

---

(١) أخرجه مجاهد (ص: ١٣٤). وذكره الطبري (٤/ ٩٠).

(٢) أخرج الطبري (٤/ ٩٠) عن عطاء قال: كانت ثقيف تداين في بني المغيرة في الجاهلية فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون، فنزلت: ﴿لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾.

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٤٩)، والدر المصون (٢/ ٢١٠).

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف (١/ ٤٤٢).

وفي الآية رَدٌّ على الجهمية في قولهم: إن النار لم تُخْلق بعد.

﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ في ترك ما نهيتم عنه من أكل الربا وغيره، وامتثال ما أمرتم به من التقوى ﴿لعلكم ترحمون﴾، فتفوزوا بدخول الجنة والنجاة من النار المُعَدَّة للكفار.

قوله[1]: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ قرأ نافع وابن عامر: "سارعوا" بغير واو، وكذا هي في مصاحف أهل المدينة والشام، وقرأ الباقون بالواو[2].

قال أبو علي[3]: من قرأ بالواو عَطَفَ «وسارعوا» على «وأطيعوا»، ومن حذفها فلأنَّ الجملة الثانية ملتبسة بالأولى، فاستغنت عن العطف.

ومعنى الآية: بادروا إلى موجبات المغفرة وهي طاعة الله تعالى.

وقال ابن عباس: لا تصروا على الذنب، إذا أذنب أحد فليسرع الرجوع[4].

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: سارعوا إلى الإخلاص[5].

وقال علي رضي الله عنه: إلى أداء الفرائض[6].

---

(١) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً سادساً، وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس الرابع عشر، مرة ثانية.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧٤)، والكشف (١/ ٣٥٦)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٦).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٨).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٩٢).

(٥) ذكره الثعلبي (٣/ ١٤٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٥٩).

(٦) مثل السابق.

وقال أنس بن مالك: التكبيرة الأولى من العبادة[(١)].

وقال الضحاك: إلى الجهاد[(٢)].

﴿وجنة عرضها السموات والأرض﴾ قال سعيد بن جبير: لو أُلصِق بعضهن إلى بعض كانت الجنة في عرضهن[(٣)].

قال ابن عباس: يريد: لرجل واحد من أوليائه[(٤)].

قال الزهري: فأما الطول فلا يعلمه إلا الله[(٥)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح: الجنان أربعة: جنة عدن -وهي الدرجة العليا-، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، وجنة المأوى، كل جنة منها كعرض السموات والأرض لو وُصِلَ بعضها إلى بعض[(٦)].

وقال ابن قتيبة[(٧)]: أراد بالعرض: السَّعَة، ولم يرد العرض الذي يخالف الطول،

---

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ١٤٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٦٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣١٤) وعزاه لابن المنذر.

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ١٤٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٥٩).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٧٦٢) بسند حسن. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣١٤-٣١٥) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٩٢).

(٥) ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٠٥). وقد نبه تعالى بالعرض عن الطول؛ لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر العرض.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٩٢). وقد أخرج البخاري في صحيحه (٦/ ٢٧٠٠ ح٦٩٨٧) عن النبي ﷺ أنه قال: «... فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تُفجَّر أنهار الجنة».

(٧) تفسير غريب القرآن (ص:١١١-١١٢).

والعرب تقول: بلاد عريضة، أي: واسعة، قال النبي ﷺ للمنهزمين يوم أُحُد: «لقد ذَهَبْتُمْ فيها عَرِيضة»[١].

قال الشاعر:

كَأَنَّ بلاَدَ الله وَهْيَ عَرِيضَةٌ ... عَلَى الخَائِفِ المَطْلُوب كِفَّةُ حَابلِ[٢]

وروى وكيع في تفسيره بإسناده عن طارق بن شهاب، قال: قالت اليهود لعمر: تقولون: جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال عمر: أرأيت إذا جاء النهار فأين يذهب الليل، وإذا جاء الليل فأين يذهب النهار؟ قالوا: نزعتَ بها في التوراة[٣].

وقال أنس بن مالك: الجنة فوق السموات السبع، تحت العرش[٤].

قال قتادة: وإن جهنم تحت الأرضين السبع[٥].

ثم وصف المتقين فقال: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ أي: في الشدة

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ١٤٥) بسند عن ابن إسحاق، مقطوعاً.

(٢) البيت للبيد بن ربيعة. وهو في: اللسان، مادة: (كفف) وفيه: "كأن فجاج الأرض"، والقرطبي (٤/ ٢٠٥، ٨/ ١٠٠، ١٧/ ٢٥٦)، وزاد المسير (١/ ٤٦٠)، والبحر المحيط (٣/ ٦٢)، وروح المعاني (١١/ ٤١). والحابل: الصائد. وكِفّته: حبالته التي يصيد بها.

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٩٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣١٥) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

وقد أخرج أحمد في مسنده (٣/ ٤٤١) مرفوعاً: «أن هرقل سأل النبي ﷺ فقال: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار؟!».

(٤) ذكره الثعلبي (٣/ ١٤٩).

(٥) المرجع السابق.

والرخاء، كما فعلت الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق، المبرأة بنص الكتاب المطهَّرة من كل [عيب][(١)]، أم المؤمنين، وحبيبة رسول رب العالمين، عائشة رضي الله عنها، فإنها تصدَّقت في يوم بحبّة عنب، فتعجّبن النسوة منها، فقالت: إن فيها ذرّاً كثيراً[(٢)]، تشير إلى قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ [الزلزلة:٧]، وتصدقت في يوم آخر بمائة وسبعين ألف درهم فضة[(٣)].

.... شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُها مِنْ أَخْزَمِ[(٤)]

فللّه درّها ما أكرم طبعها، وأعظم نفعها، وأكبر قدرها، وأعطر نشرها، وأجمل فضائلها، وأجزل فواضلها:

فَلَوْ أَنَّ النِّساءَ كَمَنْ ذكِرْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ على الرِّجَالِ[(٥)]

---

(١) في الأصل: عاب. والصواب ما أثبتناه.

(٢) ذكره ابن كثير (٤/ ٥٤١).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص: ٢٦٠). وأخرج ابن سعد في الطبقات (٨/ ٤٩٠) الشطر الأول منه.

(٤) قال في اللسان: أبو أخزم جد أبي حاتم طيء، أو جد جدّه، وكان له ابن يقال له: أخزم، فمات أخزم وترك بنين، فوثبوا يوماً على جدّهم أبي أخزم فَأَدْمَوْهُ، فقال:

إِنَّ بَنِيَّ رَمَّلُونِي بالدَّم شِنْشِنَةٌ أَعْرِفها مِنْ أَخْزَمِ

مَنْ يَلْقَ آسادَ الرِّجالِ يُكْلَم

والشِّنْشِنَة: الطبيعةُ والسجية، أي: أنهم أشبهوا أباهم في طبيعته وخُلُقه (انظر: اللسان، مادة: خزم، شنن).

(٥) البيت للمتنبي، كما في شرح ديوانه للعكبري (٣/ ١٨)، ولفظه: "ولو كان النساء كمن فقدنا" ... البيت.

قال ابن عباس: ينفقون في اليُسر والعُسر[١].

وأنشدني بعض أهل العلم:

عَلَى كُلِّ حَالٍ كُنْ مُنْفِقاً أَخَا عُسْرَةٍ كُنْتَ أَوْ مُوسِرَا

فَلاَ المَال تَمْلِكُهُ مُقْبِلاً وَلاَ المَال تَمْلِكُهُ مُدْبِرَا

قوله: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ من قولهم: كَظَمَ القِرْبَةَ؛ إذا مَلأَهَا وَشَدَّ فَاهَا، وكظم البعيرُ على جِرَّته؛ إذا رَدَّدَها في حلقه[٢].

فكاظمُ الغيظ: هو المُمْسِكُ على ما في نفسه منه.

وفي مسند الإمام من حديث سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ حَتَّى يزوّجه ويخيّره مِنْ أَيِّ الحُورِ العين شَاءَ»[٣]. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وأخرج أيضاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول ﷺ: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ جَرْعَةً أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَبارَكَ وتَعَالَى»[٤].

وعن عائشة أن خادماً لها غاظها فقالت: لله در التقوى، ما ترك لذي غيظ

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٩٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٦٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣١٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) انظر: اللسان، مادة: (كظم).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، والترمذي (٤/ ٣٧٢ ح٢٠٢١، ٤/ ٦٥٦ ح٢٤٩٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٨ ح٦١١٤).

شفاء[١].

قوله: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال زيد بن أسلم ومقاتل: يعفون عمن ظلمهم[٢].

أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «وَمَا زَادَ الله عَبْداً بعَفْوٍ إلاَّ عِزّاً»[٣].

وقال علي رضي الله عنه: إذا قدرتَ على عدوك فاجعل العفوَ عنه شُكراً للقدرة عليه.

ورأى معاويةُ ابنه يزيد يضربُ غلاماً له، فقال: سوأة لك، أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك؟ والله لقد منعتني القدرة من ذوي الإِحَن[٤]، وإن أحق مَن عفا لمن قدر.

وفي قوله: ﴿والله يحب المحسنين﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الاتصاف بهذه الأوصاف من سمات المحسنين.

ويروى في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ قصوراً مشرفة على الجنة، فقلت: يا جبريل؛ لمن هذه؟ فقال: للكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين»[٥].

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (١/ ٤٤٣).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ١٦٧)، والواحدي في الوسيط (١/ ٤٩٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٦١).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠١ ح٢٥٨٨).

(٤) الإِحَن: جمع، واحدها: إحنة. وهو الحقد في الصدر (اللسان، مادة: أحن).

(٥) ذكره الديلمي في الفردوس (٢/ ٢٥٥).

قال الحسن: الإحسان: أن يعم ولا يخص، كالريح والمطر.

وقال سفيان الثوري: أن تحسن إلى من أساء إليك، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة[(١)].

وكان للمأمون خادم هو صاحب وَضوئه، فبينا هو يصب الماء على يده سقط الإناء، فاغتاظ المأمون عليه، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن الله يقول: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ قال: قد كظمتُ غيظي عليك، قال: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال: قد عفوت عنك، قال: ﴿والله يحب المحسنين﴾ قال: أنت حر[(٢)].

قوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ قال عطاء، عن ابن عباس: نزلت في نبهان التمَّار، أتته امرأة تشتري منه تمراً، فقال: إن هذا التمر ليس بجيد، وفي البيت أجودُ منه، فهل لك فيه؟ قالت: نعم، فذهب بها إلى بيته، فضمّها وقبّلها، فقالت: اتق الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فنزلت هذه الآية[(٣)].

وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن أنصارياً وثقفياً آخى النبي ﷺ بينهما، فخرج الثقفي مع النبي ﷺ في بعض مغازيه، فكان الأنصاري يتعاهد أهلَ الثقفي، فجاء ذات يوم فأبصر المرأة قد اغتسلت، وهي ناشرة شعرها، فدخل ولم يستأذن،

---

(١) ذكره النسفي في تفسيره (١/ ١٧٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٣١٧) عن علي بن الحسين. وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٣١٧) وعزاه للبيهقي عن علي بن الحسين. ولم أجده عن المأمون.

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ١٦٨)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٢٧) بغير إسناد، والوسيط (١/ ٤٩٣-٤٩٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٦١).

وأصل هذه القصة ثابتة في صحيح مسلم (٤/ ٢١١٦ ح٢٧٦٣)، وجامع الترمذي (٥/ ٢٩٢ ح٣١١٥) ونزل بسببها: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود:١١٤].

فأخذ يَلْثِمُها[١]، فوضعت كفها على وجهها، فقبَّله، ثم ندم، فأدبر راجعاً، فقالت: سبحان الله! خُنْتَ أمانتك [وعصيتَ ربك، ولم تصبْ حاجتك. قال][٢]: فخرج يسيح في الجبال، تائباً من ذنبه، هائماً على وجهه، يحثو التراب على رأسه. فلما رجع الثقفي لم يستقبله أخوه الأنصاري، فسأل زوجته عنه، فقالت: لا كثَّر الله في الإخوان مثله، وأخبرته خبره، فخرج في طلبه، فوافقه ساجداً يقول: ذنبي ذنبي، فقال: يا فلان! انطلق إلى رسول الله ﷺ، فسله عن ذنبك لعل الله يجعل لك منه مخرجاً، فرجع إلى المدينة، فأتيا أبا بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجاً، فقال الأنصاري: قد هلكتُ، قال: وما أهلكك؟ فذكر له القصة، فقال: أما علمتَ أن الله يغار للغازي ما لا يغار للمقيم، ثم لقيا عمر، فقال مثل ذلك، فأتيا النبي ﷺ فقال له مثل مقالتهما، فأنزل الله عز وجل: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة ... الآية﴾[٣].

ويروى عن ابن مسعود قال: قال المؤمنون: يا رسول الله؛ كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منّا، كان أحدهم إذا أذنب ذنباً أصبح كفَّارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه، اجدع أنفك، أو أذنك، افعل كذا، فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير من ذلكم» وقرأ عليهم هذه الآيات[٤].

---

(١) يلثمها: يقبّلها (اللسان، مادة: لثم).

(٢) زيادة من أسباب النزول (ص:١٢٧)، وزاد المسير (١/ ٤٦٢).

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٢٧)، والثعلبي (٣/ ١٦٨)، ونسبه لمقاتل والكلبي، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٦٢).

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ٩٥-٩٦) عن عطاء، عن النبي ﷺ مرسلاً. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٢٦) وعزاه لابن المنذر عن ابن مسعود كلفظ المصنف.

قوله: «الذين» مبتدأ، خبره «أولئك»، أو عطف على «المتقين»[١]، أي: أعدت للمتقين، والتائبين، ويكون «أولئك» إشارة إليهما.

والفاحشة: القبيحة الشنعاء، وكل شيء جاوز حدّه فهو فاحش. والمراد بها هنا: الزنا، في قول جابر بن زيد[٢].

وقيل: كل كبيرة[٣].

﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ قال مقاتل[٤] وابن السائب: هو ما دون الزنا من قُبْلة أو لمسة أو نظرة.

وقيل: جميع الصغائر.

﴿ذكروا الله﴾ جائز أن يكون باللسان، فهو الاستغفار، وهو قول ابن مسعود[٥].

وجائز أن يكون بالجَنان[٦]، على معنى: ذكروا عظمته وجلاله وعرضهم عليه،

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٤٩)، والدر المصون (٢/ ٢١١).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٩٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٦٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٢٦) وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) زاد المسير (١/ ٤٦٢).

(٤) تفسير مقاتل (١/ ١٩٢). وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٩٤).

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٦٣).

(٦) الجَنان: القلب. قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٦٣): وذكر الله بالقلب فيه خمسة أقوال:

أحدها: أنه ذكر العرض على الله. قاله الضحاك.

والثاني: أنه ذكر السؤال عنه يوم القيامة. قاله الواقدي.

والثالث: ذكر وعيد الله لهم على ما أتوا. قاله ابن جرير.

والرابع: ذكر نهي الله لهم.

=

ووقوفهم للسؤال بين يديه.

قوله: ﴿ولم يصرّوا على ما فعلوا﴾ قال السدي: الإِصْرار: السّكوت وترك الاستغفار[١].

قال أكثر المفسِّرين: لم يُقيموا ولم يَدوموا[٢].

قال ابن فارس[٣]: الإِصْرار: العزم على الشيء والثبات عليه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «مَا أَصَرَّ مَنْ اسْتَغْفَرَ، وَإِنْ عَادَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّة»[٤].

قوله: ﴿وهم يعلمون﴾ حال من [فاعل][٥] الإصرار[٦]، والمعنى: وهم يعلمون ضرر الإصرار، ونفع الاستغفار، هذا معنى قول ابن عباس[٧].

وقال مجاهد: وهم يعلمون أن الله يتوب على مَن تاب[٨].

= والخامس: ذكر غفران الله. ذكر القولين أبو سليمان الدمشقي.

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٩٧-٩٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٦٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٢٩) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) انظر: الطبري (٤/ ٩٥)، والوسيط (١/ ٤٩٤)، والدر المنثور (٢/ ٣٢٨).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٢٨٢-٢٨٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ٨٤ ح١٥١٤)، والترمذي (٥/ ٥٥٨ ح٣٥٥٩).

(٥) في الأصل: «فعل» وهو خطأ، فهي حال من الواو في «ولم يصروا»، أو من الواو في «استغفروا» (انظر: المصادر التالية).

(٦) انظر: التبيان (١/ ١٥٠)، والدر المصون (٢/ ٢١٢).

(٧) ذكره الثعلبي (٣/ ١٧٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٦٤).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٧٦٧)، ومجاهد (ص:١٣٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٢٨) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال السدي ومقاتل[١]: يعلمون أنهم قد أذنبوا[٢].

وما زال يخطر لي أن المعنى: وهم يعلمون أن لهم رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، لحديث أبي هريرة، حتى رأيت الثعلبي[٣] قد نسبه إلى الحسين بن الفضل[٤]. والحديث هو ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والشيخان في صحيحيهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رجلاً أَذْنَبَ ذَنْباً، فقال: رب إني عملتُ ذنباً فاغفره، فقال تبارك وتعالى: عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرتُ لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر، فقال: رب إني عملتُ ذنباً فاغفره، فقال عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به [قد غفرت لعبدي][٥]، ثم عمل ذنباً آخر، فقال: رب إني عملتُ ذنباً فاغفره، فقال: عبدي علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»[٦].

وفي ما يحكيه النبي ﷺ عن ربه عز وجل أنه قال: «يا ابن آدم إنك ما دعوتَني

---

(١) ذكره مقاتل (١/ ١٩٢) بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٩٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٦٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٢٩) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) تفسير الثعلبي (٣/ ١٧٠).

(٤) الحسين بن الفضل البجلي، أبو علي الكوفي النيسابوري، العلامة المفسر. توفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤١٤).

(٥) زيادة من مسند أحمد (٢/ ٢٩٦).

(٦) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٢٥ ح٧٠٦٨)، ومسلم (٤/ ٢١١٢ ح٢٧٥٨)، وأحمد (٢/ ٢٩٦ ح٧٩٣٥).

ورجوتَني، غفرت لك على ما كان منك، يا ابن ادم إنك إن تلقني بقُراب الأرض خطايا بعد أن لا تشرك بي شيئاً، ألقاك بقرابها مغفرة، يا ابن آدم إنك إن تذنب حتى تبلغ ذنوبك عنان السماء ثم تستغفرني غفرتُ لك ولا أبالي[1].

وقال ثابت البُناني: بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية[2].

ثم ذكر جزاءهم فقال: ﴿أولئك جزاؤهم ... الآية﴾.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٤٨ ح٣٥٤٠) عن أنس، وأحمد (٥/ ١٥٤ ح٢١٤٠٦)، والحاكم (٤/ ٢٤١).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٩٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٢٦) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ
وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ
وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟
لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ
ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

قوله: ﴿قد خلت من قبلكم سُنَن﴾[1] السُّنَن: جمع سُنَّة، وهي الطريقة[2]. والمعنى: مضى قبلكم أهل سنن وشرائع.

﴿فسيروا في الأرض﴾ بأجسادكم. وقال الزجّاج[3]: إذا سرتم في أسفاركم عرفتم أخبار الهالكين بتكذيبهم.

وقيل: المعنى: فسيروا في الأرض ببصائركم، ﴿فانظروا﴾ بعين التفكر والاعتبار ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾.

قوله تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾: «هذا» إشارة إلى القرآن. وقيل: إلى أخبار الأمم السالفة[4].

---

(١) كتب في هامش الأصل: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس الخامس عشر، مرة ثانية.

(٢) انظر: اللسان، مادة: (سنن).

(٣) معاني الزجاج (١/ ٤٧٠).

(٤) انظر: الطبري (٤/ ١٠٠)، وابن كثير (١/ ٤٠٩).

قال ابن عبد ربه: كُلُّ شيء كَشَف لك قناعَ المعنى الخفي، حتى ينادي إلى الفهم، ويتقبله العقل، ذلك البيان الذي ذكره الله في كتابه ومَنَّ به على عباده.

وقال سهل بن هارون[١]: البيان ترجمان العلم.

وقال بعضهم: ليس لمنقوص اللسان بهاء ولو حَكَّ بيافوخه[٢] عَنَانَ السماء.

﴿وهدى﴾ يعني: من الضلالة، ﴿وموعظة﴾ من الجهالة.

قوله: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ نزلت تسلية للنبي ﷺ وأصحابه بما أصابهم يوم أُحُد، وتقوية لقلوبهم[٣].

والمعنى: لا تضعفوا عن قتال الأعداء، ولا تحزنوا على من أصيب من الشهداء، وكان قد قُتِل يومئذ حمزة عم النبي ﷺ ومصعب بن عمير في خمسة من المهاجرين، وسبعين من الأنصار رضي الله عنهم، وجُرِح سبعون من أصحاب رسول الله ﷺ.

قال أنس: وأُتي رسول الله بعليّ وبه نيف وستون جراحة، من طعنة وضربة ورمية، فجعل رسول الله ﷺ يمسحها، وهي تلتئم بإذن الله، كأن لم تكن[٤].

قال ابن عباس: لما انهزموا يوم أُحُد أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهم لا يَعْلُنّ علينا، اللَّهم لا قوة لنا

---

(١) أبو محمد، الفارسي الأصل، الأديب الكاتب، يتعصب للعجم على العرب، وكان مشهوراً بالبخل. توفي سنة خمس عشرة ومائتين (معجم الأدباء ١١/ ٢٦٦).

(٢) اليافوخ: ملتقى عظم مقدم الرأس ومؤخره، وهو الموضع الذي يتحرك من رأس الطفل (اللسان، مادة: يفخ).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٤٩٦).

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٢١٩).

إلا بك»، فنزلت هذه الآية[١].

﴿وأنتم الأعلون﴾ أي: وحالكم أنكم أعلا منهم، وآخر الأمر لكم.

وقيل: وأنتم الأعلون في الآخرة؛ لأن قتالكم في الرحمن، وقتالهم في الشيطان.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالنهي، المعنى: إن كنتم مصدِّقين بما وعدكم الله من الاستعلاء على الأعداء فلا تهنوا ولا تحزنوا.

قوله: ﴿إن يمسسكم قرح﴾ وقرأ أهل الكوفة -إلا حفصاً- بضم القاف[٢]، لغتان بمعنى واحد.

وقال أبو عبيد[٣]: القَرْح: بالفتح: الجراح، وبالضم: ألم الجراح، والمعنى: إن يصبكم يوم أُحُد قرح، ﴿فقد مسَّ القوم﴾ يعني: المشركين ﴿قرح مثله﴾ يوم بدر، وقيل: «قد مس القوم قرح مثله» يوم أُحُد، فإنه قتل منهم خلق كثير.

قال ابن عباس: ما نُصر رسول الله ﷺ ما نُصِر يوم أُحُد، فأنكر ذلك عليه، فقال: بيني وبينكم كتاب الله، إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ١٠٣). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٢٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٣٠) وعزاه لابن جرير.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧٤)، والكشف (٦/ ٣٥٦)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٦).

(٣) انظر: زاد المسير (١/ ٤٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٧ ح٢٦٠٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٤ ح٣١٦٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٠١ ح١٠٧٣١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٨٦-٧٨٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٤٤) وعزاه لأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم.

قوله: ﴿وتلك الأيام﴾ مبتدأ وخبره، أو «تلك» مبتدأ، و«الأيام» صفة، «نداولها» خبره[1].

والمراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة.

﴿نداولها بين الناس﴾ فنجعل الدولة للمسلمين تارة، وللمشركين أخرى ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ أي: وليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء، وهو معطوف على محذوف، تقديره: ليتميز الثابتون على الإيمان من غيرهم[2] ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ قوماً يكرمهم بالشهادة.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم السلمي، وأبو الحسن الصوفي، قالا: أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا الداودي، قال: أخبرنا ابن حمويه، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، عن عمرو، سمع جابر بن عبد الله يقول: «قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحُد: أرأيتَ إن قُتِلتُ فأين أنا؟ قال: في الجنة. فألقى تمرات في يده، ثم قاتل حتى قُتِل»[3]. هذا حديث متفق على صحته.

وأخرجه مسلم عن سعيد بن عمرو الأشعثي عن سفيان.

﴿والله لا يحب الظالمين﴾ كعبد الله بن أُبَيّ وأصحابه المنافقين الذين انخزلوا معه يوم أُحُد.

قوله: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ قال الزجّاج[4] والمبرد وغيرهما:

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٥٠)، والدر المصون (٢/ ٢١٥-٢١٦).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٥٠)، والدر المصون (٢/ ٢١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٨٧ ح٣٨٢٠)، ومسلم (٣/ ١٥٠٩ ح١٨٩٩).

(٤) معاني الزجاج (١/ ٤٧١).

يُمَحِّصهم: يُنَقِّيهم ويُخَلِّصهم. يقال: مَحَصَ الحبل مَحْصاً؛ إذا أذهب منه الوَبَرُ، ومحصت الذهب بالنار: خلصته مما يشوبه[١]، ومنه: «اللَّهم مَحِّصْ عَنَّا ذنُوبَنَا»[٢].

وقال الزجّاج[٣]: معنى الآية: جعل الله الأيام مداولة بين الناس ليمحّص المؤمنين إذا أَدَالَ[٤] عليهم، ويمحق الكافرين ويستأصلهم إذا أدال عليهم، فقابل تمحيص المؤمنين بمحق الكافرين، لأن تمحيص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق الكافرين بإهلاك أنفسهم.

وقال الحسن ومجاهد: يمحِّصهم: يبتليهم ويختبرهم[٥]، ومنه قول الشاعر:

رَأَيْتُ فُضَيْلاً كَانَ شَيْئاً مُلَفَّفاً ... فَكَشَّفَهُ التَّمْحِيصُ حَتَّى بَدا لِيَا[٦]

﴿ويمحق الكافرين﴾ قال ابن عباس: يهلكهم[٧].

وقال الزجّاج[٨]: يحبط أعمالهم.

قوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ «أم» منقطعة، والاستفهام في معنى

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (محص).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٢٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٦٧).

(٣) معاني الزجاج (١/ ٤٧٢).

(٤) الإدالة: الغَلَبة (اللسان، مادة: دول).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ١٠٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٧٤-٧٧٥)، ومجاهد (ص:١٣٧).

(٦) البيت لعبد الله بن معاوية. انظر: الكامل (١/ ١٨٣)، وزاد المسير (١/ ٤٦٧)، والدر المصون (٢/ ٢١٧)، واللسان، مادة: (محص)، وتفسير غريب القرآن (ص:١١٣).

(٧) أخرجه الطبري (٤/ ١٠٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٧٥) كلاهما بلفظ: ينقصهم. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٣٣) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٨) معاني الزجاج (١/ ٤٧١).

الإنكار[1]، ﴿ولما يعلم الله﴾ بمعنى: ولما يجاهدوا فيعلمه الله واقعاً، لأن العلم متعلق بالمعلوم، قال الله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:٢٣]، أي: ليس فيهم خير فيعلمه الله.

﴿ويعلم الصابرين﴾ قرأ جمهور القراء: «ويعلَمَ» بالنصب. وقرأت لأبي عمرو من رواية عبد الوارث[2] عنه: «وَيَعْلَمُ» بالرفع[3].

وقرأ الحسن: «ويعلمْ الصابرين» بالجزم على العطف، والكسر في الوصل لالتقاء الساكنين، وقرأت بهذه القراءة أيضاً[4] من بعض طرق عبد الوارث. فمَن نصب فعلى الصرف عن العطف.

قال ابن الأنباري: هذه الواو يسميها النحويون: واو الصرف، فالذي بعدها ينصب على خلاف ما قبلها، كما تقول العرب: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، أي: لا تجمع بينهما، ولا تأكل السمك في حال شربك اللبن، وقيل: انتصب بإضمار «أنْ». ومن رفع فعلى أن الواو للحال، كأنه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

قوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾ قال ابن عباس وغيره: لما أخبرهم عز وجل على لسان نبيه ما لقي به شهداء بدر من الكرامة، رغبوا في ذلك، فتمنّوا قتالاً يستشهدون فيه، فلما كان يوم أُحُد ألحّوا على النبي ﷺ في الخروج

---

(١) وهو الأظهر. وقيل: "أم" بمعنى الهمزة وحدها. وقيل: هذا استفهام معناه النهي -وهو قول أبي مسلم الأصفهاني-. وقيل: هي متصلة (انظر: الدر المصون ٢/ ٢١٨).

(٢) عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان، أبو عبيدة البصري، مولاهم، المقرئ الثقة، عرض على أبي عمرو وغيره. توفي سنة ثمانين ومائة بالبصرة (طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٤٧٨).

(٣) انظر: البحر المحيط (٣/ ٧٢).

(٤) انظر: مختصر ابن خالويه (ص:٢٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٩).

حرصاً على الشهادة، ورغبة فيها، فلم يلبثوا أن انهزموا، إلا مَن شاء الله منهم، فأنزل الله فيهم هذه الآية[١].

والمعنى: فقد رأيتم أسبابه.

﴿وأنتم تنظرون﴾ توكيد، على معنى: وأنتم بصراء.

وقيل: وأنتم تنظرون ما تمنيتم.

وقال ابن عباس: وأنتم تنظرون إلى السيوف[٢].

والذي يظهر لي، ويشهد بصحته سبب النزول -والله أعلم- أن المعنى: ولقد كنتم تمنون الموت رغبة في الشهادة فقد رأيتموه، وبلغتم ما كنتم تحبون وتتمنون، وحالكم أنكم قوم تنتظرون الموت، وترتقبونه رغبة في كرامة الله وما أعده للشهداء، فلم انهزمتم، وأسلمتم نبيكم، وخذلتم دينكم؟.

الإشارة إلى غزاة أُحُد

أخبرنا أبو علي بن فرج بن سعادة في كتابه، أخبرنا أبو القاسم بن محمد بن عبد الواحد، أخبرنا الحسن بن علي، أخبرنا أحمد بن جعفر بن مالك، أخبرنا عبد الله بن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٧٧٦) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٣٣-٣٣٤) وعزاه لابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر. ومن طريق آخر عن الربيع وقتادة، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير. ومن طريق آخر عن الحسن، وعزاه لابن جرير. ومن طريق آخر عن السدي، وعزاه لابن جرير. وانظر: لباب النقول (ص:٥٨-٥٩).

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٦٨).

أحمد، حدثني أبي، حدثنا حسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا أبو إسحاق، أن البراء بن عازب قال: «جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أُحُد -وكانوا خمسين رجلاً- عبد الله بن جبير، قال: ووضعهم موضعاً، وقال: إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، فإن رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم. قال: فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء [يشتددن][1] على الجبل، وقد بدت [سوقهنّ][2] وخلاخيلهنّ، رافعات ثيابهنّ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة، أي قوم! الغنيمة، ظهر أصحابُكم فما تنتظرون؟، فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ، قالوا: والله إنَّا لنأتين الناس، فلنصيبين من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، وذلك قوله: ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ [آل عمران:١٥٣]، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غير اثني عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين رجلاً، وكان رسول الله ﷺ قد أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيراً، وسبعين قتيلاً، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد، أفي القوم محمد، أفي القوم محمد؟ -ثلاثاً- قال: فنهاهم رسول الله أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة، أفي القوم ابن أبي قحافة، أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب، أفي القوم ابن الخطاب، أفي القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قُتِلوا، وقد كُفِيتموهم، فما مَلَكَ عمر نفسه أن قال: كذبتَ -والله- يا عدو الله، إن الذين عددتَ لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، فقال: يوم بيوم بدر، والحرب

---

(١) في الأصل: يشددن. والتصويب من مصادر تخريج الحديث. والمعنى: يسعين سعياً شديداً.

(٢) في الأصل: أسواقهن. والتصويب من مصادر التخريج.

سِجَال[١]، إنكم ستجدون في القوم مُثْلة[٢] لم آمر بها، ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: اعل هُبَل، اعل هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: ألا تجيبوه؟ قالوا: يا رسول الله؛ وما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجلّ، قال: إن لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: ألا تجيبوه؟ قالوا: يا رسول الله؛ ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[٣]. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في ثلاثة مواضع من كتابه عن عمرو بن خالد، عن زهير.

وبهذا الإسناد قال[٤]: حدثنا أبي، قال: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن [عبيد الله، عن][٥] ابن عباس أنه قال: «ما نصر الله تعالى نبيه في مواطن ما نصره يوم أُحُد. قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾، ثم ذكر حديث الرماة، إلى أن قال: وصاح الشيطان: قُتِل محمد، فلم يُشَكَّ فيه أنه حق، فما زلنا كذلك ما نشك أنه قد قُتِل، حتى طلع رسول الله ﷺ بين السَّعْدَين، نعرفه بتكفُّئه[٦] إذا مشى، قال: ففرحنا حتى كأنَّا لم يصبنا ما أصابنا، قال: فَرَقَى نحونا، وهو يقول: اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه رسوله. قال: ويقول مرة أخرى: اللَّهم إنه ليس لهم أن يعلونا، حتى انتهى إلينا، فمكث ساعة،

---

(١) الحرب سِجال: معناه: نُدالُ (نُغْلب) عليه مرة، ويُدالُ علينا أخرى (اللسان، مادة: سجل).

(٢) المُثْلة: التنكيل (اللسان، مادة: مثل).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١١٠٥ ح٢٨٧٤، ٤/ ١٤٨٦ ح٣٨١٧)، وأحمد (٤/ ٢٩٣).

(٤) أي: عبد الله بن الإمام أحمد.

(٥) في الأصل: عن عبد الله بن عباس. والمثبت من المسند (١/ ٢٨٧).

(٦) التكفّي: التَّمايُل إلى قُدَّام، كما تتكفّأ السفينة في جَرْيها (اللسان، مادة: كفأ).

فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل: اعل هُبَل!! ثم قال: وأجيب نحو ما تقدَّم، فقال أبو سفيان: يا ابن الخطاب، إنه قد أنعمت [عينها][1] فَعالِ عنها»[2].

قوله: «طلع بين السَّعْدَين»، يعني: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وكانا نقيبين، وقوله: «قد أنعمت» يعني: الآلهة، "فَعالِ عنها"، أي: لا تَذكُرْها بسوء.

قال أهل العلم بالتفسير والسير: إن رسول الله ﷺ حين نزل بالشِّعْب من أُحُد قال للرماة: «احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، فإنَّا لن نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم»، فلما استباح المسلمون عسكر المشركين انكبَّ الرماة، فدخلوا العسكر ينهبون، وثبت عبد الله بن جبير في نفر دون العشرة، وكان على ميمنة قريش خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عِكرمة بن أبي جهل، ومعهم النساء يضربن بالدفوف، ويقلن الشعر، وكانت هند تقول:

نحن بنات طارق   نمشي على النمارق
إن تُقْبلوا نُعانِق   أو تُدْبروا نُفارِق
فراق غير وامق

وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «من يأخذ هذا السيف بحقه»؟، فقال من رضي الله عنه -أبو دجانة سِماك بن خرشة-: أنا يا رسول الله، وكان رجلاً شجاعاً، يختال في الحرب سجية، ما يستطيع غير ذلك، فتعمّم بعمامة حمراء، وبرز يتبختر، ويقول:

---

(١) زيادة من المسند (١/ ٢٨٧).

ومعنى قوله: «أنعمت عينها»، أي: قرّت، من الإنعام، يعني: آلهته.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٧ ح٢٦٠٩).

أَنَــا الــذي عَاهَـدَنِي خَلِـيلي   وَنَحْـنُ بالـسَّفْحِ لَـدَى النَّخِيـلِ
أَنْ لاَ أَقُـومَ الـدَّهْرَ في الكَيُّـولِ[١]   أَضْرِبْ بِـسَيْفِ الله والرَّسُـولِ

فقال رسول الله ﷺ: «إنها لمِشْيَةٌ يُبغضها الله إلا في هذا الموضع»[٢]، ثم حمل رسول الله على المشركين فاستباحهم، وقَتَلَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه طلحةَ بن أبي طلحة حامل لواء قريش، وأنزل الله نصره، فلما رأت الرماة المشركين قد انهزموا، والرسول والمسلمون يغنمونهم، مالوا إلى الدنيا وطلبوا الغنيمة، فقال أميرهم عبد الله بن جبير: أمّا أنا فلا أفارق مكاناً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، فثبت في نفر دون العشرة، وانكبَّ أكثرهم، فدخلوا العسكر، فلما رأى خالد قِلَّة الرماة وانشغال المسلمين بالغنيمة صاح في خيله من المشركين، ثم حمل على المسلمين من خلفهم فهزموهم، وقتلوهم، وشُجَّ رسول الله في وجهه وكُسِرت رباعيته، وتفرّق عنه أصحابه، وأقبل عبد الله بن قَمِئَة يريد قتل رسول الله ﷺ، فذبَّ عنه مصعب بن عمير صاحب راية رسول الله ﷺ حتى قُتِل دونه، فظن الخبيث أنه قد قتل رسول الله، فقال: قتلت محمداً، وصرخ الشيطان: ألا إن محمداً قد قُتِل! ألا إن محمداً قد قُتِل! فقال أنس بن النضر، عم أنس بن مالك: يا قوم! إن كان محمد قد قُتِل فإن ربّ محمد لم يقتل، ما تصنعون بالحياة بعده، موتوا على ما مات عليه، ثم حمل على المشركين، فقاتل حتى قُتِل، وانكفأ الناس، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله»، فاجتمع إليه ثلاثون من أصحابه، فذبُّوا عنه، فأُصيبت

---

(١) الكيُّول: آخر الصفوف في الحرب (اللسان، مادة: كيل).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٣-١٦).

يد طلحة بن عبيد الله، وسالت عين قتادة بن النعمان، فردَّها رسول الله ﷺ بيده في مكانها، فعادت أحسن ما كانت، وفي ذلك يقول ابنه يفتخر:

أَنَا ابنُ الذي سَالَتْ عَلَى الخَدِّ عَيْنُهُ فَرُدَّتْ بكَفِّ المُصْطَفَى أَحْسَنَ الرَّدِّ

فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لأَحْسَنِ حَالِهَا فَيَا حُسْنَ ما عَيْنٍ ويَا حُسْنَ مَا يَدِ[1]

وقال سعد بن الربيع وهو في آخر رمق: يا قوم! لا عذر لكم عند الله إن وُصِل إلى رسول الله وفيكم عينٌ تطرف.

ولما انهزم المسلمون، وصرخ الشيطان: قُتِل محمد. قال قوم من المنافقين: الحقوا بدينكم الأول.

وقال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أُبَيّ أخذ لنا أماناً من أبي سفيان، ثم انطلق رسول الله ﷺ إلى الصخرة، فكان أولَ مَن عرفه كعبُ بن مالك، فقال: عرفت عينيه تُزهران تحت المِغْفَر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين؛ أبشروا هذا رسول الله، فتراجع المسلمون إليه، فلامهم على الفرار، فقالوا: يا نبي الله؛ فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أتانا الخبر بأنك قد قتلت، فرعبت قلوبنا فولَّيْنا مدبرين»[2]، فأنزل الله: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾[3].

هذا اسمٌ أكرم الله به رسوله، واشتقاقُه من الحمد، سمي بذلك لأنه محمود عند الله، وعند الملائكة، وعند الناس، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

---

(١) البيتان في: صفة الصفوة (١/ ٤٦٤)، والاستيعاب (٣/ ١٢٧٥).

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة (٤/ ١٣-١٦)، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٥-١٦)، والثعلبي (٣/ ١٧٦-١٧٧).

(٣) أسباب النزول للواحدي (ص:١٢٩) عن عطية العوفي.

وَشَقَّ لَهُ مِن اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ فَذو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذا مُحَمَّدُ[1]

وقوله: ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ إشارة إلى أنه يتطرق إليه ما يتطرق إليهم من القتل والموت.

فصل

لما انتهيتُ مرة في تدريس تفسير الكتاب العزيز إلى هذه الآية أورد عليّ رجلٌ فاضل إشكالاً، فقال: لا شبهة أنَّ «قد» في أصل الوضع لتقريب الماضي من الحال[2]، ومعلوم أن بين انقراض الرُّسُل وبين زمن نزول هذه الآية أمداً بعيداً ودهراً طويلاً، فكيف ساغ دخول «قد» ها هنا؟

فقلت: المقصودُ من سياق هذه الآية تقريع المنهزمين يوم أُحُد، وإبطالُ ما اعتصموا به من جهة الاعتذار للفرار من قولهم للرسول: أتانا الخبر بأنك قد قُتِلت، فقال سبحانه: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ فحكمُه حكمهم، يجوز عليه ما يجوز عليهم، ويتطرق إليه ما تطرق إليهم. ثم قرّب سبحانه زمان هؤلاء الرسل إلى المنهزمين المُواجَهين بالتوبيخ والتقريع بصيغة تُقرِّب الماضي من الحال فقال: ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾؛ ليكون ذلك في قربه منهم كالمشاهَد لهم لترسخ في أذهانهم، وليستحضروا في قلوبهم ما سيجري على رسولهم مماثلاً لما جرى على من قبله من الرسل، كأنه قال: ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ بالأمس ﴿أفإن مات﴾

---

(١) البيت لحسان بن ثابت. انظر: ديوانه (ص:٥٤)، والقرطبي (١/ ١٣٣)، والاستيعاب (٩/ ١٥٤) ونسبه لعبد المطلب أو أبي طالب، والإصابة (٧/ ٢٣٥) ونسبه لأبي طالب. وهو في ديوان أبي طالب (ص:٣٣٢).

(٢) انظر: اللباب لأبي البقاء (١/ ٤٩)، والمغني لابن هشام (١/ ١٤٨).

محمد ﴿أو قُتِل﴾ اليوم، كما مات من قبله من الرسل وقُتِلوا ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾، فيكون ذلك توبيخاً على توبيخ، وبَّخهم أولاً لفرارهم، وثانياً لاعتذارهم؛ ليزدادوا بصيرة وإيماناً وثباتاً على دينهم، كيف تصرَّفتْ بهم الحال، كما كان أنس بن النضر حين قيل: قُتِل محمد، وكما كان الصِّدِّيق حين قال: مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومَن كان يعبد رب محمد فإن رب محمد حي لا يموت.

وقلّ أن يُذكر مثل هذا التحرير في تفسير، ولكن هذا من السرِّ المكنون الذي لا يَظهر إلا بالبحث والتقرير.

قوله[(١)] عز وجل: ﴿أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم﴾، أي: أتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد أو قُتِل؟

ويقال لكل مَن عاد إلى ما كان عليه، ورجع وراءه: انقلب على عقبيه. يُعَرِّضُ بهذا بالقائلين حين صرخ الشيطان: قُتِل محمد، ارجعوا إلى دينكم الأول.

﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ إنما يضر نفسه، ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾.

قال علي رضي الله عنه: يعني الثابتين على دينهم، وكان أبو بكر أمير الشاكرين[(٢)].

---

(١) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً سابعاً، وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس السادس عشر، مرة ثانية.

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ١١٠-١١١) وفيه: «أمين الشاكرين». وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٣٨) وعزاه لابن جرير.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم العطار وأبو الحسن الصوفي، قالا: أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا الداودي، أخبرنا ابن حمويه، أخبرنا الفربري، أخبرنا البخاري، أخبرنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، أخبرني أبو سلمة، أن عائشة أخبرته، «أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنُح[1]، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم رسولَ الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حِبَرَة[2]، فكشف عن وجهه ثم أكبَّ عليه وقبَّله، وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتِبَت عليك فقد مِتَّها».

وحدثني أبو سلمة عن عبد الله بن عباس: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّاب يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ يا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَركُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا بَعْدُ، مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله فَإِنَّ الله حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، قَالَ الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ -إِلَى قَوْلِهِ:- الشَّاكِرِينَ﴾.

قَالَ: وَالله لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَراً مِن النَّاسِ إِلا يَتْلُوهَا، فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيَّب أَنَّ عُمَرَ قَالَ: وَالله مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاهَا، فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاهَا [عَلِمْتُ][3] أَنَّ النَّبِيَّ

---

(١) السُّنُح: إحدى محال المدينة، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج، فيها منزل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه (معجم ما استعجم ٣/ ٧٦٠، ومعجم البلدان ٣/ ٢٦٥).

(٢) الحِبَرَة -كعِنَبَة-: ضربٌ من برود اليمن مُنَمَّر (اللسان، مادة: حبر).

(٣) زيادة من البخاري (٤/ ١٦١٨).

ﷺ قَدْ مَاتَ». انفرد بإخراجه البخاري[١].

قوله: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ قال الزجّاج[٢]: اللام في "النفس" معناها النقل، بتقدير: وما كانت نفس لتموت إلا بإذن الله.

قال ابن عباس: يريد: بقضائه وقدره[٣].

﴿كتاباً مؤجلاً﴾ أي: كتب الله ذلك كتاباً إلى أجله في اللوح المحفوظ، لا يُقَدِّمُهُ اقتحام المهالك، ولا يُؤَخِّرُهُ الفرار من المعارك.

والمقصودُ من هذا حَضُّ المسلمين على الصبر عند لقاء العدو، والعتب على المنهزمين يوم أُحُد.

﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ أي: مَن قصد بعمله الدنيا نعطه منها ما قدَّرنا له، ثم ينقطع، وفيه تعريض بالرماة الذين تركوا المركز، طلباً للغنيمة، وباقي الآية تعريض بالذين بقوا مع أميرهم عبد الله بن جبير لحفظ المركز.

قوله عز وجل: ﴿وكأين﴾ وقرأ ابن كثير: «وكَائِن»[٤]، مثل: وكَاعِن، والأول لغة أهل الحجاز، والثاني لغة بني تميم.

قال المَعْلُوط القُرَيْعِي:

وَكَائِنٍ رَأَيْنَا مِنْ غَنِيٍّ مُذَمَّمٍ ... وَصُعْلُوكِ قَوْمٍ مَاتَ وَهوَ حَمِيدُ[٥]

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦١٨ ح٤١٨٧).

(٢) معاني الزجاج (١/ ٤٧٤).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٥٠٠).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٩)، والحجة لابن زنجلة (١٧٤-١٧٥)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٧٩-١٨٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٦).

(٥) انظر: ديوان الحماسة (٢/ ١٩).

قال ابن قتيبة[١]: وهذه اللغة أفصح، وأكثر، قال الشاعر:

وَكَائِنٍ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيادَتُهُ أو نَقْصُهُ في التَّكَلُّمِ[٢]

قال الفرّاء: وأنشدني الكسائي:

وَكَائِنٍ تَرَى يَسْعَى مِنَ النَّاسِ جَاهِداً ... عَلَى ابنٍ غَدَا مِنْهُ شُجَاع وَعَقْرَبُ[٣]

وقال آخر:

وَكَائِنٍ أَصَابَتْ مُؤْمِناً مِنْ مُصيبَةٍ ... عَلَى الله عُقْبَاهَا وَمِنْهُ ثوابُها[٤]

قال بعضُهم: أصلها «أي» دخلت عليها كاف التشبيه، فمن ثقَّل فعلى الأصل، ومَن خفَّف فلكراهة التضعيف، وكان أبو عمرو يقف على الياء نظراً إلى الأصل، والباقون على النون اتّباعاً للإمام.

ومعناها: وكم من نبي قُتِل.

وقرئ شاذاً: «قُتِّل» بالتشديد[٥].

وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة: «قاتَلَ»[٦]، والفاعل «ربيون»، والمعنى: كم من

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:٥١٩).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى المزني في معلقته إحدى المعلقات السبع. انظر: ديوانه (ص:٨٨)، وزاد المسير (١/ ٤٧١)، وشعب الإيمان (٤/ ٢٧٣).

(٣) لم أعرف قائله، وهو في زاد المسير (١/ ٤٧١).

(٤) البيت للفرزدق، وهو في زاد المسير، الموضع السابق.

(٥) انظر: المحتسب (١/ ١٧٣).

(٦) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: "قُتِلَ". انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٤١)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧٥)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٧).

نبي قُتِل الرِّبيون معه، فما وهن مَن بقي منهم، ويؤيد هذا المعنى قراءة مَن شدَّد.

وقيل: القتل مسند إلى النبي ﷺ، فعلى هذا: «معه» في محل الحال[١]، المعنى: وكم من نبي قُتِل كائناً معه ربيون، فما وهنوا بعد قتل نبيهم. والقولان جاريان في قراءة أهل الكوفة أيضاً.

والرِّبيون -بالحركات الثلاثة على الراء-: الجماعات الكثيرة، وهذا قول الأكثرين من أهل التفسير واللغة[٢].

قال ابن مسعود: هم الألوف[٣]. اختاره الفرَّاء[٤].

وقال قتادة وعكرمة ومجاهد: الجماعات الكثيرة[٥]. واختاره ابن قتيبة[٦].

وقال الحسن: العلماء والفقهاء[٧]. اختاره الزجَّاج[٨].

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٥٢)، والدر المصون (٢/ ٢٢٧).

(٢) قال ابن عباس في تفسيره (ص:١٣١) عند تفسير هذه الآية: ربيون: جموع.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٥)، والطبري (٤/ ١١٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٨٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٤٠) وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني.

(٤) معاني الفراء (١/ ٢٣٧).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ١١٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٨٠). وذكره الماوردي (١/ ٤٢٨). وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) تفسير غريب القرآن (ص:١١٣).

(٧) أخرجه سعيد بن منصور (٣/ ١٠٩٤)، والطبري (٤/ ١١٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٨١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٤٠) وعزاه لسعيد بن منصور.

(٨) معاني الزجاج (١/ ٤٧٦).

وقال ابن فارس[(١)]: هم العارفون المتألِّهون.

﴿فما وهنوا﴾ أي: ما ضعفوا عند قَتْل نبيهم، أو قَتْل مَن قُتِل منهم، ﴿وما ضعفوا﴾ عن جهاد الأعداء بعد ما أصابهم في سبيل الله، ﴿وما استكانوا﴾، أي ما ذلُّوا للعدو، وفي هذا تعريضٌ بالمنهزمين الذين أظهروا الوهن والضعف والذل حين صرخ الشيطان: قُتِل محمد.

قوله: ﴿وما كان قولهم﴾ يعني: قول الرِّبيين إلا هذا القول، وهو الاعتراف بالذنوب. ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ وهو مجاوزة الحد في المعاصي.

فالمعنى: اغفر لنا الصغائر والكبائر.

﴿وثبّت أقدامنا﴾ كي لا نزول عن دينك، وحرب أعدائك.

المعنى: فهلاَّ كنتم أنتم يا أصحاب محمد كذلك.

﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ وهو النصر والغنيمة، ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ وهو الجنة.

وخصَّه بإضافة الحُسن إليه تمييزاً له عن ثواب الدنيا، وتفضيلاً له عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ
فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى
قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا
وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ
إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ

(١) انظر: مجمل اللغة (٢/ ٣٦٦).

﴿بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ قال علي رضي الله عنه: هم المنافقون الذين قالوا - حين صرخ الشيطان قُتِل محمد-: ارجعوا إلى دينكم الأول[1].

وقال ابن عباس: هم اليهود[2].

وذاك أنهم كانوا يرومون إدخال الشبهة على المؤمنين ليفتنوهم، فلما كان يوم أُحُد قالوا: لو كان نبياً ما غلب.

وقيل: هو عامّ في جميع الكفار.

﴿بل الله مولاكم﴾: وليكم وناصركم.

وقرئ: «بل اللهَ» بالنصب[3]، على معنى: بل أطيعوا الله مولاكم.

---

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ١٨٣)، والواحدي في الوسيط (١/ ٥٠٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ١٢٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٨٥) كلاهما عن ابن جريج. وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٥٠٢) من قول ابن عباس، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٧٤) من قول ابن جريج، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٤١-٣٤٢) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج.

(٣) مختصر شواذ القرآن (ص:٢٢).

قوله: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ قال السدي: لما ارتحل المشركون نحو مكة ندموا في بعض الطريق، وقالوا: قتلنا أصحاب محمد حتى إذا لم يبق منهم إلا شرذمة تركناهم، فهمُّوا بالرجوع ليستأصلوهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، ونزلت هذه الآية[١].

وقيل: كان ذلك يوم أُحُد، فإنهم انهزموا راجعين إلى مكة، ولهم القوة والغلبة.

والرعب -بإسكان العين وبضمها- لغتان.

وبضمها قرأ ابن عامر والكسائي[٢] حيث جاء، وهو الخوف الذي يملأ القلب، من قولهم: رَعَبْتُ القربة، أي: ملأتها[٣].

و «ما» في قوله: ﴿بما أشركوا﴾ مصدرية، المعنى: بإشراكهم ﴿بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ حُجَّة ظاهرة.

لأن النِّد والشَّريك لا حُجَّة على صحته فتنزل.

﴿ومأواهم النار﴾ مكانهم الذي يأوون إليه النار.

ثم ذمَّه فقال: ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾.

قوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ قال قوم من المسلمين: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر، فنزلت هذه الآية[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ١٢٤). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٢٩)، والوسيط (١/ ٥٠٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٤٢) وعزاه لابن جرير.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧٦)، والكشف (١/ ٣٦٠)، والنشر (٢/ ٢١٥-٢١٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٧).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (رعب).

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٢٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٧٥).

والوعد بالنصر في قوله عليه الصلاة والسلام: «لا نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم»[(١)]، أو في قوله: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾، أو في قوله: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ... الآية﴾، إن قلنا هو يوم أُحُد.

﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ أي: تقتلونهم قتلاً ذريعاً. يقال: سَنَةٌ حَسُوسٌ؛ إذا أَتَتْ على كل شيء، وجَرَادٌ مَحْسُوسٌ؛ إذا قَتَلَهُ البَرْد[(٢)].

وكان ذلك حين كان الرماة يرشقونهم بالنبل، وباقي المسلمين يضربونهم بالسيوف.

﴿حتى إذا فشلتم﴾ أي: جبنتم[(٣)] وضعف رأيكم، ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ وهو تجاذب الرماة فيما بينهم، بين قائل: لا نفارق المركز، وقائل: ما يمنعنا من الغنيمة، ﴿وعصيتم﴾ خالفتم الرسول في قوله: «لو رأيتم الطير تخطفنا لا تُفارقوا مكانكم»[(٤)].

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: حتى إذا تنازعتم وعصيتم فشلتم.

﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ وهو النصر والغنيمة.

وجواب «حتى إذا» محذوف تقديره: حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم منعتكم ما تحبون. ويجوز أن يكون متعلقاً بما قبله، التقدير: ولقد صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم.

---

(١) تقدم (ص:٣٢٠).

(٢) انظر: اللسان (مادة: حسس).

(٣) انظر: الطبري (٤/ ١٢٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ١١٠٥ ح٢٨٧٤).

﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين فارقوا المركز، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ كعبد الله بن جبير وأصحابه الذين ثبتوا معه.

قال ابن مسعود: ما كنت أظن أن أحداً من أصحاب محمد ﷺ يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية[1].

﴿ثم صرفكم عنهم﴾ ردَّ وجوهكم عن المشركين بالهزيمة.

وفي قوله: «صرفكم»، إبطال لمذهب القَدَرية، حيث أضاف الصرف إلى نفسه، وجعله من فعله.

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: هؤلاء مع رسول الله، في سبيل الله، غضابٌ لله، يُقاتلون أعداء الله، نُهوا عن شيء فصنعوه، فما تُرِكوا حتى غُمُّوا بهذا الغم. والفاسق اليوم يتجرم كل كبيرة، ويركبُ كل داهية، ويزعم أن لا بأس عليه، فسيعلم[2].

قوله: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد﴾[3] قوله: «إذ» نصب بـ«صَرَفَكُمْ»، أو بقوله: «لِيَبْتَلِيَكُمْ»، أو بـ«عَفَا»، أو بإضمار «اذكر»[4]، و«تُصْعِدُونَ» من الإِصْعَاد، وهو: الذهاب في الأرض، والإبعاد فيها، يقال: أَصْعَدَ في الأرض؛ إذا

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٣) بسند حسن، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٧١)، والطبراني في الأوسط (٢/ ١٠٦)، والطبري (٤/ ١٣٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٨٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٤٩) وعزاه لأحمد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي بسند صحيح.

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ١٣١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٤٩) وعزاه لابن جرير.

(٣) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس السادس عشر، مرة ثانية.

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٥٤)، والدر المصون (٢/ ٢٣٣).

أَمْعَنَ في الذهاب فيها[١].

وقرأ الحسن البصري: "تَصْعَدُونَ"[٢] -بفتح التاء والعين- من الصُّعُود، يريد: ارتفاعهم في الجبل، ويؤيده قراءة عائشة وأبي الجوزاء[٣] في آخرين، "ولا تَلْوونَ على أُحُد"[٤] -بضم الهمزة والحاء- أي: الجبل المعروف، وقيل: صَعِدَ وَأَصْعَدَ بمعنى واحد.

«ولا تلوون» أصله من لَيِّ العنق في الالتفات، ثم استعير في ترك التعريج.

﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ يقال: جاء فلان في آخر الناس وأُخْرَاهم؛ إذا جاء من خلفهم[٥]، كما يقال: جاء في أوَّلِهم وأُولاهم.

و«الأخرى» تأنيث الآخر، وهو في تأويل: يدعوكم في سَاقتكم، أو في جماعتكم المتأخرة، يقول: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، أنا رسول الله.

«فَأَثَابَكُمْ» عطف على «ثُمَّ صَرَفَكُمْ»[٦]، والمعنى: فجازاكم غمّاً حين صرفكم عنهم، «لِيَبْتَلِيَكُمْ» بسبب غم أدخلتموه على رسول الله ﷺ، بمخالفتكم له. وهذا اختيار الزجَّاج[٧].

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (صعد).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٠).

(٣) أوس بن عبد الله الربعي، أبو الجوزاء -بالجيم والزاي- بصري، تابعي، ثقة جليل، يرسل كثيراً، توفي سنة ثلاث وثمانين (التقريب ص:١١٦).

(٤) إعراب القراءات الشواذ (ق ٤٨/ ب).

(٥) انظر: اللسان، مادة: (أخر).

(٦) وهو قول الزمخشري في الكشاف (١/ ٤٥٤). وانظر: الدر المصون (٢/ ٢٣٤).

(٧) معاني الزجاج (١/ ٤٧٩).

وقال الحسن: بغَمٍّ أدخلتموه على الكفار يوم بدر.

وقيل: "غمّاً بغَمّ" أي: غمّاً على غَمّ. تقول: نزلت به؛ أي: عليه.

أو غمّاً مع غم، كما تقول: جاء زيد بعمرو، أي: معه، وهو ما أصابهم من القتل والهزيمة وما فاتهم من النصر والغنيمة، أو مع ما نالهم حين سمعوا قتل محمد ﷺ.

﴿لكي لا تحزنوا﴾ قيل: إن «لا» زائدة، كقوله: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩].

فالمعنى: فأثابكم غمّاً، عقوبة لكم، لكي تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة، وما نالكم من القتل والهزيمة.

فعلى هذا اللام في «لِكَيْ» متعلقة بقوله: «فَأَثَابَكُمْ».

والأظهر: أن «لا» على أصلها، ومعناها النفي.

ثم في توجيه الآية طرق:

أحدها: فأثابكم غمّاً عظيماً تضاءل عنده الغَمُّ الأول، وهو: ما فاتكم وأصابكم عند سماع صوت الشيطان: قُتِل محمد، فبقي الغم الأول مغموراً كأن لم يكن له وجود، ومن هذا قول الشاعر:

.... إِذا تَجَدَّدَ حُزْنٌ هَوَّنَ المَاضِي[1]

الطريق الثاني: أن المعنى: فأثابكم غمّاً بغَمٍّ لتتمرَّنوا وتتعوّدوا، فلا تحزنوا على ما فاتكم من المسارّ، ولا على ما أصابكم من المضارّ[2]، كما قيل:

---

(١) عجز بيت لإبراهيم بن العباس الصولي، وصدره: (كم قد تجرعت من غيظ ومن حزن). وهو في: تاريخ بغداد (٦/ ١١٧).

(٢) وهو قول الزمخشري في الكشاف (١/ ٤٥٤).

تَعَـوَّدْتُ مَـسَّ الـضُّرِّ حَتّـى أَلِفْتُـهُ ... فَأَسْـلَمَنِي حُـسْنُ العَـزَاءِ إِلى الـصَّبْرِ
وَوَسَّعَ صَدْرِي بالأَذى كَثْرَةُ الأَذى ... وَقَدْ كُنْتُ أَحْيَاناً يَضِيقُ بِهِ صَـدْرِي[١]

ومنه البيت السائر:

أَنْكَرتُ طَارِقَةَ الحَوادِثِ مَرَّةً ... ثُمَّ اعْتَرَفْتُ بِهَا فَصارَتْ دَيْدَنَا[٢]

الطريق الثالث: أن تكون لام «كي» متعلقة بقوله ﴿ولقد عفا عنكم﴾ أي: عفا عنكم لكي لا تحزنوا، فإن عفو الله يَذْهب بالحزن[٣].

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

---

(١) البيتان لأبي الأسود الدؤلي. انظر: جمهرة الأمثال (١/ ١٨٥).

(٢) البيت للمتنبي. انظر: شرح ديوان المتنبي (١/ ٢٥٢).

(٣) وفيه بُعد من جهة طول الفصل. انظر: الدر المصون (٢/ ٢٣٥-٢٣٦).

قوله: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً﴾ قال ابن قتيبة[١]: «الأمنة»: الأمن.

و«نعاساً» بدل من "أمنة"[٢].

وجائز أن يكون هو المفعول، و"أمنة" حالاً متقدمة عليه، نحو رأيت راكباً رجلاً. وجائز أن يكون مفعولاً له، أي: نعستم للأمنة[٣].

والنُّعَاس: الوَسَن، يقال: نَعَسَ يَنْعُسُ نُعَاساً فهو نَاعِس، وبعضهم يقول: نَعْسَان[٤].

قال الفرّاء[٥]: قد سمعتها، ولكن لا أشتهيها.

قال الزجّاج[٦]: معنى الآية: أعقبكم بما نالكم من الرعب بأن أمَّنكم أمناً تنامون معه، لأن الشديد الخوف لا يكاد ينام.

﴿يغشى﴾ يعني: النعاس.

وقرأ حمزة والكسائي: «تغشى»[٧] بالتاء والإمالة، يعني: الأمنة، ﴿طائفة منكم﴾، وهم المؤمنون، ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ وهم المنافقون، أهمّهم

---

(١) تفسير غريب القرآن (ص:١١٤).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٥٤)، والدر المصون (٢/ ٢٣٦).

(٣) مثل السابق.

(٤) انظر: اللسان، مادة: (نعس).

(٥) لم أقف عليه في معاني الفراء، وهو في زاد المسير (١/ ٤٨٠).

(٦) معاني الزجاج (١/ ٤٧٩).

(٧) الحجة للفارسي (٢/ ٤٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧٦)، والكشف (١/ ٣٦٠)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٧).

خلاص أنفسهم لا خلاص الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا الخلاص في الإسلام.

قال الزبير رضي الله عنه: أرسل الله تعالى علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير: "لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا"، فحفظتها منه[١].

وأخبرنا الشيخان أبو القاسم السلمي، وابن رُوْزَبَة البغداديان، قالا: أخبرنا عبد الأول بن عيسى، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد، أخبرنا عبد الله بن أحمد، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن أبو يعقوب، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، قال: حدثنا أنس، أن أبا طلحة قال: «غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ في مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ، وَجَعَلْتُ أَنْظُرُ وَمَا مِنْهُم أَحَد يَوْمئذ إلاَّ يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ[٢] مِنَ النُّعَاسِ»[٣].

قوله: ﴿يظنون بالله غير الحق﴾ ظنوا أن عِقْد الإسلام قد انْحَلّ، وأن أمر النبي ﷺ قد اضْمَحَلّ.

قال ابن عباس: ظنوا أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ١٤٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٩٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٥٣) وعزاه لابن إسحاق وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.

(٢) الحَجَفة: التِّرْس (اللسان، مادة: حجف).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٢ ح٤٢٨٦).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٥٠٧) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٨١).

﴿ظن الجاهلية﴾ بدل من «غير الحق»[١].

والمعنى: ظن المختص بالملة الجاهلية، أو كظن أهل الجاهلية، فشبه ظن أهل الشك بظن أهل الشرك.

وقوله: ﴿يقولون﴾ بدل من «يظنون»، والاستفهام بمعنى الجحد -كما سبق-، وتقديره: ما لنا من النصر والظفر شيء، كما وعدنا.

قال أبو سليمان الدمشقي: القائل: ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾: عبد الله بن أُبَيّ بن سلول[٢].

قل لهم يا محمد: ﴿إن الأمر كله لله﴾ قرأ الكل: «كُلَّهُ» بالنصب على توكيد الأمر، إلا أبا عمرو فإنه رفع على الابتداء[٣]. و«لله» الخبر، والجملة خبر «إنَّ»[٤].

وقوله: ﴿يخفون﴾ حال من «يقولون»[٥].

والذي أخفوه: الشك والنفاق، أو قولهم: ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾، وقولهم: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا﴾.

﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ أي: لصاروا إلى بَرَازٍ من الأرض، وهو المكان المنكشف. والمضاجع: المصارع.

وهذا إعلامٌ من الله للبشر أنه لا وزر من القدر.

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٢٣٨).

(٢) انظر: زاد المسير (١/ ٤٨٢).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٤٤)، ولابن زنجلة (ص:١٧٧)، والكشف (١/ ٣٦١)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٧).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٥٥)، والدر المصون (٢/ ٢٣٩).

(٥) انظر: الدر المصون (٢/ ٢٣٩).

قوله: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم﴾ أي: ما فيها من الإخلاص.

﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾ من وساوس الشيطان.

قال قتادة: ليطهرها من الشك والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه، من الأمنة وإظهار سرائر المنافقين[١].

وقال غيره: أراد بالتمحيص: إبانة ما في القلوب، فيكون الخطاب بذلك للمنافقين[٢].

قوله عز وجل: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾ يريد: جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أُحُد، والخطاب للمسلمين، ﴿إنما استزلهم الشيطان﴾ أي: طلب منهم الزلل، ﴿ببعض ما كسبوا﴾ من الذنوب، وهو معصية الرسول بمفارقة المركز.

وذكر البعض مُشْعِرٌ بأن المعفو عنه من الذنوب أكثر.

﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ تولِّيهم يومَ أُحُد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٥٠٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٨٢).

(٢) انظر: زاد المسير (١/ ٤٨٢).

غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

ثم نهى الله المؤمنين عن أن يكونوا كالمنافقين فقال: ﴿لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم﴾ أي: لأجل إخوانهم، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١]، والمعنى: لإخوانهم في السبب، وهو النفاق.

وقيل: في النسب.

﴿إذا ضربوا﴾ أي: سافروا، وساروا فيها.

قال الزجّاج[١]: إنما قال: ﴿إذا ضربوا﴾، ولم يقل: «إذ» لأنه هذا شأنهم أبداً، يقولون: فلان إذا حدَّث صدق، وإذا ضُرِب صبر، و«إذا» لما يُستقبل، إلا أنه لم

(١) لم أقف عليه في معاني الزجاج، وهو في زاد المسير منسوب إليه (١/ ٤٨٤).

يحكم له بهذا المستقبل إلا لما قد خُبر منه فيما مضى.

وقال غيره: هو على حكاية الحال الماضية.

﴿أو كانوا غُزّى﴾ جمع غاز، مثل: صائم وصُوَّم، ونائم ونُوَّم، وفيه إضمار تقديره: قالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو غزوا فماتوا أو قُتِلوا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتِلوا.

﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ قال ابن عباس: ليجعل الله ما ظنوا من أنهم لو كانوا عندهم سلموا، «حسرة» أي: حزناً وأسفاً في قلوبهم[1].

واللام في «ليجعل»، متعلقة بـ«قالوا» على معنى: قالوا ذلك، واعتقدوه ليجعله الله حسرة في قلوبهم.

ويجوز أن تكون متعلقة بالنهي، أي لا تكونوا كالذين كفروا في هذا القول والاعتقاد ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم خاصة.

﴿والله يحيي ويميت﴾ فهو الفاعل للإحياء والإماتة في الحضر والسفر، وكلاهما سببان بالنسبة إلى القدر.

﴿والله بما تعملون بصير﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «يعملون» بالياء، حملاً على لفظ الغيبة في الآية. وقرأ الباقون بالتاء[2]، رداً على قوله: ﴿لا تكونوا﴾.

فالخطاب على هذا للمؤمنين، وعلى تلك للكافرين.

قوله تعالى: ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم﴾ قرأ نافع وأهل الكوفة إلا أبا

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٨٤).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٥)، ولابن زنجلة (ص:١٧٧)، والكشف (١/ ٣٦١)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨١)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٧).

بكر: «مِتُّم» «ومِتْنا» بكسر الميم حيث وقع، وقرأ الباقون بضم الميم[1]، غير أن حفصاً ضم الميم في هذه السورة خاصة.

فمَن ضَمَّ فلأنه من مَاتَ يَمُوتُ؛ كَقَالَ يَقُولُ. ومَن كَسَرَ فعلى لغة مَن قال: مَاتَ يَمَاتُ، مثل: دَامَ يَدَامُ. والقراءة الأولى أوجه.

واللام في «ولئن»، لام القسم، تقديره: والله لئن قُتلتم أيها المؤمنون في سبيل الله أو مُتُّم، "لمغفرة من الله" جواب القسم، وهذا الجواب سدّ مسد جواب الشرط، ومثله: ﴿لإلى الله تحشرون﴾.

والمعنى: لمغفرة من الله لذنوبكم بسبب الجهاد، ورحمة منه لكم، ﴿خير مما يجمعون﴾ من عرض الدنيا.

وقرأ حفص: «يجمعون» بالياء[2]، على معنى: خير مما يجمع غيركم من الدنيا.

﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله﴾ الموصوف بالمغفرة والرحمة، ﴿تحشرون﴾.

قوله: ﴿فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم﴾ «ما» صلة؛ كقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ [النساء:١٥٥]، والتقدير: فبرحمة من الله أنعم بها عليك وعليهم، لِنْتَ لهم فشملتهم لطفاً، ووسعتهم عطفاً، ﴿ولو كنت فَظّاً﴾ يعني: جافياً غليظاً سيء الخُلُق[3]، ﴿لانفضوا من حولك﴾ أي: لتفرَّقوا عنك، ونفروا منك ﴿فاعْفُ عنهم﴾

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٤٥-٤٦)، والحجة لابن زنجلة (ص: ١٧٨)، والكشف (١/ ٣٦١)، والنشر (٢/ ٢٤٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨١)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٨).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٧)، والكشف (١/ ٣٦٢)، والنشر (٢/ ٢٤٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨١)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٨).

(٣) انظر: الطبري (٤/ ١٥١)، وزاد المسير (١/ ٤٨٦).

ما يخصك، ﴿واستغفر لهم﴾ تفريطهم في حقي عليهم، ﴿وشاورهم في الأمر﴾ استخرج ما عندهم فيما لم يأتك فيه وحي.

وفي قراءة ابن عباس: «وشاورهم في بعض الأمر»(١)، واشتقاقه من شُرْتُ العسل، وأنشدوا:

.... أَلَذُّ مِنَ السَّلْوى إِذا مَا نَشُورُها(٢)

وقال الزجّاج(٣): يقال: شَاوَرْتُ الرَّجُلَ مُشَاوَرَةً وشِوَاراً، وما يكون من ذلك اسمه: المَشُورَة، وبعضهم يقول: المَشْوَرة على وزن قَسْوَرة، ومعنى قولهم: شَاوَرْتُ فلاناً: أظهرت ما عندي وما عنده، وشُرْتُ الدابة؛ إذا امتحنتها فعرفت هيئتها في سيرها، وشُرْتُ العسل؛ إذا أخذته من مواضع النحل، وعسل مُشَار(٤).

قال الأعشى:

كَأَنَّ القَرَنْفُلَ والزَّنْجَبِيلَ بَاتَا بِفِيها وأَرْياً مُشَارَا(٥)

---

(١) انظر: المحتسب (١/ ١٧٥)، والمصاحف (ص:٨٥)، وهي قراءة شاذة.

(٢) عجز بيت لخالد بن زهير، وصدره: (وَقَاسَمَها بالله حَقاً لأَنْتُمُ). انظر: ديوان الهذليين (١/ ١٥٨)، وشرح أشعار الهذليين (١/ ٢١٥)، واللسان، مادة: (سلا)، والقرطبي (١/ ٤٠٧، ٧/ ١٧٩)، والطبري (٨/ ١٤١)، وزاد المسير (١/ ٨٤، ٤٨٧)، والدر المصون (١/ ٢٣٠)، وروح المعاني (١/ ٢٦٤).

(٣) معاني الزجاج (١/ ٤٨٥).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (شور).

(٥) البيت للأعشى، انظر: ديوانه (ص:٨٥) واللسان، مادة: (زنجبيل، شور)، وزاد المسير (١/ ٤٨٧، ٨/ ٤٣٨)، والدر المصون (٦/ ٤٤٦)، وروح المعاني (٢٩/ ١٦٠).

ولفظ الديوان:

كأنه جَنِياً من الزنجبيل خالط فاها وأرياً مشورا

والأَرْيُ: العسل.

فإن قيل: ما الحكمة في كون مَن لم يخلق الله في بني آدم أكمل منه، وأكثر علماً، وأصوب رأياً، وأثقب فهماً، يؤمر بمشاورة مَن هو دونه؟

قلت: فيه حكم؛ منها: تطييبُ قلوب أصحابه، وتشريفهم بذلك، وإرشادهم إلى الاستنان به.

قال علي رضي الله عنه: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر مَن استغنى برأيه، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم[1].

وقال بعض الحكماء: ما استُنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا حُصِّنَتِ النعم بمثل المواساة، ولا اكتُسِبَت البغضاء بمثل الكبر[2].

قرأت على أبي المجد القزويني، أخبركم أبو منصور الطوسي، حدثنا أبو محمد الحسين بن مسعود[3]، حدثنا المطهر بن علي، أخبرنا أبو ذر الصالحاني[4]، حدثنا أبو الشيخ بن حيان الحافظ[5]، حدثنا علي بن العباس المقانعي، حدثنا أحمد بن محمد بن

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٨٨).

(٢) مثل السابق.

(٣) الحسين بن مسعود، أبو محمد، البغوي الفراء، الملقب بمحيي السنة، صاحب كتاب "شرح السنة"، و"التفسير"، وكتاب "المصابيح". توفي سنة ست عشرة وخمسمائة (التقييد ١/ ٢٥١، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٩).

(٤) محمد بن إبراهيم بن علي الصالحاني، أبو ذر الأصبهاني الواعظ. توفي سنة أربعين وأربعمائة (العبر ٢/ ٢٧٧، وشذرات الذهب ٣/ ٢٦٤).

(٥) عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، أبو محمد الأصبهاني، المعروف بأبي الشيخ، محدِّث أصبهان. توفي سنة تسع وستين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٧٦، وشذرات الذهب ٣/ ٦٩).

ماهان، أخبرني أبي، حدثنا طلحة بن زيد، عن عقيل، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ»(١).

وقرأت على أبي القاسم، علي بن أبي منصور الموصلي، أخبركم أبو زكريا، يحيى بن أسعد بن بَوْش(٢)، فأقرّ به، أخبرنا أبو العز بن كَادِش(٣)، أخبرنا أبو علي الجازري(٤)، أخبرنا أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري(٥)، حدثنا محمد بن القاسم الأنباري(٦)، حدثنا أبي(٧)، عن أبي جعفر محمد بن عمران، قال: يُقال: توأمُ الرأي خير من الفَذِّ، ورأيُ الثلاثة لا يُنْقَض.

قال محمد: ويقال: نصفُ عقلك مع أخيك. يعني: في المشاورة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٢١٦)، وأحمد (٤/ ٣٢٨) كلاهما من رواية أبي هريرة، وعبد الرزاق (٥/ ٣٣١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٠١).

(٢) يحيى بن أسعد بن بَوْش البغدادي الأزجي، حدَّث بالسند، وكان عامياً. توفي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (التقييد لابن نقطة ٢/ ٣٠٥، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٤٣).

(٣) أحمد بن عبيد الله بن محمد السلمي، أبو العز العكبري، المعروف بابن كادش. توفي سنة ست وعشرين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٥٨، والشذرات ٤/ ٧٨).

(٤) محمد بن الحسين الجازري، لم أجد ترجمته، ولكنه ورد في سياق ترجمة ابن كادش (ت٥٢٦هـ) على أنه من مشايخ ابن كادش المذكور (انظر: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٥٨).

(٥) المعافى بن زكريا بن يحيى، أبو الفرج النهراوني الجريري. توفي سنة تسعين وثلاثمائة. (تاريخ بغداد ١٣/ ٢٣٠، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٤٤).

(٦) تقدمت ترجمته.

(٧) القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، أبو محمد، علاَّمة بالأدب والأخبار. توفي سنة أربع وثلاثمائة (الأعلام للزركلي ٥/ ١٨١).

قال محمد: ويقال: ما هلك امرؤ عن مشورة، ولا سعد امرؤ استغنى برأيه[١].

وقال الشاعر:

خليليَّ ليس الرأيُ في صَدر واحدٍ أشيرا عليَّ اليوم ما تَرَيان[٢]

واعلم أن المراد من الآية: وشاور ذوي الرأي، والعقولِ من أصحابك.

وقد روى عمرو بن دينار عن ابن عباس في قوله: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال: يريد: أبا بكر وعمر رضي الله عنهما[٣].

﴿فإذا عزمتَ﴾ وقرئ شاذاً: «عزمتُ» بضم التاء[٤]، على معنى: عزمتُ لك على أمر، وقضيته وأمضيته، ﴿فتوكل على الله﴾ لا على المشورة.

قوله: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾[٥] قال ابن السائب: إن ينصركم الله كما فعل يوم بدر، فلا غالب لكم، ﴿وإن يخذلكم﴾ كما فعل يوم أُحُد[٦].

﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ أي: من بعد الله.

وقيل: من بعد خذلانه.

والأظهر: الأول، بتقدير حذف المضاف، أي: من بعد خذلان الله.

قوله: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ أخرج أبو داود في سننه، والترمذي في جامعه،

---

(١) أخرجه المعافى بن زكريا في الجليس الصالح والأنيس الناصح (ص: ٣٧٩).

(٢) البيت لعطارد بن قران، انظر: جمهرة الأمثال (١/ ١٢٦)، والمستطرف (١/ ١٦٨).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٠٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٥٩) وعزاه للحاكم وصححه، والبيهقي في سننه.

(٤) انظر: المحتسب (١/ ١٧٦)، والبحر المحيط (٣/ ١٠٥) وهي قراءة شاذة.

(٥) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس الثامن عشر، مرة ثانية.

(٦) انظر: تفسير أبي السعود (٢/ ١٠٥-١٠٦) بلا نسبة.

عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ في قطيفة حمراء فُقِدت يوم بدر، فقال بعض القوم: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فأنزل الله هذه الآية إلى آخرها[١].

وروى الضحاك عن ابن عباس: أن رجلاً غَلَّ من غنائم هوازن يوم حنين، فنزلت هذه الآية[٢].

ونقل عنه أيضاً: أن قوماً من أشراف الناس طلبوا من رسول الله ﷺ أن يخصهم بشيء من المغانم، فنزلت[٣].

وقال قتادة: غلَّ قوم يوم بدر، فنزلت[٤].

وقال ابن السائب ومقاتل[٥]: نزلت في الذين تركوا مركزهم يوم أُحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخاف أن يقول رسول الله ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له، فقال لهم النبي ﷺ: «ألم أعهد إليكم أن لا تبرحوا، أظننتم أنَّا نغل»[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٣١)، والترمذي (٥/ ٢٣٠).

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ١٩٥)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٣١)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩٠).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ١٥٥-١٥٦). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٣١)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٦٢) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ١٥٧). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٣١)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩٠)، والسيوطي في الدر (٢/ ٣٦٣) وعزاه لعبد بن حميد.

(٥) تفسير مقاتل (١/ ٢٠٠).

(٦) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٣١)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩٠).

وقال ابن إسحاق: نزلت في غلول الوحي[١].

وقد اختلف القراء في هذا الحرف، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: «يَغُلَّ» بفتح الياء وضم الغين. وقرأ الباقون بالعكس من ذلك[٢].

وأصلُ الباب: الاختفاء، يقال: غَلَّ من المغنم غُلُولاً، وأَغَلَّ إِغْلالاً؛ إذا أخذه في خفية، وأَغَلَّ الجازر؛ إذا سَرَقَ من اللحم شيئاً مع الجلد. والغِلّ: الحقد الكامن في الصدر. والغِلالة: ثوب يُلبس تحت الثياب، والغَلَل: الماء الذي يجري تحت الشجر[٣].

والمعنى: ما ينبغي لنبي ولا يصح له أن يَغُلّ؛ لأن النبوة تنافي الغُلول.

ومن قرأ: "يُغَلَّ" -بضم الياء وفتح الغين-، فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى، أي: ما كان لنبي أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا كان غالاً.

وقال الحسن -في معنى هذه القراءة-: «أن يُغَلَّ» أي: يُخَانَ[٤]. وهو الذي يقتضيه سبب نزول الآية على ما رواه الضحاك، وقاله قتادة، وهو اختيار ابن قتيبة[٥].

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ١٥٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩٠).

(٢) انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٤٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٧٩)، والكشف (١/ ٣٦٣)، والنشر (٢/ ٢٤٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨١)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٨).

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة (٤/ ٣٧٥- ٣٧٧)، وتهذيب اللغة للأزهري (١٦/ ٩٤)، واللسان، مادة: (غلل).

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ١٥٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٠٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٦٢) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٥) تفسير غريب القرآن (ص:١١٤).

وقال الفرَّاء: يُخَوَّن، واختاره الزجّاج[١].

وردَّه ابن قتيبة، فقال[٢]: لو أراد «يُخَوَّن» لقال: يُغَلَّل، كما [يقال][٣]: يُفَسَّق.

﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ صرفه قوم عن ظاهره، وقالوا: يأتي يوم القيامة بإثم ما غلّ.

والصحيح: أنه يأتي به يوم القيامة يحمله على عنقه، لما أخرج في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ يوماً، فذكر الغلول فعظَّمه، وعظَّم أمره، ثم قال: لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغَاء، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك.

لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغَاء، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك.

لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمْحَمَة، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك.

لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك.

لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رِقَاعٌ تَخْفِق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك.

لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله

---

(١) معاني الفراء (١/ ٢٤٦)، ومعاني الزجاج (١/ ٤٨٤).

(٢) تفسير غريب القرآن (ص:١١٥).

(٣) في الأصل: قال. والتصويب من تفسير غريب القرآن، الموضع السابق.

أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك»[١].

الرُّغاء: صوت البعير، والثُّغاء: صوت الشاة.

والنفس: ما يغلّه من السبي. والرِّقاع: الثياب.

والصَّامت: الذهب والفضة.

ومعنى: "لا ألفينّ": لا أجدنّ، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة:١٧٠]، أي: وجدنا.

أخبرنا أبو علي بن سعادة في كتابه، أخبرنا أبو القاسم بن محمد بن عبد الواحد، أخبرنا الحسن بن علي، أخبرنا أبو بكر بن مالك، أخبرنا عبد الله بن الإمام أحمد، حدثني أبي، حدثنا عفان، حدثنا همام، وأبان، قالا: حدثنا قتادة، عن سالم، عن معدان، عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ فَارَقَ الرُّوحُ الجَسَدَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلاثٍ دَخَلَ الجَنَّةَ: الكِبْرُ، وَالدَّيْنِ، وَالغُلُولِ»[٢]. هكذا رواه الأكثرون، وجوَّده الدارقطني، فقال: إنما هو الكنز، بالنون والزاي.

فصل

ذهب جماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم؛ إلى أن الغالّ من الغنيمة يُحَرَّق متاعه كله، إلا الحيوان، والمصحف، والسلاح.

وبه قال الإمام أحمد[٣]، لما روى أبو داود في سننه من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، حَرَّقُوا مَتَاعَ الغَالِّ

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١١١٨ ح٢٩٠٨)، ومسلم (٣/ ١٤٦١ ح١٨٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ١٣٨ ح١٥٧٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٦ ح٢٢٤٢٣).

(٣) انظر: المغني (٩/ ٢٤٥).

وَضَرَبُوهُ»(١).

وصح أن النبي ﷺ قال: «إِذَا وَجَدْتُمْ الرَّجُلَ قَدْ غَلَّ فَاحْرِقُوا مَتَاعَهُ، وَاضْرِبُوهُ»(٢).

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: ولا يصلي الإمام على الغالّ من الغنيمة، لأن رجلاً من أصحاب رسول ﷺ توفي يوم حنين، فقالَ النبيُّ ﷺ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ. فَتَغَيَّرَتْ وُجُوهُ النَّاسِ لِذلِكَ، فَقَالَ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ غَلَّ، فَفَتَّشْنَا مَتَاعَهُ فَوَجَدْنَا خَرَزاً مِنْ خَرَزِ يَهُودَ لا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ»(٣).

قوله: ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ تعالى الله أن يُنْسب الظلم إليه، لاستحالته عليه، فعقابه عدل، وثوابه فضل.

قوله: ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ فعمل بطاعة الله وطاعة الرسول، ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾ أي: رجع ﴿بسخط من الله﴾.

قوله: ﴿هم درجات عند الله﴾ أي: ذوو درجات، أو أهل درجات، على حذف المضاف.

يعني: أن مَن اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله تتفاوت منازلهم عنده، فأهل الجنة يتفاوتون في الدرجات النفيسة الرفيعة، وأهل النار يتفاوتون في المنازل الخسيسة الوضيعة. هذا معنى قول ابن عباس، والأكثرين(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٦٩ ح٢٧١٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٦٩ ح٢٧١٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٦٨ ح٢٧١٠).

(٤) الوسيط (١/ ٥١٦)، وزاد المسير (١/ ٤٩٣). وانظر: الطبري (٤/ ١٦٢).

وقال سعيد بن جبير: "هم درجات" أي: أهل الجنة الـذين اتبعـوا رضـوان الله[١].

﴿والله بصير بما يعملون﴾، فيجازي كلاً بعمله.

قوله: ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين﴾ أي: أنعم عليهم ﴿إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ أي: من نسبهم، فحازوا به فخراً مؤبداً، وذخراً مخلداً، ومنه قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

قالت عائشة: هذه الآية للعرب خاصة[٢].

وقد روي أن النبي ﷺ كان يقرأ: «مِنْ أَنْفَسِهِمْ» بفتح الفاء، وهي قراءة فاطمة رضي الله عنها، والضحّاك، وأبي الجوزاء[٣]، على معنى: بعث فـيهم رسـولاً مـن أشرفهم نسباً وأكرمهم محتداً، لأنه صفوةُ بني هاشم، وبنو هاشم صفوةُ قـريش، وقريش صفوةُ كنانة، وكنانة صفوةُ ولد إسماعيل.

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى ... نُوراً وَمِنْ فَلَقِ الصُّبْحِ عَمُودَا

وهذا معنى قول ابن عباس، والأكثرين[٤].

واختار الزجّاج[٥] القول بعمومها في جميع المـؤمنين، عـلى معنـى: بعـث في المؤمنين رسولاً من أنفسهم: من نسل آدم، ليس بملك من الملائكة، ولا خلق لا

(١) أخرجه الطبري (٤/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٠٨).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٣٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٠٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٦٧) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) مختصر ابن خالويه في الشواذ (ص:٢٣).

(٤) زاد المسير (١/ ٤٩٤).

(٥) معاني الزجاج (١/ ٤٨٧).

يعرفونه.

ووجهُ الامتنان عليهم بكونه من العرب -على القول الأول-: أنهم يألفونه، ويعرفونه، ويفهمون عنه ما يصدر منه، ويَعلمـون صـدقه وأمانتـه، ويَـدأبون في نصره، ويَرغبون في إظهار أمره، مراعاة لأحسابهم، وحفظاً لأنسابهم.

وعلى القول الثاني -الذي اختاره الزجّاج- يتوجه الامتنان عليهم حيث جعل الرسول منهم آدمياً يلابسهم، ويخالطهم، فإن الشكل يميل إلى شـكله، والجـنس يميل إلى جنسه؛ لأنسه به.

وباقي الآية مفسَّر في البقرة إلى قوله: ﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبـين﴾ هذه «إنْ» هي الخفيفة من الثقيلة، واللام: هي الفارقة بينها وبين النافية، والتقدير: وإن الشأن والحديث، ﴿كانوا من قبل﴾ بعثة محمد إليهم، ﴿لفي ضلال﴾ عن الحق ﴿مبين﴾ ظاهر لمن له أدنى مسكة من دراية وهدايـة، يـأكلون الخبائـث والحـرام، ويعبدون الطواغيت والأصنام، فَمَنَّ عليهم بإنزال الكتاب وإرسالِ محمد إليهم، وتزكيتهم بالعلم والحكمة، بعد أن كانوا أجهل شيء وأضلَّه.

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ

عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

قوله: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة﴾ هذه واو العطف إما على قصة أُحُد، وإما على محذوف، تقديره: أفعلتم كذا؟ وقلتم حينئذ كذا؟ دخلت عليها همزة الاستفهام، وهو بمعنى التوبيخ والتقريع، و«لمَّا» في موضع نصب بـ«قُلْتُمْ»، "أَصَابَتْكُمْ" في موضع جر، على معنى: قلتم وقت إصابتكم[1]، والمصيبة: قتلُهم يوم أُحُد، ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يوم بدرٍ قتلاً وأسراً.

﴿قلتم أنّى هذا﴾ أي: كيف أصابنا هذا، ونحن مسلمون موعودون بالنصر والغلبة؟

﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ لأنكم خالفتم أمر رسولي، وفارقتكم المركز ميلاً إلى الغنيمة، وذهاباً مع الطمع. هذا معنى قول ابن عباس[2] ومقاتل[3].

وقيل: «هو من عند أنفسكم» حيث أكثرتم على رسول الله ﷺ وأشرتم عليه بالخروج من المدينة، وعكستم رأيه وخالفتم أغراضه التي يُجريها على وفق الحكمة والمصلحة. وهذا معنى قول قتادة[4].

وقد روي عن علي رضي الله عنه قال: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر،

---

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ٢٥١).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٥١٧) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩٦). وذكره السيوطي بمعناه في الدر المنثور (٢/ ٣٦٨) وعزاه لابن المنذر.

(٣) تفسير مقاتل (١/ ٢٠١).

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ١٦٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٦٨) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

فقال: إن الله تعالى قد كره ما صنع قومك من أخذهم الفداء، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يضربوا أعناق الأسارى وبين أن يأخذوا الفداء، على أن يُقتل منهم عِدَّتَهُم. فذكر ذلك للناس، فقالوا: عشائرنا وإخواننا، نأخذ منهم الفداء ويُستشهد منا عدتهم. فقُتِل منهم يوم أُحُد سبعون، عدد أسارى بدر»[1].

فعلى هذا يكون المعنى: «قل هو من عند أنفسكم» بأخذكم الفداء، واختياركم حين خُيِّرتم يوم بدر القتل.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على نصركم، وإدالتكم من عدوكم.

قوله: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان﴾ النبي ﷺ وأصحابه، وأبو سفيان وأصحابه.

﴿فبإذن الله﴾ بقضائه وقدره، ﴿وليعلم المؤمنين﴾.

﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ معناه: ليميز بينهم، فيُظهر إيمان المؤمنين، وحُسن نِيَّاتهم، بصبرهم وثباتهم، ويظهر نفاق المنافقين، بفشلهم وقلة صبرهم.

قال ابن عباس: يُريد بالذين نافقوا: عبد الله بن أُبيّ وأصحابه الذين انصرفوا عن رسول الله يوم أُحُد، فلحقهم عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال لهم: أُذكِّرُكُمُ الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم، ودعاهم إلى القتال في سبيل الله، فذلك قوله: ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾[2]، أي: ذُبُّوا عن حُرَمِكُم، وحسبكم، ونسبكم، أو كَثِّروا السواد إن لم يكن لكم نية في الجهاد ﴿قالوا لو نعلم قتالاً

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ١٣٥ ح١٥٦٧)، وابن حبان (١١/ ١١٨ ح٤٧٩٥).

(٢) ذكره الطبري (٤/ ١٦٨)، والماوردي (١/ ٤٣٥) بلا نسبة، والواحدي في الوسيط (١/ ٥١٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩٧).

لاتبعناكم﴾ كلامٌ يلوح منه اللوم على ترك القوم ما اقتضاه رأي عبد الله بن أُبَيّ من الاعتصام بحدود المدينة.

المعنى: لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم، وإنما أنتم على شفا من استئصال شأفتكم، فعلام نجعل أنفسنا فرائس الفوارس، وأغراض الحُتُوف(١)، وجزر السيوف.

وهذا هو التأويل الذي يشهد العلم بصحته، لا ما ذكره الماوردي(٢) من أن المعنى: لو كنا نحسن القتال لاتبعناكم(٣)، ولا ما ذكره ابن إسحاق أن المعنى: لو نعلم قتالاً يجري اليوم لقاتلنا معكم(٤)، وهذا الذي ذكره الواحدي(٥)، وجمهور المفسِّرين. والقول الذي ذكره الماوردي رديء جداً.

والذي قاله ابن إسحاق قولٌ تشهد العقول الرصينة بتفاهته، لأن أهل النفاق رجعوا حين تراءت الفئتان، وقامت الحرب على ساق، فكيف يقولون ذلك بهذا الاعتبار في معرض الاعتذار، والكفار قد أقبلوا بقَضِّهم وقَضِيضِهم(٦)، يطلبون الأخذ بالثأر، من المهاجرين والأنصار.

---

(١) الحَتْف: الموت، وجمعه: حُتُوف (اللسان، مادة: حتف).

(٢) علي بن محمد بن حبيب، الماوردي، أبو الحسن البصري، نسبته إلى بيع ماء الورد، له تصانيف كثيرة في أصول الفقه وفروعه، ولقب بقاضي القضاة في سنة ٤٢٩هـ. توفي سنة خمسين وأربعمائة (تاريخ بغداد ١٢/ ١٠٢، والأعلام للزركلي ٤/ ٣٢٧).

(٣) لم أقف عليه. وقد نسب هذا القول للماوردي ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩٨).

(٤) زاد المسير (١/ ٤٩٨).

(٥) الوسيط (١/ ٥١٨).

(٦) القَضُّ: الحصى، والقَضِيض: ما تكسرّ منه ودَقّ. والمراد: بأجمعهم (اللسان، مادة: قضض).

﴿هم﴾ يعني: المنافقين ﴿للكفر﴾ الذي كانوا يتباعدون عنه بألسنهم ﴿يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾، لأنهم كانوا ينطقون بالإيمان، ويقولون: نحن أنصار الله، وأنصار رسوله، ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ من الشقاق والنفاق.

قوله: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا﴾: «الذين» إما أن يكون نصباً على الذم، أو على البدل من «الذين نافقوا»، أو رفعاً، على معنى: هم الذين، أو على الإبدال من واو «يكتمون»، أو جراً على البدل من الضمير في «أفواههم»، أو من الضمير في «قلوبهم»[1]، كما في قوله:

عَلَى حَالَةٍ لَوْ أَنَّ فِي القَوْمِ حَاتِماً عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالْمَاءِ حَاتِمِ[2]

والمعنى: قالوا لإخوانهم في النفاق، أو في النسب، على معنى: قال بعضهم لبعض ﴿لو أطاعونا﴾، فيما أشرنا به عليهم، يعنون: الذين ثبتوا مع النبي ﷺ حتى استشهدوا ﴿ما قتلوا﴾. وقيل: المعنى: قالوا لأجل إخوانهم المقتولين: "لو أطاعونا ما قتلوا".

"وقعدوا" يعني: ابن أُبَيّ وأصحابه قعدوا عن الجهاد، وعن نصر الرسول والمؤمنين.

﴿قل﴾ لهم -يا محمد مظهراً فساد هذا الاعتقاد-: ﴿فادرءوا عن أنفسكم الموت﴾ أي: ادفعوه، ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن الحذر يدفع القدر.

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٥٧)، والدر المصون (٢/ ٢٥٥).

(٢) البيت للفرزدق، انظر: ديوانه (٢/ ٢٩٧)، وابن يعيش (٣/ ٦٩)، وشرح الشذور (ص:٢٤٥)، ومشاهد الإنصاف (١/ ٣٣٧)، والبحر (٦/ ٢٠٦)، والدر المصون (٤/ ٥٢٩).

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى(١): ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ وقرأ ابن عامر: «قُتِّلوا» بالتشديد(٢).

أخرج مسلم في صحيحه من حديث مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾. قال: أمَا إنَّا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحُهم في جوف طير خُضر، لها قناديل معلَّقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع عليهم ربُّهم اطّلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي، ونحن

(١) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس التاسع عشر، مرة ثانية.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٩)، والكشف (١/ ٣٦٤)، والنشر (٢/ ٢٤٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٩).

نسرح في الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتْركوا من أن يَسْألوا، قالوا: يا رب! نريد أن تَـرُدّ أرواحنـا في أجسادنا، حتـى نُقتـل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُرِكوا»[1].

وأخرج الترمذي من حديث جابر بن عبد الله، قـال: «لَقِيَنِـي رَسُـولُ الله ﷺ فَقَالَ لِي: يَا جَابِرُ؛ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِراً؟ قُلْتُ: يَا رَسُـولَ الله، اسْتُـشْهِدَ أَبِي، وَتَـرَكَ عِيَالاً وَدَيْناً. قَالَ: أَفَلا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ الله بِهِ أَبَاكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: مَا كَلَّمَ الله أَحداً قَطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحاً[2] وَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ، أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَب تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ الرَّبُّ تبارك وتعالى: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ [إِلَيْهَا][3] لا يُرْجَعُونَ. قَالَ: أُنزِلَتْ فيه هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً ... الآيَةَ﴾»[4]. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وروى ابن عباس عن النبي ﷺ، قال: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْـوَانُكُمْ بِأُحُـدٍ جَعَـلَ الله أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنَّةِ، وتَأْكُـلُ مِـنْ ثِمَارِهَـا، وَتَـأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ العَرْشِ، فَلَـمَّا وَجَـدُوا طِيـبَ مَـأْكَلِهِمْ وَمَـشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّنا فِي الجَنَّةِ نُرْزَقُ؛ لِـئَلا يَزْهَـدُوا فِي الجِهَـادِ، فَقَالَ الله عَزَّ وجل: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنكُمْ، فَأَنْزَلَ الله هذه الآيَة»[5].

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٠٢ ح١٨٨٧).

(٢) كفاحاً: أي: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول (اللسان، مادة: كفح).

(٣) زيادة من الترمذي (٥/ ٢٣٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٠ ح٣٠١٠).

(٥) أخرجه أبو داود (٣/ ١٥ ح٢٥٢٠)، وأحمد (١/ ٢٦٥ ح٢٣٨٨).

وقال جابر بن عبد الله: كَتَبَ معاوية إلى عامله بالمدينة أن يُجْرِيَ عَيْناً إلى أُحُد، فكتب عامله: إنها لا تجري إلا على قبور الشهداء، فكتب إليه: أن أنفذها. قال جابر: فرأيتُهم يُخرجون على رقاب الرجال، كأنهم رجالٌ نُوَّم، حتى أصابت المسحاة قدم حمزة فانبعثت دماً[(١)].

وفي حديث عائشة بنت طلحة: أنها رأت أباها في المنام، فقال لها: يا بُنَيَّة! حوِّليني من هذا المكان فقد أضرّ بي الندا، فأخرجته بعد ثلاثين سنة أو نحوها، وهو طري لم يتغير منه شيء[(٢)].

ومما خُصَّ به الشهداء: ما رواه المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للشهيد عند الله ستُّ خصال: يُغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار؛ الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويُزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفَّع في سبعين من أقاربه»[(٣)]. قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

قُرئ على العلامة أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي وأنا أسمع، أخبركم أبو القاسم إسماعيل بن أبي بكر بن أحمد السمرقندي[(٤)]، حدثنا أبو الحسين أحمد بن

---

(١) أخرج عبد الرزاق في مصنفه نحوه (٥/ ٢٧٧)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١١). وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٣٠٧)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٣٧٧).

(٢) ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١/ ١٥١).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ١٨٧ ح١٦٦٣)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٥ ح٢٧٩٩).

(٤) إسماعيل بن أحمد السمرقندي، أبو القاسم الدمشقي البغدادي، صاحب المجالس الكثيرة، مسند خراسان والعراق. كان ثقة مكثراً صاحب أصول، دلالاً في الكتب. توفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨، وشذرات الذهب ٤/ ١١٢).

محمد بن النقور البزّاز[١]، حدثنا محمد بن عبد الله بن الحسين الدقاق ابن أخي ميمي[٢]، حدثنا عبد الله بن محمد[٣]، حدثنا عبد الله بن عون[٤]، حدثنا يوسف بن عطية[٥]، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال: «بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: كيف أصبحتَ يا حارث؟ قال: أصبحتُ مؤمناً بالله عز وجل، قال: انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله؛ عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي، وأظمأتُ نهاري، وكأني بعرش ربي عز وجل بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها، قال: أبصرتَ فالزم، عبدٌ نوَّرَ الله الإيمان في قلبه، فقال: يا رسول الله؛ ادع الله لي بالشهادة، فدعا له رسول الله ﷺ، فنودي يوماً في الخيل، فكان أولَ فارس ركب، وأولَ فارس استشهد، فبلغ ذلك أمه، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله؛ إن يكن في الجنة لم أبكه، ولم أحزن، وإن يكن في النار

---

(١) أحمد بن محمد بن عبد الله بن النقور البزّاز، أبو الحسين البغدادي، مسند العراق. توفي سنة سبعين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٧٢، وشذرات الذهب ٣/ ٣٢٥).

(٢) له أجزاء مشهورة، توفي سنة تسعين وثلاثمائة (العبر ٢/ ١٧٩، وشذرات الذهب ٣/ ١٣٤).

(٣) عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي مولاهم، أبو بكر البغدادي، المشهور بابن أبي الدنيا، حافظ للحديث، مكثر من التصنيف. توفي سنة إحدى وثمانين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٩٧، والأعلام ٤/ ١١٨).

(٤) عبد الله بن عون الهلالي، الخرّاز، أبو محمد البغدادي، ثقة عابد، حدث عنه مسلم في الصحيح. توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين (سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٧٥، والتقريب ص:٣١٧).

(٥) يوسف بن عطية بن ثابت الصفار، أبو سهل البصري، مولاهم، ضعيف الحديث (معرفة الثقات ٢/ ٣٧٥، ولسان الميزان ٧/ ٤٤٧).

بكيتُ ما عشتُ في دار الدنيا، فقال: يا أم حارث -أو يا أم حارثة- إنها ليست بجنة ولكنها جنة في جنان، والحارث في الفردوس الأعلى، قال: فرجعتْ وهي تضحك وتقول: بَخٍ بَخٍ لك يا حارثة!!»[1].

والخِطَابُ بقوله: "ولا تحسبن" للنبي ﷺ، ويجوز أن يكون لكل أحد.

وقرئ "أحياءً" بالنصب[2]، على معنى: أحسبهم أحياء.

﴿عند ربهم﴾ في دار كرامته مقرّبون عنده ﴿يرزقون﴾ من ثمار الجنة، على ما ذكرناه في الحديث[3].

﴿فرحين﴾ حال من الضمير في "يُرزقون"[4]، يريد: مسرورين بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا تُكيِّفُهُ العقول فتصفه، ﴿ويستبشرون﴾ يعني: الشهداء ﴿بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ يعني: المسلمين الذين تخلّفوا في الدنيا.

وقيل: «لم يلحقوا بهم»: لم يدركوهم في الفضل، رجوا حرصهم على الشهادة حين أبلغهم الله ما أفضوا إليه من الكرامة والسعادة.

وقال السدي: يُؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر مَن تقدم عليه من إخوانه وأهله، وفيه: يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيستبشر بقدومه، كما يستبشر أهل الغائب به[5].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعبه (٧/ ٣٦٢ ح١٠٥٩٠)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦ ح٣٣٦٧).

(٢) وهي قراءة ابن أبي عبلة. انظر: البحر المحيط (٣/ ١١٨).

(٣) تقدم (ص: ٣٦٠).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٥٧)، والدر المصون (٢/ ٢٥٧).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ١٧٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨١٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٧٥-٣٧٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿ألاَّ خوف عليهم﴾ في محل الجر بدل من «الذين»[١]، والضمير في «عليهم» للذين لم يلحقوا.

قال الفراء[٢]: معناه: يستبشرون لهم بأنهم لا خوف عليهم ﴿ولا هم يحزنون﴾.

قوله: ﴿وأن الله﴾ قرأ جمهور القراء: «وَأَنَّ» بفتح الهمزة، وقرأ الكسائي بكسرها[٣].

فمن فَتَحَ: عطف على النعمة والفضل. ومَن كَسَرَ: فعلى الاستئناف.

قوله: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ سبب نزول هذه الآية: أنه لما انصرف المشركون يوم أُحُد ندب النبي ﷺ أصحابه لاتباعهم، خوفاً من رجوعهم، وقصداً لإرهابهم وإظهاراً للجلد، وقال: لا يخرج معنا إلا مَن كان حضر يومنا بالأمس، فخرج ﷺ في سبعين من أصحابه منهم الخلفاء الأربعة من بعده، حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال[٤]، وكان بأصحابه القرح، فتحاملوا على أنفسهم رغبة في ثواب الله، وتصديقاً بموعوده، وكان أخوان من بني عبد الأشهل أصابتهما جراحات أثخنتهما، فلما أذَّن مؤذِّنُ رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قالا: لا يفوتنا غزاة مع رسول الله ﷺ،

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ٢٥٩).

(٢) معاني الفراء (١/ ٢٤٧).

(٣) الحجّة للفارسي (٢/ ٤٩)، ولابن زنجلة (ص:١٨١)، والكشف (١/ ٣٦٤)، والنشر (٢/ ٢٤٤)، وإتحاف فضلاء البشر (١٨٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٩).

(٤) حمراء الأسد: تأنيث أحمر مضافة إلى الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة عن يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة (معجم ما استعجم ١/ ٤٦٨).

فخرجا وليست لهما دابة، فكان أحدهما أيسر جرحاً من أخيه، قال: فكنتُ إذا غُلب حملته، فوافى رسولَ الله معبدُ الخزاعي -وكان كافراً- فقال: يا محمد؛ والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك.

ثم خرج من عند رسول الله ﷺ حتى أتى أبا سفيان وهو بالروحاء[1]، قد أجمعوا على الرجعة إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: قتلنا أشراف أصحاب محمد وقادتهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم، لَنكرَّنَّ على بقيتهم، فلنفرغنّ منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبداً، قال: ما وراك يا معبد؟ قال: إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرَّقون عليكم تحرُّقاً، وقد اجتمع معه مَن كان تخلَّف عنه، وبهم من الحَنَق[2] عليكم ما لم أر مثله قط. قال: ويلك! ما تقول؟ فقال: والله ما أراك ترتحل من هاهنا حتى ترى نواصي الخيل، فألقى الله في قلبه وقلوب أصحابه الرعب، وطلبوا مكة خائفين، ورسول الله ﷺ في أثرهم، فمرّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس فقال لهم: أين تريدون؟ قالوا: المدينة، نريد الميرة[3]، قال: فهل أنتم مبلِّغون محمداً عني رسالة أرسلكم بها، وأُحمِّل لكم إبلكم هذه زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا؟ قالوا: نعم. قال: إذا لقيتموه فأخبروه أني في جمع كثير، وخوّفوه.

فمرُّوا برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه الخبر، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) الروحاء: بفتح أوله وبالحاء المهملة ممدود، قرية جامعة لمزينة على ليلتين من المدينة، بينهما أحد وأربعون ميلا (معجم ما استعجم ٢/ ٣٥٥).

(٢) الحنق: شدّة الاغتياظ (اللسان، مادة: حنق).

(٣) الميرة: جلب الطعام (اللسان، مادة: مير).

«حسبنا الله ونعم الوكيل»، ثم إنه ﷺ أظهر الجلد، وجدَّ في الطلب، فسبقه أبو سفيان، فدخل مكة ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد ظفر في وجهه ذلك بمعاوية بن المغيرة بن العاص، وأبي عزة الجمحي، وأنزل الله هذه الآية[1]. هذا قول ابن عباس وأكثر المفسِّرين.

أخبرنا الشيخان أحمد بن عبد الله بن عبد الصمد بن عبد الرزاق العطار قراءةً عليه وأنا أسمع، وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن رُوْزَبة البغداديان بقراءتي عليه، قالا: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا محمد، حدثنا أبو معاوية، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾. قالت لعروة: «يا ابن أختي! كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب نبيّ الله ما أصاب يوم أُحُد، فانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال: مَن يذهب في أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً كان فيهم أبو بكر والزبير». هذا حديث صحيح[2].

وقال مجاهد وعكرمة: نزلت في غزوة بدر الصغرى، وكان من حديثها: «أن أبا سفيان حين أراد الانصراف من أُحُد، قال: يا محمد؛ موعد بيننا وبينك بدر

---

(١) انظر: الاكتفاء للكلاعي (٢/ ٨٥-٨٧)، وسيرة ابن هشام (٤/ ٥٢-٥٥)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٤٩)، والطبري (٤/ ١٧٦)، والدر المنثور (٢/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٩٧ ح٣٨٤٩).

الصغرى نتقابل، قال رسول الله ﷺ: إن شاء الله، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان بأهل مكة، حتى نزل مرّ الظهران، فقذف الله في قلبه الرعب، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي، وقد قدم معتمراً، فقال له أبو سفيان: يا نعيم؛ إني وعدتُ محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر الصغرى، وإن هذا عام جدب، فالحقهم وثبطهم عنا، وأعلمهم أنَّا في جمع كثير ولا طاقة لهم بنا، ولك عندي عشرة من الإبل، أضعها على يدي سهيل بن عمرو، ويضمنها، فجاء سهيل فضمنها له، فقدم المدينة، فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبي سفيان، فقال لهم: بئس الرأي رأيتم، وخوَّفهم، وقال: إنهم قد جمعوا لكم، فكرهوا الخروج، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لأخرجنَّ ولو وحدي، فخرج رسول الله ﷺ في ذوي البصائر والثبات من أصحابه، حتى وافى بدراً الصغرى، فجعلوا يَلقون المشركين ويسألونهم عن قريش، فيقولون: قد جمعوا لكم، يقصدون بذلك إرهاب المسلمين، فيقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، حتى بلغوا بدراً -وهو ماء لبني كنانة، موضع سوق لهم في الجاهلية، يجتمعون إليها في كل عام ثمانية أيام-، فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون ينتظرون أبا سفيان، فرجع أبو سفيان إلى مكة، فسماهم أهل مكة: جيش السويق: أي أنهم خرجوا فشربوا السويق ثم رجعوا، وكان مع المسلمين تجارات، فباعوا فربحوا، وانصرفوا إلى المدينة سالمين. فذلك قوله: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾»(١).

---

(١) ذكره الطبري (٤/ ١٨١)، والثعلبي (٣/ ٢٠٩-٢١٠)، والواحدي في الوسيط (١/ ٥٢٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٨٩).

«الذين» صفة للمؤمنين، أو مبتدأ، خبره «للذين أحسنوا»[١]، أو هو منصوب على المدح، «استجابوا» بمعنى: أجابوا -كما سبق-، ﴿للذين أحسنوا منهم﴾ بطاعة الرسول، ﴿واتقوا﴾ مخالفته، ﴿أجر عظيم﴾ ثواب جزيل لا يعلم كنهه إلا الله.

قوله: ﴿الذين قال لهم الناس﴾ وهم الركب العبقسيون[٢] على قول الأكثرين، أو نعيم[٣] على القول الآخر، وعبر عنه بصيغة الجمع لأنه من الجنس، كما تقول: فلان يركب الخيل، وإن لم يكن له إلا فرس واحد، ولأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس يضامونه في هذا القول.

﴿فزادهم إيماناً﴾ أي: زادهم قول الناس إيماناً وتصديقاً، وثباتاً على دينهم وطاعة نبيهم.

وهذه الآية من جملة الهوادم لمذهب المانعين من القول بزيادة الإيمان ونقصانه، ولأنه لا يخلو إما أن يكون الإيمان يزيد عن التصديق فقط، أو عن التصديق مع انضمام الطاعة إليه، وأيّاً ما كان فهو يقبل الزيادة والنقصان، ولا إشكال في الثاني، أما الأول، فكل عاقل يجد في نفسه زيادة التصديق بتناصر الحُجَج، وتعاضد البراهين، لا سيما القلوب الصافية من الكدر، إذا تُليَت عليها آيات الكتاب العزيز، فإنه يتجدد لها إيمان وإيقان، لو وُزِنَ بالجبال الشوامخ لَرَبَا عليها، وإلى هذا القسم أشار النبي ﷺ بقوله في حديث الشفاعة، قال: «فيقال: انطلق فأخرج من النار من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان... -إلى أن قال:- مثقال ذرة أو خردلة من

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٥٨)، والدر المصون (٢/ ٢٦٠).

(٢) يعني: الركب الذين من عبد قيس، الماضية قصتهم.

(٣) يعني: نعيم بن مسعود.

إيمان... -إلى أن قال:- أدنى أدنى أدنى مثقال [حبة][1] خردلة من إيمان»[2].

وإليه أشار عمر بن الخطاب في قوله: «لو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح به»[3].

لم يُرِدِ الأعمال، لأن العقل يقطع باستحالته، وإنما أراد المعنى القائم بقلبه، من قوة إيمانه وصفاء بصيرته، وتحقيقه في تصديقه، وكان عمر رضي الله عنه يأخذ بيد الرجل، فيقول: قم بنا نزداد إيماناً[4].

﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي: كافينا الله، ﴿ونعم الوكيل﴾.

قال الخطابي[5]: الوكيل: الكفيل بأرزاق العباد ومصالحهم، وحقيقته: الذي يستقل بالأمر الموكول إليه[6].

وفي الحديث: «إذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»[7].

أخبرنا الشيخان أبو القاسم أحمد بن عبد الله، وأبو الحسن علي بن أبي بكر

---

(١) زيادة من صحيح البخاري (٦/ ٢٧٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٢٧ ح٧٠٧٢).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٦٩)، وابن راهويه في مسنده (٣/ ٦٧١-٦٧٢).

(٤) لم أقف عليه عن عمر رضي الله عنه، ولكن أخرج ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٤ ح٣٠٣٦٣) في مصنفه عن معاذ رضي الله عنه أنه قال لرجل: اجلس بنا نؤمن ساعة، يعني: نذكر الله.

(٥) حمد بن محمد بن إبراهيم، الخطابي أبو سليمان البستي، فقيه محدث، من نسل زيد بن الخطاب رضي الله عنه أخي عمر بن الخطاب رضي الله عنه. توفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة (الأعلام ٢/ ٢٧٣).

(٦) شأن الدعاء للخطابي (ص:٧٧).

(٧) أخرجه أبو داود (٣/ ٣١٣ ح٣٦٢٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٦٠ ح١٠٤٦٢)، وأحمد (٦/ ٢٤ ح٢٤٠٢٩).

البغداديان قالا: أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا الداودي، أخبرنا ابن أعين، أخبرنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن ابن عباس قال: «كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل»[1].

قوله: ﴿فانقلبوا﴾ أي: رجعوا، ﴿بنعمة من الله وفضل﴾ سالمين مأجورين قد بلغوا سؤلهم، وأطاعوا رسولهم.

وقال مقاتل[2]: أصابوا سريةً بالصفراء[3] فرزقوا منها.

وقال مجاهد: «الفضل» هاهنا هو الربح في التجارة[4].

وقوله: ﴿لم يمسسهم سوء﴾ في محل الحال، ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ في طلب القوم، ﴿والله ذو فضل عظيم﴾.

قوله[5]: ﴿إنما ذلكم الشيطان يُخوِّف أولياءه﴾: «ذلك» مبتدأ، «الشيطان» خبره، المعنى: ذلك المثبط، المخوِّف هو الشيطان، أو يقال: «الشيطان» صفة لاسم

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٢ ح٤٢٨٨).

(٢) تفسير مقاتل (١/ ٢٠٥).

(٣) الصفراء: واد كثير النخل والزرع، بينه وبين بدر مرحلة، ورضوى منها من ناحية المغرب على يوم، ويسكن الصفراء جهينة والأنصار (معجم ما استعجم ٣/ ٨٣٦، ومعجم البلدان ٣/ ٤١٢).

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ١٨٢-١٨٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨١٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٩١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً تاسعاً، وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس العشرين، مرة ثانية.

الإشارة، و«يُخوِّف» الخبر[١]، والشيطان: الركب، أو نعيم على القول الآخر، أو هو على حذف المضاف، تقديره: إنما ذلكم فعل الشيطان، أو تخويف الشيطان، أو قول الشيطان، ﴿يُخوِّف أولياءه﴾ أي: يخوِّفكم أولياءه، وهكذا قرأها ابن مسعود، وابن عباس، وعطاء[٢]، فاقتصر على ذكر المفعول الثاني، كما تقول: أعطيتُ الأموال، وكسوتُ الثياب.

وقال الحسن: المعنى: يخوِّف أولياءه المنافقين، ليقعدوا عن قتال المشركين[٣].

﴿فلا تخافوهم﴾ أي: لا تخافوا أولياء الشيطان، أبا سفيان وأصحابه، ﴿وخَافُون﴾ في ترك أمري.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي: مصدِّقين بما جاءكم به رسولي، وقد سبق القول في نظائر هذا الشرط.

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا
يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ
بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ
ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن

---

(١) انظر: التبيان (١/ ٣١١)، والدر المصون (٢/ ٢٦٢).

(٢) انظر: المحتسب لابن جني (١/ ١٧٧)، والبحر المحيط (٣/ ١٢٥).

(٣) ذكره الماوردي (١/ ٤٣٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٠٧).

رُسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

قوله عز وجل: ﴿ولا يحزنك﴾ وقرأ نافع «يُحْزِنك»، بضم الياء، وكسر الزاي، حيث جاء إلا قوله في الأنبياء: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، فإنه قرأها كالباقين[١]، إما اتباعاً لأثر، أو إيثاراً للجمع بين اللغتين[٢].

﴿الذين يسارعون في الكفر﴾ أي: يقعون فيه سريعاً، رغبة فيه، وميلاً إليه.

قال ابن عباس: هم المنافقون، ورؤساء اليهود[٣].

وقال الضحّاك: كفار قريش[٤].

وقيل: قوم ارتدُّوا عن الإسلام[٥].

والمعنى: لا يحزنك تعاضدهم وتناصرهم، ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ بمسارعتهم في الكفر.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٥٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٨١)، والكشف (١/ ٣٦٥)، والنشر (٢/ ٢٤٤)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٩).

(٢) ذكره الفارسي في الحجة (٢/ ٥٠).

(٣) أخرج مجاهد في تفسيره (ص:١٣٩) قال: هم المنافقون. وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٥٢٤) بلا نسبة.

(٤) ذكره الثعلبي (٣/ ٢١٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٠٨).

(٥) ذكره الماوردي (١/ ٤٣٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٠٨).

المعنى: بل يضرون أنفسهم، ألا تراه يقول: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾.

وقال عطاء: لن يضروا أولياء الله شيئاً[١]، فهو على حذف المضاف.

﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة﴾ أي: نصيباً في الآخرة.

قوله: ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾ قال مجاهد: هم المنافقون[٢]، آمنوا، ثم كفروا.

قوله: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ قرأ الجمهور: «يَحْسَبَنَّ» بالياء وكذا التي بعدها: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾. وقرأهما حمزة بالتاء[٣].

فمَن قرأهما بالياء؛ أسند الفعل إلى «الذين كفروا»، أو إلى «الذين يبخلون» فهم الفاعلون. ومَن قرأهما بالتاء؛ فعلى الخطاب للنبي ﷺ، فهو الفاعل.

"الذين كفروا" منصوب، و"أنما نملي لهم خير لأنفسهم" بدل منه، أي: لا تحسبنَّ أنما نملي للكفار خير لهم، وقوله: «أَنَّ» مع "ما" في حيزه يسد مسد المفعولين، كقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ [الفرقان:٤٤]، و«ما» مصدرية بمعنى: ولا تحسبن أن إملاءَنا خير لهم[٤].

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٠٨).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٩٢) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٥٠-٥١)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٨٢)، والكشف (١/ ٣٦٥)، والنشر (٢/ ٢٤٤)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢١٩).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٥٨-١٥٩)، والدر المصون (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

قال ابن عباس: "الذين كفروا" هم اليهود، والنصارى، والمنافقون[١].

وقال غيره بعمومه في جميع الكفار[٢].

ومعنى «نملي لهم»: نُطيل لهم في العمر، ومثله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ [مريم:٤٦].

قال ابن الأنباري[٣]: واشتقاقه من المَلْوَة، وهي المدة من الزمان، يقال: مِلْـوة من الدهر، ومَلْوة، ومُلْوة، ومِلاَوة، ومَلاَوة، ومُلاَوة، ومنه قولهم: تَمَلَّ حبيباً، أي: لِتَطُلْ أيامك معه.

قال متمم بن نويرة:

بودِّي لَوْ أَنِّي تَمَلَّيْتُ عُمْرَهُ بِمَا لِيَ مِنْ مَالٍ طَرِيفٍ وَتَالِدِ[٤]

وقال غيره: الإملاء لهم تخليتهم وشأنهم، مستعار من أَمْلَى لِفَرَسِهِ؛ إذا أرخى له الطّول؛ ليرعى كيف شاء[٥].

والمعنى: لا تحسبنَّ الذين كفروا أن الإملاء لهم خير لهم من منعهم، وقطع آجالهم، ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ لأنهم كلما طالت أعمارهم كثرت معاصيهم، فازدادوا إثماً.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٥٢٤) وفيه: يعني: المنافقين وقريظة والنضير، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٠٨).

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٠٩) عن أبي سليمان الدمشقي.

(٣) انظر: زاد المسير (١/ ٥٠٩).

(٤) البيت لمتمم بن نويرة اليربوعي. انظر البيت في: زاد المسير (١/ ٥٠٩)، ولسان العرب، مادة: (ملا).

(٥) انظر: اللسان، مادة: (ملا).

وقد روى أبو بكرة -واسمه نفيع[(١)]- رضي الله عنه: «أن رجلاً قال لرسول الله: أي الناس خير؟ قال: مَن طال عمره وحَسُن عمله، قال: فأي الناس شر؟ قال: مَن طال عمره وساء عمله». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[(٢)].

قوله: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ قال ابن عباس: الخطاب للكفار والمنافقين[(٣)].

وقال أكثر المفسِّرين وأهل المعاني: الخطاب للمؤمنين، على معنى: ما كان الله ليَذَر المخلصين على ما أنتم عليه أيها المؤمنون من التباس المنافق بالمخلص، ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ أي: حتى يتبين الكافر والمنافق من المؤمن.

وقرأ حمزة والكسائي: «يُميِّز» بضم الياء وفتح الميم، وتشديد الياء، وكسرها[(٤)]. فميَّز الله بينهم بالهجرة، والجهاد، والإعلام بجهة الوحي.

﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ فلا تتوهموا عند إخبار الرسول إياكم بإيمان هذا، ونفاق هذا؛ أنه يَطَّلِعُ على ما في القلوب، ويعلم الغيوب، كما يعلمه الله تعالى، بل علم الرسول ذلك بجهة الوحي، وإخبار الله له، ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ أي: يَصْطَفِي مَن يشاء من رسله، فيطلعه على ما يشاء من الغيب،

---

(١) هو نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي، صحابي جليل، من أهل الطائف، توفي سنة اثنان وخمسون من الهجرة (التقريب ص:٥٦٥، والأعلام ٨/ ٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٦٦ ح٢٣٣٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥١٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٩٣) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٥٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٨٢)، والكشف (١/ ٣٦٩)، والنشر (٢/ ٢٤٤).

كما قال -في موضع آخر-: ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وعلى قول ابن عباس يكون المعنى: وما كان الله ليطلعكم أيها الكفار على الغيب، لأنهم قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا من يؤمن بك، ومن لا يؤمن؟

قوله عز وجل: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والأكثرون: نزلت في مانعي الزكاة(١).

وروي عن ابن عباس ومجاهد: أنها نزلت في الأحبار الذين كتموا صفة النبي ﷺ(٢). اختاره الزجّاج(٣).

والذي آتاهم الله -على القول الأول-: المال، وعلى القول الثاني: العلم.

والصحيح هو القول الأول؛ لما أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن آتاه مالاً فلم يُؤَدِّ زكاته مُثِّلَ له مالُه شُجاعاً أَقْرَعَ له زَبِيبَتَانِ(٤)، يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلَهْزِمَتَيْهِ -يعني: شِدْقَيْهِ- يقول: أنا مَالُكَ، أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ١٩٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٦) كلاهما عن السدي. وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٥٢٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٩٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ١٩٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٩٤) وعزاه لابن جرير وابن ابي حاتم.

(٣) معاني الزجاج (١/ ٤٩٢).

(٤) الشجاع: الحية، والأقرع: الذي تمرّط جلد رأسه، والزبيبتان: النُّكْتَتَانِ السَّوْداوان فوق عينيه (اللسان، مادة: زبب).

فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾»[١].

وفي حديث: أنه يستعيذ منه فيقول له مالُه: لِمَ تستعذ مني؟ أنا مالك الذي كنت تبخل به في الدنيا، فيطوقه في عنقه، فلا يزال في عنقه حتى يدخله الله جهنم[٢].

قوله: ﴿هو خيراً لهم﴾ يعني: البخل المدلول عليه بقوله: "يبخلون"، ومثله قول العرب: مَن كذب كان شراً له. أي: كان الكذب شراً له، فدلَّ قولهم: كذب، على الكذب. ومثله قول الشاعر:

إِذَا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَى إِلَيْهِ ... وَخَالَفَ، والسَّفِيهُ إِلى خِلافِ[٣]

أراد: جرى إلى السفه، ودلّ قوله: السفيه، على السفه، وهذا باب واسع.

قوله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ تفسيره ما جاء في الحديث، وهو قول ابن مسعود ومقاتل[٤].

وقال إبراهيم النخعي: يصير في عنقه يوم القيامة طوقاً من نار[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٣ ح٤٢٨٩).

(٢) أخرجه الثعلبي (٣/ ٢٢٠)، بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

(٣) البيت لم أعرف قائله. انظر: المحتسب (١/ ١٧٠)، والبحر المحيط (٣/ ١٣٣)، والدر المصون (٢/ ٢٧٢، ٤/ ١٤٨)، والطبري (٤/ ١٨٩)، والقرطبي (٤/ ٢٩٠)، وزاد المسير (١/ ٥١٢)، وروح المعاني (١٢/ ١٦٤).

(٤) تفسير مقاتل (١/ ٢٠٦).

(٥) أخرجه سعيد بن منصور (٣/ ١١٣٤)، والطبري (٤/ ١٩٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٩٥) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

قوله: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ قال ابن عباس: يموت أهل السموات والأرض، ويبقى ربُّ العالَمين[١].

وقال ابن الأنباري[٢]: معنى الميراث: انفراد الرجل بما كان لا ينفرد به، فلما مات الخلق وانفرد عز وجل صار ذلك وراثة.

وقال غيره: المعنى: له ما في السموات والأرض مما يتوارثه أهلها من مال وغيره، فمالهُمْ يبخلون عليه بملكه[٣].

﴿والله بما تعملون خبير﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: بالياء، رداً على قوله: ﴿سيطوقون﴾، ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾، ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾. وقرأ الباقون «تعملون» بالتاء[٤]، رداً على قوله: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾.

لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥١٣).

(٢) انظر: زاد المسير (١/ ٥١٣-٥١٤).

(٣) انظر: الطبري (٤/ ١٩٣).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٥٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٨٤)، والكشف (١/ ٣٦٩)، والنشر (٢/ ٢٤٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٠).

صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

قوله عز وجل: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ قال ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسِّرين: السبب في نزول هذه الآية: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل بيت مدراس اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له: «فنحاص»، فقال له أبو بكر: اتق الله، وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، فقال: يا أبا بكر؛ والله ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عنا ما استقرضنا، فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة، وقال: والله لولا العهد الذي بيننا لضربتُ عنقك، فذهب فنحاص يشكو إلى النبي ﷺ، وأخبره أبو بكر بما قال، فجحد فنحاص، فنزلت هذه الآية.

ونزل فيما بلغ من أبي بكر من الغضب: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ... الآية﴾[1].

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٩) كلاهما عن ابن عباس، ومجاهد (ص:١٤٠) مختصراً. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٣٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٩٦) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

ومقصودُ الخبيث في هذا الكلام: الاستهزاء والتهكم، حيث سمع قـول الله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسناً﴾ [البقرة:٢٤٥].

﴿سنكتب ما قالوا﴾ أي: سنأمر الحفظة بكتابته في صحائف أعمالهم وأقوالهم، ﴿وقتلَهم﴾ أي: نكتب قتلهم ﴿الأنبياء﴾.

وفي قوله: ﴿سنكتب﴾ وعيد شديد، وتهديد عظيم، ولا سيما وقد قرنه بقتلهم الأنبياء تنبيهاً على عظيم افترائهم، وشدة اجترائهم ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ يعني ذوقوا عذاب النار، كما أذقتم أنبيائي وأوليائي الغصص.

تقول العرب لمن انتقم منه: ذق أخس[1]، ومنه قول أبي سفيان لحمـزة رضي الله عنه -وقد وقف عليه صريعاً-: ذق عُقَقْ[2].

وقرأ حمزة: «سَيُكْتَبُ»، على ما لم يُسَمَّ فاعلـه، «وقـتلُهم» بـالرفع، «ويقـول» بالياء[3].

قوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من ذكر عقابهم، ﴿بما قدَّمت أيديكم﴾ مـن الكفر، والعناد، والاجتراء على قتل الأنبياء والأوليـاء، ﴿وأن الله﴾ أي: وبـأن الله ﴿ليس بظلام للعبيد﴾.

فإن قيل: ما وجه ارتباط هذا المعطوف، وهو قولـه: ﴿وأن الله لـيس بظـلام للعبيد﴾ بالمعطوف عليه، وهو ما قدَّمت أيديهم من المعاصي، ووجه التشريك بينهما

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) انظر: السيرة لابن هشام (٤/ ٤٢).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٥٨)، ولابن زنجلة (ص:١٨٤)، والكشف (١/ ٣٦٩)، والنشر (٢/ ٢٤٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٠-٢٢١).

في استحقاق العذاب؟

قلت: نفي الظلم عن الله إثبات لوصفه بالعدل.

فالمعنى: ذلك العذاب سببه أمران:

أحدهما: ما قدمت أيديكم من المعاصي التي بعضها قتل الأنبياء.

والثاني: عدل الله في خلقه، والعادل لا بد وأن يأخذ للمظلوم من الظالم، فصار معنى الكلام: ذلك العذاب بما قدمت أيديكم من قتل الأنبياء وغيره وبأن الله عادل يقتصّ منكم.

قوله تعالى: ﴿إن الله عهد إلينا ... الآية﴾ نزلت في كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحُيي بن أخطب، في جماعة من اليهود، أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إن الله عهد إلينا، يعنون في التوراة: ﴿ألا نؤمن لرسول﴾ أي: لا نصدقه، ﴿حتى يأتينا بقربان﴾ يتقرب به إلى الله، من ذبح أو غيره، ﴿تأكله النار﴾، وكان هذا من سنن المرسلين خلا عيسى بن مريم عليه السلام[١].

قال السدي: أمرهم الله في التوراة أن لا يصدِّقوا أحداً يزعم أنه رسول الله حتى يأتي بقربان تأكله النار، إلا المسيح، ومحمداً، وكان نزول النار لأكل القربان علامة لقبوله[٢].

---

(١) أخرج نحوه الطبري (٤/ ١٩٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٣١) كلاهما عن ابن عباس. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٣٨) عن الكلبي، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وذكر نحوه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٩٨) وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٥٢٨-٥٢٩).

﴿قل﴾ لهم يا محمد على وجه التبكيت لهم: ﴿قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم﴾ من القربان التي تنزل النار لأكله ﴿فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾.

قوله: ﴿فإن كذبوك فقد كُذِّبَ رسل من قبلك﴾ هذه تعزية للنبي ﷺ، وإعلام له أن ما قوبل به من التكذيب ليس ببدع، بل هي سُنَّةُ المردة الكفرة مع رسل الله إليهم، فسبيله أن يسلك مسلكهم في الصبر على الأذى والتكذيب، حتى يحكم الله فيه وفيهم، كما صبر أولوا العزم من قبله ﴿جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾ الزُّبُر: جمع زَبُور، وهي الصُّحُف المَزْبُورة، أي: المكتوبة[1].

قال امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي ... كَخَطِّ زَبُورٍ في عَسِيبٍ يَمَانِي[2]

وقيل: هو من زَبَرَهُ؛ إذا زَجَرَهُ[3]، وسمي الزَّبُور؛ لكثرة زواجره.

وقرأ ابن عامر «وبالزُّبُرِ»[4] بزيادة باء، وقرأ هشام[5] «وبالكتاب»[6] بزيادة باء،

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (زبر).

(٢) البيت لامرئ القيس. انظر: ديوانه (ص:٨٥)، واللسان، مادة: (صرع)، والبحر المحيط (٣/ ١٣٥)، والدر المصون (٢/ ٢٧٦)، والطبري (٤/ ١٩٨)، والقرطبي (٤/ ٢٩٦).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (زبر).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٥٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٨٥)، والكشف (١/ ٣٧٠)، والنشر (٢/ ٢٤٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢١).

(٥) هشام بن عمار بن نصير السلمي، أبو الوليد الدمشقي، قاض من القراء المشهورين. توفي سنة خمس وأربعين ومائتين (طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٣٥٤، والأعلام ٨/ ٨٧).

(٦) النشر (٢/ ٢٤٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٣).

نظراً إلى الأصل، وللتأكيد، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام.

وقراءة الأكثرين أكثر استعمالاً في كلام العرب؛ طلباً للخفة، لأن حرف العطف أغنى عن إعادة حرف الجر، كما تقول: مررتُ بزيد وعمرو، ولو لزم تكرير العامل لوجب أن تقول: جاءني زيد وجاءني عمرو.

والكتاب المنير: المضيء بحُجَجه وبراهينه. وهو اسم جنس هاهنا.

قوله: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، قالوا: يا رسول الله؛ إنما نزل في بني آدم، فأين ذكر الموت في الجن والطير والأنعام، فأنزل: ﴿كل نفس ذائقة الموت ... الآية﴾[١]، أي: كل نفس حية ذائقة الموت.

﴿وإنما توفون أجوركم﴾ أي: جزاء أعمالكم ﴿يوم القيامة﴾.

فإن قيل: هذا يدل على أن الجزاء بالثواب والعقاب لا يكون إلا يوم القيامة، فكيف نصنع بالأحاديث المروية الصحيحة الصريحة في عذاب القبر ونعيمه؟

قلتُ: المراد بالآية أن تكميل الجزاء يكون يوم القيامة، ألا تراه يقول: ﴿توفون أجوركم﴾، وما يكون في القبر من خير وشر فبعض الجزاء، لا كله.

﴿فمن زُحْزِحَ﴾ أي: نُجِّيَ وأُبْعِدَ ﴿عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ يقال لكل مَن نجا من هلكة وظفر بما يغتبط به: فاز، أي: تباعد من المكروه[٢].

وقد صح عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة أنه قال: «لموضع سوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، اقرأوا إن شئتم: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥١٧).

(٢) قاله الزجاج في معانيه (١/ ٤٩٥).

الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾»[١].

والمعنى: وما الحياة الدنيا لمن لهى عن طلب الآخرة إلا متاع يغتر به، ثم ينقطع، وأما من طلب الآخرة فحياة الدنيا له بلاغ يتوصل به إلى الآخرة.

قال قتادة: يوشك أن تضمحل بأهلها، فخذوا من هذا المتاع بطاعة الله ما استطعتم[٢].

وقال الحسن: كخضرة النبات، ولعب البنات، لا حاصل له[٣].

قوله: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ... الآية﴾[٤] نزلت في الذي جرى بين أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وبين فنحاص[٥].

وقال كعب بن مالك: نزلت حين استبَّ المسلمون، والمشركون واليهود، بسبب المنافق عبد الله بن أُبَيّ، وكان من قصته؛ ما أخبرنا به الشيخان أبو القاسم العطار السلمي، وأبو الحسن بن روزبة، قالا: أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد، أخبرنا عبد الله بن أحمد الحموي، أخبرنا محمد بن يوسف بن مطر، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: أخبرني عروة بن الزبير، أن أسامة بن زيد أخبره، «أن رسول الله ﷺ ركب على

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٢ ح٣٠١٣)، وأحمد (٢/ ٤٣٨ ح٩٦٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٨٣٣). وذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ٢٢٥)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٠٠) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ٢٢٥).

(٤) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس الحادي والعشرين، مرة ثانية.

(٥) تقدم (ص:٣٧٩).

حمار على قطيفة فَدَكية[١]، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة، في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، حتى مَرَّ بمجلس فيه عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبَيّ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عَجَاجَةُ الدابة[٢] خَمَّرَ عبد الله بن أُبَيّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبروا علينا، فسلَّم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقف، فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أُبَيّ بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا، فإنَّا نحب ذلك، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: ألم تسمع ما قال أبو حباب -يريد: عبد الله بن أُبَيّ-؟ قال: كذا وكذا، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله؛ اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة[٣] على أن يتوِّجوه فيُعصِّبُونه بالعِصابَة[٤]، فلما أبى الله

---

(١) منسوبة إلى فَدَك، وهي بلد مشهور على مرحلتين من المدينة (انظر: معجم البلدان ٤/ ٢٣٨).

(٢) عَجاجة الدابة: الغبار التي تَوَّرَثْهُ الريح (اللسان، مادة: عجج).

(٣) البحيرة: مدينة الرسول ﷺ، وهو تصغير البحرة، والعرب تسمي المدن والقرى البحار. (النهاية في غريب الحديث ١/ ١٠٠).

(٤) أي: يُسوّدوه ويُملّكوه، وكانوا يُسمون بالسيد المطاع مُعَصَّباً لأنه يُعَصَّب بالتاج (النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٤٤).

ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِقَ بذلك(١)، فذلك فَعَلَ به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ.

وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى. قال الله: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ... الآية﴾. وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ... إلى آخر الآية﴾ [البقرة:١٠٩]. فكان النبي ﷺ يتأوّل في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أُبَيّ بن سلول، ومن معه من المشركين، وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجَّه، فبايعوا رسول الله على الإسلام، فأسلموا»(٢).

وقال الزهري: نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف، وكان يُحرِّض المشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه في شعره(٣).

قال الزجّاج(٤): ومعنى "لَتُبْلَوُنَّ": لَتُخْتَبَرُنَّ، أي: توقع عليكم المِحَن فيعلم المؤمن حقاً من غيره، والنون دخلت مؤكدة مع لام القسم.

﴿في أموالكم﴾ بالخسران والنقصان، ﴿وأنفسكم﴾ بالأمراض، وموت

---

(١) شرق بذلك: أي: لم يقدر على إساغته والصبر عليه لتعاظمه إياه (الفائق في غريب الحديث ١/ ٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٣ ح٤٢٩٠).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٢٠١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٣٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٠١) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) معاني الزجاج (١/ ٤٩٦).

الأولاد، والأقارب، ليتبين المخلص في إيمانه من المنافق.

قال عطاء: هم المهاجرون، أخذ المشركون أموالهم وباعوا رِبَاعهم[١].

﴿ولتسمعن من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وهم اليهود، ﴿ومن الذين أشركوا﴾ عبدة الأصنام ﴿أذى كثيراً وإن تصبروا﴾ على أذاهم ﴿وتتقوا﴾ الشرك والمعاصي ﴿فإن ذلك﴾ يعني: الصبر والتقوى، ﴿من عزم الأُمور﴾ أي: مما يعزم عليه لظهور رشده. أو يكون المعنى: فإن ذلك مما عزم الله أن يكون، بمعنى: أن ذلك عزمة من عزمات الله، لا بد لكم أن تصبروا وتتقوا[٢].

فصل

اختلف العلماء في الأمر بالصبر؛ فذهب أكثرهم إلى أنه محكم، وذهب بعضهم إلى أنه منسوخ بآية السيف[٣].

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ٢٢٧)، والواحدي في الوسيط (١/ ٥٣٠) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢٠).

والرَّبْع: المنزل والدار بعينها، والوطن متى كان وبأي مكان كان، وجمعه: أربُع ورِباع ورُبوع وأَرْباع (اللسان، مادة: ربع).

(٢) انظر: الطبري (٤/ ٢٠١).

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة (ص:٦٣-٦٤)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٤٦).

﴿تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨٨﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ قال الحسن: هذا ميثاق الله على علماء أهل الكتاب أن يبينوا للناس ما في كتابهم، وفيه ذكر رسول الله ﷺ[1].

﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر بالياء فيهما. وقرأ الباقون بالتاء فيهما[2]، فمَن قرأ بالياء حمله على لفظ الغيبة في أول الآية وآخرها، ومَن قرأها بالتاء فعلى الرجوع من المغايبة إلى المخاطبة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم﴾ [آل عمران:٨١] أو على الحكاية، والضمير فيها يعود إلى الكتاب، وقيل: إلى محمد ﷺ.

والأول أظهر، وأصح.

وباقي الآية سبق تفسيره في البقرة.

والضمير في «فَنَبَذُوهُ» يعود إلى "الميثاق"، أو "الكتاب"، وفي هذه الآية دليل ظاهر على وجوب تبليغ العلم.

قال علي رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلِّموا[3].

قوله عز وجل: ﴿لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾ وقرأ أهل الكوفة «لا

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٥٣١).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٥٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٨٥)، والكشف (١/ ٣٧١)، والنشر (٢/ ٢٤٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢١).

(٣) أخرجه الثعلبي (٣/ ٢٢٨). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢١).

تحسبن» بالتاء[١]، على الخطاب للنبي ﷺ، وإعرابه على نحو ما تقدَّم في نظائره[٢].

وقد اختلف العلماء في سبب نزولها على أقوال:

أحدها: ما أخبرنا به الشيخان أبو القاسم، وأبو الحسن البغداديان، قالا: أخبرنا عبد الأول، أخبرنا عبد الرحمن، أخبرنا عبد الله، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا محمد بن جعفر، حدثني زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري: «أَنَّ رِجَالاً مِنَ المُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ [كَانُوا][٣] إذا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ الله، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا... الآية﴾»[٤].

القول الثاني: وبالإسناد قال محمد بن إسماعيل البخاري: حدثني إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام، أن ابن جريج أخبرهم، قال: أخبرني ابن أبي مليكة، أن علقمة بن وقاص أخبره، «أن مروان[٥] قال لبوابه: اذهب يا رافع[٦] إلى ابن عباس

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٥٤)، ولابن زنجلة (ص:١٨٦)، والكشف (١/ ٣٦٧)، والنشر (٢/ ٢٤٦).

(٢) تقدم (ص:٣٧٣).

(٣) في الأصل: كان. والتصويب من البخاري (٤/ ١٦٦٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٤ ح٤٢٩١).

(٥) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو عبد الملك الأموي، المدني، خليفة أموي. توفي سنة خمس وستين (الأعلام ٧/ ٢٠٧).

(٦)رافع، مولى مروان بن الحكم (التقريب ص:٢٠٥).

فقل: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا فَرِحَ بِمَا [أُوتِيَ][(١)] وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّباً، لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ، إِنَّمَا دَعَا النَّبِي ﷺ يَهُودَ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَأَرَوْهُ أَنْ قَدْ اسْتَحْمِدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ، وَفَرِحُوا بِمَا أتوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ كَذَلِكَ حَتَّى قَوْلِهِ: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾»[(٢)]. تابعه عبد الرزاق عن ابن جريج. وهذان الحديثان في الصحيحين.

القول الثالث: أن يهود المدينة كتبت إلى يهود العراق واليمن، ومَن بلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها: أن محمداً ليس بنبي، فاثبتوا على دينكم، فاجتمعت كلمتهم على الكفر، ففرحوا بذلك، وقالوا. نحن أهل الصوم والصلاة، وأولياء الله، فنزلت هذه الآية. قاله الضحاك والسدي[(٣)].

الرابع: أن يهود خيبر أتوا النبي ﷺ وأصحابه فقالوا: نحن على رأيكم، ونحن لكم ردء، وهم متمسكون بضلالتهم، وأرادوا أن يحمدهم نبي الله بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية. قاله قتادة[(٤)].

الخامس: أن قوماً من أهل الكتاب دخلوا على النبي ﷺ ثم خرجوا من عنده، فذكروا للمسلمين أنهم قد أخبروا بأشياء قد عرفوها فحمدوهم، وأبطنوا خلاف

---

(١) في الأصل: أتى. والتصويب من البخاري (٤/ ١٦٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٥ ح٤٢٩٢).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٢٠٦) عن الضحاك. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٤٢) عن الضحاك، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٠٥) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك.

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ٢٠٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٠٥) وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق.

ما أظهروا، فنزلت هذه الآية[١]. ذكره الزجاج[٢].

والذي أتوا -على القول الأول-: تخلفهم عن الغزاة.

وعلى القول الثاني: كتمانهم الحق الذي سُئلوا عنه.

وعلى القول الثالث: اجتماعهم على تكذيب النبي ﷺ.

وعلى الرابع والخامس: نفاقهم بإظهار ما ليس في قلوبهم.

وهي -على القول الأول- في المنافقين، وعلى سائر الأقوال: في اليهود[٣].

قوله: ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ قال أبو سعيد الخدري: كانوا يحلفون للمسلمين إذا نُصِروا أنّا قد سررنا بنصركم، وليس كذلك[٤]، وهذا على قوله: إنها نزلَت في المنافقين، وتنزيل المعنى على سائر الأقوال بحسبها، وهو ظاهر، فلا حاجة إلى تبيينه.

قوله: ﴿فلا تَحْسَبَنَّهُمْ بمفازة من العذاب﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو «يَحْسَبُنَّهُمْ» بالياء وضم الباء. وقرأ الباقون بالتاء المعجمة من فوق بنقطتين، وفتح الباء[٥]، على الخطاب للنبي ﷺ.

وأما ابن كثير وأبو عمرو فانهما أضافا الفعل إلى «الذين يفرحون» لتقدم ذكرهم.

---

(١) ذكره مقاتل في تفسيره (١/ ٢٠٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢٣).

(٢) معاني الزجاج (١/ ٤٩٧).

(٣) انظر: الطبري (٤/ ٢٠٨).

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢٥).

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٥١)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٨٧)، والكشف (١/ ٣٧١)، والنشر (٢/ ٢٤٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٠).

وقوله «بمفازة» هو المفعول الثاني على القراءتين، و«تحسبنهم» بدل من «لا تحسبن» إذا قرئ بالتاء على المخاطبة، و«يحسبنهم» -على قراءة أبي عمرو- بدل من «لا يحسبن» إذا قرئ بالياء، على المغايبة[١].

والمعنى: لا تحسبنهم بمفازة، أي: بمنجاة من العذاب، وسميت البيداء مفازة، على مذهب التفاؤل.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ
يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ
إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا
سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

قوله: ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ قال ابن عباس وغيره: كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ الآيات، حتى قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، فأنزل الله هذه الآية[٢]، يرشدهم إلى ما هو أعجب مما سألوا.

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٦١-١٦٢)، والدر المصون (٢/ ٢٧٩) وما بعدها.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٨٤١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور =

وفي الحديث: «أن ابن عمر قال لعائشة رضي الله عنهم أجمعين: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله، فبكت، فأطالت، ثم قالت: كلُّ أمر رسول الله عجب؛ أتاني في ليلتي، فدخل معي في لحافي، حتى لصق جلده بجلدي، ثم قال: يا عائشة؛ هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت. يا رسول الله؛ والله إني لأحب قربك، وأهوى هواك، قد أذنتُ لك، فقام إلى قِرْبة من ماء في البيت فتوضأ، ولم يكثر صب الماء، ثم قام فصلَّى، فقرأ من القرآن وجعل يبكي، حتى بلغ الدموع حِقْوَيْه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه، وجعل يبكي حتى بلغ الدموع نحره، ثم رفع يديه، فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلَّت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بالصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال: يا رسول الله؛ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر !! قال: يا بلال؛ أفلا أكون عبداً شكوراً؟ ثم قال: وما لي لا أبكي وقد أنزلت عَلَيَّ هذه الليلة: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ... إلى آخرها﴾، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[1].

قوله: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ ذهب قوم إلى عمومه في الصلاة وغيرها.

(٢/ ٤٠٧) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه. وفي كل المصادر: فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ... الآية﴾.

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٣٨٦ ح٦٢٠)، والأصبهاني في الترغيب (٢/ ٢٤٣)، والثعلبي في تفسيره (٣/ ٢٣٠) عن عطاء. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٠٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في التفكر وابن حبان في صحيحه وابن مردويه والأصبهاني في الترغيب وابن عساكر عن عطاء.

وقال عليّ وابن مسعود وابن عباس وقتادة: المراد بالذكر هاهنا: الذكر في الصلاة[١]، كما قال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صَلِّ قَائِماً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[٢]. أخرجه البخاري.

وفي هذه الآية مستدل للإمامين أحمد والشافعي بأن المريض يُصلِّي على حسب حاله[٣]، كما قال النبي ﷺ لعمران بن حصين.

وقال أبو حنيفة: يُصلِّي مستلقياً على ظهره إذا لم يستطع القعود.

ومحل قوله: "وعلى جنوبهم" من الإعراب: النصب على الحال، عطفاً على ما قبله[٤].

قوله: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ فيستدلون ببدائع صنعة الله، وعجائب قدرته على عظمة شأنه، وجلال سلطانه، فيستثمرون من ذلك علماً بالله، وخوفاً يبعثهم على مراقبة أمره ونهيه.

قال أبو الدرداء: تفكر ساعة خير من قيام ليلة[٥].

ونظر سفيان الثوري إلى السماء، فلما رأى الكواكب غشي عليه[٦].

وقال بعض الحكماء: بترداد الفكر يَنْجاب العمى، وما اسْتَنَارَت القلوب بمثل

---

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ٢٣١)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٣٧٦ ح١٠٦٦).

(٣) المغني (١/ ٤٤٥).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٦٢)، والدر المصون (٢/ ٢٨٢).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ١٣٦)، وابن سعد في الطبقات (٧/ ٣٩٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٠٩) وعزاه لابن سعد.

(٦) ذكره الثعلبي (٣/ ٢٣١)، والقرطبي (٤/ ٣١٤).

الفكر.

وقال أبو الأحوص[1]: بلغني أن عابداً تعبَّد في بني إسرائيل ثلاثين سنة، وكان الرجل إذا تعبَّد ثلاثين سنة أظلَّته غمامة، فلم ير شيئاً، فشكى ذلك إلى والدته. فقالت: يا بني؛ فكِّر هل أذنبتَ ذنباً منذُ أخذتَ في العبادة؟ قال: لا، ولا أعلم أني هممت به منذ ثلاثين سنة، فقالت: يا بني؛ بقيت واحدة، فإن نجوتَ منها رجوتُ لك أن تظلك الغمامة، قال: وما بقي هناك؟ قالت: هل رفعتَ طرفك إلى السماء، ثم رددته بغير فكر؟ قال: كثير. قالت: فمن هاهنا أُتيتَ[2].

وقال ابن عون: الفكرةُ تُذهبُ الغفلة، وتُحدثُ للقلب الخشية[3].

قوله: ﴿ربنا﴾ أي: قائلين ربنا.

﴿ما خلقت هذا﴾ الخلق ﴿باطلاً﴾ أي: عبثاً خالياً عن الفائدة والحكمة.

و«باطلاً» نصب على الحال من «هذا»، أو صفة مصدر محذوف، أي: خلقاً باطلاً، أو بنزع الحرف الخافض[4].

﴿سبحانك﴾ تنزَّهتَ عن العبث ﴿فقِنا عذاب النار﴾.

﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ أي مَن تدخله دخول تخليد، فقد أَهَنْتَهُ وحَقَّرْتَهُ. وهذا قول أنس بن مالك، والسعيدين -المسيب وابن جبير- وقتادة

---

(١) سلاّم بن سُليم الحنفي، مولاهم، أبو الأحوص الكوفي، الحافظ الثقة، كان كثير الحديث صالحاً. توفي سنة تسع وسبعين ومائة (التقريب ص: ٢٦١، والطبقات الكبرى ٦/ ٣٧٩).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٢٣٢).

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ٢٣١).

(٤) وهو الباء، المعنى: ما خلقتهما بباطلٍ، بل بحق وقُدرة (انظر: التبيان ١/ ١٦٢، والدر المصون ٢/ ٢٨٣).

ومقاتل[١].

وقال جابر بن عبد الله: المعنى: "إنك مَن تدخل النار": على أي حال دخل من أحوال التعذيب[٢]. وبه قال محمد بن جرير الطبري[٣].

قوله: ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً﴾ قال ابن عباس: هو محمد ﷺ[٤].

وقال محمد بن كعب القرظي: هو القرآن[٥]. واختاره ابن جرير الطبري[٦].

﴿ينادي للإيمان﴾ قال الفرّاء[٧]: المعنى: ينادي إلى الإيمان، ومثله قوله تعالى: ﴿هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣]، ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٥].

وقال أبو عبيدة[٨]: فيه تقديم وتأخير، تقديره: سمعنا منادياً للإيمان ينادي.

﴿أن آمنوا﴾ أي: بأن آمنوا بربكم ﴿فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ يعنون: الكبائر ﴿وكفِّر عنا سيئاتنا﴾ يعنون: الصغائر.

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٢١١). وذكره مقاتل (٢/ ٢٠٩)، والثعلبي (٣/ ٢٣٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢٨).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢١١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤١٠) وعزاه لابن جرير والحاكم.

(٣) الطبري (٤/ ٢١١).

(٤) ذكره الثعلبي (٣/ ٢٣٣)، والواحدي في الوسيط (١/ ٥٣٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢٨).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ٢١٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤١١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والخطيب في المتفق والمفترق.

(٦) الطبري (٤/ ٢١٢).

(٧) معاني الفراء (١/ ٢٥٠).

(٨) مجاز القرآن (١/ ١١١).

وقيل: إنما جمعوا بين طلب المغفرة وتكفير السيئات؛ لأن المغفرة لمجرد الفضل، والتكفير: بالطاعة[١].

﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ قال ابن عباس: هم الأنبياء والصالحون[٢].

والمعنى: توفنا في جملتهم، واحشرنا في زمرتهم.

والأبرار: جمع برّ، أو بَارّ، كَرَبّ، وأرباب، وصاحب، وأصحاب.

﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ أي: على أَلْسِنَةِ رسلك، والذي وعدهم الجنة، فكأنهم سألوا الله تعالى الثبات على الحالة المفضية بهم إليها.

وقيل: ما وعدتنا على رسلك من النصر والاستعلاء، والظفر بالأعداء.

قال ابن جرير[٣]: هذه صفة المهاجرين، رغبوا في تعجيل النصر على أعدائهم، فكأنهم قالوا: لا صبر لنا على حلمك على الأعداء، فَعَجِّلَ خزيهم، وظفرنا بهم.

﴿ولا تُخْزِنا﴾ أي: لا تُهِنَّا، وقيل: لا تَفْضَحْنا، ومنه: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود:٧٨].

وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: مَن قرأ في ليلة: ﴿إن في خلق السموات والأرض ... إلى آخرها﴾ كُتِبَتْ له قيام ليلة[٤].

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى

(١) زاد المسير (١/ ٥٢٨).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (١/ ٥٣٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢٩).

(٣) الطبري (٤/ ٢١٣).

(٤) أخرجه الثعلبي (٣/ ٢٣٤). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٤٢١) وعزاه للدارمي.

وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

قوله: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ قال الحسن: ما زالوا يقولون: ربنا، ربنا، حتى استجاب لهم ربهم[1].

قال جعفر الصادق رحمه الله: مَن حَزَبه أمر فقال -خمس مرات-: ربنا، نجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد، قيل له: كيف؟ فقرأ: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً -إلى قوله:- إنك لا تخلف الميعاد * فاستجاب لهم ربهم﴾[2].

وفي الحديث: أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله؛ إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة، ولا يذكر النساء بشيء، فنزلت هذه الآية[3].

يقال: استجابه، واستجاب له، بمعنى: أجابه. ومنه:

.... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذاكَ مُجِيبُ[4]

---

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ٢٣٤).

(٢) مثل السابق.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٧)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٩٤)، وسعيد بن منصور (٣/ ١١٣٦)، والطبري (٤/ ٢١٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥١). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٤٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤١٢) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد الرزاق والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه. وذكره أيضاً في لباب النقول (ص:٦٣) وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور والترمذي والحاكم وابن أبي حاتم.

(٤) عجز بيت لكعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار، وصدره: (وداع دعا يا من يجيب إلى الندى). انظر البيت في: اللسان، مادة: (جوب)، والأصمعيات (ص:٩٦)، ومعاني الأخفش =

﴿أني لا أضيع﴾ أي: بأني، أو لأني لا أضيع ﴿عمل عامل منكم﴾.

﴿بعضكم من بعض﴾ في الدين والإسلام. وقيل: ﴿بعضكم من بعض﴾ أي: يجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد، وهو آدم، فحكمكم حكم واحد، في الثواب والعقاب، ﴿فالذين هاجروا﴾ هجروا أوطانهم، وعشائرهم، ﴿وأخرجوا من ديارهم﴾ اضطروا إلى الخروج بالأذى، ﴿وأوذوا في سبيلي﴾ وهو دين الإسلام.

﴿وقاتلوا وقُتِلوا﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «وقُتِلُوا وقَاتَلُوا»، بتقديم المفعول على الفاعل هنا[1]، وفي براءة[2]، وكلهم خَفَّفَ إلا ابن كثير وابن عامر فإنهما شدّدا «وقتّلوا»[3]، والواو لا تفيد ترتيباً، فسواء التقديم والتأخير.

قوله: ﴿ثواباً من عند الله﴾ أي: ثواباً مختصاً بكونه من عند الله، لا يقدر أحد على وصفه، ولا على قطعه ومنعه. كما يقول الرجل العظيم المليء لما يراد منه لمن دونه إذا أراد تحقيق ما يؤمله منه وتطييب قلبه وطمأنينته: عندي ما تريد.

وهو مصدر مؤكد؛ لأن معنى «لأُكَفِّرن» و«لأُدْخِلنَّهم»: لأُثيبنَّهم.

وقيل: هو منصوب على القطع[4].

= (ص:٤٦)، والتنبيه والإيضاح (١/ ٥٥)، وجمهرة أشعار العرب (ص:٦٩٧)، وتهذيب اللغة (١١/ ٢١٩)، والدر المصون (١/ ١٣٠).

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٥٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٨٧)، والكشف (١/ ٣٧٣)، والنشر (٢/ ٢٤٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٢).

(٢) سورة التوبة، آية رقم: ١١١.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٥٩)، ولابن زنجلة (ص:١٨٨)، والكشف (١/ ٣٧٣)، والنشر (٢/ ٢٤٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٢).

(٤) انظر: الدر المصون (٢/ ٢٨٩-٢٩٠).

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ
خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

قوله: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ كان اليهود يضربون في الأرض، ويكتسبون الأموال، والمشركون في خَفْضٍ وَدَعَة[1]، والمسلمون في جهد شديد، فقال قائل من المؤمنين: أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجهد، فأنزل الله هذه الآية[2].

والمعنى: لا يَغُرَّنك أيها القائل، أو السامع. أو هو خطاب للنبي ﷺ، والمراد: أتباعه؛ لأن خطاب مقدم القوم، ولسانهم بشيء يقوم مقام خطابهم جميعاً.

فكأنه قيل: لا يَغُرَّنكم، وهو بمعنى التثبيت له، والتأديب لغيره.

وهذا في النهي نظير قوله في الأمر: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

﴿تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ أي: ضربهم فيها، وتقلبهم في نعم الله.

﴿متاع قليل﴾ أي: تقلبهم متاع قليل، ثم ينقطع، ﴿ثم﴾ من بعد ذلك، ﴿مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

قوله تعالى: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ وقرأت على شيخنا أبي البقاء اللغوي

---

(١) الخَفْضُ: الدَّعَة ولين العيش وسعته. يقال: عيشٌ خافِضٌ وخَفْضٌ ومخفوض وخفيض: أي خصيب (اللسان، مادة: خفض).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٢٣٦)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٤٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٣١).

وأبي عمرو الياسري[١] لأبي جعفر يزيد بن القعقاع: «لكنَّ»[٢]، بالتشديد هنا، وفي الزمر[٣].

قال مقاتل[٤]: «اتقوا» بمعنى: وحَّدُوا ربهم.

﴿نُزُلاً من عند الله﴾ وهو ما يُهَيَّأ للنَّزيل، وهو الضَّيْف. وانتصابه على المصدر، تقديره: أنزلوها نزلاً، أو على الحال من «جنات» لتخصيصها بالوصف[٥]، والعامل اللام.

وقال الفراء[٦]: على التفسير[٧]؛ كما تقول: هو لك صدقة، هو لك هَدِيَّة.

﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من بَرٍّ ولا فاجرٍ إلا والموت خير له، ثم تلا: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ [آل عمران:١٧٨]، وتلا: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾[٨].

---

(١) عثمان بن مقبل بن قاسم الياسري البغدادي، الفقيه الواعظ، صنّف كتاباً في طبقات الفقهاء. توفي سنة ست عشرة وستمائة (المقصد الأرشد ٢/ ٢٠٢، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/ ١٢٢، وشذرات الذهب ٥/ ٩٦).

(٢) النشر (٢/ ٢٤٧).

(٣) عند الآية رقم: ٢٠.

(٤) تفسير مقاتل (١/ ٢١١).

(٥) انظر: التبيان (١/ ١٦٤)، والدر المصون (٢/ ٢٩٢).

(٦) معاني الفراء (١/ ٢٥١).

(٧) أي نصبه على التفسير، وهو التمييز.

(٨) أخرجه الطبري (٤/ ٢١٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٦)، وابن ابي شيبة (٧/ ١٠٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٥١)، والحاكم (٢/ ٣٢٦)، كلهم عن ابن مسعود. وذكره السيوطي في الدر المنثور =

ومعنى الآية: وما عند الله من ثواب المتقين الأبرار خير لهم من متاع الكفار في هذه الدار.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

قوله: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم﴾ يعني: القرآن ﴿وما أنزل إليهم﴾ يعني: كتابهم، يعني بهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ؛ كعبد الله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى.

قال جابر بن عبد الله: لما مات النجاشي صلى النبي ﷺ عليه، فقال قائل: يصلي على هذا العلج النصراني، وهو في أرضه، فنزلت هذه الآية[1].

قوله: ﴿خاشعين لله﴾ حال من فاعل «يؤمن»[2].

﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ كما فعل مَن لم يؤمن منهم من الأحبار والكبراء.

= (٢/ ٣٩٢) وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبي بكر المروزي في الجنائز والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم عن ابن مسعود.

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٢١٨-٢١٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٦) عن أنس. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤١٥) وعزاه لابن جرير.

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٦٤)، والدر المصون (٢/ ٢٩٣).

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾[1] قال ابن عباس: اصبروا على البلاء والجهاد[2].

وقيل: اصبروا على دينكم وطاعة ربكم[3].

﴿وصابروا﴾ عدوكم، ﴿ورابطوا﴾ في سبيل الله[4]، وهو لزوم الثغر للجهاد، وأصله من ارتباط الخيل.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم، وأبو الحسن البغداديان، قالا: أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا الداودي، أخبرنا السرخسي، أخبرنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا عبد الله بن منير، سمع أبا النضر، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «رِبَاطُ يَوْمٍ في سَبيلِ الله خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيها، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنْ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيها، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ في سَبيلِ الله أَوْ الغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيها»[5].

وأخرج مسلم منه ذكر الغدوة والروحة فقط[6].

---

(١) كتب في هامش الأصل: قوله: ﴿اصبروا﴾ على الدين وتكاليفه، ﴿وصابروا﴾ أعداء الله في الجهاد وغالبوهم في الصبر على شدائد الحرب لا تكونوا أقل صبراً منهم ﴿ورابطوا﴾ أي: أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو، ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (كشاف ١/ ٤٨٨-٤٨٩).

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٣٣).

(٣) أخرجه مجاهد (ص:١٤١).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤١٨) وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.

(٥) أخرجه البخاري (٣/ ١٠٥٩ ح٢٧٣٥).

(٦) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٠٠ ح١٨٨١).

وفي أفراد مسلم من حديث سلمان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتَّان»(١).

وهذا الذي أشرتُ إليه ودللتُ عليه، قول ابن عباس، والحسن، وجمهور العلماء، وهو المتبادر إلى الأفهام.

وقد أخرج الحاكم في المستدرك على الصحيحين عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، أنه قال -في هذه الآية-: «لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يُرابَط فيه، ولكن انتظار الصلاة خلف الصلاة»(٢).

ويوضح هذا ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ»(٣).

آخرها، والحمد لله(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٢٠ ح١٩١٣).

والفتَّان: الشيطان (اللسان، مادة: فتن).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٢١-٢٢٢)، والحاكم (٢/ ٣٢٩ ح٣١٧٧)، والقائل هو أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٢١٩ ح٢٥١).

(٤) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي مجلساً عاشراً، وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس الثاني والعشرين، مرة ثانية.

سورة النساء

وهي مائة وخمس وسبعون آية في المدني، وست في الكوفي[1].

فصل

اختلفت الرواية عن ابن عباس هل هي مكية أو مدنية. والصحيح: أنها مدنية، إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، فإنها نزلت بمكة، حين أراد النبي ﷺ أن ينزع مفاتيح الكعبة من عثمان بن طلحة الحجبي[2] فيسلمها إلى العباس[3].

وغيرُ بعيد أن تكون مشتملةً على آيات نزلت بمكة، لكن معظمها نزل على أسباب دل النقل والعقل على أن ذلك كان بالمدينة.

فما أدري ما وجه قول الحسن ومجاهد، وإحدى الروايتين عن ابن عباس: أنها مكية.

أتراه يشك أحد أن تحريم الخمر كان بالمدينة، وأن قصة طعمة بن أبيرق[4] سارق الدرع، وقد نزلت فيه آيات كثيرة في هذه السورة كانت بالمدينة[5].

وأن قصة الزبير مع الأنصاري، حين ترافعا إلى النبي ﷺ، فقال للزبير: «اسق

---

(١) انظر: البيان في عد آي القرآن (ص:١٤٦).

(٢) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عثمان بن عبد الدار الحجبي، الصحابي المعروف. أسلم في هدنة الحديبية، توفي سنة اثنتين وأربعين (الإصابة ٤/ ٤٥٠، والتقريب ص:٣٨٤).

(٣) انظر تفصيل هذه القصة في ص: ٥٥٤ من هذا الجزء.

(٤) طعمة بن أبيرق بن عمير الأنصاري. انظر قصة الدرع في: المستدرك (٤/ ٤٢٦-٤٢٧ ح٨١٦٤). وقال ابن حجر في الإصابة (٣/ ٥١٨): شهد المشاهد كلها إلا بدراً، وقد تُكلّم في إيمان طعمة.

(٥) انظر قصته في ص: ٦١٣.

ثم أرسل إلى جارك، فقال: إن كان ابن عمتك؟ ... الحديث، ونزل فيه: ﴿فَلاَ وَرَبِكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ كانت بالمدينة»[1].

وأن قصة المنافق الذي أراد أن يحاكم اليهودي إلى الطاغوت، واليهودي يريد رفعه إلى النبي ﷺ كانت بالمدينة[2].

وقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ [النساء:٩٤]، وأن الآيات التي نزلت في الجهاد، والهجرة، وصلاة الخوف، كان ذلك كله بالمدينة.

وفي أفراد البخاري عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «مَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلاَّ وَأَنَا عِنْدَ النبي ﷺ»[3]، وكان دخولُه بها في المدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ أي: فرعكم من أصل واحد، وهو نفس آدم عليه السلام.

﴿وخلق منها زوجها﴾ يعني: حواء عليها السلام.

و«مِنْ» للتبعيض، إن أريد بالنفس جملة آدم، وإلا فهي لبيان الجنس، أو

---

(١) انظر هذه القصة في ص: ٥٥١.

(٢) انظر تفصيل ذلك في ص: ٥٤٦.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٩١٠ ح٤٧٠٧).

لابتداء الغاية.

قال ابن عباس وابن مسعود: خلقت بعد دخوله الجنة[١].

وقال كعب[٢] ووهب[٣] وابن إسحاق[٤]: قبل دخوله الجنة[٥].

قال ابن عباس: خلقت من ضلع من أضلاعه اليسرى[٦].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ مِنَ الضِّلَعِ أَعْلاهُ، [فَإِنْ][٧] ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ»[٨].

﴿وبثّ منهما﴾ أي: فرّق ونشر في الأرض، من آدم وحواء ﴿رجالاً كثيراً ونساء﴾.

ولما ذكَّرهم سبحانه وتعالى ما دلهم على عظيم قدرته وحكمته، أمرهم بالتقوى

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢).

(٢) كعب بن ماتع الحميري، المشهور بكعب الأحبار، من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب. أسلم في زمن أبي بكر، وكان من أهل اليمن، فسكن الشام، وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة أربع وثلاثين (تذكرة الحفاظ ١/ ٥٢، والتقريب ص:٤٦١).

(٣) وهب بن منبه بن كامل اليماني، أبو عبد الله الأبناوي، تابعي ثقة، كان عابداً فاضلاً. توفي سنة بضع عشرة ومائة (تهذيب الكمال ٣١/ ١٤٠، والثقات ٥/ ٤٨٧).

(٤) محمد بن إسحاق بن يسار، أبو بكر المطلبي المدني، مولى قيس بن مخرمة، صاحب المغازي، توفي سنة خمسين ومائة (الجرح والتعديل ٧/ ١٩١، وتذكرة الحفاظ ١/ ١٧٢).

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢).

(٦) ذكره الماوردي (١/ ٤٤٦)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٤) بلا نسبة.

(٧) في الأصل: وإن. والتصويب من البخاري (٣/ ١٢١٢).

(٨) أخرجه البخاري (٣/ ١٢١٢ ح٣١٥٣)، ومسلم (٢/ ١٠٩١ ح١٤٦٨).

رغبة في ثوابه، ورهبة من عقابه، فقال: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾.

قرأ أهل الكوفة: «تَسَاءَلُونَ» بالتخفيف، وشدَّده الباقون[١].

فمن شدَّد: فلأن أصلها تتساءلون - بتائين-، فأدغم التاء في السين؛ لأنها من طرف اللسان وأصول الثنايا.

ومَن خفَّف: حذف التاء الثانية.

والمعنى: تسألون به حوائجكم وحقوقكم، كقول الرجل لأخيه: سألتك بالله، ونشدتك بالله.

«والأرحام» أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، أو يكون عطفاً على محل الجار والمجرور، نحو: مررت بزيد وعَمْراً.

ويؤيده قراءة ابن مسعود: «وبالأرحامِ»[٢].

وقرأ حمزة: «والأرحامِ» بالجرّ[٣]، فعطف المظهر على المضمر.

قال سيبويه[٤]: لا يجوز عطف الظاهر على المكني المخفوض من غير إعادة الخافض، إلا في ضرورة الشعر، وأنشد:

فَاليَوْمَ قَرَّبْتَ تَهْجُونَا وَتَشْتِمُنَا ... فَاذهَبْ فَمَا بكَ وَالأَيَّامُ مِنْ عَجَبِ[٥]

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٦٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٨٨)، والكشف (١/ ٣٧٥)، والنشر (٢/ ٢٤٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٥)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٦).

(٢) مختصر ابن خالويه في شواذ القرآن (ص:٢٤). وانظر: البحر المحيط (٣/ ١٦٥).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٦١)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٨٨)، والكشف (١/ ٣٧٥)، والنشر (٢/ ٢٤٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٥)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٦).

(٤) انظر: الكتاب (٢/ ٣٨٢).

(٥) البيت للأعشى، وينسب لعمرو بن معد يكرب، ولخفاف بن ندبة، ولغيرهم. والشاهد في البيت: =

وقال الزجاج[١]: إجماع النحويين أنه يَقْبحُ أن يُنْسَق باسْـم مُظهـر عـلى اسـم مضمر في حال الخفض إلا بإظهار الخافض؛ كقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِـهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص:٨١].

وَيستقبحُ النحويون: مررت به وزيد، لأن المكني المخفوض حـرف مُتَّـصِلٌ غيرُ منفصل، فكأنه كالتنوين في الاسم، فَكُرِه أن يعطف اسم يَقُومُ بنفسه على اسم لا يقوم بنفسه.

وقال أيضاً[٢]: الخفض في «الأرحام» خطأ في العربية لا يجوز إلا في اضـطرار الشعر، وخطأ في الدين، لأن النبي ﷺ قال: «لا تَحْلِفُوا بآبَائِكُمْ»[٣].

قال ابن الأنباري[٤]: إنما أراد حمزة الخبر عن الأمر القـديم الـذي جـرت بـه عادتهم. فالمعنى: الذي كنتم تسألون به وبالأرحام في الجاهلية.

وقال مكـي[٥]: هـو قليـل في الاسـتعمال، بعيـد في القيـاس، لأن المعطـوف والمعطوف عليه شريكان، يحسن في أحدهما ما يحسن في الآخر، ويقبح في أحدهما ما يقبح في الآخر، فكما لا يجوز: واتقـوا الله الـذي تـسألون بالأرحـام، و «هــ»،

= عطف "الأيام" على الكاف. انظر البيت في: الكتاب لسيبويه (٢/ ٣٨٣)، وابن يعيش (٣/ ٧٩)، والخزانة (٢/ ٣٣٨)، والقرطبي (١٠/ ١٤)، ومعاني الزجاج (٢/ ٧)، والوسيط (٢/ ٦)، والبحر المحيط (٣/ ١٦٦).

(١) معاني الزجاج (٢/ ٦).

(٢) أي: الزجاج في معانيه، الموضع السابق.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٤٥٠ ح٦٢٧٢)، ومسلم (٣/ ١٢٦٧ ح١٦٤٦).

(٤) انظر: زاد المسير (٢/ ٣).

(٥) الكشف (١/ ٣٧٥-٣٧٦).

فكذلك لا يحسن: تسألون به والأرحام.

قوله: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ أي: حفيظاً يرقب عليكم أعمالكم.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾

قوله: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ قال سعيد بن جبير: نزلت في رجل من غطفان، كان معه مال كثير، لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه، فرفعه إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، فلما سمعها العم قال: سمعنا وأطعنا، نعوذ بالله من الحُوب الكبير(١).

والخطاب بقوله: «وآتوا» للأولياء والأوصياء.

وسَمَّاهم يتامى بطريق المجاز؛ لقرب عهدهم باليتم، ويجوز أن يكون المراد باليتامى: الصغار.

والمراد بإيتائهم أموالهم: حفظها وتنميتها، وكَفّ الأيدي الخاطفة من قضاة السوء وولاته عنها إلى أن يؤتوها سليمة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٨٥٤). وذكره الواحدي في أسباب النزول(ص:١٤٦) من قول مقاتل والكلبي، والثعلبي (٣/ ٢٤٢)، ومقاتل (١/ ٢١٣-٢١٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٢٥) وعزاه لابن أبي حاتم.

﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ قال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم، ويجعل مكانها المهزولة، ويأخذ الدراهم الجياد [ويطرح][1] مكانها الزيوف[2].

وقال غيره: «ولا تتبدلوا الخبيث» وهو الحرام الذي يختزلونه من أموال الأيتام، «بالطيب» وهو الحلال من أموالكم[3].

﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ أي: ضامِّين لها إلى أموالكم.

قال السدي: لا تخلطوها بأموالكم، ثم تأكلوها جميعاً[4].

﴿إنه﴾ يعني: أكل أموالهم، ﴿كان حوباً كبيراً﴾ أي: إثماً عظيماً.

وقرأ الحسن: «حَوباً» بفتح الحاء[5].

قال ابن قتيبة[6]: فيه ثلاث لغات: حُوب، وحَوب، وحاب.

قال الفرّاء[7]: أهل الحجاز يقولون: حُوب -بالضم-، وتميم يقولونه بالفتح.

---

(١) زيادة من زاد المسير (٢/ ٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٢٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٥٦). وذكره الماوردي (١/ ٤٤٧)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٥)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٢٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه مجاهد (ص:١٤٣).

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ٢٣٠) عن مجاهد، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٥٦) عن السدي. وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٧).

(٥) مختصر ابن خالويه في شواذ القرآن (ص:٢٤)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٦).

(٦) تفسير غريب القرآن (ص:١١٨).

(٧) لم أقف عليه في معاني الفراء. وانظر قول الفراء في: زاد المسير (٢/ ٥).

قوله تعالى: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ اختلفوا في تنزيلها وتأويلها، فقيل: لما نزلت هذه الآية في اليتامى، وما في أكل أموالهم من الحوب الكبير، خاف الأولياء أن يلحقهم الحوب بترك الإقساط في حقوق اليتامى، وأخذوا يتحرجون من ولايتهم.

وكان الرجل ربما كان تحته العشر من الأزواج أو أكثر، أو أقل، فلا يقوم بحقوقهن، ولا يعدل بينهن، فقيل لهم: إن خفتم ترك العدل في أموال اليتامى فتحرجتم منها، فخافوا أيضاً ترك العدل في النساء وقللوا عدد المنكوحات لأن مَن تحرّج من ذنب، أو تاب عنه وهو مرتكب مثله، فهو غير متحرّج ولا تارك لجنس ذلك الإثم.

وهذا المعنى مروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة[١]، والسدي، ومقاتل، والأكثرين[٢].

وقيل: كانوا لا يتحرجون من الزنا، وهم يتحرجون من ولاية اليتامى، فقيل لهم: إن خفتم الجَوْر في أموال اليتامى فخافوا الزنا، فانكحوا ما حلّ لكم من

---

(١) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، أبو الخطاب البصري، الحافظ العلامة الضرير المفسر. توفي بواسط في الطاعون سنة ثماني عشرة ومائة (تذكرة الحفاظ ١/ ١٢٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٣٣-٢٣٤)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٥٧). وذكره مقاتل في تفسيره (١/ ٢١٤)، والماوردي (١/ ٤٤٨)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٤٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٢٨) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير. ومن طريق آخر عن ابن عباس، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

النساء، ولا تحوموا حول المحرَّمات. وهذا المعنى مروي عن مجاهد[١].

وقيل: إنهم تحرَّجوا من نكاح اليتامى، كما تحرَّجوا من أموالهم، فرَخَّص الله لهم في ذلك، فقيل لهم: وإن خفتم يا أولياء اليتامى، أن لا تَعدلوا فيهن إذا تزوجتموهن، فانكحوا عدداً يمكنكم العدل فيه. وهذا مروي عن الحسن البصري[٢].

وقيل: المعنى: وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن تجوروا في صَدُقاتهنّ، أو تسيئوا صحبتهنَّ لعدم مَن يغضب لهنَّ، ويقوم بنصرهنَّ، فانكحوا سِواهنَّ من الغرائب اللواتي أحلّ الله لكم. وهذا المعنى مروي عن عائشة رضي الله عنها[٣].

أخبرني الشيخان أبو القاسم وأبو الحسن البغداديان قالا: أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا الداودي، أخبرنا ابن حمويه، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، أخبرني عروة بن الزبير، «أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ الله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ [فَقَالَتْ][٤]: يَا ابْنَ أُخْتِي؛ هذه

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٢٣٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٥٧)، ومجاهد (ص:١٤٤)، والثعلبي (٣/ ٢٤٥). وذكره الماوردي (١/ ٤٤٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٢٨) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ١٩٤٩، ١٩٥٨، ١٩٧٥)، ومسلم (٤/ ٢٣١٣-٢٣١٤)، وأبو داود (٢/ ٢٢٤)، والنسائي (٣/ ٣١٥، ٦/ ٣١٩)، والبيهقي في سننه (٧/ ١٤١-١٤٢)، والطبري في تفسيره (٤/ ٢٣١-٢٣٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٥٧).

(٤) زيادة من الصحيح (٤/ ١٦٦٨).

اليَتِيمَةُ تكُونُ في حَجْرِ وَلِيِّهَا تَشْرِكُهُ في مَالِهِ، وَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ في صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَنُهُوا أَنْ يُنْكِحُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ، فَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ»[١].

وقال ابن عباس -في رواية عنه-: قصر الرجال على أربع من النساء من أجل أموال اليتامى[٢]، لأن أولياء اليتامى مالوا على أموالهم بسبب كثرة النساء.

قوله: «وإن خفتم» أي: علمتم، «ألا تقسطوا» أي: لا تعدلوا. يقال: أَقْسَطَ يُقْسِطُ فهو مُقْسِطٌ؛ إذا عدل[٣]، قال الله: ﴿إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، وقَسَطَ يَقْسُطُ فهو قاسِطٌ؛ إذا جَارَ[٤]، قال الله: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن:١٥].

وقرأ إبراهيم النخعي[٥]: "تَقسِطُوا" بفتح التاء[٦]، وفيه وجهان:

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٨ ح٤٢٩٨)، ومسلم (٤/ ٢٣١٣ ح٣٠١٨).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٣٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٥٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٢٨) وعزاه للفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر: اللسان، مادة: (قسط).

(٤) مثل السابق.

(٥) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، أبو عمران الكوفي، ثقة فقيه، كان مفتي أهل الكوفة. توفي سنة ست وتسعين ومائة وهو مختف من الحجاج (تهذيب الكمال ٢/ ٢٣٣-٢٤١، والتقريب ص:٩٥).

(٦) انظر: مختصر شواذ القرآن لابن خالويه (ص:٢٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٨٠)، والبحر المحيط (٣/ ١٧٠).

أحدهما: أنه من العدل أيضاً.

قال الزجاج[١]: قَسَطَ وأَقْسَطَ واحد، إلا أن الأفصح أَقْسَطَ؛ إذا عَدَلَ.

الوجه الثاني: أنه من الجَوْر، على أن «لا» مزيدة.

و"اليتامى": جمعٌ لذُكْران الأيتام وإناثهم، وهو جمع يتيمة على القَلْب، كما قيل: أَيَامَى، والأصل: أَيائِم ويَتَائِم.

﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ أي: ما حلَّ، لأن منهن ما هو حرام.

وقرأ ابن أبي عبلة[٢]: «مَنْ طَابَ»[٣] على الأصل، لأن «مَن» لمن يعقل، على أن العرب تضع «مَن» موضع «ما» و«ما» موضع «مَن». قال الله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس:٥]، وقال: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ [النور:٤٥].

وحكى أبو عمرو بن العلاء: أن أهل مكة إذا سمعوا الرعد قالوا: سبحان ما يُسبح له الرعد[٤].

وقال ابن جرير[٥]: أراد الفعل ولم يرد أعيان النساء، فلذلك قال: «ما» ولم يقل: «مَن».

وقال مجاهد: فانكحوا النكاح الذي طاب لكم[٦]، فـ«ما» على هذا عبارة عن

---

(١) انظر: معاني الزجاج (٥/ ٢٣٥).

(٢) شمر بن يقظان بن المرتحل العقيلي الشامي المقدسي، شيخ فلسطين. توفي سنة اثنتين وخمسين ومائة (طبقات القراء لابن الجزري ١/ ١٩، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢٣، والثقات ٤/ ١١).

(٣) انظر: البحر المحيط (٣/ ١٧٠).

(٤) ذكره الثعلبي (٣/ ٢٤٦).

(٥) ذكره الطبري (٤/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٦) أخرجه الطبري (٤/ ٢٣٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٥٨).

النكاح.

وقيل: الإناث يجرين مجرى غير العقلاء، ومنه: ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ [النساء:٣].

وقيل: «ما» مصدرية، أي: نكاحاً طاب لكم.

﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ حال من «طاب»، أو بدل من «طاب»[(١)]، ومنعهنّ الصرف: العدل والوصف، أو العدل عن صيغها، والعدل عن تكريرها، التقدير: اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، كما قال في وصف الملائكة: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر:١]، ولم يرد بشيء من ذاك العطف، إذ العدول إلى ذلك عن لفظ التسعة عِيٌّ تأباه فصاحة القرآن وبلاغته.

قال القاضي أبو يعلى[(٢)]: الواو هاهنا لإباحة أي الأعداد شاء، لا للجمع، وهذا العدد إنما هو للأحرار لا للعبيد، في قول الأئمة الثلاثة: أحمد، وأبي حنيفة، والشافعي.

وقال مالك: هم كالأحرار[(٣)].

وسباق الآية وسياقها يوجبان التقيد بالأحرار دون العبيد، ألا تراه يقول: ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾، والعبد لا يملك.

قوله: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا﴾[(٤)] يعني: بين الأربع، ﴿فواحدة﴾ أي: فانكحوا

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٦٦)، والدر المصون (٢/ ٣٠١).

(٢) انظر: زاد المسير (٢/ ٨).

(٣) المغني (٧/ ٦٥)، والهداية (١/ ١٩٤)، والروضة (٧/ ١٦٣)، وبداية المجتهد (٢/ ٤٧).

(٤) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي المجلس الثالث والعشرين، مرة ثانية.

واحدة.

وقرأ الحسن البصري والأعمش: «فواحدةٌ»[١] بالرفع، على معنى: فواحدةٌ كافية، ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾، يعني: من السراري غير محصورات بعدد، إذ لا قَسْم لهنّ.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى نكاح الأربع، أو الواحدة عند خوف الجور في الأربع ﴿أدنى﴾ أقرب، ﴿ألا تعولوا﴾ أي: تميلوا فتَجُوروا، ومنه: عَالَ الميزان؛ إذا مَالَ[٢].

قال الفرّاء[٣]: عَالَ الرَّجُلُ يَعُولُ عَوْلاً؛ إذا مَالَ وجَارَ.

وهذا قول ابن عباس، والحسن، وإبراهيم، وقتادة، والربيع، والسدي، والزجّاج[٤]، وابن الأنباري، وجمهور العلماء[٥].

وقال الشافعي رضي الله عنه: «تعولوا»: تكثر عيالكم[٦].

وردَّه الزجاج فقال[٧]: جميع أهل اللغة يقولون: هذا القول خطأ.

يريد الزجاج بذلك أنه إنما يقال: أَعَالَ الرَّجُلُ يُعيلُ؛ إذا كَثُرَ عِيالُه[٨]. وأفسده

---

(١) انظر: النشر (٢/ ٢٤٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٦).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (عول).

(٣) انظر: معاني الفراء (١/ ٢٥٥).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ١١).

(٥) انظر: الطبري (٤/ ٢٣٩-٢٤٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٦٠)، والوسيط (٢/ ٩)، وزاد المسير (٢/ ٩).

(٦) ذكره الماوردي (١/ ٤٥٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٠).

(٧) معاني الزجاج (٢/ ١١).

(٨) انظر: اللسان، مادة: (عول).

أيضاً من حيث المعنى، فقال: إباحة ملك اليمين أَزْيَدُ في العيال من أربع.

وقد سلكوا في تصحيح قول الشافعي طُرقاً منها:

أنه لغة حمير، وأنشدوا:

وَإِنَّ المَوْتَ يَأْخُذُ كُلَّ حَيٍّ   بلا شَكٍّ وَإِنْ أَمْشَى وَعَالا[١]

أي: كثرت ماشيته وعياله.

ومنها: أنه من عَالَتِ الفَرِيضةُ؛ إذا كَثُرت سهامها[٢].

ومنها: ما ذكره الزمخشري[٣]: أنه من عَالَ الرّجلُ عياله يعولهم، مثل: مَانَهُم يَمُونُهم، لأن مَن كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع، وكسب الحلال.

وكلام مثل الشافعي من أعلام العلم، ورؤوس المجتهدين، وأئمة الشرع، حقيق بالحمل على الصحة والسداد، وأن لا يُظن به تحريف «تعيلوا» إلى «تعولوا»، -... إلى أن قال:- كان أعلى كعباً، وأطول باعاً في علم كلام العرب، من أن يخفى عليه [مثل][٤] هذا.

قوله: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ الخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء، على وجه الزجر لهم عما ألفوه من حيازة صدقات النساء دونهن، رَدْعاً لهم عن نكاح

---

(١) البيت لم أعرف قائله. وهو في: البحر المحيط (٣/ ١٧٣)، والدر المصون (٢/ ٣٠٤)، والقرطبي (٥/ ٢٢)، وروح المعاني (٤/ ١٩٧).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (عول).

(٣) الكشاف (١/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٤) زيادة من الكشاف (١/ ٥٠٠).

الشِّغَار، وهو: جعل الأبضاع أعواضاً في النكاح. وواحد الصَّدُقات: صَدُقَة، وهي المُهُور.

«نِحْلَة» مصدر أو حال من المخاطبين، على معنى: آتوهن ناحلين[١].

قال ابن عباس: «نِحْلَة»: فريضة وموهبة من الله للنساء.

وقيل: مِلّة وديناً، يقال: فلان يَنْتَحِلُ كذا، أي: يَدِينُ بِهِ[٢].

﴿فإن طِبْنَ لكم﴾ أيها الأزواج أو الأولياء، أو يكون الخطاب لجنس الرجال، ﴿عن شيء منه﴾ الضمير في «مِنْهُ» جار مجرى اسم الإشارة، كأنه قال: عن شيء من ذلك، كقوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ [آل عمران:١٥] بعد ذكر الشهوات، أو يرجع إلى معنى الصَّدُقات، وهو الصَّدَاق.

وقوله: ﴿نفساً﴾ تمييز[٣]، وهو اسم جنس، ﴿فَكُلُوهُ هنيئاً مريئاً﴾ وصفا مصدر محذوف، أي: أكلاً هنيئاً مريئاً، أو حال من الضمير في «كُلُوهُ»[٤].

والهنيء: اللذيذ السائغ، الخالص من شوائب التنغيص[٥]، والمريء: المحمود العاقبة التام الهَضْم[٦].

والمقصود: المبالغة في الحِلّ، ونفي التبعة.

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٦٦)، والدر المصون (٢/ ٣٠٥).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (نحل).

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٦٦)، والدر المصون (٢/ ٣٠٦).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٦٧)، والدر المصون (٢/ ٣٠٧).

(٥) انظر: اللسان، مادة: (هنأ).

(٦) انظر: اللسان، مادة: (مرأ).

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

قوله: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ والسُّفَهَاء: الجَهَلَة، وهذا نهي للإنسان أن يدفع ماله الذي خوَّله الله إياه وجعله قِواماً لمعيشته، إلى من لا يقوم باستصلاحه من النساء والأطفال، والمُبَذِّرين من الأولاد.

وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن[1].

وكانوا يقولون: اتجروا واكتسبوا، فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم، كان أول ما يأكل دينه[2].

وكان سفيان الثوري يقلب بضاعته ويقول: لولاك لَتَمَنْدَلَ بي بنو العباس[3].

وقيل: هو خطاب لأولياء الأيتام، والسفهاء المحجور عليهم، وأضاف الأموال إلى الأولياء لأنهم قُوَّامُها، أو لأنها الجنس الذي جعله الله أموالاً للناس؛ كقوله: ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٣٦٤).

(٢) ذكره الكتاني في التراتيب الإدارية (٢/ ٧٣).

(٣) انظر: الحلية (٦/ ٣٨١)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٢٤١)، وتفسير النسفي (١/ ٢٠٤)، وفيض القدير (٥/ ٣٦٤)، والتراتيب الإدارية (٢/ ٧٣).

﴿التي جعل الله لكم قياماً﴾ قرأ الحسن: «اللاتي»[١]، وهي بمعنى «التي».

وقرأ نافع وابن عامر: «قِيَماً» بغير ألف. وقرأ الباقون: بألف[٢].

وقرئ شاذاً: «قواماً»[٣] بفتح القاف وكسرها على الأصل، والأكثرون قلبوا الواو ياءاً لانكسار ما قبلها، مثل: صيام وقيام.

والمعنى في الجميع واحد، أي: تقوم بها أموركم ومعائشكم.

قال ابن قتيبة[٤]: يقال: هذا قُوَام أمرك وقِيَام أمرك، أي: ما يقوم به.

وقال الأخفش[٥]: قياماً وقُواماً وقِيَماً وقُوَماً: واحد، وجميعها مصادر[٦].

وقال قوم: القيم جمع قيمة كديمة وديم، فالدراهم والدنانير قيم الأشياء.

واختار الزجاج هذا القول فقال[٧]: مَن قرأ: «قيما»، فالمعنى: أموالكم التي جعلها الله قيماً للأشياء، فبها تقوم أموركم.

قال أبو علي: وليس هذا بشيء[٨].

---

(١) إتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٦).

(٢) الحُجّة للفارسي (٢/ ٦٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٩٠-١٩١)، والكشف (١/ ٣٧٦)، والنشر (٢/ ٢٤٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٦)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٦).

(٣) مختصر ابن خالويه في شواذ القرآن (ص:٢٤)، والمحتسب (١/ ١٨٢)، وإعراب القرآن للنحاس (١/ ٣٩٦).

(٤) تفسير غريب القرآن (ص:١٢٠).

(٥) سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، أبو الحسن البلخي المجاشعي مولاهم، إمام النحو، أخذ عن الخليل بن أحمد ولزم سيبويه. توفي سنة خمس عشرة ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٠٦).

(٦) انظر: مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ١٧٩)، والوسيط (٢/ ١٢).

(٧) معاني الزجاج (٢/ ١٤).

(٨) الحجة للفارسي (٢/ ٦٦).

وقال الضحاك[١] في معنى الآية بها: الحج، والجهاد، وأعمال البر، وفك الرقاب من النار[٢].

وهذا يندرج تحت عموم ما قاله غيره.

﴿وارزقوهم فيها﴾ أي: منها، والرزق من العباد هو: الإجراء الموظف.

﴿واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ أي: ليّناً تطيب به قلوبهم من عِدَةٍ جميلة، أو رَدٍ حسن.

قوله: ﴿وابتلوا اليتامى﴾[٣] سبب نزولها: أن رفاعة قال: يا رسول الله؛ إن ابن أخي يتيم في حجري، فما يحل لي من ماله، ومتى أدفعه إليه؟ فأنزل الله هذه الآية[٤].

والمعنى: اختبروا عقول اليتامى بالنظر في تصرفهم قبل البلوغ.

﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ أي: وصلوا إلى حال النكاح من الاحتلام وإنزال الماء.

﴿فإن آنستم منهم رشداً﴾ أي: علمتم وأبصرتم، ومنه: ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾ [القصص:٢٩] أي: أَبْصَرَ.

---

(١) الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني، صاحب التفسير، كان من أوعية العلم. توفي بعد المائة (سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٩٨).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٢٥٣).

(٣) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الحادي عشر.

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ٢٥٩) عن قتادة. وذكره الواحدي في أسباب النزول(ص:١٤٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٣٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة.

والرُّشْد: الصلاح في العقل، وحفظ المال، فمتى بلغ عاقلاً مصلحاً لماله، انْفَكَّ الحَجْر عنه، وهو مذهب إمامنا وأبي حنيفة وأصحابه.

وذهب قوم إلى أن الرشد: الصلاح في الدين والمال، منهم: الحسن، وربيعة، ومالك، والشافعي[1].

وعن ابن عباس: كالمذهبين.

فصل

قد دلت هذه الآية على أن لرفع الحَجْر عن اليتيم شرطين:

أحدهما: البُلُوغ.

الثاني: الرُّشْد.

فأما البلوغ فإنه يكون بواحد من خمسة أسباب: ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء.

أحدها: إنزال المني بجماع أو احتلام أو غيرهما، بدليل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ﴾ [النور:٥٩]، وقول النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «خذ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا»[2].

الثاني: بلوغ خمس عشرة سنة عندنا وعند الشافعي، خلافاً لأبي حنيفة في تحديده سن البلوغ بسبع عشرة سنة في المشهور من الروايتين عنه.

والأخرى بثماني عشرة سنة. وخلافاً لمالك في قوله: لا بلوغ بالسن وإن

---

(١) انظر: حاشية الدسوقي (٢/ ٥٢٩)، والمهذب (١/ ٣٣١)، والمغني (٤/ ٢٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ١٠١ ح١٥٧٦)، والترمذي (٣/ ٢٠ ح٦٢٣).

طال[١].

الثالث: نبات الشعر الخشن حول الفرج، خلافاً لأبي حنيفة وأحد قولي الشافعي[٢].

وشَذَّ مالك فجعل غلظ الصوت وانشقاق الأَرْنَبَة بلوغاً في حق الغلام.

وسببان يختصان بالنساء وهما: الحيض والحمل.

الشرط الثاني: الرُّشْد، وقد ذكرناه.

فإن اختلَّ أحد الشرطين لم يَنْفَكّ عنه الحَجْر أبداً.

وقال أبو حنيفة: ينفك عنه الحَجْر إذا بلغ خمساً وعشرين سنة، وإن كان مفسداً لماله، إني لأستحي أن أحجر على من يصلح أن يكون جَدّاً[٣].

وقال مالك: إن كانت جارية، بقي الحَجْر عليها إلى أن تتزوج، فتكون تصرفاتها معلقة بإذن زوجها إلى أن تكبر وتجرب، فتصير مطلقة التصرف[٤].

فصل

واتفق جماهير الأمة، ومشاهير الأئمة على شرعية الحَجْر على السفيه المبذِّر منهم: عليّ، وعثمان، والزبير، وعائشة، وابن عباس، وعبد الله بن جعفر، وفقهاء المدينة، وفقهاء الشام، والأئمة الثلاثة، وصاحبا أبي حنيفة[٥]، وإسحاق إمام

(١) انظر: الهداية (٣/ ٢٤٨)، وحاشية الدسوقي (٣/ ٢٩٣)، والمهذب (١/ ٣٣٠)، والمغني (٤/ ٢٩٧).

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) انظر: الهداية (٣/ ٢٤٨).

(٤) انظر: بداية المجتهد (٢/ ٣٤٠).

(٥) وهما محمد بن الحسن الشيباني، وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الكوفي الأنصاري.

خراسان[١]، وأبو ثور[٢].

وادَّعى بعضُ العلماء الإجماعَ في هذه المسالة، نظراً إلى قصة جرت بين أصحاب رسول الله ﷺ، وهي: أن عبد الله بن جعفر اشترى أرضاً سبخة بستين ألف درهم، فغُبن فيها، فأراد عَلِيّ أن يحجر عليه، فأتى ابن جعفر إلى الزبير، فقال: إني اشتريت كذا، وإن علياً يريد أن يأتي أمير المؤمنين عثمان، فيسأله أن يحجر عَلَيّ، فقال الزبير: أنا شريكك في البيع، فقال عليّ لعثمان: إن ابن جعفر اشترى كذا وكذا فاحْجر عليه، فقال الزبير: أنا شريكه، فقال عثمان: كيف أحجر على رجل شريكه الزبير[٣]؟.

وشذَّ أبو حنيفة فقال: لا حجر عليه، وإن كان أفسق الناس، وأشدهم تبذيراً، وتابعه على ذلك زُفَرْ[٤]، ويقال: هو مذهب إبراهيم النخعي[٥].

قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾ هما مصدران في

---

(١) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، المعروف بابن راهويه المروزي، وهو من سادات زمانه فقهاً وعلماً وحفظاً ونظراً، وممن صنف الكتب. توفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين (التقييد ص:١٩٥، والثقات ٨/ ١١٥).

(٢) إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي، أبو ثور الفقيه، كان أحد الثقات المأمونين ومن الأئمة الأعلام في الدين. توفي سنة أربعين ومائتين (تاريخ بغداد ٦/ ٦٥).

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده (ص٣٨٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٦١). قال ابن الملقن في الخلاصة (٢/ ٨٤): رواه الشافعي والبيهقي بإسناد حسن.

(٤) زفر بن الهذيل بن قيس العنبري، الفقيه، كان ثقة مأموناً، وتفقه بأبي حنيفة. توفي سنة ثمان وخمسين ومائة (سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٨، والثقات ٦/ ٣٣٩).

(٥) انظر: الهداية (٣/ ٢٨١)، والمغني (٤/ ٣٠٣).

محل الحال، أي: مسرفين، مبادرين كِبَرهم. أو مفعولان، على معنى: لا تأكلوها لأجل إسرافكم ومبادرتكم كِبَرهم أكلاً ذريعاً[١].

﴿ومن كان غنيا فليستعفف﴾ عن مال اليتيم، ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ قال الحسن: أن يأكل بمقدار عمله وأجرته[٢].

وقالت عائشة: بمقدار حاجته[٣].

وعن ابن عباس: كالقولين[٤].

وقال الشعبي: لا يأكل إلا أن يُضْطَر إليه، كما يضطر إلى أكل الميتة[٥].

وحكم الكسوة حكم الأكل.

واختلفوا في القضاء عليه إذا أيسر: قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: ألا إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة مال اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت[٦].

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٦٨)، والدر المصون (٢/ ٣١٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٨٦٩). وذكره الماوردي (١/ ٤٥٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (١٦/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١٠١٧)، والطبري (٤/ ٢٦٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٦٩)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٣٥) وعزاه للبخاري وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه.

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ٢٥٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٦٩).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٧٠)، والثعلبي (٣/ ٢٥٩).

(٦) أخرجه الطبري (٤/ ٢٥٥)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٥٤)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٦٠)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (ص:٢٩٦)، والثعلبي (٣/ ٢٥٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور =

وأظهر الروايتين عن الإمام أحمد: عدم وجوب القضاء؛ تنزيلاً لما أكله بالمعروف في مقابلة عمله.

أخبرنا أحمد بن عبد الله، وعلي بن أبي بكر البغداديان، قالا: أخبرنا عبد الأول بن عيسى، أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، أخبرنا عبد الله بن أحمد، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثني إسحاق، أخبرنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: «أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي وَالِي الْيَتِيمِ إِذَا كَانَ فَقِيراً، أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ مَكَانَ قِيَامِهِ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ»[1]. هذا حديث صحيح، أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

قوله: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ هذا أمر استحباب وإرشاد لأولياء الأيتام إلى الإشهاد عليهم عند تسليم أموالهم إليهم، إظهاراً للأمانة، ودفعاً للتهمة بالخيانة، وقطعاً لأسباب المخاصمة والتجاحد.

﴿وكفى بالله حسيباً﴾ قال ابن عباس: شهيداً[2].

وقيل: كافياً، من قولك: أحسبني كذا، أي: كفاني.

= (٢/ ٤٣٦) وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير والنحاس في ناسخه وابن المنذر والبيهقي في سننه.

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٩ ح٤٢٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٣١٥ ح٣٠١٩).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٦٢) عن السدي، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٧١) عن سعيد بن جبير. وذكره الماوردي (١/ ٤٥٥) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٣٨) وعزاه لابن جرير عن السدي. ومن طريق آخر عن سعيد بن جبير، وعزاه لابن أبي حاتم.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾[1] قال ابن عباس وقتادة وجمهور المفسِّرين: كانوا لا يُورثون النساء في الجاهلية، ولا الصغار، وإنما يُورثون من حَاز الغنيمة، وحمى الذّمار[2]، فلما توفي أوس بن ثابت الأنصاري أخذ ابنا عمه ماله دون زوجته وبناته، فجاءت زوجته إلى النبي ﷺ فشكت إليه وذكرت له ذلك، فأنزل الله هذه الآية، فأرسل النبي ﷺ إلى ابني العم: لا تُفرِّقا من مال أوس شيئاً، فإن الله جعل لبناته نصيباً -ولم يُبيِّن كم هو- حتى أنظر ما يُنْزِل الله فيهن، فأنزل الله: ﴿يُوصِيكُمُ الله في أَوْلاَدِكُمْ -إلى قوله-: الفَوْزُ العَظِيم﴾ [النساء:١١-١٣]، فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى ابني العم أن ادفعا إلى الزوجة الثمن، وإلى بناته الثلثين، ولكما باقي المال[3].

---

(١) كتب في هامش الأصل: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الرابع والعشرين، مرة ثانية.

(٢) الذِّمَار: ذمار الرجل: هو كل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه (اللسان، مادة: ذمر).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٢٦٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٧٢). وذكره الواحدي في أسباب النزول
=

قوله تعالى: ﴿نصيباً مفروضاً﴾ منصوب على الاختصاص بإضمار "أعني"، أو حال[١].

وقال الأخفش[٢]: هو نصب على [معنى][٣]: جعل لهم نصيباً، والآية تدل عليه، لأن قوله: ﴿للرجال نصيب﴾، ﴿وللنساء نصيب﴾ يدل على معنى: جعل لهم نصيباً.

والمفروض: الذي فرضه الله، وهو آكد من الواجب.

قوله: ﴿وإذا حضر القسمة﴾ يعني: قسمة المواريث، ﴿أولوا القربى﴾ يريد: أقرباء الميت الذين لا يرثون.

﴿فارزقوهم منه﴾ خطاب للورثة، حَضَّهم الله على الرَّضْخ[٤] لأقاربهم تطييباً لقلوبهم، والضمير في «منه» لما يقسم، أو يعود إلى قوله: «مما ترك الوالدان»، وغير مستبعد أن يعود الضمير إلى «نصيباً»، ولم أر أحداً ذكره.

والأكثرون على أنه أمر استحباب، إذ لو كان فريضة لَحُدَّ وقُدِّرَ، كما في سائر الحقوق.

وذهب قوم -منهم: مجاهد وابن سيرين-: إلى أنه أمر إيجاب[٥].

ثم اختلف القائلون بالوجوب في والي اليتيم هل يرضخ من ماله؟

=

(ص:١٤٨)، والثعلبي في تفسيره (٣/ ٢٦٠-٢٦١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٨).

(١) انظر: التبيان (١/ ١٦٨)، والدر المصون (٢/ ٣١٥).

(٢) انظر: معاني الأخفش (ص:١٥٣)، والوسيط (٢/ ١٥).

(٣) زيادة من الوسيط (٢/ ١٥).

(٤) رَضَخَ له من ماله: أعطاه. والرّضخ: العطاء القليل (اللسان، مادة: رضخ).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ٢٦٤)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٧٤)، والثعلبي (٣/ ٢٦١) كلهم عن مجاهد.

فروي عن ابن سيرين عن عَبيدة السَّلْماني[١]: أنه فعله، وقال: لولا هذه الآية لفعلت ذلك من مالي، وفعل نحو ذلك ابن سيرين[٢].

وذهب قوم إلى أنها منسوخة بآية الميراث[٣].

والصحيح: أنها محكمة.

وفي الصحيحين عن ابن عباس، أنه قال: هي محكمة وليست بمنسوخة[٤]، ولكنها مما تهاون الناس بها.

وقال سعيد بن جبير: والله ما نُسِخت، ولكنها مما تهاون به الناس[٥].

﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ قال الحسن والنخعي: أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات، والمساكين، واليتامى من العين -يريدان: الذهب والفضة- فإذا صارت القسمة إلى الأرض والرقيق، قالوا لهم قولاً معروفاً، كانوا يقولون لهم: بورك فيكم[٦].

---

(١) عَبيدة بن عمرو السلماني المرادي أبو عمرو الكوفي، تابعي كبير، مخضرم، فقيه. توفي قبل سنة سبعين (الثقات ٥/ ١٣٩، والتقريب ص:٣٧٩).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٦٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٧٤)، والثعلبي (٣/ ٢٦٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٢٤).

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٣٠٢)، والإيضاح لمكي (ص:٢١٠)، والناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة (ص:٦٦)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣١)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٥٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ١٠١٤ ح٢٦٠٨). وهذا الحديث من أفراد البخاري، وليس في مسلم.

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ٢٦٣)، والثعلبي (٣/ ٢٦٢).

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠).

وقال سعيد بن جبير: إن كان الورثة كباراً دعوا لهم، وان كانوا صغاراً قال وليهم: لستُ أملك هذا المال، إنما هو لهؤلاء الصغار، فإذا بلغوا أمرناهم أن يعرفوا حقكم[1].

قوله: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً﴾ قال ابن عباس: كان الرجل إذا حضرته الوفاة قعد عنده أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: انظر لنفسك، فإن أولادك لا يغنون عنك من الله شيئاً، فيقدم جُلَّ ماله، وهذا قبل أن تكون الوصية بالثلث، فكره الله ذلك منهم، فأنزل هذه الآية[2].

والمعنى: ولْيَخَفِ الذين لو تركوا من خلفهم أولاداً صغاراً خافوا عليهم الفقر والضياع، فليتقوا الله إذا حضروا عند الميت، في ذريته وورثته، ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾ عَدْلاً بين الغلو والتقصير.

والسَدَاد والسَدَد والسديد بمعنى.

فانظر إلى هذا اللطف كيف هيَّج سبحانه وتعالى دواعي شفقة الحاضرين عند المُوصِي على ذُرِّيته وورثته، بتذكرهم موتهم، وتخليفهم ذُرِّية ضعافاً ليبعثهم على القول السديد بباعثَيْ الشرع والطبع.

وقيل: إن هذه الآية متعلقة بقوله: ﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾، فيكون الخطاب لأولياء الأيتام، ذكَّرهم الله سبحانه ما يحبون لذُرِّيتهم الضِّعاف بعد موتهم، وما

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٢٢٥)، والطبري (٤/ ٢٦٧). وذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ٢٦٢) عن ابن عباس، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٤١) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٦٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٧٦-٨٧٧)، والثعلبي (٣/ ٢٦٣). وذكره الواحدي في الوسيط (١/ ١٥).

يخافون عليهم، ليبعثهم على العدل في أموال الأيتام، الذين هم تحت ولايتهم، والنظر في مصالحهم، والقيام بواجب ما استرعاهم الله عليه.

فعلى هذا يكون المعنى: وليقولوا قولاً سديداً للأيتام، لا يزجروهم ولا ينهروهم ويخاطبونهم كما يخاطبون أولادهم بلطف وشفقة؛ جبراً لكسر يُتْمِهم وضعفهم.

قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ قال مقاتل: نزلت في رجل من غطفان، يقال له: مرثد بن زيد، أكل مال ابن أخيه اليتيم[(١)].

﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ أي: ما يُفضي بهم إلى النار. وخُصَّ الأكل بالذِّكْر، وإن كان غيره في معناه؛ لأنه معظم ما تذهب الأموال فيه. وذكر البطون للتوكيد؛ كقوله: ﴿يطير بجناحيه﴾ [الأنعام:٣٨]، ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ [البقرة:٧٩].

قال السدي: يُبعث يوم القيامة ولهبُ النار يخرج من فيهِ وأُذنيه وعينيه، يعرفه مَن رآه بأكل مال اليتيم[(٢)].

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «رأيتُ ليلة أُسْرِيَ بي قوماً لهم مَشَافر كمَشَافر الإبل[(٣)]، إحداهما قَالِصَة[(٤)] على منخريه، والأخرى على بطنه، وخزنة النار

---

(١) أخرجه الثعلبي (٣/ ٢٦٣). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٤٨).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٧٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٧٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٤٣) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) المشافر: جمع مِشْفَر، والمِشْفَر للبعير كالشَّفة للإنسان (اللسان، مادة: شفر).

(٤) قَلَصَتْ شفته: شَمَّرت ونقصت (اللسان، مادة: قلص).

يُلْقِمُونهم جَمْرَ جهنم وصخرها، ثم يخرج من أسافلهم، فقلت: يا جبريل؛ من هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً»[١].

وقوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر: «وَسَيُصْلَوْنَ»، بضم الياء[٢].

والسَّعير: النار المشتعلة، والمعنى: سَيُقَاسُونَ حَرَّ السَّعير.

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾

قوله: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾؛ أخبرنا الشيخان أبو القاسم بن عبد الله العطار، وعلي بن رُوزبة الصوفي، قالا: أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا أبو الحسن الداودي، أخبرنا أبو محمد بن حمويه، أخبرنا الفربري، أخبرنا البخاري، أخبرنا

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٢٧٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٧٩)، والثعلبي (٣/ ٢٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٦٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٩١)، والكشف (١/ ٣٧٨)، والنشر (٢/ ٢٤٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٦)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٧).

إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، أن ابن جريج أخبرهم [قال][(١)]: أخبرني ابن المنكدر، عن جابر: قال: «عَادَنِي النبي ﷺ وأبو بكر في بَنِي سَلِمَةَ مَاشِيَيْنِ، فَوَجَدَنِي النبي ﷺ لا أَعْقِلُ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْه، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ فَأَفَقْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ الله؟ فَنَزَلَتْ: ﴿يُوصِيكُمْ الله فِي أَوْلادِكُمْ﴾»[(٢)].

هذا حديث اتفق أئمة الإسلام على إخراجه في كتبهم، فأخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري ومسلم في صحيحيهما، وأبو داود في سننه، والترمذي في جامعه.

وقد أخرج أبو داود أيضاً، والترمذي من حديث جابر: «أَنَّ امْرَأَة سَعْدِ بْنِ الرَّبيعِ جَاءَتْ بِابْنَتَيْهَا إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله؛ هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبيعِ، قُتِلَ أَبُوهُمَا مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخذ مَالَهُمَا، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً، ووالله لاَ يُنْكَحَانِ أبداً إلا وَلَهُمَا مَالٌ، فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: يَقْضِي الله فِي ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ آيَةُ المِيرَاثِ، فقال رَسُولُ الله ﷺ: ادْعُوا لِي المَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا، فَقَالَ لِلعَمّ: أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْد الثُّلُثَيْنِ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ»[(٣)].

ومعنى «يوصيكم الله»: يعهد إليكم ويأمركم، "في أولادكم" أي: في شأن ميراثهم.

ثم فَصَّلَ ما أَجْمَلَ فقال: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾.

---

(١) زيادة من الصحيح (٤/ ١٦٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٦٩ ح٤٣٠١)، ومسلم (٣/ ١٢٣٥ ح١٦١٦)، وأبو داود (٣/ ١١٩ ح٢٨٨٦)، والترمذي (٤/ ٤١٧ ح٢٠٩٧)، وأحمد (٣/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ١٢١ ح٢٨٩٢)، والترمذي (٤/ ٤١٤ ح٢٠٩٢).

﴿فإن كُنَّ﴾ يعني: المتروكات، أو الوارثات، ﴿نساءً﴾ خُلَّصاً، لا ذَكَر معهن، ﴿فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ أجمعت الأُمَّة على أن لما فوق الثنتين الثلثين، وأما الثنتان فكذلك في قول عامة أهل العلم، إلا ابن عباس، فإنه اعتصم بظاهر الآية، ولم يعط الثُلُثين إلا لأكثر من ثنتين.

قال القاضي أبو يعلى[1]: إنما نص على ما فوق الاثنتين، والواحدة، ولم ينص على الاثنتين، لأنه لما جعل لكل واحدة مع الذكر الثُلُث كان لها مع الأنثى الثُلُث أولى.

وقال غيره: ذكر الفوق زائد؛ كقوله: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ [الأنفال:١٢].

قوله: ﴿وإن كانت واحدة﴾ وقرأ نافع: «واحدةٌ» بالرفع[2].

فمَن نَصَبَ فعلى معنى: فإن كانت الوارثة أو المتروكة واحدة.

ومَن رَفَعَ فعلى معنى: فإن وقعت وحدثت واحدة ﴿فلها النصف﴾.

قوله: ﴿ولأبويه﴾ يعني: لأبوي الميت، فيكون كناية عن غير مذكور، والمراد: الأب والأم فغُلِّب أحدهما، كالقَمَرَيْن والعُمَرَيْن.

وقيل: القياس أن يقال: أب وأبة؛ كابن وابنة، لكنهم اكتفوا بلفظ الأم، فلما ثُنِّي، رجع إلى القياس، وغُلِّب الأب للتذكير، أو للخِفَّة.

---

(١) انظر: زاد المسير (٢/ ٢٦).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٦٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٩٢)، والكشف (١/ ٣٧٨)، والنشر (٢/ ٢٤٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٧).

فصل

اعلم أن للأب ثلاثة أحوال:

١- حال: يرث فيها السُدُس بالفرض، وهي مع ذكور الولد[1]، وولد الابن.

٢- وحال: يرث فيها بالتعصيب، وهي مع عدم الولد.

٣- وحال: يجتمعان له، وهي مع إناث الولد، يرث السُدُس بالفرض، والباقي بالتعصيب.

فصل

وللأم أربعة أحوال:

١- حال: ترث فيها السُدُس، وهي مع اثنين فصاعداً من الإخوة والأخوات، ومع الولد أو ولد الابن. وكان ابن عباس لا يحجبها من الثُلُث بأقل من ثلاثة من الإخوة والأخوات[2]، وهو ظاهر القرآن.

٢- وحال: ترث فيها الثُلُث، وهو مع عدم هؤلاء.

٣- وحال: ترث فيها ثُلُث الباقي، وذلك في العمريتين، وهما: زوج وأبوان، وامرأة[3] وأبوان، للأم ثُلُث الباقي بعد فرض الزوجين، وهو قول عامة أهل العلم، إلا ابن عباس، فإنه يجعل لها ثلث جميع المال[4]، وتابعه

---

(١) الولد المراد به: الابن والبنت.

(٢) انظر: الطبري (٤/ ٢٧٨)، وسنن البيهقي (٦/ ٢٢٧).

(٣) أي: زوجة.

(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى (٦/ ٢٢٨ ح١٢٠٨٥). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٤٤٦) وعزاه للبيهقي وعبد الرزاق.

شريح[1] وداود[2].

٤ - وحال رابعة؛ وهي: إذا نفي ولدها باللعان، فإنه ينقطع نسبه من جهة مَن نفاه، فلا يرثه هو، ولا أحد من عصباته، وترث هي وذوو الفروض منه فروضهم، فما أبقت الفروض ورثته الأم بالتعصيب في قول ابن مسعود، وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد، وهي اختيار[3] صاحبنا أبي بكر عبد العزيز[4].

وقال علي رضي الله عنه: عصبته عصبة أمه، وهي الرواية الأخرى عن الإمام أحمد، وهي اختيار[5] الخرقي[6].

---

(١) شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم سنان، قاضي الكوفة، ويقال: شريح بن شراحيل، أو ابن شرحبيل، أبو أمية، ممن أسلم في حياة النبي ﷺ، وانتقل من اليمن زمن الصدّيق. توفي سنة ثمان وسبعين، وقيل: سنة ثمانين (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٠٠).

(٢) داود بن علي بن خلف، أبو سليمان البغدادي، المعروف بالأصبهاني. رئيس أهل الظاهر. ولد سنة مائتين، كان إماماً ورعاً ناسكاً زاهداً، وكان في مجلسه أربعمائة صاحب طيلسان. توفي سنة سبعين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٩٧، وطبقات الحفاظ ١/ ٢٥٧).

(٣) انظر: المغني (٦/ ٢٢٥)، والتمهيد (١٥/ ٤٥)، والمهذب (٢/ ٣٠)، وكشاف القناع (٤/ ٤١٨).

(٤) عبد العزيز بن بن جعفر بن أحمد البغدادي، أبو بكر، المعروف بغلام الخلال، أحد مشاهير الحنابلة الأعيان، صنَّف وجمع وناظر. توفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٤٣، وطبقات الحنابلة ٢/ ١١٩، وتاريخ بغداد ١٠/ ٤٥٩).

(٥) انظر: مختصر الخرقي (ص:٧٧)، والتمهيد (١٥/ ٤٥)، والمغني (٦/ ٢٢٥)، والإنصاف (٧/ ٣٠٨-٣٠٩).

(٦) عمر بن الحسين بن عبدالله الخرقي البغدادي، أبو القاسم، صاحب المصنفات الكثيرة، وصاحب المختصر المشهور في مذهب الإمام أحمد. توفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٣، وطبقات الحنابلة ٢/ ٧٥).

فإن قيل: أي فائدة في قوله: ﴿وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾ وهَلاَّ قال: "فإن لم يكن له ولد فلأمه الثُلُث"؟

قلت: المعنى: وورثه أبواه فحسب، لأنه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين كان للأم ثُلُث الباقي، كما ذكرته آنفاً.

قوله: ﴿فلأمه الثُلُث﴾ قرأ حمزة والكسائي: «فَلِإِمِّهِ» بكسر الهمزة، ومثله: ﴿فِي أُمِّهَا﴾ [القصص:٥٩]، و﴿بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النحل:٧٨]، حيث جاء، إذا كان قبل الهمزة كسرة، أو ياء، اتباعاً لما قبلها، وتفرد حمزة بكسر الميم أيضاً مع الهمزة في الجمع. وقرأ الباقون بضم الهمزة، واتفقوا على ضم الهمزة في الابتداء[1].

ومعنى الكلام: فلأمه الثُلُث، والباقي للأب بالتعصيب.

قوله: ﴿فإن كان له إخوة﴾ يريد من أي جهة كانوا ذكوراً أو إناثاً، وقد ذكرنا اختلافهم في حجب الأم من الثُلُث إلى السُدُس بالأخوين آنفاً.

قوله: ﴿من بعد وصية﴾ أي: قسم الميراث على الوجه المذكور إنما يكون بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء دَيْنه.

قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم: «يوصَى» بفتح الصاد في الموضعين، إلا حفصاً، فإنه قرأ «يوصِي» الأول بالكسر، وقرأ الباقون بالكسر فيهما[2].

قوله: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ المعنى: لا تعلمون

---

(١) الحُجّة للفارسي (٢/ ٦٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٩٢)، والكشف (١/ ٣٧٩)، والنشر (٢/ ٢٤٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٧-٢٢٨).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٧١)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٩٣)، والكشف (١/ ٣٨٠)، والنشر وإتحاف فضلاء البشر، الموضعان السابقان، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٨).

أيهم أقرب لكم نفعاً في الدنيا والآخرة، فتقسموا أموالكم فيهم على حسب علمكم بمقادير نفعهم لكم، ففرض الله مقادير الأنصباء للأقرباء بحكمته وعلمه.

﴿فريضةً من الله﴾ نَصْبٌ على المصدر[1].

﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فيما فرض لكم.

قال سيبويه: كأن القوم شاهدوا علماً وحكمة، فقيل لهم: إن الله كان كذلك، أي: لم يزل على ما شاهدتم، ليس ذلك بحادث[2].

حكى الزجاج[3]: أن لفظة «كان»، في الخبر عن الله يتساوى ماضيها ومستقبلها، لأن الأشياءَ عنده على حالة واحدة.

۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٦٩)، والدر المصون (٢/ ٣٢٣).

(٢) انظر: معاني الزجاج (٢/ ٢٥)، وزاد المسير (٢/ ٢٩-٣٠).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٢٥).

قوله[1]: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد﴾ هذا فرض الزوج من تركة زوجته عند عدم ولدها، وولد ابنها منه، أو من غيره. وفرضه: الربع مع وجود ولدها، أو ولد ابنها منه أو من غيره، وفرض الزوجة من الزوج على النصف من ذلك في الحالين، وللزوجات من الزوج الواحد إذا اجتمعن ما للزوجة إذا انفردت من الربع أو الثُمُن.

قوله: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة﴾ اعلم أن هذه الآية في شرح توريث الكلالة، وهم الذين يُنسبون إلى الميت بواسطة، وللعلماء في الكلالة اختلاف، ومقصود الكلام فيها يحصره فصول نظمها بعضهم فقال:

الفصل الأول:

كثر أقوال الصحابة في تفسير الكلالة:

فاختيار أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه: أنها عبارة عمَّن سوى الوالد والولد، وهو الصحيح. وبه قال عليّ، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء، والزهري، وقتادة، والفرَّاء[2].

وأما عمر رضي الله عنه فكان يقول: الكلالة: مَن سوى الولد. وهو قول طاوس.

وقال الحكم: الكلالة: ما عدا الولد، وقيل: بنو العم الأباعد.

وقال عطية: الإخوة من الأم.

---

(١) كتب في هامش الأصل: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الخامس والعشرين، مرة ثانية.

(٢) معاني الفراء (١/ ٢٥٧).

وروي عن عمر: أنه قال -لما طُعِنَ-: كنت أرى أن الكلالة: مَن لا ولد لـه، وأنا أستحي أن أخالف أبا بكر، الكلالة: مَن عدا الوالد والولد.

وروي عن عمر أيضاً: التوقف، وكان يقول: ثلاثة لأن يكون بيَّنهن رسـول الله لنا أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها: الكلالة، والخلافة، والربا[١].

والدليل على صحة قول أبي بكر وجوه:

الأول: التمسك باشتقاق لفظ الكلالة، وفيه وجوه:

الأول: يقال: كَلَّت الرحم بين فلان وفلان؛ إذا تباعدت القرابة، وحمل فلان عن فلان، ثم كَلَّ عنه؛ إذا تباعد، فسمِّيت القرابة البعيدة: كلالة من هذا الوجه.

الثاني: يقال: كَلَّ الرَّجُلُ كَلالَةً وكَلالاً؛ إذا أَعْيا وذهبت قوّته[٢]، ثـم جعلـوا هذا اللفظ استعارة من القرابة الحاصلة، لا من جهة الولاد، وذلك لأنَّا بيّنا أن هذه القرابة حاصلة بواسطة الغير، فيكون فيها ضعف، وبهذا يظهر أنـه يبعـد إدخـال الوالد في الكلالة، لأن انتسابه إلى الميت بغير واسطة.

الثالث: الكلالة في أصـل اللغـة: عبـارة عـن الإحاطـة، ومنـه: الإكليـل[٣] لإحاطته بالرأس، ومنه: الكلّ، لإحاطته بما يدخل فيه، ويقال: تَكَلَّلَ السحاب؛ إذا صار محيطاً بالجوانب[٤].

---

(١) انظر ما سبق في: تفسير الطبري (٤/ ٢٨٣) وما بعدها، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٨٧)، وسنن البيهقي الكبرى (٦/ ٢٢٤) وما بعدها.

(٢) انظر: اللسان، مادة: (كلل).

(٣) الإكليل: شبه عصابة تزين بالجوهر، ويسمى التاج إكليلاً، وكلله تكليلاً: ألبسه الإكليـل (مختار الصحاح، مادة: كلل).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (كلل).

إذا عرفت هذا فنقول: مَن عدا الوالد والولد، إنما سمُّوا بالكلالة؛ لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان، وكالإكليل المحيط برأسه، أما قرابة الولاد فليست كذلك، فإن فيها يتفرع البعض عن البعض، ويتولد البعض من البعض؛ كالشيء الواحد الذي يتزايد على نسق واحد، ولهذا قال الشاعر:

نسب تتابع كابراً عن كابر كالرمح أنبوباً على أنبوب[1]

فأما القرابة المغايرة لقرابة الولاد، وهي كالإخوة والأخوات والأعمام والعمّات، فإنما يحصل لنسبهم اتّصال، وإحاطة بالمنسوب إليه. فثبت بهذه الوجوه الاشتقاقية: أن الكلالة عبارة عمّن عدا الوالد والولد.

الحُجَّة الثانية: أنه تعالى ما ذكر لفظ الكلالة في كتابه إلا في هذه السورة في موضعين: أحدهما في هذه الآية، والثاني في آخر السورة، وهو قوله: ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك﴾ [النساء:١٧٦]، واحتج عمر بن الخطاب بهذه الآية على أن الكلالة: مَن لا ولد له فقط، قال: لأن المذكور هنا في تفسير الكلالة هو: أنه ليس له ولد، إلا أنّا نقول: هذه الآية تدل على أن الكلالة من لا والد له ولا ولد، وذلك لأن الله حكم بتوريث الإخوة والأخوات حال كون الميت كَلالة، ولا شك أن الإخوة والأخوات لا يرثون حال وجود الأبوين، فوجب أن لا يكون الميت كلالة، حال وجود الأبوين.

الحُجَّة الثالثة: أنه تعالى ذكر حكم الولد والوالد في الآيات المتقدمة، ثم أتبعها

(١) البيت للبحتري، وهو في: خزانة الأدب، الشاهد الثالث والعشرون، والمنتحل للثعالبي، باب التهاني والتهادي وما يجري مجراهما.

بذكر الكلالة. وهذا الترتيب يقتضي أن تكون الكلالة: مَن عدا الوالد والولد.

الحُجّة الرابعة: قول الفرزدق[(١)]:

وَرِثتُم قَنَاةَ المَجدِ، لاَ عَنْ كَلالَةٍ عَنِ ابْنَيْ مَنَافٍ عَبْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمِ[(٢)]

دَلَّ هذا البيت على أنهم ما ورثوا المُلك عن الكلالة، ودَلَّ على أنهم ورثوه عن آبائهم. وهذا يوجب أن لا يكون الأب داخلاً في الكلالة.

الفصل الثاني:

اعلم أن الكلالة قد تُجعل وصفاً للوارث، وللموروث، فإذا جعلناها وصفاً للوارث، فالمراد: مَن سوى الولد والوالد. وإذا جعلناها وصفاً للموروث، فالمراد: الذي يرثه مَن سوى الوالد والولد.

أما بيان أن هذا اللفظ مستعمل في الوارث. فالدليل عليه: ما روى جابر بن عبد الله قال: «مرضت مرضاً أشفيت[(٣)] منه على الموت، فأتاني النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله؛ إني رجل لا يرثني إلا كلالة»[(٤)]، وأراد به: أنه ليس له لا والد ولا ولد.

---

(١) همام بن غالب بن صعصعة التميمي، أبو فراس البصري، الشهير بالفرزدق، شاعر، من النبلاء، عظيم الأثر في اللغة، كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب. توفي سنة عشر ومائة (سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٩٠، والأعلام ٨/ ٩٣).

(٢) البيت للفرزدق من قصيدته في قتل مسلم بن قتيبة. انظر: ديوانه (ص:٦٢) وروايته: (ورثتم قناة المُلك غير كلالة). وانظر البيت في: اللسان، مادة: (كلل)، والقرطبي (٥/ ٧٦)، والبحر المحيط (٣/ ١٩٧)، والدر المصون (٢/ ٣٢٤).

(٣) أشفيت: أي: أشرفت (اللسان، مادة: شفي).

(٤) أخرجه البخاري (٥/ ٢١٤٨ ح٥٣٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢٣٥ ح١٦١٦).

وقال بعض الأعراب: مالي كثير ويرثني كلالة متراخي نسبهم[١].

وأما أنه مستعمل في الموروث، فالبيت الذي رُوِّيناه عن الفرزدق، فإن معناه: إنكم ما ورثتم المُلك عن الأعمام، بل عن الآباء فسمِّي العمّ كلالة، وهو هاهنا موروث لا وارث.

إذا عرفت هذا فنقول: المراد من الكلالة في هذه الآية: الميت الذي لا يخلِّف الوالد والولد، لأن هذا الوصف إنما كان معتبراً في الميت الذي هو الموروث، لا في الوارث الذي لا تختلف حاله بسبب أن له ولداً أو والداً أو لا[٢].

الفصل الثالث:

يقال: رجل كلالة، وامرأة كلالة، وقوم كلالة، لا يثنى ولا يجمع، لأنه مصدر كالدلالة، والوكالة.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا جعلناها صفة للوارث أو الموروث كان بمعنى ذي كلالة، كما تقول: فلان من قرابتي، تريد من ذوي قرابتي.

وقيل: يجوز أن يكون صفة؛ كالهَجاجة والفَقَاقَة للأحمق[٣].

الفصل الرابع:

قوله: «يُورَثُ» فيه احتمالان:

---

(١) انظر: الطبري (٤/ ٢٨٦)، وزاد المسير (٢/ ٣٢).

(٢) أي: لا والد ولا ولد.

(٣) الهَجاجةُ: الهَبْوَةُ التي تَدْفِنُ كلَّ شيءٍ بالتراب (اللسان، مادة: هجج).

والفقاقة والفَقْفاق: الكثير الكلام الذي لا غَنَاء عنده (اللسان، مادة: فقق).

(الأول): أن يكون ذلك مأخوذاً من وَرِثَ الرَّجُل يُورَثُ، وعلى هذا التقدير يكون الرجل هو الموروث منه.

وفي انتصاب «كلالةً» وجوه:

أحدها: النصب على الحال، والتقدير: يُورَثُ حال كونه كلالة، فالكلالة مصدر وقع موقع الحال، والتقدير: يورث متكلل النسب.

وثانيها: أن يكون قوله: «يُورَثُ» صفة لـ"رَجُل" و"كَلالَةً" خبر كان، والتقدير: وإن كان رجل موروث منه كلالة.

والثالث: أن يكون مفعولاً له، أي: يورث لأجل كونه كلالة[1].

(والاحتمال الثاني): قوله: «يُورَثُ» يحتمل أن يكون مأخوذاً من وَرِثَ يَرِثُ، وعلى هذا التقدير يكون الرجل هو الوارث.

وانتصاب «كلالة» على هذا التقدير أيضاً يكون على الوجوه المذكورة.

الفصل الخامس:

قرأ الحسن البصري وأبو رجاء العطاردي[2]: «يورّث» بالتخفيف والتشديد، على البناء للفاعل[3].

قوله تعالى: ﴿وله أخ أو أخت﴾ يعني: من الأم بالإجماع، وقد صرحت بذلك

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٦٩-١٧٠)، والدر المصون (٢/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٢) عمران بن مِلْحان البصري، أبو رجاء العطاردي، من كبار المخضرمين، أسلم بعد فتح مكة. توفي سنة خمس ومائة، وله مائة وعشرون سنة (سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥٣، والتقريب ص:٤٣٠).

(٣) مختصر ابن خالويه في شواذ القرآن (ص:٢٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٧)، والقراءات الشواذ للقاضي (ص:٣٨).

قراءة سعد بن أبي وقاص، وأُبَيّ بن كعب[١].

﴿فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ ذكَرهم وأنثاهم فيه سواء، ولا يسقط ولد الأم[٢] أخاً كان أو أُختاً إلا بأربعة: الأب، والجد وإن علا، والولد، وولد الابن وإن نزل.

قوله: ﴿غير مُضارٍّ﴾ حال[٣]، والمعنى: غير مُدْخِل للضرر على ورثته بوصية لم يأذن الشرع فيها، أو إقرار بدَيْن لا يلزم، ﴿والله عليم﴾ بالعادل في وصيته، ﴿حليم﴾ عن الجائر، إذ لم يعاجله بالعقوبة.

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿تلك﴾[٤] إشارة إلى ما شرع من الأحكام في اليتامى، والميراث، والوصايا، ﴿حدود الله﴾ سبق تفسيرها.

﴿ومن يُطِعِ الله ورسوله﴾ فيما أمر به ونهى عنه من هذه الأحكام وغيرها.

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٢٨٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٨٨)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٢٣).

(٢) المراد به: الأخ لأم.

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٧٠)، والدر المصون (٢/ ٣٢٦).

(٤) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الثاني عشر.

﴿يدخله جنات﴾ وقرأ نافع وابن عامر: «نُدْخِلْهُ» بالنون في الموضعين[1].

وانتصب "خالدين"، و"خالداً" على الحال من الهاء في «يُدْخِلْهُ»، والتقدير: نُدْخِلْهُ مقدِّرين الخلود فيها، تقول: مررتُ برجل معه بازي[2] صائداً به غداً، أي: مقدِّراً للصيد غداً.

وإنما جمع «خالدين» حملاً على معنى «مَن»، ووحَّد «خالداً» حملاً على لفظها.

وإنما أوجب له الخلود لتعدِّيه الحدود بالجحود.

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده، من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ الخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فإذا أَوْصَى حَافَ في وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بشَرِّ عَمَلِهِ، [فَيَدْخُلُ النَّارَ][3]، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فيَعْدِلُ في وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بخَيْرِ عَمَلِهِ، فيَدْخُلُ الجَنَّةَ. قال: ثم يقول أبو هريرة: وَاقْرَءُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ الله ... -إلَى قَوْلِهِ-: عَذَابٌ مُهِينٌ﴾»[4].

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٧١)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٩٣)، والكشف (١/ ٣٨٠)، والنشر (٢/ ٢٤٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٨).

(٢) البازي: طائر من فصيلة الصقر، وهو من أشد الحيوانات تكبراً وأضيقها خلقاً (حياة الحيوان للدميري ١/ ١٢٨).

(٣) زيادة من المسند (٢/ ٢٧٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٨ ح٧٧٢٨).

فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ قال الزجاج[١]: «التي» تُجْمَع اللاتي، واللواتي. قال الشاعر:

من اللَّواتي والتي واللاَّتي زَعَمْنَ أَنِّي كَبرْتُ لِدَاتِي[٢]

ويجمع «اللاتي» بإثبات الياء وحذفها.

قال الشاعر:

من اللاتي لم يحججن يبغينَ حِسْبَةً ولكن ليقتلن البريءِ المغفّلا[٣]

والفاحشة: الزنا، سُمِّيَ بذلك؛ لظهور قبحه.

﴿فاستشهدوا عليهن﴾ خطاب للحُكَّام ﴿أربعة منكم﴾ يعني: من المسلمين.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما جَعَلَ الله الشهود أربعة سِتراً ستركم به دون فواحشكم[٤].

﴿فأمسكوهن في البيوت﴾ أي: احبسوهن ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾.

فإن قيل: التوفي والموت واحد، فكيف نسب الفعل إليه؟

قلت: فيه إضمار، تقديره: حتى يتوفاهن مَلَك الموت، أو يكون المعنى: حتى

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٢٨).

(٢) البيت لم أعرف قائله. وانظره في: اللسان (مادة: لتا)، ومجاز القرآن (١/ ١١٩)، وخزانة الأدب (٦/ ٨٠)، والقرطبي (١/ ٢٣٥)، وزاد المسير (٢/ ٣٤).

(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة، ولم أجده في ديوانه. وانظره في: مجاز القرآن (١/ ١٢٠)، وزاد المسير (٢/ ٣٤)، والقرطبي (٥/ ١٠٨).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٧/ ٣٧٤)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٣٣٠).

يأخذهن الموت ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾.

قوله[١]: ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما﴾ "اللذان" تثنية: الذي، ويريد: الزاني والزانية.

وابن كثير يُشَدِّد النون هنا، وفي «هـذان» في طـه[٢]، والحـج[٣]، و"هـاتين" في القصص[٤]، «فَذانِكَ»[٥] في القصص أيضاً، و"اللَّذيْن" في السجدة[٦]. وافقـه أبـو عمرو في «فَذانِكَ». وقرأ الباقي كالباقين بالتخفيف على الأصل[٧].

وحُجَّةُ مَن شدَّد النون في هذه المواضع: الفرق بالتشديد بين النون التي تُحذف للإضافة، وبين النون التي لا تُحذف للإضافة، لأن المبهم معرفة؛ فهـو لا يُـضاف ألبتة.

وقيل: التشديد لهذه النون؛ للفرق بين النـون التـي هـي عـوض مـن تنـوين ملفوظ به في الواحد، نحو: زيد وعمرو، والتي لا تنـوين في الواحـد ملفـوظ بـه

---

(١) كتب في هامش الأصل: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس السادس والعشرين، مرة ثانية.

(٢) طه: ٦٣، في قوله تعالى: ﴿إنْ هذان لساحران﴾.

(٣) الحج: ١٩، في قوله تعالى: ﴿هذان خصمان﴾.

(٤) القصص: ٢٧، في قوله تعالى: ﴿إحدى ابنتيّ هاتين﴾.

(٥) القصص: ٣٢، في قوله تعالى: ﴿فذانك برهانان من ربك﴾.

(٦) يريد سورة فصلت الآية: ٢٩، في قوله تعالى: ﴿أرنا اللذين أضلانا﴾، وتسمى سورة السجدة.

(٧) الحجة للفارسي (٢/ ٧١)، والحجة لابـن زنجلـة (ص:١٩٣-١٩٥)، والكشف (١/ ٣٨١-٣٨٢)، والنـشر (٢/ ٢٤٨)، وإتحـاف فـضلاء البـشر (ص:١٨٧)، والـسبعة في القـراءات (ص:٢٢٩).

تكون النون عوضاً منه.

وقيل: جعل التشديد عوضاً من الحذف الذي لحق الكلمة، ألا ترى أن قولهم: «ذا» قد حذف لامها، وقد حذفت الياء من «اللذان» و"هذان"، وكان حقهما في التثنية: "اللذيان" و"هاذيان"، فجعل التشديد فيه عوضاً من المحذوف عنه في التثنية.

"فآذوهما": قال ابن عباس: بالتوبيخ، والتعيير، والضرب بالنعال[1].

﴿فإن تابا﴾ من الفاحشة ﴿وأصلحا﴾ العمل بعد ذلك ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي: عن أذاهما.

فصل

كان حكمُ الزانية في صدر الإسلام أن تُحْبَس في البيت حتى تموت، وحكم الزاني أن يُؤذى، كما قال ابن عباس، فنُسخ الحكمان في حقهما.

واختلفوا في الناسخ:

فذهب جماعة من المفسِّرين إلى أنه نسخ بحديث عبادة بن الصامت،

وهو ما أخبرنا به الشيخان، شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي بدمشق، وأبو بكر محمد بن سعيد بن الموفق الخازن[2] ببغداد، قال كل واحد منهما: أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٢٩٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٩٥-٨٩٦)، والثعلبي (٣/ ٢٧٢).

(٢) محمد بن سعيد بن أبي البقاء الموفق الخازن النيسابوري البغدادي، من رواة مسند الشافعي، كان من جلة الصوفية. توفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٢٤، وشذرات الذهب ٥/ ٢٢٦).

المقدسي[١]، أخبرنا أبو الحسن مكي بن منصور بن علان الكَرْجي[٢]، أخبرنا أحمد بن الحسن الحيري[٣]، أخبرنا أبو العباس الأصم[٤]، أخبرنا الربيع[٥]، أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبد الوهاب[٦]، عن يونس[٧]، عن الحسن، عن عبادة بن الصامت، أن النبي ﷺ قال: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البكْر بالبكْر جلد مائة وتغريب عام، والثيِّبُ بالثيِّب جلد مائة والرَّجم»[٨].

---

(١) طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي الرازي، أبو زرعة الشيباني. المحدث، تفرد بالكتب والأجزاء. توفي سنة ست وستين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٠٣، والشذرات ٤/ ٢١٧).

(٢) مكي بن منصور بن محمد بن علان، أبو الحسن الكرجي، المعروف بالسلار، كان جليل القدر نافذ الأمر محبوباً. توفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٧١، والتقييد ص:٤٥١).

(٣) تقدمت ترجمته (ص:٢٥٩).

(٤) محمد بن يعقوب بن يوسف بن معقل النيسابوري، أبو العباس الورَّاق، المعروف بالأصم، الإمام المحدث مسند العصر رحلة الوقت. توفي سنة ست وأربعين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٥٢، وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣/ ٨٦٠).

(٥) الربيع بن سليمان بن عبد الجبار، أبو محمد المرادي، المؤذن بجامع الفسطاط، صاحب الإمام الشافعي وناقل علمه. توفي سنة سبعين ومائتين (طبقات الشافعية للأسنوي ١/ ٣٩، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٨٧).

(٦) عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت الثقفي، أبو محمد البصري، يروي عن يحيى بن سعيد الأنصاري وحميد الطويل. توفي سنة أربع وتسعين ومائة (سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٣٧، والثقات ٧/ ١٣٢).

(٧) يونس بن عبيد بن دينار العبدي، أبو عبدالله البصري، مولاهم، من صغار التابعين وفضلائهم. توفي سنة تسع وثلاثين ومائة (سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٨، والثقات ٧/ ٦٤٧).

(٨) أخرجه الشافعي في مسنده (ص:١٦٤).

قال الشافعي[(١)]: وقد حدثني الثقة[(٢)]: أن الحسن كان يُدخل بينه وبين عبادة، حطان الرقاشي[(٣)]، ولا أدري أدخله عبد الوهاب فزلَّ كتابي أو لا.

قلت: الحديث صحيح، أخرجه مسلم في صحيحه[(٤)]، عن يحيى بن يحيى، عن هشيم، عن منصور، عن الحسن، عن حِطَّان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة.

وهذا القول ليس بسديد؛ لأن أخبارَ الآحاد لا تنسخ القرآن الثابت بالتواتر[(٥)].

وقد اختلفوا في خبر التواتر هل ينسخ القرآن؟

فذهب أكثر الفقهاء من الشافعية والحنابلة وأهل الظاهر إلى امتناع ذلك[(٦)].

قال الإمام أحمد: لا ينسخ القرآن إلا قرآن يجيء بعده[(٧)].

وإلى هذا أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا ندع كتاب ربنا بقول امرأة لا ندري أصدقت أم كذبت»، وكانت روت عن النبي ﷺ حديثاً يخالف ظاهر القرآن[(٨)].

---

(١) مسند الشافعي (ص:١٦٤).

(٢) هو: يحيى بن حسان.

(٣) حطان بن عبد الله الرقاشي، بصري تابعي ثقة (معرفة الثقات ١/ ٣٠٨، والجرح والتعديل ٣/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ١٣١٦ ح١٦٩٠).

(٥) البرهان للجويني (٢/ ٨٤٣)، والتبصرة للشيرازي (ص:١٤٠).

(٦) انظر: الرسالة للشافعي (ص:١٠٨)، والبرهان للجويني (٢/ ٨٥١)، والأحكام للآمدي (٣/ ١٦٨)، والتبصرة (ص:٢٦٤).

(٧) انظر: العدة لأبي يعلى (٢/ ٦٨١)، والتمهيد لأبي الخطاب (٢/ ٣٦٩).

(٨) وهو حديث فاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها طلاقاً بائناً، فذهبت إلى النبي ﷺ تطالب زوجها بالنفقة، فقال لها النبي ﷺ: «ليس لكِ عليه نفقة» (أخرجه مسلم ٢/ ١١١٤ ح١٤٨٠).

وذهب أبو حنيفة ومالك إلى جواز ذلك[١].

والصحيح: أن حديث عبادة مبيِّن للسبيل لا ناسخ.

وقال قوم: المراد بقوله: ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما﴾: البكران، ثم نُسِخَ بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾[٢] [النور:٢].

والذي يقتضيه البحث الصحيح: ظهور العموم في الثيِّب والأبكار، فنُسِخ في حق البكر بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾، ونُسِخ في حق الثيِّب بوحي رفع رسمه، وبقي حكمه.

وإلى هذا أشار عمر بن الخطاب بقوله على المنبر يوم الجمعة مع توافر المهاجرين والأنصار: «إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلُّوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على مَن زنا، إذا أُحصن من الرجال والنساء»[٣].

والذي يدُلُّك على أن هذا هو الصحيح، وأن الحبس والأذى كان حكماً للبكْر والثيِّب، قوله عليه السلام: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهنَّ

---

(١) انظر: اللمع للشيرازي (١/ ٥٩)، والفصول في الأصول (٢/ ٣٢١)، والأحكام للآمدي (٣/ ١٥٩)، وروضة الناظر (ص:٨٤).

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٣٠٦) وما بعدها، والناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٦٨-٦٩)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٦٢-٢٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٠٣ ح٦٤٤٢)، ومسلم (٣/ ١٣١٧ ح١٦٩١).

سبيلاً...»[١]، فبيَّن السبيل في حق البكْر والثيِّب، فدلَّ على أن الحكم المنسوخ كان متناولاً لهما.

فصل

وقد دلَّ قوله: ﴿فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾ أن التوبة تُسقط ما كان واجباً عليهما بسبب الفاحشة، وهذا كان مخصوصاً بذلك الحكم وفرعاً عليه، فزال بزوال أصله.

وأما الحكم اليوم: فإن الزاني لا يسقط عنه الحد إذا وجب عليه بالتوبة على الصحيح، من أقاويل العلماء.

فصل

قال صاحب الكشاف[٢]: يجوز أن تكون الآية غير منسوخة، بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوماً بالكتاب والسُّنَّة، ويوصي بإمساكهنَّ في البيوت بعد أن يحددن، صيانة لهنَّ عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت [والتعرض للرجال][٣]، ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ هو النكاح الذي يستعففن به عن السفاح.

قلت: وهذا قول ظاهر البطلان لوجهين:

أحدهما: أنه على خلاف ما عليه علماء التفسير من الصحابة فمن بعدهم.

الثاني: أنه فسَّر السبيل بالنكاح، وهذا مصادم لتفسير النبي ﷺ في حديث عبادة، فيكون مُطَّرَحاً؛ لمناقضته تفسير النبي ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه (ص:٤٥١).

(٢) الكشاف (١/ ٥١٨).

(٣) زيادة من الكشاف (١/ ٥١٨).

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله﴾ أي: إنما قبول التوبة على الله، أو يكون المعنى: إنما التوبة المقبولة عند الله.

﴿للذين يعملون السوء بجهالة﴾ ليس المراد بالجهالة هاهنا عدم العلم بكون ما أتى به من المعصية ذنباً، فإن مَن كان بهذه المثابة معذور بسبب جهله.

وإنما المعنى: يعملون السوء جاهلين سفهاء، فيكون موضع قول: «بجَهَالَةٍ» النصب على الحال[١].

قال مجاهد: كل عاص فهو جاهل حين معصيته[٢].

وقال الزجاج[٣]: آثروا العاجل بالآجل فَسُمُّوا جُهَّالاً.

﴿ثم يتوبون من قريب﴾ قال ابن عباس: قبل أن ينزل به سلطان الموت[٤]،

---

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ٣٣٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٢٩٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٩٧)، ومجاهد (ص:١٤٩)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٠٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٥٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٢٨).

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ٣٠٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٩٨).

وذلك بمعاينة المَلَك.

وقد أخرج الإمام أحمد رضي الله عنه في مسنده، بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: «تُقْبَلُ تَوْبَةُ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ بنفَسِه»(١).

﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ وعدٌ من الله الكريم بقبول التوبة.

قوله: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ قال ابن عباس: يريد: الشرك(٢).

وقال أبو العالية(٣) وسعيد بن جبير: النفاق(٤).

والأظهر في نظري: أنها سيئات المسلمين، لأن الكلامَ في الزانيين والإعراض عنهما. وهو قول سفيان الثوري(٥)، واحتج بقوله: ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾.

قوله: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ أي: نزل به سلطانه، وعاين الملائكة، ﴿قال إني تبت الآن﴾ فحينئذ لا تُقبل توبته، لأنه يصير مضطراً. والقبول يتوقف على الإيمان الاختياري، والتوبة الاختيارية.

وقد روي أن لقمان عليه السلام قال لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة، فإن مَلَك

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٥٣ ح٦٤٠٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٩٠١). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٢٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٦١) وعزاه لابن جرير.

(٣) رُفَيع بن مهران، أبو العالية الرِّياحي البصري، الإمام المقرئ الحافظ المفسر، من كبار التابعين. توفي سنة تسعين (سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٧، والإصابة ٢/ ٥١٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٩٠٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ٣٠٣-٣٠٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨).

الموت يأتي بغتة[١].

﴿أولئك أعتدنا﴾ قال أبو عبيدة[٢]: أَفْعَلْنا، مِنَ العَتاد.

وقيل: إن التاء بدل من الدال. والمعنى: هَيَّأْنا لهم ﴿عذاباً أليماً﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قرأ حمزة والكسائي: «كُرْهاً» بضم الكاف، هنا وفي التوبة[٣]، والأحقاف[٤]، وفتحه

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٤٣٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥١٦) وعزاه لعبد الله في زوائده والبيهقي.

(٢) مجاز القرآن (١/ ١٢٠).

(٣) التوبة: ٥٣، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعاً أَوۡ كَرۡهاً﴾.

(٤) الأحقاف: ١٥، في قوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُ كُرۡهاً وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهاً﴾.

الباقون، غير أن ابن ذكوان وعاصماً وافقاهما على الضم في الأحقاف خاصة[١]، وهما لغتان مشهورتان كالفَقْر والفُقْر، الضَّعْف والضُّعْف.

وقد أخرج البخاري في صحيحه بإسناده عن ابن عباس في قوله: «﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ قَالَ: كَانُوا إِذا مَاتَ الرَّجُلُ، كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة»[٢].

قال السدي: إنما كان ذلك للأولياء، ما لم تسبق المرأة فتذهب إلى أهلها، فإن ذهبت فهي أحق بنفسها[٣].

فعلى هذا القول، المعنى: لا يحل لكم أن ترثوا نكاح النساء، وهو قول جمهور العلماء والمفسِّرين.

وقد روي عن ابن عباس أيضاً، قال: كان يُلْقِي حميمُ الميت على الجارية ثوباً، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها، فأنزل الله هذه الآية[٤].

فيكون المعنى: لا يحل لكم أن ترثوا أموال النساء كرهاً.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٧٣-٧٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٩٥-١٩٦)، والكشف (١/ ٣٨٢)، والنشر (٢/ ٢٤٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧٠ ح٤٣٠٣).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٣٠٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٠٢). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٩).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٣٠٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٠٢).

﴿ولا تعضلوهن﴾ نهيٌ للأزواج عن إمساك النساء على وجه الإضرار بهن، ليفتدين أنفسهن.

وإعراب «ولا تعضلوهن» النصب، أي: ولا أن تعضلوهن، أو الجزم على النهي[1].

﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبيِّنة﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر: "مبيَّنة" بفتح الياء، وكَسَرها الباقون[2].

والفاحشة هي: النشوز، وسوء الخُلُق.

وقيل: الزنا. فأيها وُجِد، فللزوج عضلها، والتضييق عليها حتى تفتدي.

﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي: صاحبوهن بالنصفة في المبيت والنفقة، والإجمال في المقال، والفعال.

﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ قال ابن عباس: هو الولد يرزقه الله منها، فيجعل الله فيه خيراً كثيراً[3].

قال: الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رضي الله عنه[4]: فقد ندبت الآية إلى إمساك الزوجة مع الكراهة، ونبّهت على معنيين:

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٧٢)، والدر المصون (٢/ ٣٣٤).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٧٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:١١٩)، والكشف (١/ ٣٨٣) والنشر (٢/ ٢٤٨-٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢٢٩-٢٣٠).

(٣) أخرجه الطبري (٤/ ٣١٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٠٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٦٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) زاد المسير (٢/ ٤٢).

أحدهما: أن الإنسانَ لا يعلم وجوه الصلاح، فرُبَّ مكروه عاد محموداً، ومحمودٍ عاد مذموماً.

والثاني: أن الإنسانَ لا يكاد يجد محبوباً، ليس فيه ما يكره، فليصبر على ما يكره لما يحب، وأنشدوا في هذا المعنى:

وَمَنْ لَمْ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ مَا فيهِ يَمُتْ وَهْوَ عَاتِبُ

وَمَنْ يتَّبِعْ جَاهِداً كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْها وَلاَ يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرَ صَاحِبُ[1]

قوله تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ أي: امرأة مكان امرأة، ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا﴾: سبق بيانه في أوائل آل عمران[2]، ﴿فلا تأخذوا منه﴾ أي: من القنطار ﴿شيئاً﴾.

وإنما خص حال الاستبدال بالنهي، لئلا يُتوهم جواز الاسترجاع فيما بذل في مقابلة الأبضاع، عند انقطاع الانتفاع، وهذا في حق المدخول بها، والتي خلا بها تتنزل منزلة المدخول بها، في تكميل المهر وإيجاب العِدَّة، قضى به الخلفاء الراشدون الأربعة، وذهب إليه الأئمة الأربعة، خَلا الشافعي في قوله الجديد[3].

وفي هذا دليلٌ على جواز استكثار الصَّداق.

وقد روي: أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام خطيباً، فقال: أيها الناس! لا تغالوا بصُدُقِ النساء، فلو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنتي عشرة

(١) انظر البيتين في: البحر المحيط (٣/ ٢١٤).

(٢) عند تفسير الآية رقم: ١٤.

(٣) انظر: الهداية (١/ ٢٠٦)، وبداية المجتهد (٢/ ٢٦)، والمغني (٧/ ١٩١).

أوقية، فقامت إليه امرأة، فقالت: يا أمير المؤمنين؛ لِمَ تمنعنا حقاً جعله الله لنا، والله يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾، فقال عمر: كلُّ أحدٍ أعلم من عمر[١].

قولُه تعالى: ﴿أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ "البُهتان": الباطل الذي يُبْهَت منه، وهو مصدر في موضع الحال[٢].

و"المُبين": الظاهر.

﴿وكيف تأخذونه﴾ استفهام في معنى التعجب والإنكار.

﴿وقد أفضى﴾ أي: وصل ﴿بعضكم إلى بعض﴾ ولابسه.

وقال الفرَّاء[٣]: هو الخلوة.

﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ قال ابن عباس: هو الميثاق الذي أخذه الله للنساء على الرجال من الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان[٤].

وقال الربيع: هو أمانة الله[٥].

قال ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان في أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٢٣٥ ح٢١٠٦)، والترمذي (٣/ ٤٢٢ ح١١١٤)، والنسائي (٦/ ١١٧-١١٩).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٧٣)، والدر المصون (٢/ ٣٣٨).

(٣) معاني الفراء (١/ ٢٥٩).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٤٦٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٦٧) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر. وهو اختيار الطبري (٤/ ٣١٦).

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ٣١٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٤).

(٦) أخرجه مسلم (٢/ ٨٨٩ ح١٢١٨).

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده، من حديث صهيب بن سنان قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّما رَجُلٍ أَصْدَقَ امْرَأَةً صَدَاقاً، وَالله يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يُرِيدُ أَدَاءَهُ إِلَيْهَا، فَغَرَّهَا بالله، وَاسْتَحَلَّ فَرْجَها بالبَاطِلِ، لَقِيَ الله يَوْمَ يَلْقَاهُ وَهُوَ زَانٍ، وَأَيُّما رَجُلٍ ادَّانَ مِنْ رَجُلٍ دَيْناً، وَالله يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يُرِيدُ أَدَاءَهُ إِلَيْهِ، فَغَرَّهُ بالله، وَاسْتَحَلَّ مَالَهُ بالبَاطِلِ، لَقِيَ الله يَوْمَ يَلْقَاهُ وَهُوَ سَارِق»(١).

قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾(٢) نزلت ناهيةً عما كانوا يفعلونه من نكاح الأبناء حلائل الآباء، وذهب به مذهب الجنس ثم فسره بـ«مِن».

وسواء في التحريم من دخل بها الأب أو لم يدخل بها إذا عقد عليها.

وقال القاضي أبو يعلى(٣): قد يُطلق النكاح على العقد، قال الله تعالى: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلَّقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ [الأحزاب:٤٩]، وهو حقيقةٌ في الوطء مجاز في العقد، لأنه اسم للجمع، والجمع إنما يكون بالوطء، فسمّي العقد نكاحاً لأنه سبب إليه.

قوله تعالى: ﴿إلا ما قد سلف﴾ قال الأخفش(٤): المعنى: فإنكم تُعذَّبون به، إلا ما قد سَلَف فإن الله وضعه عنكم.

وقال قطرب(٥): لكن ما قد سَلَف فدعوه.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٢).

(٢) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الثالث عشر، وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس السابع والعشرين، مرة ثانية.

(٣) انظر: زاد المسير (٢/ ٤٤).

(٤) انظر: معاني الأخفش (ص:١٥٥).

(٥) انظر: زاد المسير (٢/ ٤٥).

قال الزمخشري[١]: إن قلت: كيف استثنى: "ما قد سلف" من "ما نكح آباؤكم"؟

قلت: كما استثنى «غير أن سيوفهم» من قوله:

ولا عيب فيهم ....[٢]

يعني: إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف، فانكحوه، فلا يحل لكم غيره، وذلك غير ممكن.

والغرض: المبالغة في تحريمه، وسدّ الطريق إلى إباحته، كما يعلَّق بالمحال في التأبيد في نحو قولهم: حتى يَبْيَضّ القار، وحتى يلج الجمل في سَمّ الخياط.

وقال بعض أهل المعاني: «إلا» بمعنى الواو، فالتقدير: ولا ما قد سلف، فيكون المعنى: اقطعوا ما أنتم عليه من نكاح حلائل الآباء ولا تبتدأوا نكاحهن.

ومنه قول الشاعر:

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ ... لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلاَّ الفَرْقَدَانِ[٣]

---

(١) الكشاف (١/ ٥٢٥).

(٢) البيت للنابغة الذبياني. وتمامه:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلولٌ من قراع الكتائب

انظر: ديوانه: (ص:١١)، والخزانة (٣/ ٣٢٧)، والهمع (١/ ٢٣٢)، ومعاهد التنصيص (٣/ ١٠٧)، والبحر المحيط (٦/ ١٩١)، والدر المصون (٢/ ٣٣٩، ٤/ ٥١٤)، وروح المعاني (١٦/ ١١٢).

(٣) البيت لعمرو بن معد يكرب، وقيل: لسوار بن المضرب، وقيل: لحضرمي بن عامر. انظر: ديوانه (ص:١٧٨)، والكتاب لسيبويه (٢/ ٣٣٤)، وخزانة الأدب (٣/ ٤٢١)، والإنصاف (١/ ٢٦٨)، وجمهرة أشعار العرب للقرشي (ص:٥)، ومعاني الأخفش (ص:٩١)، والأشباه والنظائر =

أي: والفرقدان أيضاً.

وعدل ابن جرير الطبري بها عن ظاهرها، فقال[١]: المعنى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ أي: مثل ما نكحوا في الجاهلية على الوجه الفاسد الذي لا يجوز مثله في الإسلام، إلا ما قد سلف في جاهليتكم من نكاح، لا يجوز ابتداؤه في الإسلام، فإنه معفو لكم عنه. وهذا كقول القائل: لا تفعل ما فعلت، يريد: مثل ما فعلت.

﴿إنه كان فاحشةً ومقتاً﴾ يعني: نكاح حلائل الآباء.

والمَقْت هو: أشد البُغْض، فالمعنى: إن هذا النكاح يوجب المقت لفاعله عند الله.

وقال الزجاج[٢]: كانوا يُسَمُّون نكاح امرأة الأب في الجاهلية مَقْتاً، ويُسَمُّون الولد منه: المَقْتِيُّ، فأُعلموا أن هذا الذي حُرِّم عليهم لم يزل منكراً عندهم ممقوتاً.

﴿وساء سبيلاً﴾ أي: قَبُحَ هذا الفعل طريقاً.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ

=

(٨/ ١٨٠)، وشرح الأشموني (١/ ٢٣٤)، وشرح المفصل (٢/ ٨٩)، ومغني اللبيب (١/ ٧٢)، والمقتضب (٤/ ٤٠٩).

والشاهد في البيت: وصف "كل" بقوله: "إلا الفرقدان" أي: غير الفرقدين.

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣١٨-٣١٩).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٢).

عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ قال الزجاج[1]: الأصل في أُمَّهَاتٍ: أُمَّاتٌ، ولكن الهاء زيدت مؤكدة، كما زادوا هاء في: أَهْرَقْتُ الماء، وإنما أصله: أَرَقْتُ.

وقيل: الأصل في أُمّ: أُمَّهَة. قال قصي بن كلاب:

.... أُمَّهَتِي خِنْدِفُ وَإِليَاسُ أَبِي[2]

والمراد: تحريم نكاحهن، لأنه المتبادر إلى الأفهام عند الإطلاق خصوصاً، وقد احتفت به قرائن في سباق الآية وسياقها، ومن له أنسٌ بعُرف اللغة يعلم أنهم يريدون بقوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ [المائدة:٣]: أكلها، وحُرِّم الطعام، أي: أكله، دون لمسه [وتقليبه][3] وحُرِّمت عليكم الجارية، أي: وطؤها، فيذهبون في تحريم كل عَيْن إلى ما هي مُعدَّة له.

وذهب جماعة من الأصوليين إلى أنها مجملة؛ لأن الأعيان لا تتصف بالتحريم حقيقة، وإنما يحرم فعلٌ يتعلق بها، فلا يدرى ما ذلك الفعل في الأمهات مثلاً، أو في

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٢١٤).

(٢) عجز بيت لقصي بن كلاب، وصدره: (عَبْدُ يُنَادِيهِمْ بِهَالٍ وَهَبِي). انظر: اللسان، مادة: (أمم، أمه)، والمحتسب (٢/ ٢٣٤)، والهمع (١/ ٢٣)، وشرح المفصل لابن يعيش (١٠/ ٣)، والخزانة (٣/ ٣٠٦)، والقرطبي (٥/ ١٠٧)، والدر المصون (٢/ ٣٤١)، والأمالي لأبي علي القالي (٢/ ٣٠١)، وروح المعاني (١٤/ ٢٠٠).

(٣) في الأصل: وتقبيله. وقد صححت في الهامش إلى: وتقليبه.

الميتة، هل هو نظر أو لمس أو وطئ؟ وقد أشرنا إلى إبطال هـذا مـن الوجـه الـذي ذكرناه.

ولأن المجملَ: ما تَرَدَّدَ بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، كالألفاظ المشتركة، كالقُرء للحيض والطُهْر، والشفق للبياض والحُمرة، واعتقاد الإجمال في هذه الآية بالمعنى المذكور المحدود فرية بلا مرية.

وأمهاتُ الرجل: النساء اللاتي يُنسب إليهن بجهة الولاد، من الذكور والإناث؛ كأم الأم، وأم الأب، وأم أبي الأب، وأم أبي الأب.

وبناتُه: كل أنثى ترجع إليه بالولادة من جهة الذكور والإناث؛ كبنت البنت، وبنت الابن، وبنت ابن البنت، وأخواته من جميع الجهات محرَّمات عليه، والعمَّات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت على نحو ما ذكرناه من الانتساب بجهة الذكور، والإناث، فهؤلاء المحرَّمات بالنسب.

ثم إن الله ذكر المحرَّمات بالسبب فقال: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾.

اتفق العلماء على أن الرضاع ينعقد سبباً لتحريم النكاح لهذه الآية ولقوله ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»[1].

وهذا الضابط لا ينخرم إلا في مسألتين:

إحداهما: يحرم على الرجل أختُ ابنه من النسب؛ لأنها بنت حليلته التي دخل بها، ولا تحرم عليه من الرضاع.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٩٣٥ ح٢٥٠٢)، ومسلم (٢/ ١٠٧١ ح١٤٤٧).

المسألة الثانية: تحرم عليه أمُّ أخيه من النسب، لأنها موطوءة أبيه، ولا تحرم عليه من الرضاع.

فصل

اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رضي الله عنه في مقدار الرضاع المحرّم، فنقل عنه حنبل[١]: أنها رضعة واحدة، وهو قول عمر، وعليّ، وابن عمر، وابن عباس، والحسن، والنخعي، والزهري، والثوري، وأبي حنيفة[٢]، ومالك[٣] لعموم الأدلة.

ونقل عنه محمد بن العباس: أنه ثلاثُ رضعات، لما أخرج مسلم في صحيحه بإسناده عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «لا تحرِّم المَصَّةُ ولا المَصَّتَانِ»[٤]، فمدلوله تحريم ما فوقهما.

ونقل عنه أبو الحارث[٥]: أنه خمسُ رضعات متفرقات. وهو المنصور في المذهب[٦]، وبه قال الشافعي[٧] رضي الله عنه؛ لما أخرج مسلم في صحيحه من

---

(١) حنبل بن إسحاق بن حنبل، أبو علي الشيباني، ابن عم الإمام أحمد وتلميذه. من حفاظ الحديث. له عن أحمد سؤالات يأتي فيها بغرائب ويخالف رفاقه. توفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين (طبقات الحنابلة ١/ ١٤٣، وطبقات الحفاظ ص:٢٧٢).

(٢) انظر: الهداية (١/ ٢٢٣).

(٣) انظر: التمهيد (٨/ ٢٦٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٧٣ ح١٤٥٠).

(٥) أحمد بن محمد، أبو الحارث الصائغ. كان الإمام أحمد يقدمه ويكرمه، وكان عنده بموضع جليل (طبقات الحنابلة ١/ ٧٤).

(٦) المغني (٨/ ١٣٧)، والإقناع (٤/ ١٢٦)، والمنتهى (٢/ ٣٦٢).

(٧) مغني المحتاج (٣/ ٤٢٥)، والمنهاج (ص:١١٧).

حديث عائشة، قالت: «أُنْزِلَ فِي الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ يُحَرِّمْنَ، فَنُسِخَ مِنْ ذَلِكَ خَمْسٍ، وَصَارَ إِلَى خَمْسِ رَضَعَاتٍ يُحَرِّمْنَ، فَتُوُفِّي رَسُولُ اللهِ وَالأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ»[١].

وهذا الحديث أدلُّ من الذي قبله، لأن هذا دَلَّ بمنطوقه، ودَلَّ ذاك بمفهومه.

قوله تعالى: ﴿وأمهاتُ نسائكم﴾ ذهب الأئمة الأربعة، وجمهور العلماء إلى تحريم أمهات النساء بمجرد العقد.

ونُقل عن علي رضي الله عنه، وابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير: أنه يتوقف تحريم نكاحهن على الدخول ببناتهن[٢].

وكان ابن عباس يقرأ: «وأمهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن»، ويقول: والله ما أُنزلت إلا هكذا[٣].

والذي يُثبت كونه قرآناً، ما نُقِل على لسان التواتر. وذلك مبهم في أُمهات النساء.

قال مسروق[٤]: هي مرسلة، فأرسلوا ما أرسل الله[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٧٥ ح١٤٥٢).

(٢) المغني (٧/ ٨٥)، والطبري (٤/ ٣٢١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٢٧٤)، والطبري (٤/ ٣٢٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٧٣) وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير.

(٤) مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة الكوفي، فقيه، من كبار التابعين، توفي سنة اثنتين وستين (سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٣، والتقريب ص:٥٢٨).

(٥) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٢٧٤)، وابن أبي شيبة (٣/ ٤٨٤)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٦٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٧٣) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي.

وسواءٌ في التحريم أمهات النساء من النسب والرضاع.

قوله: ﴿وربائبكم﴾ وهنَّ بنات الزوجات، وذكرُ الحجور خارجٌ مخرج الغالب، لا مخرج الشرط في تحريمهن، حتى لو كانت ربيبته في بلدة أخرى لم يرها، ولم يحضنها في حجره، فإنها تحرم عليه، إلا ما روي عن علي رضي الله عنه أنه شرط في تحريم الربائب كونهن في الحجور[1]، وبه قال داود[2].

قوله: ﴿من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾ متعلق بـ«ربائبكم»، ومعناه: أن الربيبة من المرأة المدخول بها، مُحرَّمة على الرجل، حلال له إذا لم يدخل بها.

قال صاحب الكشاف[3]: فإن قلت: هل يصح أن يتعلق بقوله: «وأمهات نسائكم»؟

قلت: لا يخلو إما أن يتعلق بهن وبالربائب، فتكون حرمتهن وحرمة الربائب غير مُبهمتين جميعاً. وإما أن يتعلق بهن دون الربائب، فتكون حرمتهن غير مبهمة، وحرمة الربائب مبهمة.

فلا يجوز الأول؛ لأن معنى «مِنْ»، مع أحد المتعلقين خلاف معناه مع الآخر. ألا تراك إذا قلت: وأمهات نسائكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فقد جعلت «مِنْ» لبيان النساء، وتمييز المدخول بهن [من غير المدخول بهن][4]، وإذا قلت: وربائبكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فإنك جاعل «مِنْ» لابتداء الغاية، كما

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٢٧٨-٢٧٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩١٢).

(٢) انظر: المحلى (٩/ ٥٣١)، والمغني (٧/ ٨٥).

(٣) الكشاف (١/ ٥٢٦-٥٢٨).

(٤) زيادة من الكشاف (١/ ٥٢٦).

تقول: بنات رسول الله ﷺ من خديجة، وليس بصحيح أن يعني بالكلمة الواحدة في خطاب واحد معنيان مختلفان.

ولا يجوز الثاني؛ لأن ما يليه هو الذي يستوجب التعليق به.

فإن قلت: ما فائدة قوله: "في حجوركم"؟

قلتُ: فائدة التعليل للتحريم، وأنهن لاحتضانكم لهن أو لكونهن بصدد احتضانكم وفي حكم التقلب في حجوركم إذا دخلتم بأمهاتهن، وتمكن بدخولكم حكم الزواج، وثبتت الخُلطة والألفة، وجعل الله بينكم المودّة والرحمة، وكانت الحال خليقة بأن تجروا أولادهن مجرى أولادكم.

فإن قلت: ما معنى: "دخلتم بهن"؟

قلت: هي كناية عن الجماع؛ كقولهم: بنى عليها وضرب عليها الحجاب، يعني: أدخلتموهن الستر. والباء للتعدية. واللمس ونحوه يقوم مقام الدخول [عند أبي حنيفة][1].

وعن عمر رضي الله عنه: أنه خلا بجارية فجردها، فاستوهبها ابن له، فقال: إنها لا تحل لك.

وعن مسروق: أنه أمر أن تباع جاريته [بعد موته][2]، وقال: أما إني لم أصب منها إلا ما يحرمها على ولدي من اللمس والنظر.

وهذا مذهب الحسن البصري، وعطاء، وحماد، والأوزاعي، وأبي حنيفة[3]،

---

(١) زيادة من الكشاف (١/ ٥٢٨).

(٢) مثل السابق.

(٣) انظر: مصنف عبد الرزاق (٦/ ٢٧٧)، والطبري (٤/ ٣٢٢-٣٢٣).

وأحمد.

وذهب ابن عباس وطاوس وعمرو بن دينار إلى أن التحريم لا يقع إلا بالجماع وحده، وهو مذهب الشافعي.

قوله: ﴿وحلائلُ أبنائكم الذين من أصلابكم﴾، الحلائل: الزوجات، اشتقاقهن من الحل أو من الحلول، كأنها تحل مع الزوج أين حَلّ.

وفي قوله: «من أصلابكم» بيان لحل زوجات الأدعياء. وقد تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش امرأة دعيِّه زيد بن حارثة.

﴿وأن تجمعوا﴾ في موضع رفع[1]، أي: وحرّم الجمع ﴿بين الأختين﴾، وحكم الجمع بينهما في الوطء بملك اليمين كالنكاح، في مذهب الأئمة الأربعة، وأكثر العلماء.

وقد روي عن أمير المؤمنين عثمان وعلي رضي الله عنهما أنهما قالا: أحلتهما آية وحرّمتهما آية[2]، يشيران إلى هذه الآية، وإلى قوله: ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ [النساء:٣] فرجَّح عثمان التحليل، وعَلِيّ التحريم[3].

والقول على قوله: «إلا ما قد سلف» كما قد سلف، إلا أن قول ابن جرير ثَمَّ لا

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٧٤)، والدر المصون (٢/ ٣٤٣).

(٢) أثر عثمان أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٥٣٨)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٦٣)، وابن أبي شيبة (٣/ ٤٨٣). وأما أثر علي فأخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٤٨٣)، والدارقطني في سننه (٣/ ٢٨١).

(٣) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (ص:٤١): أما عثمان فلم أجد عنه التصريح بالتحليل، وإنما توقف، وأما علي ففي رواية الموطأ (٢/ ٥٣٨): «فخرج من عنده -يعني عثمان- فلقي رجلاً من الصحابة -قال الزهري: أُرَاه علياً- فسأله، فقال: لو كان لي من الأمر شيء، ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالاً».

يصلح هاهنا.

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ رحمكم وغفر لكم ما كان منكم قبل التحريم.

۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾[(١)] سبب نزولها: «أن رسول الله ﷺ سبى أهل أوطاس[(٢)]، قيل له: يا رسول الله؛ كيف نقع على نساء قد عرفنا أنسابهن وأزواجهن؟ فنزلت هذه الآية، ونادى منادي رسول الله: ألا لا توطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تُسْتبرأ بحيضة»[(٣)].

واتفق القرّاءُ السبعة على فتح الصاد من «المحصَنات» هنا، وكسرها الكسائي فيما عدا هذا الموضع من "المحصنات" و"مُحصِنَات"، من أَحْصَنَّ أنفسهن بالعفاف، فهن مُحْصِنات.

ومَنْ فتح الصاد، أجرى الفعل على ما لم يُسمَّ فاعله، أي: أحصنهن غيرهن من زوج أو ولي. ولذلك فتح الكسائي الصاد هاهنا، لأن الآية نزلت في تحريم

---

(١) كتب في هامش الأصل: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الثامن والعشرين، مرة ثانية.

(٢) أوطاس: وادٍ في ديار هوازن، فيه كانت وقعة حنين بين مكة والطائف (معجم البلدان ١/ ٢٨١).

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٨٠ ح١٤٥٦).

ذوات الأزواج[1].

وأصلُ الإِحْصَان: المَنْع، ومنه: الحِصْن، والحِصان، ويُطلق على ذوات الأزواج، والعَفَائِف، والحرائر، وكل ذلك مذكور في تفسير «المحصَنات» هاهنا.

فإن كان المراد: ذوات الأزواج -وهو الأظهر في التأويل لما ذكرناه من سبب التنزيل- فيكون المعنى: وحُرِّمت عليكم المحصنات إلا ما ملكت أيمانكم من السبايا في الحروب فإنهن بعد الوضع إن كنّ حوامل، أو بعد الاستبراء إن كن حوائل، وإن لم يُطلَّقن لاختلاف الدار، وإلى هذا المعنى نظر الفرزدق في قوله:

وَذاتُ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْها رِمَاحُنَا ... حَلالٌ لِمَنْ يَبْنِي بها لَمْ تُطَلَّقِ[2]

فإن اشترى أَمَة محصنة بزوج، ففي انقطاع النكاح بذلك اختلافٌ بين الصحابة. والصحيحُ المشهور: أنه لا ينقطع.

وإن كان المراد: العفائف، فالمعنى: هنَّ حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم منهن بالنكاح أو غيره.

وإن كان المراد: الحرائر، فالمعنى: وحُرِّمت عليكم الحرائر بعد الأربع إلا ما ملكت أيمانكم فإنهن غير محصورات بعدد.

قوله تعالى: ﴿كتاب الله عليكم﴾ قال الزجاج[3]: هو مصدر مؤكد، أي: كتب

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٧٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٩٦-١٩٧)، والكشف (١/ ٣٨٤)، والنشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٠).

(٢) البيت للفرزدق. انظر: ديوانه (ص:٣٩٨)، والبحر المحيط (٣/ ٢٢٢)، والدر المصون (٢/ ٣٤٥).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٦).

الله عليكم كتاباً.

وقال نحاة الكوفة: هو منصوب على الإغراء بـ«عليكم». وفيه ضعف؛ لأن ما انتصب بالإغراء لا يتقدم على ما قام مقام الفعل[1].

قوله: ﴿وأَحَلَّ لكم﴾ عطفه على الفعل المضمر الذي نَصَبَ «كتاب الله» تقديره: كتب الله عليكم تحريم ذلك، وأحل لكم.

وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر: «وأُحِلَّ لكم» بضم الهمزة وكسر الحاء، عطفاً على قوله: «حُرِّمت عليكم»[2].

﴿ما وراء ذلكم﴾ أي: ما بعد هذه الأشياء المحرَّمة.

وعمومُ التحليل مخصوص بالسُّنَّة، فإنها حرّمت الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها[3].

﴿أن تبتغوا﴾ في موضع نصب، أو رفع على البدل من «ما» على حسب اختلاف القراءتين في «وَأُحِلَّ لَكُمْ»[4].

﴿أن تبتغوا بأموالكم﴾ إما نكاحاً بالصداق، وإما شراءً بالثمن.

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٧٥)، والدر المصون (٢/ ٣٤٥).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٧٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٦٨)، والكشف (١/ ٣٨٥)، والنشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٨-١٨٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٠-٢٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ١٩٦٥)، ومسلم (٢/ ١٠٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها». ولهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ولفظه: «نهى رسول الله ﷺ أن تُنكح المرأة على عمتها أو خالتها».

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٧٥)، والدر المصون (٢/ ٣٤٦).

وقيل: هو مفعول له[1]، بتقدير: بيّن لكم ما يحل مما يحرم إرادة أن تبتغوا بأموالكم.

﴿محصنين﴾ عاقدين للتزويج، أو متعففين.

﴿غير مسافحينَ﴾ أي: زانين، وسُمِّيَ الزنا سفاحاً؛ لسفح الماء ضائعاً، لا في نكاح، ولا مِلْك.

وهما حالان من المضمر في «تَبْتَغُوا»[2].

قوله: ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ الضمير في «به» راجع إلى لفظ «ما»، والمعنى: فما تَلَذَّذْتُم وانتفعتم من النساء بالنكاح الصحيح.

﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي: أعطوهن مهورهن، ﴿فريضةً﴾ حال، أو مصدر في موضع الحال[3].

﴿ولا جناح عليكم﴾ أي: لا إثم عليكم ﴿فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ من وفاق أو افتراق، أو زيادة أو نقصان في الصداق.

فصل

قد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية نزلت في المتعة وإباحتها ثم نُسِخت بعد[4].

والصحيح: أنها محكمة، وأن المتعة إنما أبيحت بالسُّنَّة، ثم نُسِخت بالسُّنَّة،

---

(١) وهو قول الزمخشري في الكشاف (١/ ٥٢٩).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٧٥)، والدر المصون (٢/ ٣٤٧).

(٣) مثل السابق.

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٣٢٥)، ومكي بن أبي طالب (ص:٢٢١)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٦٩).

والأحاديث الناسخة لإباحتها مخرجة في الصحيحين[١].

وقد روي أن ابن عباس: كان يفتي بإباحتها، ويقرأ: «فما استمتعتم به منهن إلى أجلٍ مسمى»[٢]، فرجع عن ذلك عند موته، وقال: اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة، وقولي في الصرف[٣].

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ أي: فضلاً وسعة، ﴿أن ينكح المؤمنات﴾ يريد: الحرائر المؤمنات، ﴿فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المئؤمنات﴾ أي: من إمائكم المؤمنات، واحدتهن: فتاة، والعبد: فتى، وقد يُطلق الفتى على الحُرِّ أيضاً، فيقال للجارية الشابة: فتاة، وللغلام: فتى، والكامل من الرجال: فتى، وإن لم يكن شاباً.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٩٦٦ ح٤٨٢٥)، ومسلم (٢/ ١٠٢٢ ح١٤٠٧).

(٢) المصاحف لابن أبي داود (ص:٨٧).

(٣) أما رجوعه عن المتعة؛ فرواه الترمذي (٣/ ٤٣٠ ح١١٢٢). وأما رجوعه عن الصرف؛ فرواه ابن ماجه (٢/ ٧٥٩ ح٢٢٥٨).

قال النابغة الجعدي[1]:

فَتـىً تَـمَّ فيـهِ مَـا يَـسُرُّ صَـدِيقَهُ عَـلَى أَنَّ فيـهِ مَـا يَـسُوءُ الأَعَادِيَـا
فَتـىً كَمُلَـتْ أَخْلاقُـهُ غَـيْرَ أَنَّـهُ جَوادٌ فَـمَا يُبْقِـي مِـنَ المَـالِ بَاقِيَـا[2]

فصل

ذهب الإمامان أحمد والشافعي إلى أن القادر على طَوْل الحُرّة لا يجوز له نكاح الأَمَة، لما يستلزم من استرقاق الولد تبعاً للأم.

وقال أبو حنيفة: يجوز له ذلك.

فأما العاجز عن طَوْل الحُرَّة فيُباح له نكاح الأَمَة المؤمنة للآية، وهو مذهب الأكثرين.

وقال أبو حنيفة وبعض فقهاء العراق: لا يُشترط كونها مؤمنة، وحملوا الآية على الفضيلة والاستحباب، ألا تراه قال في أول الآية: «المحصنات المؤمنات»، فوصف الحرائر بالإيمان، وليس بشرط في جواز نكاح الحرائر بالإجماع[3].

﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ أعْلَمَ أنه لما كان نكاح الأَمَة مُقيَّداً بإيمانها إما إيجاباً أو

(١) قيس بن عبد الله بن عدس الجعدي العامري، أبو ليلى، شاعر زمانه، صحابي من المعمرين، وأنشد بين يدي النبي ﷺ، وسمي النابغة لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله (سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٧، والأعلام ٥/ ٢٠٧).

(٢) البيتان للنابغة الجعدي من قصيدة يرثي فيها أخاه وَحْوَح. انظر: ديوانه (ص:١٧٤-١٧٥)، والخزانة (٣/ ٣٣٦)، وهو في ديوان النابغة الذبياني (ص:١٢٧). وانظر البيت الثاني في: اللسان، مادة: (وحح).

(٣) الهداية (١/ ١٩٤)، والروضة (٧/ ١٢٩)، والمغني (٧/ ١٠٤).

استحباباً على اختلاف المذهبين، وكان مجردُ الاعتراف بالإيمان كافياً في ترتيب الأحكام الدنيوية عليه بالإجماع أشار بقوله: ﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ إلى أن الجزاء على ما أضمره الجَنان، لا على ما أظهره اللسان.

وفي قوله: ﴿بعضكم من بعض﴾ تأنيس لذوي النفرة عن نكاح الإماء تَشَرُّفاً وتَعَظُّماً عليهن، حيث ذكَّرهم الله ما بينهم من الاشتراك في السبب والاشتباك في النسب.

قال ﷺ: «كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَئُوهُ، لَيْسَ لأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلا بالتقوى»[1].

قوله: ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ أي: بإذن سادتهنّ، ﴿وآتوهن أجورهن﴾ أي: مُهورهن ﴿بالمعروف﴾ من غير مماطلة وممانعة.

والأمر بإعطائهن المهور لا ينافي كونها مملوكة لمواليهن، وأضيفت المهور إليهن؛ لأنها من كَسبهن.

وقيل: هو على حذف المضاف، تقديره: فآتوا مواليهن أجورهن.

قوله: ﴿محصنات غير مسافحات﴾ حالان من الضمير المنصوب في «فَانْكِحُوهُنَّ» على معنى: تزوجوهن عفائف غير زَوانٍ[2].

﴿ولا متخذات أخدان﴾ وهو جمع خِدْن، وهو الصَّديق، وكانت الواحدة

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥).

ومعنى «طَفُّ الصَّاع»، أي: قريب بعضكم من بعض، لأن طف الصاع قريب من ملئه (تهذيب اللغة، مادة: طف).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٧٦)، والدر المصون (٢/ ٣٥٠).

منهن تأخذ لها خَدْناً، تُزانيه سِرّاً، ولا يعتقدون حراماً، فالمعنى: غير مجاهرات بالزنا، ولا مُسِرّات به.

وقوله: ﴿فإذا أُحْصِنَّ﴾ أي: زُوِّجن -يعني: الفتيات-.

وقرأ أهل الكوفة إلا حفصاً: «أَحْصَنَّ»[1]، بفتح الهمزة والصاد.

وقال ابن جرير[2]: أَسْلَمْنَ.

وقيل: أُحْصِنَّ بالتزويج.

﴿فإن أَتَيْنَ بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ أي: نصف ما على الحرائر البالغات العاقلات الأبكار، «من العذاب» وهو الجَلْد؛ لأن القتل لا يتنصف، فيجب على الأَمَة إذا أتت بالفاحشة وهي الزنا؛ خمسون جلدة.

قوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى نكاح الفتيات عند عدم الطَوْل، ﴿لمن خشي العَنَتَ منكم﴾، أي: خاف الزنا بسبب ما عنده من الغُلْمَة وشدة الشبق، فأباح الله نكاح الإماء شرطين:

أحدهما: عدم طَوْل الحرة.

والثاني: خوف الزنا.

قال الخرقي رحمه الله[3]: وله أن ينكح من الإماء أربعاً، إذا كان الشرطان فيه قائمين.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٧٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٩٨)، والكشف (١/ ٣٨٥)، والنشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣١).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢١).

(٣) مختصر الخرقي (ص:٨٥).

ونص عليه إمامنا أحمد رضي الله عنه، في إحدى الروايتين.

والرواية الأخرى[١]: ليس له أن يتزوج إلا أَمَة واحدة، لأن خوف العَنَت يزول بها، فيختل أحد شرطي الحِلّ، فينتفي الحِلّ.

﴿وأن تصبروا﴾ يعني: عن نكاح الفتيات تعففاً، ﴿خير لكم﴾ من التسبب إلى استرقاق أولادكم.

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ قال الزمخشري[٢]: أصله: أن يُبين، فزيدت اللام للتوكيد، كما زيدت في «[لا][٣] أبا لك» لتأكيد إضافة الأب.

وقال الزجاج[٤]: قال الكوفيون: معنى اللام هاهنا معنى «أَنْ»، وهذا غلط أن تكون لام الخفض تقوم مقام «أَنْ» وتؤدي معناها، لأن ما كان في معنى «أن» إذا دخلت عليه اللام تقول: جئتك كي تفعل كذا وكذا، وجئتك لكي تفعل كذا وكذا، فاللام في قوله: «يريد الله ليبين لكم» كاللام في: «كَيْ».

---

(١) انظر: المغني (٧/ ١٠٦).

(٢) الكشاف (١/ ٥٣٣).

(٣) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٤٢-٤٣).

أنشد محمد بن يزيد(١):

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالوُفُودُ شُهودُ(٢)

فأدخل هذه اللام على «كي»، ولو كانت بمعنى «أَنْ» لم يدخل اللام عليها.

والمعنى: يريد الله ليبين لكم شرائع دينكم، ومصالح دنياكم.

﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ من الأنبياء والأولياء، لتهتدوا بأنوارهم، وتقتدوا بآثارهم، ﴿ويتوب عليكم﴾ أي: يرشدكم إلى ما يكون سبباً لتوبتكم من أعمال الطاعات، ويُرجعكم عما كنتم فيه قبل هذا من السيئات.

﴿والله عليم﴾ بما يصلحكم، ﴿حكيم﴾ في تدبيره فيكم.

﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ أي: أن تفعلوا فعلاً يتوب به عليكم، ويُكفِّر عنكم تلك الآثام والفواحش.

﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾ وهم الكَفَرة والفَجَرة، ﴿أن تميلوا﴾ عن الحق الذي جاءكم به نبي الرحمة، ﴿ميلاً عظيماً﴾ فالمجوس يدعونكم إلى ما يستحلونه من نكاح ذوات المحارم، ويجادلونكم في ذلك، واليهود والنصارى

---

(١) هو محمد بن يزيد بن الأزدي، أبو العباس، المبرد، صاحب الكامل. كان إماماً علاّمة فصيحاً مفوهاً، صاحب نوادر وطرف. توفي في أول سنة ست وثمانين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٧٦-٥٧٧).

(٢) البيت لقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري. كان ملك الروم قد أرسل إلى معاوية رجلاً طويلاً مسرف الطول، يتحداه أن يكون لديه مثله، فأرسل معاوية إلى قيس، فخلع قيس سراويله وقال للرومي ألبسه، فلبسه فبلغ ثدييه، وضحك منه الناس، ولام قيساً قومه في خلع سراويله، فأنشد هذا الشعر. انظر القصة والشعر كاملاً في الكامل للمبرد ١/ ٣١٨ ط التجارية. وانظر البيت في: اللسان، مادة: (سرل)، والقرطبي (٥/ ١٤٨)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٠٢-١١٢).

يدعونكم إلى ضلالهم، وأهل الفجور إلى شهواتهم.

﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ أي: يُيَسِّرَ عليكم، فلذلك أرسل إليكم محمداً بالحنيفية السهلة السمحة، وأباح لكم نكاح الإماء عند عدم الطَّوْل إلى الحرائر من النساء.

﴿وخُلِق الإنسان ضعيفاً﴾ قال ابن عباس وجمهور المفسِّرين: لا يصبر عن النساء، وعلى مشاق الطاعات(١).

قال سعيد بن المسيب: ما أيس الشيطان من بني آدم إلا أتاهم من قِبَل النساء، فقد أتى عليَّ ثمانون سنة، وذهبت إحدى عَينيّ، وأنا أعشو بالأخرى، وإنَّ أخوفَ ما أخاف عليّ فتنة النساء(٢).

وقال معاذ بن جبل: أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسوَّرن الذهب، ولَبِسْنَ رياط الشام، وعصب اليمن، فأتعبن الغني، وكلَّفن الفقير ما لا يجد(٣).

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد أن النبي ﷺ قال: «مَا تَرَكْتُ فِي النَّاسِ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاء»(٤).

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٣٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٢٦) كلاهما عن طاووس. وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٦٠) من قول طاووس ومقاتل، والسيوطي في الدر (٢/ ٤٩٤) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طاووس.

(٢) أخرجه الثعلبي (٣/ ٢٩١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٣٦-٢٣٧)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥/ ١٩٥٩ ح٤٨٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٧-٢٠٩٨ ح٢٧٤٠).

وقال الحسن في قوله: ﴿وخُلِق الإنسان ضعيفاً﴾ قال: هو خَلْقُهُ من ماءٍ مهين[١].

وقال الزجاج[٢]: ضعيف العزم عن قهر الهوى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إلا أن تكون تجارة﴾ قرأ أهل الكوفة: «تجارةً» بالنصب، والباقون: بالرفع[٣]، وتعليلهما ما أسلفناه في آية الدَّيْن[٤].

فصل

أخرج أبو داود في سننه بإسناده، عن ابن عباس قال: «كَانَ الرَّجُلُ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ مِن النَّاسِ بَعْدَ مَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالبَاطِلِ﴾ فَنُسِخَ ذلِكَ بالآيَة الأخرى الَّتي في النُّورِ: فقَالَ: "لَيْسَ

---

(١) أخرجه الثعلبي (٣/ ٢٩١). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٦٠).

(٢) في معاني الزجاج (٢/ ٤٤) قال: "ضعيفاً" أي: يستميله هواه. وانظر: زاد المسير (٢/ ٦٠).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٧٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٩٩)، والكشف (١/ ٣٨٦)، والنشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣١).

(٤) في سورة البقرة، عند الآية رقم: ٢٨٢.

عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ"[(١)]»[(٢)].

وهذا عند الفقهاء ليس من باب الناسخ والمنسوخ كما قررناه فيما مضى.

قوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ قال ابن عباس: لا يقتل بعضكم بعضاً[(٣)]، وهذا مثل قوله: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ [البقرة:٥٤].

وقيل: هو على ظاهره، نهاهم سبحانه وتعالى أن يقتلوا أنفسهم بطريق المباشرة أو السبب، ويؤيد هذا حديث عمرو بن العاص قال: «احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غزوة ذات السلاسل[(٤)]، فَأَشْفَقْتُ إِن اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلَكَ، فَتيَمَّمْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحِ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: يَا عَمْرُو! صَلَّيْتَ بِأَصْحَابكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي سمعت الله يقول: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً»[(٥)].

---

(١) كذا في الأصل وسنن أبي داود، وصواب الآية في سورة النور: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ... الآية﴾[النور:٦١].

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٤٣ ح٣٧٥٣). وانظر دعوى النسخ في: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٧٢-٧٣)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٣-٣٤)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٧١-٢٧٣).

(٣) ذكره الماوردي (١/ ٤٧٥) من قول عطاء والسدي، والواحدي في الوسيط (٢/ ٣٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٦١).

(٤) ذات السلاسل: موضع معروف بناحية الشام في أرض بني عذرة، قال ابن هشام: سار عمرو بن العاصي رضي الله عنه حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له: السلسل، وقال: وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة (تهذيب الأسماء واللغات ٣/ ١٠٧-١٠٨).

(٥) أخرجه أبو داود (١/ ٩٢ ح٣٣٤)، وأحمد (٤/ ٢٠٣).

وفي الحديث أحكام، منها: جواز التيمم في البرد في السَّفَر، وعدم وجوب القضاء في الحَضَر، وجواز اقتداء المتوضئ بالمتيمم، وأن التيمم لا يرفع الحدث؛ لقوله: «وأنت جُنُب».

وقال بعض أهل المعاني: «ولا تقتلوا أنفسكم» بارتكاب المعاصي.

وقال الفضيل بن عياض[١]: لا تغفلوا عن حظِّ أنفسكم، فإن مَن غفل عن حظ نفسه فقد قتلها[٢].

﴿إن الله كان بكم﴾ يا أُمَّة محمد ﴿رحيماً﴾، حيث حرّم عليكم ما أوجبه على بني إسرائيل من قتل الأنفس، وغيره من الأعمال الشاقة والتكاليف الشديدة.

﴿ومَنْ يفعل ذلك﴾ إشارة إلى القتل، أو القتل مع انضمام أكل الأموال بالباطل.

وقال ابن عباس: الإشارة إلى جميع ما نهى عنه من أول السورة إلى هاهنا[٣].

﴿عدواناً وظلماً﴾ مصدران في موضع الحال[٤].

﴿فسوف نُصْليه﴾ وقرئ: «نَصْلِيهِ» بفتح النون[٥]، وقرئ بالتشديد[٦].

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي، أبو علي، من أكابر العباد الزهاد الصلحاء، أصله من خراسان. توفي سنة سبع وثمانين ومائة (سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٢١، والأعلام ٥/ ١٥٣).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٢٩٣)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٣٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٦٢).

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٦٢).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٧٧)، والدر المصون (٢/ ٣٥٤).

(٥) مختصر ابن خالويه في شواذ القرآن (ص:٢٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٩)، والمحتسب (١/ ١٨٦).

(٦) انظر: البحر المحيط (٣/ ٢٤٣).

﴿ناراً﴾ يريد: ناراً مخصوصة شديدة العذاب.

﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ هيّناً.

قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفِّر عنكم سيئاتكم﴾.

أخرجا في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبقَاتِ، قالوا: يَا رَسُولَ الله! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ الله إلاَّ بالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذفُ المُحْصِنَاتِ الغَافِلات»[1].

وفي حديث آخر: «أن النبي ﷺ سُئِل عن الكَبَائِرُ، فَقَالَ: هي تِسْعٌ، فعدَّ السبع وزاد: عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ المُسْلِمَيْنِ، وَاسْتِحْلالُ البَيْتِ الحَرَامِ»[2].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه عدَّ في الكبائر: «واليمين الغَمُوس»[3].

وفيهما أيضاً من حديث أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُمْ بأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، فقَالَ: الإِشْرَاكُ بالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ، وَقَالَ: وَشَهَادَةُ الزُّورِ، وشهادة الزور، فَمَا زَالَ يُكَرّرها، حَتَّى قُلْنَا: ليته سكت»[4].

وفيهما أيضاً من حديث ابن مسعود، قال: «سألت رسول الله ﷺ: أَيُّ الذَّنْب

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٠١٧ ح٢٦١٥)، ومسلم (١/ ٩٢ ح٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ١١٥ ح٢٨٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٤٥٧ ح٦٢٩٨)، ولم أقف عليه عند مسلم.

(٤) أخرجه البخاري (٢/ ٩٣٩ ح٢٥١١)، ومسلم (١/ ٩١ ح٨٧).

أَكْبَرُ؟»[١]، وقد سبق الحديث في أوائل البقرة.

وروي عن ابن مسعود وابن عباس: «أن الكبائر مذكورة من أول سورة النساء إلى هاهنا»[٢].

وروي عن ابن عباس: «أنها كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب»[٣].

وفي رواية عنه: أنها كل ذنب أوجب الله عليه النار في الآخرة، والحد في الدنيا[٤].

وقال سعيد بن جبير: «قال رجل لابن عباس: كم الكبائر، سبع هي؟ قال: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»[٥].

فهذا مجموع ما صحَّت به الأخبار والآثار في الكبائر، أعاذنا الله منها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥١٧ ح٦٤٦٨)، ومسلم (١/ ٩١ ح٨٦).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٣٧)، والثعلبي (٣/ ٢٩٥)، والحاكم (١/ ١٢٧) كلهم عن ابن مسعود. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٠٥) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٧١)، والثعلبي (٣/ ٢٩٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٩٩) وعزاه لابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٤٢)، والثعلبي (٣/ ٢٩٦) كلاهما عن الضحاك. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٩٩) وعزاه لابن جرير عن الضحاك.

(٥) أخرجه الطبري (٥/ ٤١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٣٤)، والثعلبي (٣/ ٢٩٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٠٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فإن قيل: لا شبهة أن ترك الصلاة أعظم جُرْماً من كثير من الكبائر المعدودة في الأحاديث، لا سيما وقد صار عَلَمُ العلماء أحمد رضي الله عنه إلى تكفير تاركها، وهو قول للشافعي[1] رضي الله عنه وكذلك منع الزكاة، وترك صوم رمضان، وترك الحج، فما بالها لم تُذكر في الكبائر؟!

قلت: هذه مباني الإسلام وأركانه، فتركها مؤثر في وهن الإسلام وضعفه، ومخرج للمتلبس بمجانبتها عن أن يكون راسخ القدم في الإسلام، فيدخل في حيز الكفر، وهو أعظم الكبائر المعدودة في الأحاديث، فكان ترك ذكرها في الكبائر مُشعِراً بكونها مضارعة للكفر.

ويحققُ هذا المعنى قولُه ﷺ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاة»[2].

وقوله في تارك الحج: «فليمت إن شاء يهودياً، وإن شاء نصرانياً»[3].

وقتال أبي بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة، حتى ألحقوهم بالمرتدّين بذلك.

قال السدي: "نكفر عنكم سيئاتكم" يريد: الصغائر[4].

﴿وندخلكم مُدْخَلاً كريماً﴾ قرأ نافع: «مَدْخَلاً» بفتح الميم، هنا وفي الحج[5]:

---

(١) انظر: المجموع (٣/ ١٧)، والمغني (٢/ ١٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٨٨ ح٨٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣/ ١٧٦ ح٨١٢)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٣٤ ح٨٤٤٣).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٤٤)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٣٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٠٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) الحج: ٥٩، في قوله تعالى: ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾.

وضَمَّها الباقون[1].

واتفقوا على الضم في قوله: ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠]، لقوله: ﴿أَدْخِلْنِي﴾.

قال أبو علي[2]: يجوز أن يكون المَدْخَل مصدراً، ويجوز أن يكون مكاناً سواء ضَمَّ أو فتَح.

قال الواحدي[3]: الأولى أن يكون مكاناً، لأن المفسِّرين قالوا: هو الجنة.

وقال مكي[4]: حُجَّةُ من فتَحَ الميم: أنه جعله مصدراً لفعل ثلاثي مضمر، دَلَّ عليه الرباعي الظاهر، وهو قوله: «يدخلكم» أي: يدخلكم فتدخلون مُدخلاً، أي: دخولاً، فدخول ومَدخل مصدران.

ويجوز أن يكون مكاناً، فيتعدى إليه «يدخلكم» على المفعول به، وحَسُنَ ذلك لأنه قد وُصِفَ بالكريم.

وحُجَّة مَنْ ضَمَّ الميم: أنه أجراه مصدراً على ما قبله وهو «يدخلكم»، ولم يحتج إلى إضمار ثلاثي، فالميم في حركتها كحرف المضارعة في حركته، إن كان مفتوحاً فَتَحْتَ الميم، وإن كان مضموماً ضَمَمْتَ الميم.

والكريم: الشريف.

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٧٨-٧٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٩٩-٢٠٠)، والكشف (١/ ٣٨٦-٣٨٧)، والنشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٢).

(٢) الحُجّة للفارسي (٢/ ٧٩).

(٣) الوسيط (٢/ ٤٣).

(٤) الكشف (١/ ٣٨٦-٣٨٧).

وقيل: الحسن، ومنه: ﴿من كل زوج كريم﴾ [الشعراء:٧].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

قوله: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾[1] أخرج الترمذي من حديث أم سلمة قالت: «قلت: يا رسول الله؛ يغزو الرجال، ولا تغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث».

وفي رواية أخرى: «فياليتنا كنا رجالاً، فأنزل الله: ﴿ولا تتمنوا﴾».

قال مجاهد[2]: وأُنزل فيها: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ [الأحزاب:٣٥]. وكانت أمُّ سلمة أولَ ظَعِينَة[3] قدمت المدينة مهاجرة[4].

وهذا نهيٌ للإنسان أن يتمنى مال غيره، أو جاهه أو نعمة من النِعَم التي أنعم الله بها عليه، فإنه الحسد المذموم.

قال الحسن: لا تَتَمَنَّ مال فلان، ولا مال فلان، فلا تدري لعل هلاكك في ذلك المال[5].

---

(١) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الرابع عشر، وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس التاسع والعشرين، مرة ثانية.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٤٧).

(٣) الظَّعينَة: المرأة (اللسان، مادة: ظعن).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٧ ح٣٠٢٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٥ ح٣١٩٥).

(٥) أخرجه الطبري (٥/ ٤٧). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٥٠٧) وعزاه لابن جرير.

﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ قال قتادة ومقاتل[١]: يعني: من الثواب والعقاب، فالمرأة تُثاب كثواب الرجل، وتأثم كإثمه، فإن الرجال قالوا حين رأوا ما فُضِّلوا به، حين أُضعف لهم الميراث: إنا لنرجو أن نُفضَّل على النساء بحسناتنا كما فُضِّلنا في الميراث، وقال النساء: إنَّا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال، كما لنا من الميراث على النصف من نصيبهم[٢].

﴿واسئلوا الله من فضله﴾ وقرأ ابن كثير والكسائي: «وسَلُوا» بطرح الهمز في كل موضع جاء الأمر مواجهاً به وقبله واو أو فاء[٣]، نحو: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ [الأنبياء:٧]، ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ [الزخرف:٤٥].

والمعنى: لا تتمنوا ما فضَّل الله به غيركم، واسألوا الله من فضله وأن يرزقكم كما رزق غيركم، فإنَّ خزائنَه لا تنفد.

وفي قوله: ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ تنبيهٌ على أنه قَسَمَ نِعَمَهُ بين عباده على حسبما اقتضته الحكمة الإلهية.

وفيما يرويه النبي ﷺ عن الله عز وجل أنه قال: «إني أُدَبر عبادي بعلمي فيهم، إني عليم خبير»[٤].

---

(١) تفسير مقاتل (١/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٤٨)، والثعلبي (٣/ ٢٩٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٠٨) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٧٩-٨٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٠٠-٢٠١)، والكشف (١/ ٣٨٧)، والنشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٢).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٩) من حديث أنس مطولاً. وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٣٢) من حديث أنس أيضاً.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك ... الآية﴾ قال صاحب الكشاف[1]: «مما ترك» تبيين لـ«كل»، أي: ولكل شيء مما ترك الوالدان والأقربون من المال، «جعلنا موالي»: وُرَّاثاً يلونه ويحرزونه. أو لكل قوم جعلناهم موالي نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، على أنَّ «جعلنا موالي» صفة لـ«كل»، والضمير الراجع إلى «كل» محذوف، والكلام مبتدأ وخبر، كما تقول: لكل مَن خلقه الله إنساناً من رزق الله، أي: حظ من رزق الله. أو ولكل أحد جعلنا موالي مما ترك، أي: وُرَّاثاً مما ترك، على أن «من» صلة "موالي"، لأنهم في معنى الوُرَّاث، وفي «ترك» ضمير «كل»، ثم فسَّر الموالي بقوله: "الوالدان والأقربون"، كأنه قيل: مَنْ هم؟ فقيل: الوالدان والأقربون.

قلت: فعلى الوجهين الأوَّلين ارتفع "الوالدان" بإسناد الفعل إليه، و"الوالدان" هم الموروثون.

وعلى الوجه الثالث: ارتفع على معنى: هم الوالدان، كما ذكر، وهم الوُرَّاث.

﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ مبتدأ تضمن معنى الشرط، ولذلك وقع في خبره الفاء، ويجوز أن يكون معطوفاً على «الوالدان»[2].

---

(١) الكشاف (١/ ٥٣٥-٥٣٦).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٧٨)، والدر المصون (٢/ ٣٥٧).

قرأ أهلُ الكوفة: «عَقَدَت» بغير ألف، وقرأ الباقون بـالألف[١]. فمَـنْ أثبـت الألف فلوجود المعاقدة، فهو من باب المفاعلة، ومَنْ نفاها اكتفى بإسناد العقد إلى الأيمان، ولم يحتج إلى المفاعلة، المعنى: والذين عقدت أيمانكم حِلْفَهم. والمراد بهـم الحلفاء، وكان الرجل إذا عاقد الرجل قال: دمي دمـك، وثـأري ثـأرك، وحـربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك، وتعقل عني وأعقـل عنـك، فـأقرَّهم الإسلام على ذلك، وجعل مـيراث الحليـف الـسُدُس، فـإن كـان المـراد بقولـه: ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ الميراث، فهو منـسوخ عنـد الأكثـرين، وإليـه ذهـب الأئمـة الثلاثة[٢].

وقال أبو حنيفة وأصحابه: هذا الحكم باق.

غير أنهم جعلوا ذوي الأرحام أولى، بقوله: ﴿وأولوا الأرحـام بعـضهم أولى ببعض﴾ [الأنفال:٧٥].

وإن كان المراد به المعاضدة والمناصرة، فحكمه باق لم يُنسخ، لقولـه ﷺ: «لا حِلْفَ في الإِسْلامِ، وَأَيُّما حِلْفٍ كَانَ في الجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلامُ إلا شِدَّة»[٣].

وقيل: المراد بقوله: «الذين عقدت أيمانكم» الذين آخى رسول الله بينهم، وهم المهاجرون والأنصار، كانوا يتوارثون بالأُخوة دون ذوي أرحامهم، فنُسخ عنـد

(١) "عَاقَدَتْ". انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٨٠)، والحجة لابـن زنجلـة (ص:٢٠١)، والكـشف (١/ ٣٨٨)، والنـشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحـاف فـضلاء البـشر (ص:١٨٩)، والـسبعة في القـراءات (ص:٢٣٣).

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٣٣١-٣٣٥)، والناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة (ص:٧٣)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٤)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٧٣-٢٧٨).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ١٩٦١ ح٢٥٣٠).

الأكثرين بالآية المذكورة.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

قوله: ﴿الرجال قوّامون على النساء﴾ نزلت حين لَطَمَ سعد بن الربيع زوجته، فذهبت إلى النبي ﷺ تطلب القِصاص[(١)].

والمعنى: الرجالُ قائمون، مسيطرون، ومُسلَّطون على تأديب النساء وتهذيبهن بالحق.

روى هشام بن محمد[(٢)] عن أبيه في قوله: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ قال: إذا كانوا رجالاً.

وأنشد:

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٥٨)، ومجاهد (ص:١٥٥)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٤٤-١٤٥). وذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ٣٠٢)، وأبو داود في مراسيله (ص:١٥٥).

(٢) هشام بن محمد بن السائب الكلبي، أبو المنذر، الأخباري، صاحب سمر ونسبة، متروك. توفي سنة أربع ومائتين (تاريخ بغداد ١٤/ ٤٥، والكامل في ضعفاء الرجال ٧/ ١١٠).

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ امْرَءاً وَنَارٍ تُوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارَا[١]

قوله: ﴿بما فضَّل الله﴾ أي: بسبب تفضيل الله ﴿بعضهم﴾ يعني: الرجال ﴿على بعض﴾ يعني: النساء، وذلك بزيادة العقل، والعلم، والفضل، والحزم، والجهاد، وحفظ الذمار، والصلاحية للخلافة، والقضاء، والإمامة، والشهادة.

﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي: بما أخرجوا من المهور والنفقات، ﴿فالصالحات قانتات﴾ مطيعات لله، ﴿حافظات للغيب بما حفظ﴾ يعني: ما غاب عنه الأزواج من الفروج والأموال.

وفي الحديث: «خيرُ النساء امرأة إن نَظَرْتَ إليها سَرَّتْكَ، وإن أَمَرْتَها أَطَاعَتْكَ، وإذا غِبْتَ عنها حَفِظَتْكَ»[٢].

﴿بما حفظ الله﴾ أي: بحفظ الله إياهن حين أوصى الأزواج بهن في كتابه وعلى لسان رسوله، أو بما حفظ الله مهورهن.

وقرأت على الشيخين أبي البقاء النحوي وأبي عمرو الياسري لأبي جعفر ابن القعقاع: «بما حفظ اللهَ» بالنصب[٣]، على أن «ما» موصولة، أي: حافظات للغيب بالأمر الذي يحفظ حق الله، وأمانة الله، وهو التعفف، والتحصن، والنصيحة للرجال.

---

(١) البيت لأبي ذؤاد الإيادي، ونسب لحارثة بن الحجاج. انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٦٦)، والأصمعيات (ص:١٩١)، وخزانة الأدب (٩/ ٥٩٢)، وابن يعيش (٣/ ٢٦)، والبحر المحيط (٣/ ٢٤٨)، والقرطبي (١٥/ ٣١٣، ١٦/ ١٥٧)، وروح المعاني (١٠/ ٣٣، ١١/ ١٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ١٢٦ ح١٦٦٤) من حديث ابن عباس، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) النشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٨٩).

قوله: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾ قال ابن عباس: الخوف هاهنا بمعنى العلم، وقيل: بمعنى الظن[١].

والنُّشُوز والنُّشُوص بمعنى واحد، وهو: تَرَفُّعُ المرأة عن طاعة زوجها، مأخوذ من النَّشْزُ؛ وهو ما ارتفع من الأرض[٢].

﴿فعظوهن﴾ أي: ذكِّروهن بما وجب عليهن لأزواجهن.

﴿واهجروهن في المضاجع﴾ أي: في الفُرُش، وقيل: في البيوت.

فإن قلنا: في الفُرُش، فيكون كناية عن ترك الجِماع، وهو قول سعيد بن جبير[٣] ومقاتل[٤].

أو يكون أمراً بهجر الفراش والمضاجعة فيه، وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة[٥]. وهذان قولان عن ابن عباس[٦].

وإن قلنا: في البيوت، فالمعنى: لا تُبايتوهن في البيوت التي يضطجعن فيها.

وقيل: «في» للسببية لا للظرفية، فالمعنى: اهجروهن بسبب تخلفهن عن المضاجع إذا دعوتموهن إليها.

والأول أشهر وأظهر.

---

(١) ذكره الطبري (٥/ ٦١) عن ابن عباس، والماوردي (١/ ٤٨١-٤٨٢) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٥٧).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (نشز).

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ٦٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٧٦).

(٤) تفسير مقاتل (١/ ٢٢٨).

(٥) أخرجه الطبري (٥/ ٦٤-٦٥)، ومجاهد (ص:١٥٥-١٥٦).

(٦) أخرجه الطبري (٥/ ٦٣).

قال ابن عباس: تهجرها في المضجع، فإن أقبلتْ وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مُبَرِّح[١].

قوله: ﴿واضربوهن﴾ يعني: ضرباً غير شائن، ولا كاسر، ولا مُبَرِّح، لأن المقصود التأديب، لا الإتلاف والتعذيب.

قال جماعة من العلماء، منهم الإمام أحمد رضي الله عنه: الآية على الترتيب، فالوعظ عند خوف النشوز، والهجر عند ظهور النشوز، والضرب عند تكرره واللِّجاج فيه، ولا يجوز الضرب عند ابتداء النشوز.

وقال الشافعي رضي الله عنه: يجوز.

﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ قال ابن عباس: لا تتجنَّوا عليهن العلل[٢].

وقال سفيان بن عيينة: لا تكلفها الحب، فإن قلبها ليس في يدها[٣].

والمعنى: لا تطلبوا سبيلاً إلى أذاهن بما ليس لكم عليهن، ولا يحملنكم على ذلك كونكم أكثر اقتداراً، وأكبر أقداراً.

﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ يَصْغُرُ في جلاله كل كبيرة، وقيل: يَكْبُرُ عن شَبَهِ المخلوقين، والمعنى: إن الله كان كبيراً فاحذروه، أيها الأقوياء الأشداء المستطيلون

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٦٨).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٦٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٤٤). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٧٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه.

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ٧٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢٤) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

على مَن في قبضتهم، وتحت تصرفهم.

قوله تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما﴾ أي: علمتم شقاقاً بينهما، فأضيف ذلك إلى الظرف اتساعاً؛ كقوله: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ [سبأ:٣٣]. والشِّقَاق: الخلاف والعداوة(١).

والضمير في «بينهما» للزوجين، ﴿فابعثوا﴾ أيها الحكام وولاة الأحكام، ﴿حَكَماً من أهله وحكماً من أهلها﴾؛ لأنهما إذا كانا من أهلهما عرفا باطن أمرهما، وحرصا على صلاح حالهما.

والضميران في قوله: ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ للحَكَمين. وقيل: للزوجين.

فصل

إذا وقع الشقاقُ بين الزوجين، وادَّعى كل واحد منهما تعدِّي صاحبه عليه، أسكنهما الحاكم إلى جانب عدل يطلع على حالهما، فيرفع الأمر إليه، ليأخذ على يد الظالم، فإن التبس الأمر واتصل الشقاق بينهما، وأفضى إلى ما يحرم من القول والفعل، بعث الحاكم الحكمين ليفعلا ما رأيا المصلحة فيه من التفريق بعوض، أو غيره.

والأَوْلى أن يكونا من أهلهما، لما ذكرناه.

ويجوز أن يكونا أجنبيين، لأنهما إما حاكمان وإما وكيلان، وأيا كان فلا يُشترط له القرابة.

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (شقق).

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رضي الله عنه في الحَكَمين، فروي عنه أنهما وكيلان، فعلى هذا يُعتبر رضا الزوجين فيما يحكمان به، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، ولأن بذل المال حق للزوجة، والطلاق حق للزوج، فاعتبر رضاهما فيه، كسائر حقوقهما.

وروي عنه: أنهما حَكَمان، وهو قول مالك، والشافعي، في أحد قوليه(١)، لأن الله سَمَّاهما حَكَمين، ولأن اعتبار رضاهما ربما أفضى إلى دوام الشقاق، فتنتفي الحكمة المطلوبة من شرعية التحكيم.

فعلى هذه الرواية: للحَكَمين أن يجمعا إن رأيا، أو يُفرِّقا، فما فعلا من ذلك لزمهما، وإن لم يرضيا.

وتُشترط عدالة الحَكَمين، على الروايتين معاً، لأن المقصود الإصلاح. والفاسق غير مأمون، فإنه بعرضية الإفساد، جرياً مع هواه وأغراضه الفاسدة.

ويجوز أن يكونا عبدين وعاميين، إذا قلنا: هما وكيلان، وإن قلنا: هما حَكَمان، اشترط فيهما ما يُشترط في الحاكم من الحرية والعلم وغير ذلك.

﴿إن الله كان عليماً﴾ بتدبير الحَكَمين، ﴿خبيراً﴾ بأمر الزوجين.

۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ

---

(١) انظر: بدائع الصنائع (٢/ ٣٣٤)، والتاج والإكليل (٤/ ١٧)، ومغني المحتاج (٣/ ٢٦١)، والمغني (٧/ ٢٤٣-٢٤٤).

مُخْتَالاً فَخُورًا ﴿٣٦﴾

قوله: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ أخرجا في الصحيحين من حديث معاذ بن جبل قال: «بينا أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، قال: يا معاذ، فقلت: لبيك يا رسول الله. قال: ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على عباده، أن يعبدوه فلا يُشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم، فقلت: يا رسول الله؛ ألا أُبشِّر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتّكلوا، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً»(١).

قوله: ﴿والجار ذي القربى﴾ الظاهر أنه يريد به قرابة النسب، وهو قول ابن عباس، والأكثرين(٢).

أوصى سبحانه بذي القربى، ثم أكد الوصية به إذا كان جاراً لتأكيد حقه بالجوار منضماً إلى القرابة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٢٤ ح٥٦٢٢)، ومسلم (١/ ٥٨ ح٣٠).
وقوله: "فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً" عند البخاري (١/ ٥٩ ح١٢٨).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٧٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٤٨)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٧٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشُعَب.

وقيل: المراد به: الجار القريب، وقيل: الجار المسلم.

قوله: ﴿والجار الجنب﴾ وهو البعيد النسب، على قول ابن عباس[1].

أو الجار البعيد، أو غير المسلم، على القولين الآخرين[2].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر وعائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «مَا زَالَ جبريلُ يُوصِيني بالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنهُ سَيُوَرِّثُه»[3].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال له: «يَا أَبَا ذرّ، إِذا طَبَخْتَ قدراً فَأَكْثِرْ المَرَقَةَ، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَك»[4].

وفي صحيح البخاري: أن عائشة رضي الله عنها قالت: «يَا رَسُولَ الله! إِنَّ لِي جَارَيْنِ، فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَاباً»[5].

قوله: ﴿والصاحب بالجنب﴾ قال علي رضي الله عنه: هو الزوجة[6].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرفيق[7].

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٧٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٤٨). وانظر: الدر المنثور (٢/ ٥٢٩).

(٢) انظر: الماوردي (١/ ٤٨٥)، وزاد المسير (٢/ ٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٣٩ ح٥٦٦٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٥ح ٢٦٢٥).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢٥ ح٢٦٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (٢/ ٧٨٨ ح ٢١٤٠).

(٦) أخرجه الطبري (٥/ ٨١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٤٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٣٢) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه الطبري (٥/ ٨٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٤٩)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٧٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٣١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

وقال ابن زيد: هو الذي يَلْصَقُ بك رجاءَ خيرك[١].

قوله: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ يريد: من الأرقاء.

وقيل: يدخل فيه أيضاً الحيوان البهيم.

قال أنس بن مالك: «كانت وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: الصَّلاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»[٢].

قوله تعالى: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ يَحمله اختيالُه وفخرُه على مجانبة مَن أوصى الله بهم في هذه الآية، والازدراء بهم إذا كانوا فقراء.

قال ابن عباس: المختال: البَطِرُ في مشيته، والفخور: المفتخر على الناس بكبره[٣].

وقال الزجاج[٤]: المختال: الصَّلِفُ التيَّاه الجهول.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: «العزُّ إزاري، والكِبرياء ردائي، فمَن نازعني شيئاً منهما عذّبته»[٥].

وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَنْظُرُ الله إلى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاء»[٦].

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٨٢). وذكره الماوردي (١/ ٤٨٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١١٧ ح١٢١٩٠) من حديث أنس. وأخرجه أحمد أيضاً (٦/ ٣١٥ ح٢٦٧٢٦) من حديث أم سلمة، وابن ماجه (١/ ٥١٩ ح١٦٢٥) من حديث أم سلمة أيضاً.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٠).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٥١).

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢٣ ح٢٦٢٠).

(٦) أخرجه البخاري (٥/ ٢١٨١ ح٥٤٤٦)، ومسلم (٣/ ١٦٥١ ح٢٠٨٥) من حديث ابن عمر.

ﭐلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

قوله: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ «الذين» نصب على الذم، أو على البدل من قوله: "مَنْ كان مختالاً"، أو رفع بالابتداء، والخبر محذوف[1]، تقديره: الذين يبخلون ملومون أو مُعذَّبون، أو على معنى: هم الذين يبخلون.

قال المفسِّرون: نزلت في اليهود[2].

وفي الذي بخلوا به قولان:

أحدهما: أنه التصديقُ بمحمد ﷺ وإظهارُ صفته للناس حسداً، وبغياً، وتكبراً، ونفاسة عليه، حيث لم يكن منهم.

قال ابن السائب: بخلوا أن يصدِّقوه، فكتموه، وأمروا قومهم بكتمان أمره[3].

وبهذا الاعتبار يصح النصب على البدل.

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٧٩)، والدر المصون (٢/ ٣٦١).

(٢) الطبري (٥/ ٨٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٥١)، ومجاهد (ص:١٥٨)، والوسيط (٢/ ٥٢)، وأسباب النزول للواحدي (ص:١٥٦)، والماوردي (١/ ٤٨٧)، وزاد المسير (٢/ ٨١)، ولباب النقول (ص:٦٨).

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٥٦)، وفي الوسيط (٢/ ٥٢)، والماوردي (١/ ٤٨٧) بلا نسبة.

والقول الثاني: أنهم بخلوا بالأموال، وأمروا الناس أن يبخلوا بها[١].

قال ابن عباس: كان كردم بن زيد، ورفاعة بن زيد بن التابوت، ونافع بن أبي نافع، وحيي بن أخطب، في آخرين يأتون رجالاً من الأنصار من أصحاب رسول الله، وكانوا يخالطونهم، وينتصحون لهم، فيقولون: لا تُنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر، ولا تسارعوا فإنكم لا تدرون ما يكون، فنزلت هذه الآية[٢].

قرأ حمزة والكسائي: «بالبَخَل» بفتح الباء والخاء، هنا وفي الحديد[٣]. وقرأ الباقون: بضم الباء وسكون الخاء فيهما[٤]، وهما لغتان كالرُشْد والرَشَد.

﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ قال ابن عباس والأكثرون: يريد: العلم بما في التوراة مما عظَّم الله به أمر محمد ﷺ وأُمَّته[٥].

وإن قلنا: المراد به البخل بالأموال، فالأَليق أن يكون المعنى هاهنا: ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ أي: يخفون نِعَم الله عليهم على ما هو المتعاهد من عادة البخلاء.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أنعم الله على عبده نعمة، أحب أن

---

(١) الماوردي (١/ ٤٨٧)، وزاد المسير (٢/ ٨٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٨١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٦٤)، والثعلبي (٣/ ٣٠٦-٣٠٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٣٨) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) الحديد: ٢٤، في قوله تعالى: ﴿ويأمرون الناس بالبخل﴾.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٨٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٠٣)، والكشف (١/ ٣٨٩)، والنشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٣).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٢).

تُرى»[(١)].

ويروى: أن بعض عُمَّال الرشيد بنى قصراً إلى جانب قصره، فنُمَّ به إليه فقال: يا أمير المؤمنين! إن الكريم يَسُرُّه أن يرى أثر نعمته، فأحببتُ أن أَسُرَّكَ بالنظر إلى آثار نعمتك، فأعجبه كلامه[(٢)].

وقال بعضهم: الشكرُ بإظهار حسن الحال أبلغُ من الشكر بالمقال.

ويروى: أن جعفر بن يحيى البرمكي[(٣)] -رحمهما الله- ركب لحاجة، وكان طريقه على بيت الأصمعي[(٤)]، فدفع إلى غلام له كيساً فيه ألف دينار، وقال: إني سأنزل في رجعتي إلى الأصمعي، ثم سيحدثني، ويُضحكني، فإذا ضحكت، فضع الكيس بين يديه، فلما دخل جعفر على الأصمعي، رأى عنده حُبّاً[(٥)] مكسور الرأس، وجَرّةً مُلتوية العنق، وقَصْعة مشعَّبة، ورآه على مُصلّى بالٍ وعليه بَرّكان[(٦)] أجرد، فغمز غلامه أن لا يضع الكيس بين يديه، فلم يدع الأصمعي شيئاً مما

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ١٢٣ ح٢٨١٩)، وأحمد (٣/ ٤٧٣).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (١/ ٥٤٢-٥٤٣).

(٣) جعفر بن يحيى بن خالد، أبو الفضل البرمكي، وزير الرشيد العباسي وأحد مشهوري البرامكة، قُتِل مع البرامكة في وقعة الرشيد بهم سنة سبع وثمانين ومائة (تاريخ بغداد ٧/ ١٥٢، والأعلام ٢/ ١٣٠).

(٤) عبد الملك بن قُرَيب بن علي بن أصمع الأصمعي، أبو سعيد الباهلي البصري، راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، ونسبته إلى جده أصمع. توفي سنة ست عشرة ومائتين (الأعلام ٤/ ١٦٢).

(٥) الحُبُّ -بضم الحاء المهملة وتشديد الباء المعجمة وضمها-: الجَرَّة الضخمة (اللسان، مادة: حبب).

(٦) البرّكان -أو البَرْنكان-: هو ضرب من الثياب. قال الفرّاء: كساء من صوف له عَلَمان، وقيل: بَرْنكان على وزن زعفران (اللسان، مادة: برنك).

يضحك الثكلان إلا أورده عليه، فما تبسَّم، وخرج، فقال لرجل يسايره: مَن استرعى الذئب ظلم، ومَن زرع سبخة حصد الفقر، إني والله لو علمتُ أن هذا يكتم المعروف بالفعل لما حفلتُ بنشره باللسان، وأين يقع مديح اللسان من آثار العيان، إن اللسان قد يكذب، والحال لا يكذب، لله در نُصَيْب[1] حيث يقول:

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ[2]

قوله عز وجل: ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس...﴾[3] قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في اليهود[4].

وقال السدي: نزلت في المنافقين[5].

وقيل: في مشركي مكة[6].

فإن قيل: كيف قال ابن عباس: نزلت في اليهود، وهم أهل كتاب يصدِّقون بالله وبالبعث.

---

(١) نصيب بن رباح، أبو محجن، مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل، مقدم في النسيب والمدائح (الأعلام ٨/ ٣١).

(٢) البيت في الشعر والشعراء (ص:٢٦٠)، وذيل أمالي القالي (ص:٤٠)، ومعجم الأدباء لياقوت (١٩/ ٢٣١).

(٣) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الثلاثين، مرة ثانية.

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٨٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٥٣)، والثعلبي (٣/ ٣٠٧). وذكره الماوردي (١/ ٤٨٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٣٩) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٠٧)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٥٣) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٣).

(٦) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٠٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٣).

قلت: المعنى: لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر إيماناً كاملاً، فإنهم كفروا بالقرآن، وبما جاءت به الرسل من عند الله، وكذَّبوا بالبعث على الوجه الذي أخبرتْ به رسل الله، وجاءت به كتبه، وقالوا: لا تُبعث الأجساد، ولا يُنَعَّمُ أهلُ الجنة بالأكل، والشرب، والنكاح، فكأنهم لم يؤمنوا.

فإن قيل: قد نطقت الآية التي قبلها أنهم يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، فكيف وصفهم في هذه الآية بأنهم يُنفقون أموالهم؟

قلت: ليجمع لهم الذم بكل طريق، فأخبر عنهم بأنهم جمدوا في الحق حتى بخلوا، وأمروا بالبخل غيرهم، فكانوا كما قيل:

وإن امرءاً ضنَّت يداه على امرئٍ بنيل يدٍ من غيره لبخيل[1]

ودأبوا في الباطل حتى أنفقوا أموالهم فيه رياء وسمعة، واستمالةً للناس عن اتباع الهدى.

فإن قيل: ما إعراب قوله: «والذين ينفقون»؟

قلت: إن كان معطوفاً على «الذين يبخلون» فإعرابه النصب، أو الرفع، وإن كان معطوفاً على قوله: «وللكافرين» فإعرابه الجر[2]، وبهذا البيان يتضح لك مقاطع الكلام ومواضع الوقف، فتَفَهَّم ذلك.

قوله: ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً﴾ هو من قولك: قَرَنْتُ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ؛ إذا وَصَلْته به[3].

---

(١) البيت لأبي تمام. انظر: الكشاف (١/ ٥٤٢).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٨٠).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (قرن).

فالقَرِينُ هو: المواصل، المؤالف.

والمعنى: مَن يكن الشيطان له قريناً في الفعل ﴿فساء قريناً﴾.

وقال ابن السائب: هذا في الآخرة يجعل الله الشياطين قرناءهم في النار، يقرن مع كل كافر شيطان، ويقول الله: ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ يقول: بئس المصاحب الشيطان(١).

قوله: ﴿وماذا عليهم﴾ تقريع لهم؛ كما يقال للرجل الفاجر العاق: ما ضرّك لو أطعتَ ربك، وبررتَ أباك، وكما يقال للمنتقم: ما يضرّك لو عفوتَ.

ومنه قول قُتَيْلَة بنت النضر بن الحارث في أبياتها السائرة، حين قتل النبي ﷺ أباها بالصفراء مَقْفَلَه من بدر، وكان شديد الشكيمة في كفره وتكذيبه، وأذاه للنبي ﷺ ومعاداته له:

أَمُحَمَّـدٌ أَوَ لَـسْتَ ضِـنْءُ نَجِيبَـةٍ   في قَوْمِها وَالفَحْـلُ فَحْـلٌ مُعْـرِقُ
مَـا كَـانَ ضَرَّكَ لَـوْ مَنَنْـتَ فَـرُبَّما   مَنَّ الفَتـى وَهـوَ المَغِـيظُ المُحْنِـقُ(٢)

فقال النبي ﷺ: «لو بلغني شِعْرها قبل أن أقتله لتركته لها».

والمعنى: أي شيء على هؤلاء الذين يُنفقون أموالهم رئاء النـاس ولا يؤمنـون ﴿لو آمنوا ...﴾ .

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٣).

(٢) انظر البيتان في: سيرة ابن هشام (٣/ ٣٠٩)، والاستيعاب (٤/ ١٩٠٥)، والقرطبي (٨/ ٥٩)، والإصابة (٨/ ٨٠) باختلاف في بعض الألفاظ.

وانظر البيت الأول في: اللسان، مادة: (ضنأ، عرق)، والبيت الثاني في: اللسان، مادة: (غيظ).

والضِّنْءُ: الأصلُ والمَعْدِن. ومُعْرِق: أي عريق النسب أصيل.

﴿وأنفقوا﴾ قال ابن عباس: يعني: الصدقة[١].

وقيل: الزكاة[٢].

﴿وكان الله بهم عليماً﴾ فهو يعلم ما هم عليه من الكفر والنفاق، ويعلم قصدهم بالإنفاق.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

قوله: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾[٣] قال ابن عباس: لا ينقص مثقال ذرة من عمل منافق إلا جازاه بها[٤].

ومثقال كل شيء: وَزْنُه.

قال الأصمعي: إذا قلت للرجل: ناولني مثقالاً فأعطاك صنجة ألف أو [صنجة][٥] حبة، كان ممتثلاً[٦].

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٣).

(٢) وهو قول أبي سليمان الدمشقي (انظر: زاد المسير ٢/ ٨٣).

(٣) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الخامس عشر.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٣).

(٥) زيادة من زاد المسير (٢/ ٨٤).

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٤).

والذَرَّة في اللغة: أصغر النَّمل[١].

وفي قراءة عبد الله: «مثقال نملة»[٢].

وروي عن ابن عباس: أنه أدخل يده في التراب، ثم رفعها، ثم نفخ فيه، ثم قال: كل واحد من هؤلاء ذَرَّة[٣].

وروي عنه: أنها رأس النملة[٤].

وقيل: الواحدة مما يتطاير من الهباء في ضوء الشمس.

وقيل: الخَرْدَلَة.

والمراد: أنه لا يظلم قليلاً ولا كثيراً، لكنه ذكر الذَّرَّة لأنها غاية ما يُضرب به المثل في القِلَّة.

﴿وإن تَكُ حسنة يضاعفها﴾ أي: إن تك فعلته حسنة، أو مثقال الذَرَّة حسنة، وأنَّثه لكونه مضافاً إلى مؤنث.

قرأ ابن كثير ونافع: «حَسَنَةٌ» على معنى: إن تحدث أو توجد حسنة.

وقرأ ابن عامر وابن كثير: «يُضَعِّفْها» بالتشديد من غير ألف. وقرأ الباقون بألف، مع التخفيف[٥].

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (ذرر).

(٢) كتاب المصاحف لابن أبي داود (ص:٦٤)، ومختصر ابن خالويه في شواذ القرآن (ص:٢٦).

(٣) أخرجه هناد في الزهد (١/ ١٤٤). وذكره السيوطي في الدر (٨/ ٥٩٨) وعزاه لهناد.

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٨٨)، والثعلبي (٣/ ٣٠٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٣٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٨٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٠٣)، والكشف (١/ ٣٨٩-٣٩٠)، والنشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٣).

قال ابن عباس: وإن تَكُ حسنة من مؤمن يضاعفها بعشرة أضعافها[١].

قال السدي: هذا عند الحساب، والقِصاص، فمن بقي له من الحساب مثقال ذرة ضاعفها الله إلى سبعمائة ضعف، وإلى الأجر العظيم، وهو قوله: ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ يعني: يتفضل عليه بأكثر من العشرة الأضعاف[٢].

وقال الكلبي: الأجر العظيم: الجنة[٣].

وأخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك في قوله: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله لا يَظْلِمُ مُؤْمِناً حَسَنَةً يُعْطَى بهَا في الدُّنْيَا وَيُجْزَى بهَا في الآخِرَةِ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بهَا لله في الدُّنْيَا، حَتَّى إِذا أَفْضَى إِلى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بهَا»[٤].

قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ هذا استفهام في معنى التوبيخ، أي: كيف تكون حالهم يوم القيامة: ﴿إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ وهو نبيها يشهد لها، وعليها.

﴿وجئنا بك﴾ يا محمد ﴿على هؤلاء﴾ المكذبين ﴿شهيداً﴾.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤).

(٢) مثل السابق.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٥) بلا نسبة. وانظر: الطبري (٥/ ٩٠).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٦٢ ح٢٨٠٨).

أخبرنا القاضي أبو القاسم عبد الصمد [بن][1] محمد بن أبي الفضل الأنصاري الحِرِسْتاني، قراءةً عليه وأنا أسمع بجامع دمشق، أخبرنا أبو الحسن علي بن المسلم بن محمد السلمي، أخبرنا أبو نصر الحسين بن محمد بن أحمد، أخبرنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُمَيْع الغساني الصيداوي قراءةً عليه في داره بصيدا، سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن الواعظ ببغداد، حدثنا حميد بن الربيع، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن عَبيدة، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ من سورة النساء، قال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: إني أشتهي [أن][2] أسمعه من غيري، فقرأت عليه حتى انتهيت إلى قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فسالت عيناه، فسَكَتُّ»[3]. هذا حديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه عن صدقة، عن يحيى، عن سفيان، عن سليمان الأعمش، فكأني سمعته من طريق البخاري، عن الداودي، شيخ شيخ شيخنا.

قوله تعالى: ﴿يومئذ يود الذين كفروا﴾ العامل في «يومئذ»: «يَوَدُّ»، وتنوين "إذ" عوض عن الجملة المحذوفة، تقديره: يوم إذ شهدت على هؤلاء، يود الذين كفروا.

﴿وعصوا الرسول لو تُسَوَّى﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿تَسَّوَّى﴾ بفتح التاء وتشديد السين، أصلها: تتسوى، فأدغمت التاء في السين. وكذلك قرأ حمزة

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة على الأصل. وانظر ترجمته في: التقييد (١/ ٣٨١)، وسير أعلام النبلاء (٢٢/ ٨٠).

(٢) زيادة من الصحيحين.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٩٢٧ ح٤٧٦٨)، ومسلم (١/ ٥٥١ ح٨٠٠).

والكسائي إلا أنهما حَقَّقا السين، وأمالا على أصلهما.

وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين[١]، على معنى: لو تسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى.

قال قتادة: وَدُّوا لو تخرّقت بهم الأرض فَسَاخُوا فيها[٢].

قال الزجاج[٣]: يودُّون أنهم كانوا والأرض سواء.

وقال ابن كيسان وغيره: ودُّوا أنهم لم يُبعثوا، وأنهم كانوا والأرض سواء[٤].

وقال الفرّاء[٥] وغيره: المعنى: ودُّوا لو جُعِلوا تراباً، وكانوا هم والأرض سواء.

قال أبو هريرة: إذا حَشَرَ الله الخلائقَ قال للبهائم والدواب والطير: كوني تراباً، فعندها يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً[٦].

﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ كلام مستأنف، على معنى: لا يقدرون على كتمانه؛

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٨٣)، ولابن زنجلة (ص:٣٠٣)، والكشف (١/ ٣٩٠-٣٩١)، والنشر (٢/ ٢٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٩٥٧)، والثعلبي (٣/ ٣١٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٤٢) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٥٤).

(٤) ذكره الثعلبي (٣/ ٣١٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٧).

(٥) معاني الفراء (١/ ٢٦٩). وانظر: زاد المسير (٢/ ٨٦).

(٦) أخرجه الطبري (٧/ ١٨٩، ٣٠/ ٢٦)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٨٦، ١٠/ ٣٣٩٦)، والبيهقي في البعث والنشور (ص:٣٤١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٤٠١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور.

لأن جوارحهم تشهد عليهم، فتقول اليد: بطشتُ، وتقول الرِّجل: مشيتُ، وتقول العين: نظرتُ.

قال ابن عباس: هذا حين يُختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم وأرجلهم، فحينئذ لا يكتمون الله حديثاً[1].

وقيل: الواو في قوله: «ولا يكتمون» واو الحال، فيكون متعلقاً بـ«يَوَدُّ»، على معنى: يودون لو تُسَوَّى بهم الأرض، وأنهم لا يكتمون الله حديثاً، ولا يَكْذبون في قولهم: والله ربنا ما كنا مشركين، إذا فضحتهم جوارحهم بالشهادة عليهم. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس[2].

وقال عطاء: ودُّوا يوم القيامة لو تُسَوَّى بهم الأرض وأنهم لم يكونوا كتموا صفة محمد ﷺ في الدنيا[3].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٩٤)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٥٧)، والثعلبي (٣/ ٣١١)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٤٦)، والحاكم (٢/ ٣٣٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٤٢-٥٤٣) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ٣١١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٧).

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ أخرج أبو داود في سننه، والترمذي في جامعه -واللفظ له- بإسنادهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «صَنَعَ لَنَا ابْنُ عَوْفٍ طَعَاماً، فَدَعَانَا، فأكلنا وَسَقَانَا خمراً، قبل أن تُحَرَّم الخمر، فأخذت مِنَّا، وَحَضَرَتْ الصَّلاةُ، فَقَدَّمُونِي، فَقَرَأْتُ: "﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١-٢]، وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ"، قَالَ: فخلطتُ، فنزلت: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُون﴾»[1].

والمراد من الآية: زجرهم عن الشرب في الأوقات القريبة من الصلوات، ثم نسخ ذلك بما ذكرناه في البقرة[2].

وقيل: ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ أي: مواضع الصلاة، وهي المساجد، كأنه نزَّه المساجد من السكارى، لأنه لا يؤمن تلويثهم للمساجد، كما قال عليه السلام: «جَنِّبوا مساجدكم الصبيان والمجانين»[3].

وقيل: "لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى" من النعاس، فإنكم لا تعقلون ما تُصلُّون.

قال بعض أرباب الإشارات: "وأنتم سكارى" من حب الدنيا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٢٥ ح٣٦٧١)، والترمذي (٥/ ٢٣٨ ح٣٠٢٦).

(٢) نُسخ حكم هذه الآية بآية المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ [المائدة:٩٠]. (انظر: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ص:٧٤، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص:٢٧٩-٢٨٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١/ ٢٤٧ ح٧٥٠) عن واثلة بن الأسقع الليثي، والطبراني في الكبير (٨/ ١٥٦) من حديث أبي أمامة وواثلة وأبي الدرداء، وابن عدي في الكامل (٤/ ١٣٤) من حديث أبي هريرة.

قال يحيى بن معاذ الرازي[١]: الدنيا خمر الشيطان، مَن سَكِرَ منها لا يُفيق إلا في عسكر الموتى[٢].

وكلُّ هذا محتمل، غير أن التفسيرَ الذي يُعتمد عليه ما اقتضاه سبب النـزول، وهو السُّكْر المعروف، وهو المتبادر إلى الأفهام عند الإطلاق.

والسّكارى جمع سكران: وهو الذي سُدَّ عليه طريق الإدراك، ومتى بلـغ إلى هذه الحالة، كان بيعه وشراؤه ملغي، وأُخـذ بالقتـل وسـائر الاسـتهلاكات، وفي وقوع طلاقه وعتاقه اختلاف بين الصحابة، والأئمة الأربعة[٣].

﴿ولا جُنُباً﴾ قال الزمخشري[٤]: هو عطف على قوله: «وأنتم سـكارى»؛ لأن محل الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جُنُباً.

والجُنُب يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث؛ لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب.

﴿إلا عابري سبيل﴾ استثناء من عامة أحوال المخاطبين، وانتصابه على الحال.

---

(١) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا، الواعظ الزاهد، مـن كبـار المـشايخ، لـه كـلام جيـد، ومواعظ مشهورة. توفي سنة ثمان وخمـسين ومـائتين (سـير أعـلام النـبلاء ١٣/ ١٥، والأعـلام ٨/ ١٧٢).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٣٦٨)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٩٨)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص:٣٨٢).

(٣) انظر: المغني (٧/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٤) الكشاف (١/ ٥٤٦).

فإن قلت: كيف جمع بين هذه الحال والحال التي قبلها؟

قلت: كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة في حال الجنابة إلا ومعكم حال أخرى تُعذرون فيها، وهي حال السفر، وعبور السبيل عبارة عنه.

ويجوز أن لا يكون حالاً، ولكن صفة لقوله: "جُنُباً"، أي: ولا تقربوا الصلاة جُنُباً غير عابري سبيل، أي: جُنُباً مقيمين غير معذورين.

قال(١): فإن قلت: كيف تصح صلاتهم على الجنابة لعذر السفر؟.

قلت: أريد بالجُنُب الذين لم يغتسلوا، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين حتى تغتسلوا، إلا أن تكونوا مسافرين.

وقال(٢): مَنْ فسَّر الصلاة بالمسجد: معناه: لا تقربوا المسجد جُنُباً إلا مجتازين فيه.

﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾(٣) نزل في رجل أنصاري أعجزه المرض القيام إلى الوضوء، ولم يكن له خادم(٤).

وقيل: في الجرحى حين شكوا إلى رسول الله ﷺ ما يصيبهم من الجنابة.

وظاهرُ الآية يقتضي جواز التيمم مع حصول المرض الذي يُستضَر معه باستعمال الماء، سواء أكان يخاف التلف أو لا يخاف، وهو مذهب إمامنا.

---

(١) أي: الزمخشري في الكشاف (١/ ٥٤٦).

(٢) أي: الزمخشري في الكشاف، الموضع السابق.

(٣) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس السادس عشر.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٩٦١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٤٨) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

وقال الشافعي رحمه الله -في أحد قوليه-: لا يجوز التيمم إلا إذا خاف التلف[١].

وكذلك السفر يجوز فيه التيمم عند عدم الماء، قصيراً كان أو طويلاً. والحضر كالسفر عند عدم الماء. وخصَّه بالذِّكر؛ لأن الماء لا يُعدم إلا فيه غالباً.

فإن حُبس في المصر ولم يقدر على الماء، وحضرت الصلاة، صلَّى بالتيمم، خلافاً لأبي حنيفة -في إحدى روايتيه- وداود، في قولهما: لا يصلي. ولا إعادة عليه عندنا.

وقال الشافعي: يُعيد[٢].

﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رضي الله عنه[٣]: «أو» بمعنى الواو؛ لأنها لو لم تكن كذلك، لكان وجوب الطهارة على المريض والمسافر غير متعلق بالحَدَث.

والغائط أصله: المكان المطمئن من الأرض[٤]، كانوا يتوارون فيه عند الحَدَث، فاستُعير له.

وكذلك العَذِرَة، أصله: فِناء الدار[٥]، ثم غلب على الحَدَث لأنهم كانوا يلقونه بأفنيتهم.

---

(١) مغني المحتاج (١/ ٩٣)، والمغني (١/ ١٦١).

(٢) انظر: بدائع الصنائع (١/ ٥٠)، والتمهيد (١٩/ ٢٧٧)، ومغني المحتاج (١/ ٨٩)، والمغني (١/ ١٤٩)، والمحلى (٢/ ١٥٩).

(٣) زاد المسير (٢/ ٩١-٩٢).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (غوط).

(٥) انظر: اللسان، مادة: (عذر).

والرَّاوية: البعيرُ الذي يُستقى عليه[١].

والظَّعينَة: الهَوْدَجُ الذي تُحمل المرأة فيه[٢]. فهذا وأمثاله مما صارت الحقيقة فيه مهجورة، والمجاز مشهوراً.

قوله: ﴿أو لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «لَمَسْتُم». وقرأ الباقون: «لامَسْتُم» بألف[٣]، وكذلك في المائدة [٦].

فمن قرأ: «لامَسْتُم» قال: الفعل من اثنين، فجرى على المفاعلة، ويتجه على هذه القراءة قول عليّ وابن عباس: إن المراد به الجِماع[٤].

ومَن قرأ «لَمَسْتُم» جعل الفعل من واحد، وهو الإفضاء باليد، أو ببعض الجسد إلى جسد المرأة، وهو قول ابن مسعود، وابن عمر، ومنصور، والشعبي، والنخعي[٥].

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (روي).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (ظعن).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٨٣-٨٤)، ولابن زنجلة (ص:٢٠٤)، والكشف (١/ ٣٩١)، والنشر (٢/ ٢٥٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩١)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٤).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ١٠٢-١٠٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٦١)، وابن أبي شيبة (١/ ١٥٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٥٠) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب. ومن طريق آخر عن ابن عباس، وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٥/ ١٠٤-١٠٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٦١)، وعبد الرزاق (١/ ١٣٣)، وابن أبي شيبة (١/ ١٥٣)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٤٩)، والبيهقي في الكبرى (١/ ١٢٤)، والحاكم (١/ ٢٢٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٤٩-٥٥١) وعزاه لسعيد بن منصور من طريق النخعي. ومن طريق آخر عن الشعبي، وعزاه لابن أبي شيبة. ومن طريق آخر عن ابن مسعود، =

وفي هذه الآية على هذا التفسير مستدلٌ لمن حكم بنقض الوضوء من لمس النساء، وقد اختلف العلماء في ذلك، وفيه عن الإمام أحمد ثلاث روايات:

أحدها: لا ينتقض بكل حال، وهو قول ابن عباس، والحسن البصري، ومحمد بن الحسن، وسفيان الثوري، في إحدى الروايتين عنه.

الثانية: ينقض بكل حال، وهو قول ابن مسعود، وابن عمر، والزهري، وربيعة، والشافعي.

الثالثة: التفصيل، إن كان لشهوة نقض، وإن كان لغير شهوة لم ينقض، وهو الصحيح من المذهب، واختيار عامة الأصحاب، وهو قول مالك، والليث بن سعد، وإسحاق بن راهويه.

وقال الأوزاعي: إن كان اللمس باليد نقض، وإلا فلا[1].

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: إن كانت ملامسة فاحشة تنشر الآلة نقضت، وإلا فلا.

﴿فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً﴾[2] أخرجا في الصحيحين: «أن عائشة رضي الله عنها كانت مَعَ النبي ﷺ في بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فانْقَطَعَ عِقْدٌ لها، فَأَقَامَ النبي ﷺ

= وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور ومسدد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي.

(١) انظر: بدائع الصنائع (١/ ٣٠)، ومغني المحتاج (١/ ١٥)، والمغني (١/ ١٢٣-١٢٤)، والتمهيد (٢١/ ١٧٥).

(٢) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الحادي، والثلاثين، مرة ثانية.

عَلَى التِمَاسِهِ [وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ][(١)] وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَنَزَلَتْ هذه الآية، فَقَالَ أُسَيْدُ بن حُضَيْر: مَا هِيَ بأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْر»[(٢)].

واختلف العلماءُ في وجوب طلب الماء: فذهب الإمام أحمد -في أصح الروايتين عنه- إلى أن طلب الماء شرط، لقوله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماءً فتيمموا﴾، ولا يقال: لم يجد إلا إذا طلب.

وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس بواجب ولا شرط، وهو الرواية الأخرى[(٣)].

والتَّيَمُّم: القَصْد[(٤)]، كما ذكرناه في البقرة.

والصَّعِيد: التراب، في قول عليّ، وابن مسعود، والفرَّاء، والزجَّاج[(٥)].

وقال الشافعي: لا يقع اسم الصَّعيد إلا على تراب ذي غبار، فلذلك قال: لا يجوز التيمم إلا بما كان بهذه الصفة، وهو الصحيح من مذهب إمامنا[(٦)].

وقال الزجَّاج[(٧)] وأبو حنيفة وأصحابه: الصَّعيدُ: وجهُ الأرض تراباً كان أو غيره، حتى لو ضربتَ عندهم على صخرة، لا غبار عليها، كان ذلك طهوراً[(٨)].

وفي قوله في المائدة: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ [المائدة:٦] دليلٌ على

---

(١) زيادة من الصحيحين.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٢٧ ح٣٢٧)، ومسلم (١/ ٢٧٩ ح٣٦٧).

(٣) انظر: بدائع الصنائع (١/ ٤٧)، والمجموع (٢/ ٣٤٧)، والمغني (١/ ١٤٩).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (أمم).

(٥) ذكره الماوردي (١/ ٤٩١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٩٤).

(٦) انظر: مغني المحتاج (١/ ٩٦)، وكشاف القناع (١/ ١٧٢)، والمغني (١/ ١٥٥).

(٧) معاني الزجاج (٢/ ٥٦).

(٨) انظر: الهداية (١/ ٢٥).

صحة مذهبنا، لأن المعنى: امسحوا بوجوهكم، وأيديكم ببعضه، وهذا مستحيل في الصخر الذي لا تراب عليه.

قالوا: «مِن» لابتداء الغاية.

قال الزمخشري[١]: فإن قلت: قولهم: إنها لابتداء الغاية قول متعسف، ولا يَفهم أحد من العرب من قول القائل: مسحت برأسه من الدهن، ومن الماء، ومن التراب، إلا معنى التبعيض.

قلت: هو كما تقول، والإذعان للحق أحق من المراء.

فصل

ذهب الإمام أحمد إلى أن التيممَ ضربةٌ واحدة للوجه والكفين، وهو قول علي، وابن عباس، وعمار، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وعكرمة، والأوزاعي، وإسحاق، لأن اليد عند الإطلاق إلى الكوع؛ بدليل قوله: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ [المائدة:٣٨]، والقطع من الكوع بالإجماع.

وفي الصحيحين من حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال: «يَكْفِيكَ الوَجْهَ وَالكَفَّيْنِ»[٢].

ورواه أيضاً عمار عن النبي ﷺ فعلاً فقال: «فضرب النبيُّ ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفّيه»[٣].

وذهب جماعة منهم ابن عمر، والحسن، وأبو حنيفة، والثوري، والشافعي إلى

---

(١) الكشاف (١/ ٥٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٣٠ ح٣٣٤)، ومسلم (١/ ٢٨٠ ح٣٦٨).

(٣) هو تكملة للحديث السابق.

أنه ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين[(١)].

وذهب ابن سيرين إلى أنه ثلاث ضربات: ضربة للوجه، وضربة للكفين، وضربة للذراعين.

وذهب الزهري إلى أنه يمسح إلى الآباط، لأن عماراً قال: ضربنا ضربة لوجوهنا، وضربة لأيدينا إلى المناكب[(٢)].

ولا حُجَّة فيه، لأنه حكى فعلهم، ولم يقل: إن النبي ﷺ فعله، ولا أمر به، ولا رآه، أو بلغه فسكت.

قوله: ﴿إن الله كان عفواً غفوراً﴾ يصفح ويتجاوز عنكم، ويغفر لكم ما كان منكم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٢٨٧)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣٦٧) كلاهما من حديث ابن عمر. وانظر: المغني (١/ ١٥٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١١٢)، والثعلبي (٣/ ٣٢٠-٣٢١)، والهداية (١/ ٢٥)، والتمهيد (١٩/ ٢٨٢)، والمجموع (٢/ ٢٤١)، والمغني (١/ ١٥٤).

مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

قوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ قال قتادة: هم اليهود[١].

والنصيبُ الذي أوتوه: علمُهم بما في كتابهم من نعت النبي ﷺ وغيره.

﴿يشترون الضلالة﴾ يؤثرونها، ويرفضون ما كانوا عليه من الهدى والإيمان بمحمد ﷺ قبل مبعثه.

قال الزجّاج[٢]: يؤثرون التكذيب بالنبي عليه السلام، ليأخذوا على ذلك الرُّشا.

﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ أي: أن تخطئوا أيها المؤمنون طريق الهدى.

قوله تعالى: ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ أي هو أعرف بهم منكم، فهو يُطلعكم عليهم، فجانبوهم، ولا تناصحوهم، ولا تصاحبوهم، ﴿وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾ فثقوا بولايته، ونصره لكم.

قوله تعالى: ﴿من الذين هادوا﴾ قال الزجّاج[٣]: «مِن» صلة «الذين أوتوا الكتاب»، فيكون المعنى: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من الذين هادوا. أو جملة مستأنفة، المعنى: من الذين هادوا قوم يُحرِّفون، فيكون قوله: «يُحرِّفون»

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١١٥-١١٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٩٧).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٥٧).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٥٧-٥٨).

صفة، ويكون الموصوف محذوفاً. وأنشد سيبويه:

وَمَا الدَّهْرُ إلا تَارَتَانِ، فَمِنْهُمَا ... أَمُوتُ وَأُخْرى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ[1]

المعنى: فمنهما تارة أموت فيها.

وقال صاحب الكشاف هذا المعنى فأجاد، وزاد[2]: «من الذين هادوا» بيانٌ للذين أوتوا نصيباً من الكتاب.

قوله: ﴿والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله﴾ «وكفى بالله» جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل [الاعتراض][3]، أو بيان لـ"أعدائكم"، وما بينهما اعتراض، أو صلة لـ» نصيراً»، أي: ينصركم من الذين هادوا، كقوله: ﴿ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ [الأنبياء:٧٧]. ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، على أنّ «يُحرِّفون» صفة مبتدأ محذوف تقديره: من الذين هادوا قوم يُحرِّفون[4]، كقوله: -وأنشد البيت[5]-:

وَمَا الدَّهْرُ ....

ومعنى: ﴿يُحرِّفون الكلم عن مواضعه﴾ يميلونه ويزيلونه عنها؛ كما كانوا

---

(١) البيت لتميم بن مقبل. انظر: ديوانه (ص:٢٤)، والكتاب لسيبويه (٢/ ٣٤٦)، والمحتسب (١/ ١١٢)، والخزانة (٢/ ٣٠٨)، ومعاني الفرَّاء (٢/ ١٤٢)، والبحر المحيط (٣/ ٢٧٣)، والكامل للمبرد (ص:٥٣٨).

والتارة: الحين والمرة. والشاهد في البيت: حذف الاسم لدلالة الصفة عليه.

(٢) الكشاف (١/ ٥٤٨-٥٤٩).

(٣) في الأصل: الاعراض. والتصويب من الكشاف (١/ ٥٤٨).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٨٢)، والدر المصون (٢/ ٣٧١-٣٧٢).

(٥) أي: الزمخشري في الكشاف (١/ ٥٤٩).

يقولون للنبي ﷺ: راعنا، والسَّام عليك، وما حرّفوه أيضاً من التوراة، وغيَّروه من صفة النبي ﷺ.

﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ أي: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وكانوا يجاهرون بالكفر، ويُعَرِّضون بالسبّ، فلذلك صرَّحوا بالعصيان ولوَّحوا بالسب في قولهم: ﴿واسمع غير مُسْمَعٍ وراعنا﴾، فقوله: «غير مسمع» حال من المخاطب.

قال ابن عباس: معناه: لا سمعت[١]. كأنهم قالوا: اسمع منا مَدْعُوّاً عليك بالصُّمّ.

وقال الحسن: المعنى: اسمع غير مقبول منك[٢].

فهذا مقصودهم، وباطن كلامهم، وظاهره: اسمع غير مُسمَع مكروهاً، فهو كلام ذو وجهين.

وقيل: كانوا يقولون بألسنتهم: اسمع، وفي نفوسهم: لا سمعت. وهذا القول يأباه قوله: «لياً بألسنتهم»، وقولهم: "راعنا"، ودلالة الحال.

وقد سبق في البقرة الكلام على «رَاعِنا»[٣].

قوله: ﴿لياً بألسنتهم﴾ مصدر، أصله: لَوْياً، فأدغمت الواو في الياء.

وقيل: إن رفاعة بن زيد كان إذا تكلم النبي ﷺ لوى لسانه، وطعن في

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١١٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٦٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٢٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٥٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني.

(٢) ذكره الطبري (٥/ ١١٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٠٠).

(٣) عند قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ [البقرة:١٠٤].

الإسلام، فأنزل الله فيه هذه الآية[١].

والمعنى: تحريفاً للمدح إلى الذم.

﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا﴾ بدل قولهم: "سمعنا وعصينا"، ﴿واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم﴾ مما أظهروا وأضمروا، ﴿وأقوم﴾ أي: أعدل، ﴿ولكن لعنهم الله﴾ طردهم وأبعدهم عن رحمته بسبب كفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي: إيماناً قليلاً ضعيفاً[٢].

والمنقول عن ابن عباس: فلا يؤمن منهم إلا قليل؛ كعبد الله بن سلام[٣].

ثم إن الله أمرهم بالإيمان وهددهم فقال: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً﴾.

قال ابن عباس وقتادة وجمهور المفسِّرين: نطمس ما فيها من عين وحاجب وأنف، فنجعلها كخف البعير، وحافر الفرس، كما طمسنا أموال القبط، فجعلناها حجارة، ونحولها إلى الأدبار[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١١٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٦٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٥٣) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٢١).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦١) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٠٠).

(٤) أخرج نحوه الطبري (٥/ ١٢١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٦٩). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٠١). وذكر نحوه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٥٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال قتادة: نُحوِّل وجوههم قِبَل ظهورهم ونطمس عيونهم[١].

وقيل: هو استعارة عن إعماء بصائرهم عن الحق، وردهم عن الهدى بكل وجه.

وروي أن كعباً لما سمع هذه الآية قال: يا رب آمنت، يا رب أسلمت، خشية أن يصيبه هذا الوعيد[٢].

﴿أو نلعنهم﴾ يعني: أصحاب الوجوه.

وقيل: «الذين أوتوا الكتاب» على طريقة الالتفات من المخاطبة إلى المغايبة.

والمراد بلعنهم: مسخهم قردة وخنازير، بدليل قوله: ﴿كما لَعَنَّا أصحاب السبت﴾.

وقيل: طردهم في التِّيه. وفيه بُعْد.

فإن قيل: لم يوجد فيهم طمس ولا مسخ.

قلت: هو مرتقب لهم، ألا تراه يقول: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾.

وجائز أن يراد بالطمس: إعماء قلوبهم عن الهدى، وباللعن: طردهم عن رحمة الله أو عن بلادهم، أو اللعن المتعارف، وكل ذلك قد وُجِد فيهم، فإنهم نُفوا إلى أَذرِعَات[٣]، وطُرِدوا عن رحمة الله، ولُعِنوا بكل لسان.

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٢١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٦٩)، والثعلبي (٣/ ٣٢٤). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ١٢٤)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٦٩). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢-٦٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٥٥-٥٥٦) وعزاه لابن جرير.

(٣) أذرعات: المعروفة اليوم بـ: درعا، من الأراضي السورية.

وجائزٌ أن يكون ذلك مشروطاً باتفاقهم على ترك الإيمان، فانتفى التعذيب عنهم في الدنيا لإيمان بعضهم، والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به﴾ قال ابن عمر: لما نزلت: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ... الآية﴾ [الزمر:٥٣]، قالوا: يا رسول الله، والشرك، فكره رسول الله ﷺ ذلك، فأنزل الله هذه الآية[1].

قال عليّ رضي الله عنه: ما في القرآن آية أرجى عندي من هذه الآية: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[2].

وقال ابن عمر: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا يقول: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[3].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن مَن مات على الإيمان من أهل الكبائر لا يخلد في النار، وبرهان قاطع على بطلان ما انتحله القَدَرية[4] من قولهم: لا يجوز أن يغفر الله الكبيرة، ولا أن يعفو عن المعاصي.

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٢٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٠)، والثعلبي (٣/ ٣٢٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٥٧) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤٧)، والثعلبي (٣/ ٣٢٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٥٨) وعزاه للفريابي والترمذي.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ١٠٦)، وأبو يعلى في مسنده (١٠/ ١٨٦)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٤١٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٥٧) وعزاه لابن الضريس وأبي يعلى وابن المنذر وابن عدي.

(٤) القَدَرية: لقبوا بذلك لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها، وهذا يقتضي إثبات خالق لأفعال العباد غير الله، ولهذا سماهم رسول الله ﷺ: مجوس هذه الأمة.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لا إِلَهَ إِلاَّ الله ثمَّ مَاتَ عَلَى ذلِكَ إِلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، ثمَّ قَالَ في الرَّابعَةِ: عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبي ذرٍّ. فكَانَ أَبُو ذرّ يُحدِّثُ بهذا بَعْد ويَقُول: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبي ذرٍّ»[1].

وفي تعليق المغفرة بالمشيئة، تعديل لخوف المؤمن ورجائه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ قال ابن عباس: نزلت في رجال من اليهود أتوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد؛ هل على هؤلاء من ذنب؟ فقال: لا، فقالوا: والله ما نحن إلا كهيئتهم، وما عملناه بالنهار كُفِّر عنا بالليل، وما عملناه بالليل كُفِّر عنا بالنهار، فنزلت هذه الآية[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢١٩٣ ح٥٤٨٩)، ومسلم (١/ ٩٥ ح٩٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٢) عن ابن عباس بمعناه. وذكره الثعلبي (٣/ ٣٢٦)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٥٩-١٦٠)، والوسيط (٢/ ٦٥) من طريق الكلبي، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٠٤).

=

وقال غيره: كانت اليهود والنصارى يثنون على أنفسهم ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، ولن يدخل الجنة إلا مَن كان هوداً أو نصارى[١]، ويُمنّون بأنهم أهل الكتاب وأوعية العلم، وأولاد الأنبياء، وورَّاث الحكمة إلى غير ذلك من الأماني الكاذبة، والخدع، ويَركبون رؤوسهم في الجهل، والاجتراء على أنبياء الله وأوليائه، فيكذبون فريقاً ويقتلون فريقاً، فردّ الله عليهم وكذَّبهم فقال: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾، فيجعله زاكياً، مرضياً، مطهراً من دنس الإثم والرذائل.

قال ابن عباس: هم أهل التوحيد[٢].

﴿ولا يظلمون﴾ يعني: لا ينقص من ثواب أعمالهم.

﴿فتيلاً﴾ قال مجاهد وعطاء، وجمهور المفسِّرين، وابن قتيبة[٣]، والزجَّاج[٤]: الفتيل: ما في شق النواة[٥].

وقال سعيد بن جبير والسدي: هو ما يخرج من بين الأصابع من الوسخ عند

= وأخرج مجاهد في تفسيره (ص:١٦١) في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ قال: هم اليهود، كانوا يقدمون صبيانهم في الصلاة، فيؤمونهم ويزعمون أنه لا ذنوب لهم، فتلك التزكية.

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٢٦-١٢٧)، والثعلبي (٣/ ٣٢٦). وذكره مقاتل في تفسيره (١/ ٢٣٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٠٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٠) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٥).

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:١٢٩).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٦٠).

(٥) أخرجه الطبري (٥/ ١٢٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٣)، ومجاهد (ص:١٦٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦١) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

الدَّلْك. والقولان عن ابن عباس[(١)].

قال ابن السكِّيت[(٢)]: القِطْميرُ: القشرة الرقيقة على النواة. والفَتيل: ما في شق النواة. والنَّقير: النكتة في ظهر النواة[(٣)].

قال الأزهري[(٤)]: هذه الأشياء كلها تُضرب أمثالاً للشيء التافه، الحقير القدر[(٥)]، أي: لا يُظلمون قدرها[(٦)].

قال النابغة[(٧)]:

يَجْمَعُ الجَيْشَ ذا الأُلوف وَيَغْزُو ثمَّ لا يَرْزَأُ العَدُوَّ فَتِيلا[(٨)]

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٢٨-١٢٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦١) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٢) يعقوب بن إسحاق بن السكيت البغدادي، أبو يوسف النحوي، المؤدب، شيخ العربية، صاحب كتاب إصلاح المنطق، كان موثوقاً بروايته. توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين (تاريخ بغداد ١٤/ ٢٧٣، والأعلام ٨/ ١٩٥).

(٣) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة (١٤/ ٢٩٠).

(٤) محمد بن أحمد الأزهري، أبو منصور اللغوي، أحد الأئمة في اللغة والأدب، صاحب كتاب "تهذيب اللغة" المشهور. توفي سنة سبعين وثلاثمائة (طبقات الأدباء ص:٢٣٧، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٣١٥، والأعلام ٥/ ٣١١).

(٥) في تهذيب اللغة: القليل.

(٦) تهذيب اللغة (١٤/ ٢٩٠).

(٧) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني، أبو أمامة، شاعر جاهلي، وكان حظياً عند النعمان بن المنذر (الأعلام ٣/ ٥٤-٥٥).

(٨) البيت للنابغة الذبياني. انظر: ديوانه (ص:٩٩)، والقرطبي (٥/ ٢٤٨).

﴿انظر﴾ يا محمد، ﴿كيف يفترون على الله الكذب﴾ وهو قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وقولهم: لا ذنوب لنا.

﴿وكفى به﴾ أي: حسبهم بافترائهم على الله الكذب ﴿إثماً مبيناً﴾ أي: ظاهراً.

قوله[(١)] تعالى: ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ قال المفسِّرون: خرج كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب في جماعة من اليهود إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أقرب إلى محمد منا، وأنتم وهو من أهل الكتاب، ونحن أُمِّيون، فلا نأمن مكركم بنا، فاسجدوا لصنمنا حتى نطمئن إليكم، فسجدوا، فعيّرهم الله بذلك[(٢)].

قال ابن عباس: قالت لهم كفار قريش: أدين محمد خير، أم ديننا؟ فقالوا: بل دينكم[(٣)].

قال أهلُ اللغة: كلُّ ما عُبد من دون الله من حجر، أو صورة، أو شيطان، فهو جِبْت وطاغوت.

فعلى هذا إيمان اليهود بالجِبْت والطاغوت، سجودهم للصنم وطاعتهم للشيطان في ذلك.

---

(١) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الثاني والثلاثين، مرة ثانية.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ١٣٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٣) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ١٣٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٣) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير.

قال ابن عباس: الجِبْت: الأصنام[١].

قال عمر بن الخطاب: الطاغوت: الشيطان[٢].

﴿ويقولون﴾ يعني: كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وأصحابهما، ﴿للذين كفروا هؤلاء﴾ يعنون: كفار قريش ﴿أهدى من الذين آمنوا﴾ يعني: أصحاب محمد ﴿سبيلاً﴾ أي: طريقاً في الديانة والاعتقاد، وكان كفار قريش قالوا لهم: أنحن أهدى طريقاً أم محمد وأصحابه؟ فقالوا: أنتم.

﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ يعني: الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله: ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾، «أم» منقطعة، والاستفهام بمعنى الإنكار، والتقدير: بل ألهم نصيب من الملك، أي: ليس لهم ذلك.

﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ قال الفرّاء[٣]: هذا جواب لجزاء مضمر، كأنك

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٣٠-١٣١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ١٣١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٥)، وسعيد بن منصور (٤/ ١٢٨٣)، ومجاهد (ص:١٦١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٤) وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) معاني الفراء (١/ ٢٧٣).

قلت: ولئن كان لهم نصيب لا يؤتون الناس [إذاً][1] نقيراً.

قال الزجاج[2]: وتأويل «إذاً»: إن كان الأمر كما جرى، أو كما ذكرتَ. يقول القائل: زيدٌ يصيرُ إليكَ، فتقول: إذاً أُكرمه، أي: إن كان الأمر على ما تَصِفُ، وقع إكرامه.

﴿أم يحسدون﴾ أي: بل أيحسدون الناس، يعني: محمداً ﷺ، في قول ابن عباس وجمهور المفسِّرين[3].

وقال علي رضي الله عنه في قوله: ﴿أم يحسدون الناس﴾ قال: يعني: النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر[4].

وقال قتادة: يريد: العرب[5].

﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾ وهو النبوة، والحكمة، واستفحال أمر الإسلام.

﴿فقد آتينا آل إبراهيم﴾ وهم سِنْخ محمد[6] ﴿الكتاب﴾ يريد: جنس الكتب:

---

(١) زيادة من معاني الفراء (١/ ٢٧٣).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٦٣).

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ١٣٨). وذكره الماوردي (١/ ٤٩٦)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٦٧) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة. ومن طريق آخر عن مجاهد.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٠).

(٥) أخرجه الطبري (٥/ ١٣٨)، والثعلبي (٣/ ٣٢٩). وذكره الماوردي (١/ ٤٩٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٧) وعزاه لابن جرير.

(٦) السِّنْخ من كل شيء: أصله، والجمع: أسناخ (اللسان، مادة: سنخ).

التوراة، والإنجيل، والزبور، ﴿والحكمة﴾ وهي النبوة.

وقيل: التفقه في الدين، فغير بدْعٍ أن يسلك بسَلِيلِهم[١] واضح سبيلهم.

﴿وآتيناهم مُلْكاً عظيماً﴾ قال ابن عباس: هو ملك يوسف، وداود، وسليمان[٢].

وقيل: الجمع بين سياسة الدنيا، وشرع الدين.

وقد أخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد[٣] بإسناده عن عمرو بن ميمون[٤] قال: «رأى موسى عليه السلام رجلاً عند العرش، فغبطه بمكانه، فسأل عنه، فقيل: سأخبرك بعمله؛ لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يمشي بالنميمة، ولا يعق والديه».

قوله: ﴿فمنهم من آمن به﴾ أي فمن اليهود من آمن بمحمد ﷺ؛ كعبد الله بن سلام، ﴿ومنهم من صَدَّ﴾ أعرض ﴿عنه﴾. هذا قول ابن عباس والأكثرين[٥].

وقال مجاهد: «آمن به» أي: بالذي أنزل على محمد[٦]، فيكون الكلام مبنياً على قوله: ﴿ما آتاهم الله من فضله﴾.

---

(١) السَّلِيل: الولد (مختار الصحاح، مادة: سلل).

(٢) ذكره الماوردي (١/ ٤٩٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١١).

(٣) الزهد (ص:٨٥).

(٤) عمرو بن ميمون الأودي المذحجي، أبو عبد الله، أدرك الجاهلية وأسلم، وقدم الشام مع معاذ بن جبل ثم سكن الكوفة. توفي سنة أربع وسبعين، وقيل: بعدها (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٥٨).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٢).

(٦) أخرجه الطبري (٥/ ١٤١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٨١)، ومجاهد (ص:١٦٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقيل: الضمير في قوله: «فمنهم» يعود إلى آل إبراهيم.

قال السدي: المعنى: فمن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم[١].

وقال مقاتل[٢]: المعنى: فمن آل إبراهيم من آمن بالكتاب، ومنهم مَن صدّ عنه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾ قال الحسن: بلغنا أنها تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة، تأكل جلودهم ولحومهم، كلّما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فعادوا[٣].

واختلفوا هل تعود الجلود التي احترقت بأعيانها؟

فذهب قوم: إلى أنها تعود بأعيانها، كما أُعيدت يوم النشور، فتكون الغيرية عائدة إلى الصفات، لا إلى الذوات، كما تقول: صغت من خاتمي خاتماً آخر.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٢).

(٢) تفسير مقاتل (١/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٩٨٣)، والثعلبي (٣/ ٣٣٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٢ ح٣٤١٥١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٩) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

والمعنى: بدّلناهم جلوداً غير محترقة.

قال ابن عباس: يُبدَّلون جلوداً بيضاً كالقراطيس[١].

وذهب قوم: إلى أنهم يُجدَّد لهم جلود غير الجلود التي احترقت. قالوا: لا يلزم عليه أن يقال: كيف عُذِّبت مكان الجلود العاصية، جلود لم تعصي؛ لأن النعيم والعذاب إنما هو للجملة الحساسة، والجسد آلة موصلة لذلك إليها[٢].

﴿ليذوقوا العذاب﴾ أي: ليدوم لهم ذوقه.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «يَعْظُمُ أَهْلُ النَّارِ [في النَّارِ][٣]، حَتَّى إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ إلى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعمِائَةِ عَامٍ، وَإِنَّ غِلَظَ جِلْدِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً، وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ»[٤].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ضِرْسُ الكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاث»[٥].

﴿إن الله كان عزيزاً﴾ لا يمتنع عليه الانتقام ممن عصاه، ﴿حكيماً﴾ فيما قدَّره وقضاه.

ثم ذكر الله مآل أهل الإيمان، وما أعد لهم في الجنان فقال: ﴿والذين آمنوا

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٤٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٨٢) كلاهما عن ابن عمر، والثعلبي (٣/ ٣٣٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦٨) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر.

(٢) ذكره الطبري (٥/ ١٤٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٢-١١٣).

(٣) زيادة من مسند أحمد (٢/ ٢٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦ ح٤٨٠٠).

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٨٩ ح٢٨٥١).

وعملوا الصالحات ... -إلى قوله-: ظلاً ظليلاً﴾ أي: دائماً، لا تنسخه الشمس، ومعتدلاً، لا حَرَّ فيه ولا قَرّ.

وقال الزجاج[١]: الظَّلِيل: الذي يظلّهم من الحر والريح، وليس كل ظل كذلك، فأعلم الله أن ظل الجنة ظليل لا حَرَّ معه ولا بَرْد.

فإن قيل: كيف سَمَّاه ظِلاً، وليس في الجنة شمس؟

قلت: نعيم الجنة لا تهتدي العقول إلى كُنْه معرفته.

قال ﷺ: «فيها مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَرٍ»[٢].

وإنما يقرب إلى العقول عند الوصف للتعريف بذكر أمثاله في أسمائه مما يعرف كون مثله نعيماً في الدنيا مع فرط التفاوت، واختلاف الذوات والحقائق بين نعيم الدارين.

وقيل: خاطبهم بما يعقلون مثله؛ كقوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ [مريم:٦٢].

وقيل: هو إشارة إلى كمال وصفها وتمكين بنائها، فلو كان الحرّ، أو البرد يتسلط عليها لكان في أبنيتها وشجرها ظل ظليل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ قال ابن عباس

(١) معاني الزجاج (٢/ ٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٧٥ ح٢٨٢٥).

ومجاهد والزهري ومقاتل[١] وجمهور العلماء: السبب في نزول هذه الآية: أنه لما فتح النبي ﷺ مكة، طلب مفتاح البيت من عثمان بن طلحة الحجبي -وكانت له السدانة- فذهب ليعطيه إياه. فقال العباس: بأبي أنت وأمي اجمعه لي مع السقاية، فَلَفَّ عثمان يده مخافة أن يعطيه، فقال النبي ﷺ هات المفتاح، فأعاد العباس قوله، فَلَفَّ عثمان، فقال النبي ﷺ: أرني المفتاح إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، فقال: هاكه يا رسول الله بأمانة الله، فأخذ المفتاح، ففتح البيت[٢].

وروي: أنه لما امتنع من تسليم المفتاح، لوى عليّ يده فأخذ المفتاح منه، وفتح الباب فدخل رسول الله ﷺ، فنزل جبريل بهذه الآية، فدعا النبي ﷺ عثمان فدفع إليه المفتاح، وقال: «خذوها يا بني طلحة بأمانة الله لا ينزعها منكم إلا ظالم»[٣].

ويروى: أن جبريل قال للنبي ﷺ: إنه ما دام هذا البيت أو لبنة من لبناته قائمة، فإن المفتاح والسدانة في أولاد عثمان[٤].

وروي عن ابن عباس والحسن: أنها عامة في كل أمانة[٥].

قال ابن مسعود: الأمانة في كل شيء، في الوضوء، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحديث، والجنابة، وفي الوزن، والكيل، وأعظم من ذلك الودائع، ولا

---

(١) تفسير مقاتل (١/ ٢٣٦).

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٧٠) وعزاه لابن مردويه.

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٣٢)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٦١-١٦٢)، والوسيط (٢/ ٦٩-٧٠).

(٤) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٣٣)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٦٢).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٧٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٤).

إيمان لمن لا أمانة له[١].

وقال ابن عمر: الفرْجُ أمانة، والبصرُ أمانة[٢].

وقال أُبَيّ بن كعب: أمر الله الأمراء أن يؤدوا الأمانة في أموال المسلمين[٣].

ويؤيدُ هذا القول قوله: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾.

﴿إن الله نِعِمَّا يعظكم به﴾ من أداء الأمانة والحكم بالعدل.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ -وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ- الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلُوا»[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ طاعةُ الله: العمل بكتابه، وطاعة الرسول: امتثال أمره والعمل بسُنَّته،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٩٨٥)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٩)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٢٣)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٠١)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٤) عن البراء. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٧١-٥٧٢) وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٧٠).

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٤).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ١٤٥٨ ح١٨٢٧).

وأولوا الأمر: الولاة كالخلفاء والملوك، والقضاة.

وفي أفراد مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ الله فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ الله وَلا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَة»(١).

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «من أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله»(٢).

وقال جابر، والحسن، وأبو العالية، وعطاء: هم العلماء العاملون بعلمهم(٣)، ودليل هذا التأويل قوله: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [النساء:٨٣].

قال أبو الأسود الدِّيلي(٤): ليس شيء أعز من العلماء، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٨٢ ح١٨٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٠٨٠ ح٢٧٩٧)، ومسلم (٣/ ١٤٦٦ ح١٨٣٥).

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ١٤٨-١٤٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٨٨-٩٨٩)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤١٨)، والحاكم (١/ ٢١١)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٦٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٧٥) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن جابر، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم. ومن طريق آخر عن أبي العالية، وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.

(٤) ظالم بن عمرو بن سفيان، ويقال: عمرو بن ظالم، ويقال غير ذلك، مخضرم، ثقة، وهو أول من تكلم بالنحو. توفي سنة تسع وستين (تهذيب الكمال ٣٣/ ٣٧).

وقال عِكرمة: أُولوا الأمر: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما[١].

أخبرنا المؤيد بن محمد الطوسي[٢] في كتابه، أخبرنا جدي لأُمي أبو محمد العباس بن محمد بن العباس، المعروف بعبَّاسة الطوسي[٣]، ثنا أبو سعيد محمد بن سعيد بن فَرْخَزادا، ثنا الأستاذ أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو بكر الحِمْشاذي، أخبرنا أبو ظهير العمري البلخي، حدثنا محمد بن منصور، حدثنا القعنبي، عن مالك بن أنس، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي شريح الكعبي، أن رسول الله ﷺ قال: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر، وعمر، وإن لي وزيرين في السماء، ووزيرين في الأرض، فأما في السماء فجبريل وميكائيل، وأما في الأرض فأبو بكر وعمر، وهما عندي بمنزلة الرأس والجسد»[٤].

قرأت على أبي المجد محمد بن بهرام، أخبركم محمد بن أسعد فأقرَّ به، أخبرنا

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٤٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٨٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٧٥) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر.

(٢) المؤيد بن محمد بن علي الطوسي، أبو الحسن النيسابوري، رضي الدين، الشيخ الإمام المقرئ المعمر، مسند خراسان. توفي سنة سبع عشرة وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٠٤، والشذرات ٥/ ٧٨).

(٣) العباس بن محمد بن أبي منصور الطوسي، أبو محمد العصاري، كان شيخاً صالحاً، سكن نيسابور وكان يعظ في بعض الأوقات، وهو راوي الكشف والبيان في التفسير للثعلبي. توفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨٨، والتحبير في المعجم الكبير ص:٦٠٢-٦٠٤).

(٤) أخرجه الترمذي مختصراً (٥/ ٦٠٩ ح٣٦٦٢)، وأحمد (٥/ ٣٨٢ ح٢٣٢٩٣)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢١٢ ح٩٨٣٦)، والحميدي في مسنده (١/ ٢١٤ ح٤٤٩) كلهم بلفظ: "اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر". والزيادة أخرجها الترمذي (٥/ ٦١٦ ح٣٦٨٠)، والحاكم (٢/ ٢٩٠ ح٣٠٤٧) كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري.

أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان[١]، أخبرنا خيثمة بن سليمان[٢]، حدثنا أبو عمرو بن أبي غرزة بالكوفة[٣]، حدثنا ثابت بن موسى العابد[٤]، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اقْتَدُوا باللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[٥].

ورواه أيضاً خيثمة، عن يحيى بن أبي ميسرة، عن عبد الله بن الزبير الحميدي، عن سفيان، إلا أنه قال: حدثنا زائدة بن قدامة، عن عبد الملك بن عمير[٦].

قال الترمذي[٧]: كان سفيان يدلس في هذا الحديث، فربما يذكر عن زائدة عن عبد الملك، وربما لم يذكر زائدة.

قلت: وغيرُ ممتنع أن يكون سمعه من زائدة ومن [عبد الملك][٨]، على أن

---

(١) عبد الرحمن بن عثمان التيمي، أبو محمد الدمشقي، مسند الشام. توفي سنة عشرين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٦٦، وشذرات الذهب ٣/ ٢١٥).

(٢) خيثمة بن سليمان بن حيدرة القرشي، أبو الحسن الشامي، محدث الشام، كان رحالاً جوالاً صاحب حديث، جمع فضائل الصحابة. توفي سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤١٢، وطبقات الحفاظ ص:٣٥٥).

(٣) أحمد بن حازم بن محمد بن أبي غرزة الكوفي، أبو عمرو الغفاري، صاحب المسند، محدث الكوفة. توفي سنة ست وسبعين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٣٩).

(٤) ثابت بن موسى بن عبد الرحمن بن سلمة الضبي، أبو يزيد الكوفي، الضرير العابد. توفي سنة تسع وعشرين ومائتين (التقريب ص:١٣٣، وتهذيب الكمال ٤/ ٣٧٧).

(٥) أخرجه الترمذي (٥/ ٦٠٩ ح٣٦٦٢)، وأحمد (٥/ ٣٨٢ ح٢٣٢٩٣).

(٦) مسند الحميدي (١/ ٢١٤).

(٧) سنن الترمذي (٥/ ٦١٠).

(٨) في الأصل: سفيان، وهو خطأ.

للراوي أن يرفع الحديث وأن يقفه، وأن يقطعه ويصله، وأن يسنده ويرسله. ورواه ابن مسعود كذلك عن النبي ﷺ[1].

وقال أبو بكر الوراق[2]: أُولوا الأمر الخلفاء الراشدون: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله تعالى عنهم[3].

قوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ أي: اختلفت آراؤكم فيه، وأصله من النزع، كأن المتنازعين يتجاذبان ويتمانعان، ومنه قيل للمناولة: منازعة.

قال الأعشى:

نَازَعْتُهُ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئاً وَقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُها خَضِلُ[4]

﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ أي: ردوا المتنازَع فيه إلى كتاب الله وإلى رسوله في حياته، وإلى سُنَّتِهِ بعد مماته نصاً واستدلالاً. والرد عند الجهل تفويض علم ذلك الشيء إلى الله وإلى رسوله.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى الرد إلى الله والرسول، ﴿خير وأحسن تأويلاً﴾ أي: أحمد عاقبة، وسُمِّيت العاقبة تأويلاً؛ لأنها مآل الأمر.

وقيل: المعنى: أحسن تأويلاً من تأويلكم.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٨٠ ح٤٤٥٦).

(٢) محمد بن إسماعيل بن العباس البغدادي المستملي، أبو بكر الوراق، محدث فاضل مكثر. توفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٨٨، ولسان الميزان ٥/ ٨٠).

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٣٣).

(٤) البيت للأعشى. انظر: ديوانه (ص:١٣٣)، واللسان، مادة: (مزز)، والقرطبي (٥/ ٢٦١).

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

قوله[1]: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون ... الآية﴾ قال ابن عباس: نزلت في منافق خاصم يهودياً، فقال اليهودي: انطلق بنا إلى محمد، فقال المنافق: بل ننطلق إلى كعب بن الأشرف -وهو الذي سماه الله: الطاغوت-، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك رافعه إلى رسول الله، فقضى لليهودي، فلما خرجا من عنده، لزمه المنافق، وقال: انطلق بنا إلى عمر بن الخطاب، فأقبلا إليه، وقصا القصة عليه، فقال للمنافق: أكذلك هو؟ قال: نعم، فقال عمر: رويداً حتى أخرج إليكما، فدخل البيت، فاشتمل على سيفه، ثم خرج، فضرب به المنافق، حتى بَرَدَ[2]، فقال: هكذا أقضي لمن لم يَرْضَ بقضاء رسول الله ﷺ، وهرب اليهودي. فنزل جبريل بهذه الآية وقال: يا محمد؛ إن عمر فرّق بين الحق والباطل،

(١) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد، قراءة بمسجد الرقي، المجلس السابع عشر.
(٢) بَرَدَ: أي: مات (اللسان، مادة: برد).

فقال رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق»[1].

والزّعْم: بضم الزاي وفتحها لغتان، وأكثر ما يُستعمل فيما لا تتحقق صحته.

﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ وهو كعب بن الأشرف، سُمِّي بذلك؛ لإفراطه في الطغيان، وعداوة الإسلام.

﴿وقد أُمروا أن يكفروا به﴾ قال مقاتل[2]: أُمروا أن يتبرأوا من الكهنة.

قوله[3]: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة﴾ أي: كيف يكون حالهم إذا أصابتهم عقوبة من الله.

قيل: هي قتل المنافق، ﴿بما قدمت أيديهم﴾ من النفاق والتحاكم إلى الطاغوت، ﴿ثم جاءوك﴾ يعني: أولياء المنافق، وكانوا قد طلبوا القصاص من عمر رضي الله عنه، ﴿يحلفون بالله إن أردنا﴾ بطلب القصاص، ﴿إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ أي: خيراً وطلباً لما يوافق الحق.

وقيل: ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا إحساناً وتوفيقاً بين الخصمين، لا مخالفة حكمك، وعدم الرضا بقضائك، وذلك كذب منهم. ألا تراه يقول: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ يعني: من الكفر والنفاق وإضمارهم خلاف ما يقولون، ﴿فأعرض عنهم﴾ أي: دع عقوبتهم.

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٥٢)، ومجاهد (ص:١٦٣-١٦٤) كلاهما مختصراً. وذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ٣٣٧)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٦٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١١٨-١١٩)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٨٢) وعزاه للثعلبي.

(٢) تفسير مقاتل (١/ ٢٣٨).

(٣) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الثالث والثلاثين، مرة ثانية.

ذهب جماعةٌ من المفسِّرين إلى أن الأمرَ بالإعراض منسوخ بآية السيف[١].

وهذا ليس بصحيح؛ لأن آية السيف اقتضت إباحة دم المشركين، وحضَّت على قتلهم، والمنافق معصوم الدم؛ لإظهاره كلمة الحق.

﴿وعظهم﴾ خوِّفهم أن يعودوا لمثلها، وحذرهم من النفاق.

﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ أي: قل لهم وبالغ في وعظهم مبالغة تؤثر في نفوسهم وتبلغ كُنْه قلوبهم.

قال الحسن البصري رحمه الله: المعنى: قل لهم: إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قُتِلتم[٢].

وقيل: المعنى: قل لهم خالياً بهم، لأن القول في السر أنجع وأدخل في النصيحة.

وقد تكلم الفصحاء في البلاغة فأحسنوا:

قال الزجَّاج[٣]: يقال: بَلَغَ الرَّجُلُ يَبْلُغُ بَلاغَةً فهو بَلِيغٌ؛ إذا كان يُبلِّغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه.

وقد قيل: البلاغةُ: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

وقيل: حُسن العبارة مع صحة المعنى.

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٧٤)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٤)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٨١).

(٢) ذكره الماوردي (١/ ٥٠٣)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٧٤).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٧٠).

وقال خالد بن صفوان[١]: إن أحسن الكلام: ما قلَّت ألفاظه وكثرت معانيه. وخير الكلام: ما شوَّق أوله إلى سماع آخره.

وقال غيره: إنما يستحق الكلام اسم البلاغة، إذا سابق لفظه معناه، ومعناه لفظه[٢].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ دخلت «مِن» هاهنا للتوكيد، والمعنى: وما أرسلنا رسولاً قط إلا ليُطاع بتوفيق الله.

وقال الزجاج[٣]: المعنى: إلا ليطاع بأن الله أذن له في ذلك.

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ بإيذائك والتحاكم إلى غيرك خوفاً من تجريعهم مُرّ الحق، وطمعاً في تحريفه على يد الطاغوت بما يبذلونه له من الرشوة، ﴿جاءوك﴾ تائبين نادمين، ﴿فاستغفروا الله﴾ بألسنة صادقة، وقلوب صافية من كدر النفاق.

ثم عَدَلَ عن المخاطبة إلى المغايبة، مُنوِّهاً باسم الرسالة، مُفخِّماً لشأن القائم

---

(١) خالد بن صفوان بن الأهتم المنقري، أبو صفوان البصري، العلامة البليغ فصيح زمانه، وقد وفد على عمر بن عبد العزيز (سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢٦).

(٢) انظر هذه الأقوال في: زاد المسير (٢/ ١٢٢).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٧٠).

بأعبائها، الناهض بأثقالها، فقال: ﴿واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾.

وقد روى الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رضي الله عنه في مواضع من كتبه[1] بإسناده عن محمد بن حرب الهلالي، قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فَزارَهُ، ثم قال: يا خير الرسل! إن الله عز وجل أنزل عليك كتاباً صادقاً، قال فيه: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾، وإني جئتك مستغفراً إلى ربك من ذنوبي، مستشفعاً بك، ثم بكى وأنشأ يقول:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بالقَاعِ أَعْظُمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ القَاعُ وَالأَكَمُ

نَفْسِي الفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ العَفَافُ وَفِيهِ الجُودُ وَالكَرَمُ[2]

ثم استغفر [الله][3] وانصرف، فرقدت، فرأيت النبي ﷺ في نومي وهو يقول: الحق الرَّجُل فبشِّره أن الله تعالى قد غَفَرَ له بشفاعتي.

قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾.

أخبرنا الشيخ أبو القاسم ابن عبد الرزاق العطار، قراءة عليه وأنا أسمع، في سنة ست وستمائة، والشيخ أبو الحسن علي بن أبي بكر الصوفي بقراءتي عليه، قالا: أخبرنا عبد الأول بن عيسى، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن أعين، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن

---

(١) ذكره في مثير الغرام الساكن (ص:٤٩٠).

(٢) انظر البيتين في: البحر المحيط (٣/ ٢٩٦). وانظر القصة في: الصارم المنكي (ص: ٣٣٧ - ٣٣٨).

(٣) زيادة من مثير الغرام (ص:٤٩٠).

إسماعيل، حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، قال: «خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلاً مِن الأَنْصَارِ فِي شِراجِ[١] مِن الحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ، فَقَالَ الأَنصَارِيُّ: يَا رَسُولَ الله، أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟ فتَلَوَّنَ وَجْهُهُ ﷺ، ثمَّ قَالَ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثمَّ احْبس المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ، ثمَّ أَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ، فاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الأَنصَارِيُّ، وكَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ. قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسِبُ هَذِهِ الآيَاتِ إلا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾»[٢]. هذا حديث صحيح، أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في قصة المنافق واليهودي[٣]. فعلى هذا هي متصلة بما قبلها.

قوله: ﴿فلا﴾ رد لزعمهم أنهم مؤمنون، أي: ليس الأمر كما زعمتم، ثم استأنف فقال: ﴿وربك لا يؤمنون﴾.

وقيل: إن «لا» توطئة للنفي الذي يأتي، فإنه إذا ذكر في صدر الكلام وآخره كان أوكد وأحسن.

وقيل: زيدت لتوكيد معنى القسم، كما تقول: لا والله لا أفعل كذا. والتقدير:

---

(١) الشراج: جمع شَرْجَة، وهي مسيل الماء من الحَرَّة إلى السهل (اللسان، مادة: شرج).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧٤ ح٤٣٠٩)، ومسلم (٤/ ١٨٢٩ ح٢٣٥٧).

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ١٥٩)، ومجاهد (ص:١٦٤)، والثعلبي (٣/ ٣٤٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٨٥) وعزاه لابن جرير وابن المنذر. وقد سبقت قصتها (ص:٥٤٦).

فوربك، و «لا يؤمنون» جواب القسم[١].

﴿فيما شَجَرَ بينهم﴾ أي: فيما اختلط، ومنه: الشَّجَر؛ لالتفاف أغصانه.

ويقال لعصى الهودج: شِجَار.

﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً﴾ أي: ضيقاً.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: شكاً[٢]. وهو يؤُول إلى معنى الضيق.

﴿ويسلموا تسليماً﴾ أي: يذعنون وينقادون لأحكامك المضية، وأقضيتك المرضية.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

قوله: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم﴾ أي: فرضنا عليهم، ﴿أن اقتلوا أنفسكم﴾ كما فرضنا على بني إسرائيل، ﴿أو اخرجوا من دياركم﴾ كما فرضنا عليهم الخروج من

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٥٨)، والدر المصون (٢/ ٣٨٤-٣٨٥).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٩٥) كلاهما عن مجاهد. وأخرجه مجاهد في تفسيره (ص:١٦٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٨٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

مصر، أو كما فرضنا على المهاجرين.

﴿ما فعلوه إلا قليلٌ منهم﴾ وقرأ ابن عامر: «قليلاً»، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام[١].

فمَن رَفَعَ؛ فعلى البدل من الواو في «فَعَلُوهُ».

ومَن نَصَبَ؛ فعلى الاستثناء، وفيه ضعف، أو على معنى: ما فعلوه إلا فعلاً قليلاً.

ولما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب: والله لو أمرنا ربنا بذلك لفعلنا، والحمد لله الذي لم يفعل بنا ذلك[٢].

وقال ثابت بن قيس: أما والله إنَّ الله ليعلم مني الصدق، والله لو كتب الله علينا ذلك لفعلنا، ولو أمرني محمد أن أقتل نفسي لقتلتها[٣].

وقال ابن مسعود وعمار بن ياسر مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إن من أُمَّتي رجالاً، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي»[٤].

﴿ولو أنهم﴾ يعني: المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا، وهم في غضون ذلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴿فعلوا ما يوعظون به﴾ أي: يُذَكَّرون به من طاعة الله وطاعة رسوله ﴿لكان خيراً لهم﴾ في الحال والمآل، ﴿وأشد تثبيتاً﴾ في

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٨٦)، ولابن زنجلة (ص:٢٠٦)، والكشف (١/ ٣٩٢)، والنشر (٢/ ٢٥٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٥).

(٢) ذكره أبو السعود في تفسيره (٢/ ١٩٨).

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (١/ ٤٤٩).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ١٦١)، والثعلبي (٣/ ٣٤١). وانظر: الدر المنثور (٢/ ٥٨٧).

إيمانهم وأمانهم.

﴿وإذاً لآتيناهم﴾ دخلت «إذاً» لتدل على الجزاء، كأنه قيل: ولو أنهم فعلوا إذاً لفعل بهم.

قوله: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ قال ابن عباس: كان ثوبانُ مولى رسول الله ﷺ شديدَ المحبة لرسول الله ﷺ، فعرف النبي في وجه ثوبان الحزن يوماً، فقال: يا ثوبان؛ ما غيرَّ وجهك؟ فقال: يا رسول الله؛ ما بي من وجع، غير أني إذا لم أَرَكَ اشتقت إليك، فأذكر الآخرة، فأخاف أن لا أراك، فنزلت هذه الآية(١).

وقال الشعبي: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ والله الذي لا إله إلا هو، لأنت أحب إليّ من نفسي، وأهلي، ومالي، وولدي، وإني لأذكرك وأنا في أهلي، فيأخذني مثل الجنون حتى أراك، وذكرت موتي، وأنك تُرفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، فأنزل الله هذه الآية(٢).

فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، وأبويه، وأهله، وولده، والناس أجمعين»(٣).

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٦٤) عن سعيد بن جبير. وذكره الثعلبي (٣/ ٣٤١)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٦٨-١٦٩) من قول الكلبي، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٢٦).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٤/ ١٣٠٧). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٧٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٢٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٨٨-٥٨٩) وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٤٢). وأصله في الصحيحين، أخرجه البخاري (١/ ١٤ ح١٤)، ومسلم (١/ ٦٧ ح٤٤).

﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ كمحمد ﷺ، ﴿والصِّدِّيقين﴾ كأبي بكر، ﴿والشهداء﴾ كعمر، وعثمان، وعليّ، ﴿والصالحين﴾ من الصحابة وغيرهم.

فالصِّدِّيق: الكثير الصِّدق، ومثله: سِكِّيت، وسِكِّير، وشِرِّيب، وفِسِّيق، وضِلِّيل، وظِلِّيم، للذي يكثر منه ذلك، ولا يُطلق على مَن فعل شيئاً من ذلك مرة أو مرتين.

والشهيد: سُمِّي بذلك؛ لأن الله شهد له بالجنة، أو لأن ملائكة الرحمة تشهده، أو لقيامه بشهادة الحق حتى قُتِل، أو لأنه يشهد ما أعد الله له من الكرامة في دار المقامة.

والصالح: مَن حسنت سيرته، وصلحت سريرته.

﴿وحَسُن أولئك رفيقاً﴾ قال الزجّاج[1]: «رفيقاً»: منصوب على التمييز، وهو ينوب عن رفقاء.

قال الشاعر:

بهَا جِيَفُ الحَسْرَى، فَأَمَّا عِظَامُها فَبيضٌ، وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ[2]

قوله: ﴿ذلك الفضل من الله﴾ «ذلك» مبتدأ، «الفضل» خبره، أو «ذلك»

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٧٣-٧٤).

(٢) البيت لعلقمة بن عَبَدَةَ المعروف بالفحل. انظر: ديوانه (ص:٤٠) والكتاب (١/ ٢٠٩)، والمفضليات (ص:٣٩٤)، والطبري (٤/ ٢٤٤، ١٧/ ١٢)، والقرطبي (١/ ١٩٠)، ومعاني الزجاج (١/ ٨٣، ٢/ ٧٤)، وزاد المسير (١/ ٣٠٧، ٤٠١، ٢/ ١٢٨، ٨/ ١٠٣)، والدر المصون (١/ ١٠٨، ٢/ ١٢٥).

مبتدأ، «الفضل» صفته، «من الله» خبره[١].

﴿وكفى بالله عليماً﴾ بمن أطاعه وأطاع رسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ۝٧١ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدًا ۝٧٢ وَلَئِنۡ أَصَـٰبَكُمۡ فَضۡلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٧٣ ۞ فَلۡيُقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝٧٤﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ الحِذْر والحَذَر لغتان؛ كالمِثْل والمَثَل، والشِبْه والشَبَه، والمعنى: خذوا حذركم من عدوكم، وذلك بالتيقظ وإعداد آلة الحرب، ونصب راية الجهاد، ألا تراه يقول:

﴿فانفروا ثبات﴾ أي: انفروا إلى الجهاد ثُبات، هو جمع ثُبَةٍ، وهي الجماعة[٢].

قال زهير[٣]:

وَقَدْ أَغْدُوا عَلَى ثبةٍ كِرَامٍ ... نَشَاوى وَاجِدِينَ لَمَا نَشَاءُ[٤]

(١) انظر: التبيان (١/ ١٨٦)، والدر المصون (٢/ ٣٨٩).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (ثبا).

(٣) زهير بن أبي سلمى ربيعة المزني، حكيم الشعراء في الجاهلية، من أصحاب المعلقات (الأعلام ٣/ ٥٢).

(٤) البيت لزهير بن أبي سلمى. انظر: ديوانه (ص:١١)، ومجاز القرآن (١/ ١٣٢)، واللسان، مادة: =

والمعنى: انفروا للجهاد سريّة بعد سريّة.

﴿أو انفروا جميعاً﴾ على حسب ما يقتضيه الرأي، وتوجبه الحكمة.

﴿وإنَّ منكم لمن ليبطئن﴾ وهم المنافقون، وأُضيفوا إليهم لجريان أحكام الإسلام عليهم.

وقيل: هم الذين قلَّت بصائرهم من المؤمنين.

ومعنى: ﴿ليبطئن﴾ ليتثاقلنّ ويتخلّفن. مِنْ بطأ وأَبْطَأَ.

ويجوز أن يكون المعنى: ليبطئن غيره.

واللام في «لمن» للابتداء، وفي «ليبطئن» جواب قسم محذوف، والتقدير: وإن منكم لمن أقسم بالله «ليبطئن»، والقسم وجوابه صلة «مَن»، والعائد ما استكن في «ليبطئن»[1].

والمصيبة: قتل أو هزيمة، والفضل: فتح وغنيمة.

قال صاحب الكشاف[2]: ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مَودَّة﴾ اعتراض بين الفعل الذي هو «ليقولن» وبين مفعوله وهو «يا ليتني».

والظاهر: أنه تَهَكُّمٌ بالمنافقين، لأنهم كانوا أعدى عدو للمؤمنين، فكيف يوصفون بالمَودَّة، إلا على وجه العكس.

= (ثبا، ثوب، نشا)، والطبري (٥/ ١٦٤)، والماوردي (١/ ٥٠٥)، وزاد المسير (٢/ ١٢٩)، وروح المعاني (٢٩/ ٣١).

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ٣٩٠).

(٢) الكشاف (١/ ٥٦٥).

وقال الواحدي[١]: قوله: ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مَودَّة﴾ متصل [في النظم][٢] بقوله: ﴿قال قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾، كأن لم تكن بينكم وبينه مَودَّة.

قال ابن الأنباري[٣]: المعنى: كأن لم يعاقدكم على الإسلام، ولم يبايعكم على الصبر والثبات فيه، بما ساء وسرّ.

قرأ ابن كثير وحفص: «كأن لم تكن» بالتاء؛ لتأنيث المَودَّة. وقرأ الباقون: بالياء[٤]؛ للفصل، أو لأن المودَّة بمعنى الوُدّ، أو لأن التأنيث غير حقيقي.

﴿فأفوز﴾ جواب التمني بالفاء.

وقرئ شاذاً: «فأفوزُ» بالرفع[٥]، على معنى: فأنا أفوز.

تمنوا ذلك ميلاً إلى المال، لا رغبة في المآل.

قوله تعالى[٦]: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون﴾ أي: يبيعون ﴿الحياة الدنيا

---

(١) الوسيط (٢/ ٨٠).

(٢) زيادة من الوسيط (٢/ ٨٠).

(٣) انظر: الوسيط (٢/ ٨٠).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٨٨)، ولابن زنجلة (ص:٢٠٨)، والكشف (١/ ٣٩٢)، والنشر (٢/ ٢٥٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٥).

(٥) قرأ بها الحسن ويزيد النحوي. انظر: مختصر ابن خالويه في شواذ القرآن (ص:٢٧)، والمحتسب (١/ ١٩٢)، والبحر المحيط (٣/ ٣٠٣).

(٦) كتب في هامش الأصل: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الرابع والثلاثين، مرة ثانية.

بالآخرة﴾، كقول ابن مُفَرِّغ الحميري[(١)]:

وَشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَنِي   مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهْ[(٢)]

قوله: ﴿فيُقتل أو يَغلب﴾ خارج مخرج الغالب، إذ كل مجاهد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله، له أجر عظيم وإن لم يُقتل ولم يغلب.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

﴿والمستضعفين﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون مجروراً عطفاً على "سبيل الله"، أي: في سبيل الله وسبيل خلاص المستضعفين.

والثاني: أن يكون منصوباً على الاختصاص، بمعنى: وأختص من سبيل الله

---

(١) يزيد بن زياد بن ربيعة الملقب بمُفَرِّغ الحميري، أبو عثمان، شاعر غزل، وكان هجاء مقذعاً، وله مديح، وفد على مروان بن الحكم فأكرمه. توفي سنة تسع وستين (الأعلام ٨/ ١٨٣).

(٢) البيت ليزيد بن مُفَرِّغ الحميري. انظر: ديوانه (ص:٢١٣)، والخزانة (٦/ ٤٧)، والأضداد لابن السكيت (ص:١٨٥)، واللسان، مادة: (برد، شري)، والدر المصون (١/ ٥٠٩، ٤/ ١٦٥)، والطبري (١/ ٤١٥، ١٢/ ١٧٠)، والقرطبي (٣/ ٢١، ٩/ ١٥٥)، وزاد المسير (٢/ ١٣١)، وروح المعاني (١٢/ ٢٠٤).

خلاص المستضعفين، لأن سبيل الله عام في كل خير، وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدي الكفرة من أعظم الخير وأخصه[١]. هذا قول صاحب الكشاف[٢].

﴿والمستضعفين﴾ قوم أسلموا بمكة وصدَّهم المشركون عن الهجرة فلم يستطيعوا الخروج.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: أنه تلا هذه الآية فقال: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنْ المُسْتَضْعَفين»[٣].

وفي ذكر الولدان تسجيل على الكفرة بالإفراط في التعدي والبغي، حيث تعدى ظلمهم وأذاهم إلى الأطفال.

﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾ يعنون: مكة ﴿الظالم أهلها﴾ بالشرك والعدوان.

قال الزجَّاج[٤]: ﴿الظالم أهلها﴾ نعت للقرية. ووَحَّدَ الظالم؛ لأنه صفة تقع موقع الفعل، يقال: مررت بالقرية الصالح أهلها، أي: التي صَلَحَ أَهلُها.

﴿واجعل لنا من لدنك ولياً﴾ أي: وَلِّ علينا رجلاً مؤمناً يتولى أمورنا.

﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ ينصرنا على عدونا، ويمنعنا منهم، فاستجاب الله دعاءهم، فهاجر مَن هاجر منهم، وأزال أذى الكفر عنهم.

---

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ٣٩٤).

(٢) الكشاف (١/ ٥٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٤٥٥ ح١٢٩١، ٤/ ١٦٧٥ ح٤٣١١).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٧٧).

قال ابن عباس: فلما فتح رسول الله ﷺ مكة جعله الله وليهم، واستعمل عليهم عتَّاب بن أَسِيد[١] فكان نصيراً لهم، ينصف الضعيف من القوي[٢].

والمراد بقوله: ﴿يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾: الشيطان، وهو اسم جنس، ﴿إن كيد الشيطان﴾ يعني: مكره وتدبيره ﴿كان ضعيفاً﴾ بالنسبة إلى كيد الله ومكره.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

---

(١) عتاب بن أَسِيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، أبو عبد الرحمن، أسلم يوم الفتح، واستعمله النبي ﷺ على مكة لما سار إلى حنين (الإصابة ٤/ ٤٢٩، وتهذيب الكمال ١٩/ ٢٨٢).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٨١) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٣٣).

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ قال قتادة وجمهور المفسِّرين: نزلت في رجال من المؤمنين منهم عبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وقدامة بن مظعون، وسعد بن أبي وقاص كانوا يقولون: يا رسول الله! ائذن لنا في قتال المشركين، لِمَا يَلْقَوْن من الشدة والعناء، فيقول لهم: «كفوا أيديكم، فإني لم أومر بقتالهم»، فلما أُذن في القتال بعد الهجرة، وأمر رسول الله بالمسير إلى العير والنفير، فلما عرفوا أنه القتال كرهه بعضهم وشق عليهم، فأنزل الله هذه الآية.

أخرجه أبو داود، والنسائي بمعناه من حديث ابن عباس(١).

وروى عطية عن ابن عباس: أنها نزلت واصفة حال أقوام كانوا في الزمان المتقدم، يُحذّر هذه الأُمَّة مثل حالهم(٢).

قال أبو سليمان الدمشقي: كأنه يومئ إلى قصة الذين قالوا: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله(٣).

ومعنى: «كُفُّوا أيديكم»: امتنعوا من القتال.

﴿فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم﴾ وهم قوم لم ترسخ أقدامهم في العلم.

﴿يخشون الناس كخشية الله﴾ قال الحسن البصري: هذا كان منهم لما في طبع

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٦)، والطبري (٥/ ١٧٠-١٧١)، والثعلبي (٣/ ٣٤٥). ولم أقف عليه في سنن أبي داود.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٣٤).

(٣) مثل السابق.

البشر من المخافة، لا على كراهة أمر الله بالقتال[١].

وقيل: هم قوم نافقوا عند الأمر بالقتال، كأن ما رُكِّب في الطبع من حب الحياة وكراهية الموت، وما خامر قلوبهم من الخوف؛ حملهم على أقوال وأفعال سلبتهم الإيمان، وكسبتهم النفاق.

"يخشون الناس" أي: يخافون الكفار.

"كخشية الله": محله من الإعراب: النصب على الحال من الضمير في «يَخْشَوْنَ»، أي: يخشون الناس مشبهين أهل خشية الله.

﴿أو أشد خشية﴾ عطف على الحال، يعني: أو أشد خشية من أهل خشية الله[٢].

﴿وقالوا﴾ حرصاً على الحياة ﴿ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا﴾ أي: هلاّ، ﴿أخَّرتنا إلى أجل قريب﴾، بحيث نتقوى ونكثر، ﴿قل متاع الدنيا﴾ أي: نفعها والبقاء فيها ﴿قليل، والآخرة خير لمن اتقى﴾ الشرك والشك، ﴿ولا تُظلمون﴾ من ثواب جهادكم لأعداء الله، ﴿فتيلاً﴾ سبق تفسيره آنفاً[٣].

قوله: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ «أين»: ظرف مكان فيه معنى الاستفهام والشرط[٤].

قال ابن عباس: نزلت في قول المنافقين يوم أُحُد: ﴿لَوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٨٢).

(٢) انظر: الدر المصون (٢/ ٣٩٦).

(٣) عند تفسير الآية رقم: ٤٩.

(٤) انظر: الدر المصون (٢/ ٣٩٧).

قُتِلُواْ﴾[1] [آل عمران:١٥٦].

وغيرُ مستبعدٍ ارتباطها بما قبلها، فتكون من تمام ما أمر الله به رسوله أن يقوله لكارهي القتال حباً للحياة وحذراً من الممات.

﴿ولو كنتم في بروج مشيَّدة﴾ أي: في حصون منيعة رفيعة، من قولهم: شَادَ بناءه وَأَشَادَهُ وَشَيَّدَهُ؛ إذا رَفَعَهُ.

وقيل: "المُشَيَّدة": المَبْنِيَّة بالشِّيد، وهو الجِصّ[2].

قال قتادة والربيع بن أنس وسفيان الثوري والسدي: هي بروج السماء الاثنا عشر[3].

قوله تعالى: ﴿وإن تصبهم﴾ يعني: اليهود والمنافقين ﴿حسنة﴾ أي: نعمة من خصب ورخاء وغير ذلك، ﴿يقولوا هذه من عند الله﴾.

﴿وإن تصبهم سيئة﴾ بَلِيَّة من قحط وشدة، ﴿يقولوا هذه من عندك﴾ أي: بشؤمك، تطيراً بمقدم رسول الله إلى المدينة، كما قيل لموسى عليه السلام: ﴿اطَّيَّرْنَا بكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾[4].

---

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٤٦)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٦٠).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (شيد).

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٠٨). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٨٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٣٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٩٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي، ومن طريق آخر عن أبي العالية و سفيان.

(٤) الذي قيل لموسى عليه السلام هو قوله: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ [الأعراف:١٣١]، أما قوله تعالى: ﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾ فإنما هي قول ثمود لرسولها صالح.

﴿قل كل عند الله﴾ قبض الأرزاق وبسطها، ورفع الأسعار وحطها، ﴿فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ أي: يفهمون حديثاً، فيعلموا أن الله الحكيم في تدبيره، هو القابض الباسط، بعلمه وتقديره.

قوله: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ أي: ما أصابك أيها الإنسان أو أيها السامع، أو هو خطاب للنبي ﷺ والمراد غيره.

قال ابن عباس: ما أصابك يوم بدر من نصر وغنيمة فمن الله، وما أصابك يوم أُحُد من قتل وهزيمة فمن نفسك، أي: بذنبك[1].

قال قتادة: عقوبة لذنبك يا ابن آدم[2].

فإن قيل: ظاهرُ هذا يناقض قوله: ﴿قل كل من عند الله﴾.

قلت: لا مناقضة لأوجه:

أحدها: أن المعنى كما ذكر ابن عباس وقتادة وغيرهما، أنه أضافه إليه إضافة الشيء إلى سببه، ومثله قوله عليه السلام فيما يحكيه عن ربه عز وجل أنه قال: «يَا عِبَادِي؛ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أحفظها عليكم[3]، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ الله، وَمَنْ

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ١٧٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠١٠). وذكره الماوردي (١/ ٥٠٩)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٨٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٣٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٩٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٥٩٧). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٨٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٣٩)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٩٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٣) في صحيح مسلم بلفظ: «أُحْصِيهَا لَكُمْ ثمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا». ولفظ: "أحفظها عليكم" هي رواية الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٦٩)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٩٣).

وَجَدَ غيْرَ ذلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه»[(١)].

فالمعنى على هذا: «فَمِنْ نَفْسِكَ»: بسبب خطيئتك، وأنا قضيتُها عليك.

الثاني: أن التقدير: أَفَمِنْ نفسك؟ وقد يُحذف حرف الاستفهام كثيراً، ومثله: ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ [الأنبياء:٨٧]، ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُون﴾ [الأنبياء:٣٤]، ﴿وتلك نعمة تمنها عليَّ﴾ [الشعراء:٢٢]، تقديره: أَفظَنَّ؟ أَفَهُمُ؟ أَوَ تِلْكَ نعمة؟ فعلى هذا يكون الاستفهام بمعنى الإنكار عليهم، حيث نسبوا الفعل إلى غير فاعله، فإنه لا يقع في الكون أمر من رخص وغلاء، ونعمة وبلاء، إلا بقضاء الله وقدره.

الثالث: أن هذا من تمام ما حكاه الله عنهم منكراً عليهم، التقدير: ﴿فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾، يقولون: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾، والمضمر المقدَّر كثير في القرآن وكلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿أو على سفر فعدَّة﴾ [البقرة:١٨٤]، أي: فأفطر فعدَّة، وقوله: ﴿أو به أذى من رأسه ففدية﴾ [البقرة:١٩٦] أي: فحلق ففدية، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم﴾ [النور:٢٠]، أي: لولا فضل الله عليكم لعذَّبكم.

وقال النمر بن تولب[(٢)]:

فَإِنَّ المَنِيَّةَ مَنْ يَخْشَهَا ... فَسَوْفَ تُصَادِفُهُ أَيْنَمَا[(٣)]

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٤ ح٢٥٧٧) من حديث أبي ذر الطويل.

(٢) النمر بن تولب بن زهير العُكْلي، كان شاعراً مشهوراً فصيحاً، وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكَيِّس؛ لجودة شعره، وكثرة أمثاله. وهو جاهلي أدرك الإسلام فأسلم (الإصابة ٦/ ٤٧٠).

(٣) البيت للنمر بن تولب. انظر البيت في: مشكل القرآن (ص:٢١٧)، والطبري (١/ ١٩٦)، والقرطبي (١/ ٢٦٢)، وزاد المسير (٢/ ١٤١).

أراد: أينما ذهب.

وقال غيره:

فَأَقْسَمَ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفعَا[1]

قوله تعالى: ﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ أي: لجميع الناس الموجودين في زمانك، والذين يوجدون إلى يوم القيامة، ومثله: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [سبأ:٢٨].

وقوله عليه السلام: «بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ»[2]، أي: إلى العجم والعرب.

وقيل: إلى الإنس والجن.

قال الزجاج[3]: ذكر الرسول توكيداً لقوله: «وأرسلناك».

﴿وكفى بالله شهيداً﴾ الباء مؤكدة، و «شهيداً» نصب على التمييز، والمعنى: كفى الله شهيداً لك بالرسالة، وعليهم بالضلالة.

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾
وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ
وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

(١) البيت لامرئ القيس. انظر: ديوانه (ص:٢٤٢)، واللسان، مادة: (وحد)، والطبري (١٢/ ١٨، ١٣/ ١٥٢، ٢٣/ ٢٠١)، وزاد المسير (٢/ ١٤١، ٤/ ٨٧)، وروح المعاني (٧/ ١٢٨، ١٣/ ١٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٣٧٠ ح٥٢١)، وأحمد (١/ ٣٠١ ح٢٧٤٢).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٨٠).

قوله: ﴿مَن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ قال مقاتل[١]: السبب في نزولها: أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أحبني فقد أحب الله، فقال المنافقون: ألا تسمعون ما يقول، لقد قارب هذا الرجل الشرك. فنزلت هذه الآية».

﴿ومن تولى﴾ عن طاعتك، ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي: رقيباً تحفظ عليهم أعمالهم، وتحاسبهم عليها.

قال المفسِّرون: وهذا كان قبل الأمر بالقتال، ثم نُسِخ بآية السيف[٢].

قوله: ﴿ويقولون طاعة﴾ أي: ويقول المنافقون لك إذا أمرتهم أو نهيتهم: شأننا أو أمرنا طاعة.

﴿فإذا برزوا من عندك﴾ أي: خرجوا، ﴿بيَّتَ طائفة منهم غير الذي تقول﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة: «بيَّتْ طَائِفَةٌ» بإدغام التاء في الطاء؛ لأنهما من حيز واحد.

وقرأ الباقون: بالإظهار وفتح التاء[٣]؛ لانفصال الحرفين، واختلاف المخرجين.

والطائفة بمعنى: الفريق، والتأنيث فيه غير حقيقي، فلذلك ذكَّر الفعل.

قال الزجَّاج[٤]: وكل أمر فُكِّر فيه بليل فقد بُيِّت، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ القَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]. والمعنى: زَوَّرت وسوَّت خلاف ما قُلتَ

---

(١) تفسير مقاتل (١/ ٢٤٤).

(٢) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٧٦)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٤)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٨٣).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٨٩)، والكشف (١/ ٣٩٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٥).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٨١).

وما أمرت به.

وقيل: المعنى: غير الذي تقول الطائفة، وتظهر من الطاعة.

﴿والله يكتب ما يُبيِّتون﴾ أي: يُثبته في صحائف أعمالهم، أو يكتبه فيما يوحيه إليك وينزله عليك، ليعلمك أسرارهم وإضْرارهم.

﴿فأعرض عنهم﴾ أي: عن الانتقام منهم.

قال ابن عباس: نسخ هذا بالأمر بقتالهم[1].

﴿وتوكل على الله﴾ فهو يكفيك شأنهم، وينتقم لك منهم إذا استفحل أمرك، وعظم سلطانك، وكثر أعوانك.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

قوله عز وجل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ يَتَأَمَّلُونَهُ ويتفكرون فيه، فيستدلوا برصانة مبانيه عن المناقضة، وصيانة معانيه عن المعارضة، وكثرة حكمه وأحكامه مع إيجازه وإعجازه، وتشويق هواديه إلى أعجازه. على أنه كلام مَن تنزَّهت ذاته عن مشاكلة الذوات، وصفاته عن مماثلة الصفات.

﴿ولو كان من عند غير الله﴾ كما زعم حاسدوك ومعاندوك، ﴿لوجدوا فيه

(١) ذكره ابن سلامة في الناسخ والمنسوخ (ص:٧٦)، وابن حزم في الناسخ والمنسوخ (ص:٣٤)، وابن الجوزي في نواسخ القرآن (ص:٢٨٤).

اختلافاً كثيراً﴾ تفاوتاً في النظم والمعنى على نحو كلام البشر ما بين بديع مستحسَن، ومرذول مستهجَن، وكلام الله تعالى جار على سَنَنٍ واحد من البلاغة والبراعة وصحة اللفظ والمعنى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قوله: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ أخرج مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس: «أن النبي ﷺ لما اعتزل نساءه، دخل عمر المسجد، فسمع الناس يقولون: طلَّق رسول الله ﷺ نساءه، فدخل على النبي ﷺ فسأله: أطلَّقتَ نساءك؟ قال: لا، فخرج، فنادى: ألا إن رسول الله ﷺ لم يُطلِّق نساءه، فنزلت هذه الآية، فكان عمر هو الذي استنبط الأمر»[1].

وروى أبو صالح[2] عن ابن عباس: أن النبي ﷺ كان إذا بعث سريّة فغَلبت أو غُلِبت، تحدَّثوا بذلك، وأذاعوه قبل النبي ﷺ وكبراء أصحابه وعلمائهم، فأنزل الله هذه الآية[3].

والمشار إليهم بقوله: ﴿وإذا جاءهم﴾: المنافقون.

وقيل: ضعفة المسلمين الذين لا اطلاع لهم على بواطن الأمور وجلايا القضايا.

والأمن: الظفر والغنيمة.

والخوف: القتل والهزيمة.

﴿أذاعوا به﴾ أظهروه وأشاعوه، يقال: أذاع السر وأذاع به،

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١١٠٥-١١٠٧ ح١٤٧٩).

(٢) باذام -ويقال: باذان- أبو صالح، مولى أم هانئ (الجرح والتعديل ١/ ١٣٥).

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٥٠-٣٥١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٤٥-١٤٦).

﴿ولو رَدُّوهُ﴾ يعني: الأمر ﴿إلى الرسول﴾ ليكون هو المُخْبر به، ﴿وإلى أولي الأمر منهم﴾ وهم أصحاب البصائر المضيئة بنور العلم والإيمان.

قال ابن عباس: كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ رضي الله عنهم[1].

وقيل: هم ذوو الآراء من الأمراء.

﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي: يستخرجونه من أولي الأمر.

وقال مجاهد: من المذيعين[2].

فالمعنى على القول الأول: ولو ردوه إلى أرباب العلم، وكبراء الصحابة لاستنبطوه بآرائهم السليمة، وأفهامهم المستقيمة، فعلموا منهم صحة ذلك الأمر من بطلانه، وهل المصلحة في إذاعته، أو في كتمانه.

والمعنى على قول مجاهد: ولو ردُّوه إلى أُولي الأمر منهم، وهم الكبراء أو الأمراء لعلمه المستنبطون من المذيعين.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ قال ابن عباس: "فضل الله": الإسلام، "ورحمته": القرآن[3].

﴿لاتبعتم الشيطان﴾ قال ابن عباس: هاهنا تم الكلام[4]، ثم استثنى القليل من قوله: "أذاعوا به" تقديره: أذاعوا به ﴿إلا قليلاً﴾ ممن عصم الله منهم فإنهم لا

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٥١)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٨٧) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٤٧).

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٤٧). وأخرج مجاهد في تفسيره (ص:١٦٧) عند قوله: ﴿يستنبطونه منهم﴾ قال: وهو قوله: ماذا كان؟ وماذا سمعتم؟.

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٥١)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٨٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ١٠١٧).

يذيعون[١]. وهذا اختيار الكسائي، والفرَّاء[٢]، وابن جرير[٣].

وقال الحسن: الاستثناء من المستنبطين، تقديره: لعلمه الذين يستنبطونه إلا القليل[٤].

وهذا اختيار ابن قتيبة[٥].

وقال الضحاك وغيره: المعنى: لاتبعتم الشيطان فبقيتم على كفركم إلا قليلاً[٦]. اختاره الزجَّاج[٧].

وقال بعض العلماء: المعنى: ولولا فضل الله عليكم بإرسال محمد إليكم لضللتم إلا قليلاً منكم، وهم الذين اهتدوا بنور عقولهم إلى عبادة الرحمن، ورفض الأوثان؛ كقُس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل.

﴿فَقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ٨٥ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ

(١) الوسيط (٢/ ٨٧).
(٢) معاني الفراء (١/ ٢٧٩).
(٣) تفسير الطبري (٥/ ١٨٣-١٨٤).
(٤) ذكره الماوردي (١/ ٥١١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٤٨).
(٥) تفسير غريب القرآن (ص:١٣٢).
(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٤٨).
(٧) معاني الزجاج (٢/ ٨٤).

رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿فقاتل في سبيل الله﴾ قال ابن عباس: لما ندب النبي ﷺ الناس لموعد أبي سفيان ببدر الصغرى(١) بعد أُحُد كره بعضهم ذلك، فأنزل الله هذه الآية(٢).

والفاء في قوله: «فقاتل» متعلقة بقوله: ﴿ومن يقاتل﴾ [النساء:٧٤]، أو بقوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ [النساء:٧٥]، على معنى: إن لم يقاتلوا في سبيل الله فقاتل أنت وإن بقيت وحدك.

﴿لا تُكلَّف إلا نفسك﴾ إلا الجهاد بنفسك.

﴿وحَرِّض المؤمنين﴾ أي: ليس عليك إلا تحريضهم، وحضَّهم على الجهاد، ﴿عسى الله أن يَكُفَّ بأس الذين كفروا﴾ أي: شدتهم.

قد سبق الكلام على «عسى». وفي الجملة إطماع الكريم واجب واقع، فحقق الله ذلك، فكف بأس الذين كفروا، أبو سفيان وأصحابه، كما ذكرناه في آل عمران.

﴿والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾ عقوبة.

قوله: ﴿من يشفع شفاعة حسنة ... الآية﴾ قال الحسن: ما يجوز في الدين أن يُشفع فيه فهو شفاعة حسنة، وما لا يجوز أن يُشفع فيه فهو شفاعة سيئة(٣).

---

(١) وهي عندما خرج النبي ﷺ لأبي سفيان صبيحة أُحُد بحمراء الأسد، وقد تقدمت القصة في آل عمران عند قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ [١٧٢].

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٥٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٤٨-١٤٩).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٨٩).

فيدخل في الشفاعة الحسنة كل شفاعة جلبت للإنسان خيراً، ونَفَتْ عنه ضيراً، والإصلاح بين الناس والدعاء للمؤمنين.

والسيئة بخلاف ذلك.

وهذه الجملة تشتمل على تفاصيل أقوال المفسِّرين في الشفاعتين.

والنَّصيب والكِفْل بمعنى واحد.

والمعنى: أن لهذا نصيباً من الأجر، ولهذا كِفْلاً من الوِزْر.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى: أن رسول الله ﷺ قال: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَلِيَقْضِ الله عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبّ»[١].

وثبت عنه ﷺ من حديث ابن عمر أنه قال: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله، فَقَدْ حَادَّ الله في ملكه»[٢].

قوله: ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ أي: مقتدراً. يقال: أَقَاتَ على الشيء يُقِيتُ إِقَاتَةً؛ إذا اقْتَدَرَ عليه[٣]، وأنشدوا:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ ... وَكُنْتُ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُقِيتا[٤]

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥٢٠ ح١٣٦٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٦ ح٢٦٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٠٥ ح٣٥٩٧)، وأحمد (٢/ ٧٠ ح٥٣٨٥).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (قوت).

(٤) البيت للزبير بن عبد المطلب بن هاشم، أكبر أعمام النبي ﷺ. انظر: اللسان، مادة: (قوت)، والصحاح (١/ ٢٦٢)، والبحر المحيط (٣/ ٣١٦)، والدر المصون (٢/ ٤٠٥، ٦/ ١٥٦)، وتفسير غريب القرآن (ص:١٣٢)، والطبري (٥/ ١٨٨)، والقرطبي (٥/ ٢٩٦)، والماوردي (١/ ٥١٣). ونسبه ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٥٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٠٤) لأحيحة بن الجلاح الأنصاري.

وقال قتادة: المُقِيت: الحفيظ[١].

قال الزجاج[٢]: هو بهذا أشبه، لأنه مشتق من القُوت. يقال: قُتُّ الرَّجُلَ أَقُوتُهُ قَوْتاً؛ إذا حَفِظْتَ عليه نَفْسَهُ بما يَقُوته، واسم الشيء الذي يَحْفَظُ نَفْسَهُ: القُوت، فمعنى المُقِيت: الحافظ[٣] الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة من الحفظ[٤].

قال الشاعر:

أَلِيَ الفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إِذا حُو سِبتُ، إِنِّي عَلَى الحِسَاب مُقِيتُ[٥]

والقولان عن ابن عباس[٦].

قوله: ﴿وإذا حييتم بتحية﴾ التفسير المشهور الذي عليه الجمهور، أن التحية: السلام، ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ مثل أن يقول لك أخوك المسلم: السلام عليكم،

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٩٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٥٠).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٨٥-٨٦).

(٣) في الزجاج واللسان: الحفيظ.

(٤) انظر: اللسان، مادة: (قوت).

(٥) البيت للسموأل بن عادياء. انظر: ديوانه (ص:١٣)، ومجاز القرآن (١/ ١٣٥)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص:١٣٣)، والأصمعيات (ص:٨٦)، واللسان، مادة: (قوت)، والبحر المحيط (٣/ ٣١٦)، والدر المصون (٢/ ٤٠٥)، والطبري (٥/ ١٨٨)، وزاد المسير (٢/ ١٥١)، والكشاف (١/ ٥٧٥).

(٦) أخرج القول الأول لابن عباس: الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٥٢) من حديث طويل. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٠٤) وعزاه لأبي بكر ابن الأنباري في الوقف والابتداء والطبراني في الكبير والطستي في مسائله.

وأخرج القول الثاني: الطبري (٥/ ١٨٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠١٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٠٤) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات.

فتقول: وعليكم السلام ورحمة الله، ﴿أو رُدُّوها﴾ قولوا مثلها، ندب سبحانه إلى الفضل في الرد، وأوجب العدل، ﴿إن الله كان على كل شيء﴾ من الفضل في الرد، والعدل فيه، ﴿حسيباً﴾ مجازياً مكافياً.

قوله: ﴿ليجمعنكم﴾ هذه لام القسم، تقديره: والله ليجمعنكم، يعني: في الموت، أو في القبور، ﴿إلى يوم القيامة﴾ ويُحتمل أن يكون المعنى: ليجمعنكم في يوم القيامة.

وهو يوم قيام الناس من قبورهم، فالقيامة والقيام بمعنى، كالطِلابة والطِلاب، ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ أي: قولاً ووعداً.

۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ

وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾

قوله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾[1].

أخبرنا الشيخان أبو القاسم، وأبو الحسن البغداديان، قالا: أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا الداودي، أخبرنا السرخسي، أخبرنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثني محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر وعبد الرحمن، قالا: حدثنا شعبة، عن عدي، عن عبد الله بن يزيد، عن زيد بن ثابت: «﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ رجع ناس من أصحاب النبي ﷺ من أُحُد، وكان الناس فيهم فرقتين، فريق يقول: اقتلهم[2]، وفريق يقول: لا، فنزلت: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾، وقال: إنها طيبة تنفي الخبث، كما تنفي النار خبث الفضة»[3]. وأخرجه مسلم أيضاً.

وقال عبد الرحمن بن عوف: نزلت في قوم أسلموا فأصابهم وباء المدينة وحماها، فخرجوا، فاستقبلهم نفر من المسلمين، فقالوا: ما لكم خرجتم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة، فَاجْتَوَيْنَاهَا[4]، فقالوا: أما لكم في رسول الله أُسوة؟ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا، فنزلت هذه الآية[5].

---

(١) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة مسجد الرقي، المجلس الثامن عشر، وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الخامس والثلاثين، مرة ثانية.

(٢) في هامش الأصل: صوابه: تقتلهم به.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧٦ ح٤٣١٣)، ومسلم (٤/ ٢١٤٢ ح٢٧٧٦).

(٤) اجْتَوَيْت البلد: إذا كرهت المُقام فيه. والاجْتِواء: النِّزاع إلى الوطن وكراهةُ المكان الذي أنت فيه وإن كنت في نعمة (اللسان، مادة: جوا).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٩٢)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٧٢). وذكره السيوطي في لباب النقول (ص:٧٥-٧٦)، وفي الدر المنثور (٢/ ٦١٠) وعزاه لأحمد.

وقيل: نزلت في العُرَنيين الذين أغاروا على سرح رسول الله ﷺ[١].

وقيل: نزلت في الذين لم يهاجروا من مكة[٢].

والمعنى: ما لكم اختلفتم في شأن قوم ظهر نفاقهم، وتفرقتم فيهم فئتين -أي: فرقتين، ونصبها على الحال[٣]-، وما لكم لم تجتمعوا على كفرهم.

﴿والله أركسهم﴾ رَدَّهُم إلى الشرك كما كانوا، يقال: أَرْكَسَ الشَّيْء ورَكَسَهُ، ﴿بما كسبوا﴾ من الفعل القبيح الدال على كفرهم ونفاقهم.

﴿أتريدون﴾ أيها المؤمنون، ﴿أن تهدوا مَن أضل الله﴾ لأنهم قالوا: هم إخواننا، وتكلموا بكلمتنا، فأنكر الله عليهم نسبة المنافقين إليهم.

﴿ومَن يُضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ إلى الحُجَّة، ولا دليلاً على المحجة.

ثم أخبر الله المؤمنين بما تنطوي عليه ضمائرهم لهم، لئلا يحسنوا الظن بهم، فقال: ﴿ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون﴾ عطف على «تكفرون»[٤]، إذ لو كان جواباً لحذفت النون، والمعنى: أحبوا كفركم وكونكم مثلهم.

﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ أي: يرجعوا إلى رسول الله بنِيَّةٍ خالصة من شوائب النفاق.

﴿فإن تولَّوا﴾ عن التوحيد والهجرة، ﴿فخذوهم﴾ أُسَراء، ﴿واقتلوهم حيث

---

(١) حديث العرنيين أخرجه البخاري (١/ ٩٢ ح٢٣١).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٢٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٠٩-٦١٠) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٨٩)، والدر المصون (٢/ ٤٠٧).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٨٩)، والدر المصون (٢/ ٤٠٩).

وجدتموهم﴾ في حِلٍّ أو حرم، ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾.

قوله: ﴿إلا الذين يصلون﴾ استثناهم الله عز وجل من قوله: ﴿فخذوهم واقتلوهم﴾ التقدير: خذوهم واقتلوهم إلا الذين يتصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، فيكون بينهم رابطة حِلْف أو جوار، فلا تأخذوهم ولا تقتلوهم.

قال ابن عباس: والمراد بالقوم: هلال بن عويمر الأسلمي وقومه، وكان وَادَعَ رسول الله ﷺ على أن [لا][1] يعينه، ولا يعين عليه، وكان مَن وصل إلى هلال من قومه وغيرهم فلهم من الجوار مثل ما لهلال[2].

وقال الحسن: بنو مدلج[3].

وقال مقاتل[4]: خزاعة وبنو مدلج.

قال ابن عباس: والميثاق: العهد[5].

﴿أو جاءوكم﴾ معطوف على صفة «قوم»[6]، أي: يَصِلُون إلى قوم معاهدين، أو قوم ممسكين عن قتالكم.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة على الأصل.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ١٩٧-١٩٨) عن عكرمة، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٢٧).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٩٢)، والماوردي (١/ ٥١٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٥٨).

(٤) تفسير مقاتل (١/ ٢٤٧).

(٥) زاد المسير (٢/ ١٥٨).

(٦) وفيه وجه آخر، وهو أنه عطف على الصلة، كأنه قيل: أو إلا الذين جاؤوكم حَصِرَتْ صدورهم (انظر: الدر المصون ٢/ ٤١٠).

وقال الزجَّاج[١]: المعنى: يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو يصلون إلى قوم جاءوكم.

وقرأ أُبَيّ: «بينكم وبينهم ميثاق جاءوكم» بإسقاط «أو»[٢].

فعلى هذا: «جاءوكم» بيان لـ«يصلون»، أو بدل منه، أو استئناف، أو صفة بعد صفة لـ «قوم».

﴿حصِرت صدورهم﴾ أي: ضاقت صدورهم عن ﴿أن يقاتلوكم﴾ للعهد الذي بينكم وبينهم، ﴿أو يقاتلوا قومهم﴾ يعني: قريشاً.

قال مجاهد: هلال بن عويمر هو الذي حَصِر صدره أن يقاتلكم، أو يقاتل قومه[٣].

وقيل: أو يقاتلوا قومهم الذين آمنوا، وصاروا مع النبي ﷺ.

فإن قيل: ما إعراب: «حَصِرت صدورهم»؟

قلت: فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه في محل الحال بإضمار "قد"، والدليل عليه قراءة الحسن، وبها قرأتُ على أبي البقاء اللغوي، وأبي عمرو الياسري ليعقوب، والمفضل عن عاصم: "حَصِرَةً صدورهم"[٤] على الحال، وهذا قول [الأخفش][٥].

---

(١) لم أقف عليه في معاني الزجاج. وانظر قول الزجاج في: زاد المسير (٢/ ١٥٨).

(٢) انظر: البحر المحيط (٣/ ٣٢٩)، والدر المصون (٢/ ٤١٠).

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ١٩٢-١٩٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٢٨)، ومجاهد (ص:١٦٨).

(٤) مختصر ابن خالويه (ص: ٢٧-٢٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص: ١٩٣).

(٥) معاني الأخفش (ص:١٦٢). وفي الأصل: وهذا قول الفش. وهو تصحيف.

الثاني: أنه صفة في موضع نصب، تقديره: أو جاءوكم قوماً حصرت صدورهم. قاله سيبويه.

الثالث: أنه دعاءٌ عليهم، لا موضع له من الإعراب، تقديره: ضيَّق الله صدورهم عن قتالكم. قاله المبرد[(١)].

وردَّه أبو علي لقوله: "أو يقاتلوا قومهم"، ونحن لا ندعوا عليهم بأن يُضيِّق الله صدورهم عن قتال قومهم.

قال القاضي أبو يعلى رحمه الله[(٢)]: فلما أعزّ الله الإسلام أُمِروا أن لا يقبلوا من مشركي العرب إلا الإسلام أو السيف.

﴿ولو شاء الله لسلّطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ فيه إشارة إلى أنه هو الذي حَصَرَ صدورهم عن قتال المؤمنين بما قذف في قلوبهم من الرعب.

قوله: ﴿وألقوا إليكم السلم﴾ قال الحسن: يعني: الإسلام[(٣)].

وقال غيره: الصلح[(٤)].

﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ إلى القتل والأخذ، ثم نسخ بآية السيف[(٥)].

قوله: ﴿ستجدون آخرين﴾ قال ابن عباس: هم أسد وغطفان، وكانوا

---

(١) المقتضب (٤/ ١٢٤).

(٢) انظر: زاد المسير (٢/ ١٥٩).

(٣) ذكره الماوردي (١/ ٥١٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٥٩).

(٤) وهو قول الربيع ومقاتل. انظر: تفسير مقاتل (١/ ٢٤٧)، والماوردي (١/ ٥١٦)، وزاد المسير (٢/ ١٥٩).

(٥) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٧٦)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٤)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٨٥-٢٨٧).

حاضري المدينة[١].

وروي عنه: أنهم بنو عبد الدار[٢]، أظهروا الإيمان ليأمنوا المؤمنين بما أظهروا، ﴿ويأمنوا قومهم﴾ الكفار بما أضمروا، فأعلم الله نبيه أن هذه الموافقة منافقة، وأن مقصودهم من إظهار الإيمان الأمان.

﴿كلما ردوا إلى الفتنة أُرْكِسوا فيها﴾ أي: كلما سنح لهم الشرك عادوا إليه، لما عندهم من الشك في الإسلام، ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ فيتركوا قتالكم ﴿ويلقوا إليكم السلم﴾، وهو الانقياد والاستسلام للصلح.

﴿ويكفوا أيديهم﴾ عنكم، ﴿فخذوهم﴾ أسرى، ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي: حيث وجدتموهم قسراً.

﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حُجَّة مضيئة بيِّنة في قتلهم لظهور مُحالهم في غدرهم، وانكشاف حالهم في كفرهم، ثم نُسِخ الكف عنهم بآية السيف[٣].

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ

---

(١) ذكره مقاتل في تفسيره (١/ ٢٤٧)، والثعلبي (٣/ ٣٥٨)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٩٣) من قول الكلبي، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٦٠).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٦٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٥٩).

(٣) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٧٦)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٤-٣٥)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٨٧).

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطئاً﴾ السبب في نزول هذه الآية: أن عياش بن أبي ربيعة أسلم قبل أن يهاجر رسول الله ﷺ، فخاف أن يُظهر إسلامه لقومه، فخرج إلى المدينة، فقالت أُمه لابنيها: أبي جهل والحارث ابني هشام -وكانا أخويه لأمه-: والله لا يظلني سقف، ولا أذوق طعاماً، ولا شراباً حتى تأتياني به، فخرجا في طلبه، ومعهما الحارث بن يزيد، حتى أتوا عياشاً وهو متحصن في أُطُم[1]، فقالوا له: انزل -وأخبروه خبر أُمه-، ولك علينا أن لا نحول بينك وبين دينك، فنزل، فأوثقوه، وجلده كل واحد منهم مائة جلدة، فقدموا به على أمه، فقالت: والله لا أحلّك من وثاقك حتى تكفر بمحمد، فطُرِح موثقاً في الشمس، حتى أعطاهم ما أرادوا، فقال له الحارث بن يزيد: يا عياش؛ إن كان ما كنت عليه هدىً لقد تركته، وإن كان ضلالاً لقد ركبته، فغضب وقال: والله لا ألقاك خالياً إلا قتلتك، ثم أفلت عياش بعد ذلك وهاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم أسلم الحارث بعده، وهاجر، ولم يعلم عياش، فلقيه يوماً فقتله، فقيل له: إنه قد أسلم، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بما كان، وقال: لم أشعر بإسلامه، فنزلت هذه

(١) الأُطُم: -بضمتين يُخفَّف ويُثقّل-: هو كل بيت مُربَّع مُسطَّح. وقيل: حِصْنٌ مَبْنِيٌّ بحجارة. وقيل: هو البناء المرتفع، وهي حصون لأهل المدينة (اللسان، مادة: أطم).

الآية[١].

وقوله: ﴿وما كان لمؤمن﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق بحال مَن اتصف بالإيمان، ﴿أن يقتل مؤمناً﴾ ابتداءً من غير سبب يوجب قتله.

وقوله: ﴿إلا خطئاً﴾ حال، أو صفة مصدر محذوف، أو مفعول له، على معنى: ما ينبغي أن يقتله لعِلَّة من العلل إلا للخطأ وحده[٢].

والمعنى: إلا على وجه الخطأ بأن يظنه كافراً، أو يرمي كافراً فيصيبه.

وروى أبو عبيدة عن يونس[٣] أنه سأل رؤبة عن هذه الآية فقال: ليس له أن يقتله عمداً ولا خطأً، ولكنه أقام «إلا» مُقَام الواو[٤].

قال الشاعر:

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ   لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلاَّ الفرْقَدانِ[٥]

أراد: والفرقدان.

وقيل: وقع الاستثناء على ما تضمنته الآية من استحقاق الإثم وإيجاب القتل.

وقيل: الاستثناء منقطع، التقدير: لكن قد يقتله خطأً.

﴿فتحرير رقبة﴾ أي: فعليه تحرير رقبة ﴿مؤمنة﴾، واشترط الإمام أحمد -في

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٢٠٣-٢٠٤)، ومجاهد (ص:١٦٩-١٧٠). وذكره الثعلبي (٣/ ٣٥٩)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٧٣-١٧٤) عن الكلبي، والدر المنثور (٢/ ٦١٦).

(٢) انظر: الدر المصون (٢/ ٤١٣).

(٣) يونس بن حبيب، الضبي بالولاء، أبو عبد الرحمن المعروف بالنحوي، علامة بالأدب، كان إمام نحاة البصرة في عصره، كانت له حلقة بالبصرة. توفي سنة اثنين وثمانين ومائة (الأعلام ٨/ ٢٦١).

(٤) زاد المسير (٢/ ١٦٢)، والبحر المحيط (٣/ ٣٣٤)، والدر المصون (٢/ ٤١٣).

(٥) تقدم (ص:٤٦٣).

إحدى الروايتين عنه- أن تكون قد صامت وصلَّت[١]، وهو قول ابن عباس في رواية عنه، والحسن وقتادة وعامة المفسِّرين[٢].

﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمة إلى أهله﴾ وهم ورثة المقتول، ﴿إلا أن يَصَّدَقوا﴾ أي: إلا أن يتصدق الورثة بالدِيَة على القاتل فتسقط.

فصل

لا نعلم خلافاً أن إعتاق الرقبة متعلق بمال القاتل، وأن الدية على عاقلته، تحملها عنه على طريق المواساة منجمة أثلاثاً في ثلاث سنين، ولا يلزم الجاني منها شيء. وعند أبي حنيفة: هو كأحدهم[٣].

وعاقلته: عصباته، وإن لم تكن له عاقلة ففي بيت المال.

فصل

ودِيَة الحر المسلم: مائة من الإبل أو ألف دينار، أو اثنا عشر ألف درهم من الوَرِق، أو ألفا شاة، أو مائتا بقرة.

واختلفت الرواية عن الإمام أحمد رضي الله عنه في الحُلل هل هي أصل في الدِيَة؟ فإن قلنا: هي أصل -وبه قال أبو يوسف ومحمد- فقدرها مائتا حُلَّة[٤].

ودِيَة الحرة المسلمة: على النصف من ذلك.

---

(١) انظر: المغني (١٠/ ١٠).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٢٠٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٣٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦١٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر: الهداية (٤/ ١٧٧)، والمغني (٨/ ٢٩٧).

(٤) انظر: المغني (٨/ ٢٨٩)، والهداية (٤/ ١٧٨)، والفروع (٦/ ١٦)، والإنصاف (١٠/ ٥٩).

ودِيَة الذِّمِّي إذا قتله مسلم عمداً: مثل دِيَة المسلم.

وإن قتله خطأ؛ ففيه عن الإمام أحمد روايتان، إحداهما: نصف دِيَة المسلم، والأخرى: ثلثها[١].

ودِيَة المجوسي: ثمانمائة درهم.

وقال أبو حنيفة: دِيَة الكافر مثل دِيَة المسلم في العمد والخطأ[٢].

وقال مالك: نصف دِيَة المسلم[٣].

وقال الشافعي: ثلث الدِيَة في الحالين، وقال في المجوسي كقولنا[٤].

قوله: ﴿فإن كان من قوم عدو لكم﴾ أي: إن كان المؤمن المقتول خطأ من أعدائكم الكفار مقيماً بين أظهرهم، أو ليس منهم، ولكنه مقيم بين أظهرهم، فقتله مَن لا يعلم بإيمانه، ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي: فعليه عتق نسمة مؤمنة ولا دِيَة في قتله، لأنه ضيَّع نفسه بإقامته في دار الحرب، فإن عَلِمَ به أنه مسلم وجبت الدِيَة.

وقال أبو حنيفة: إن كان المسلم المقتول قد هاجر لزم القاتل الدِيَة والكفَّارة بكل حال، وإن لم يكن هاجر إلينا لم يلزمه غير الكفَّارة في العمد والخطأ.

قوله: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي عهد، وهم أهل الذمة، ﴿فدِيَة مُسَلَّمة إلى أهله﴾ وقد ذكرنا مقدارها ﴿وتحرير رقبة مؤمنة﴾.

وقيل: هو المؤمن يُقتل خطأ، وقومه مشركون، ولهم عهد، فدِيَته لقومه

---

(١) انظر: المغني (٨/ ٣١٢)، والفروع (٦/ ١٧).

(٢) انظر: الهداية (٤/ ١٧٨).

(٣) انظر: بداية المجتهد (٢/ ٥٠٦).

(٤) انظر: الروضة (٩/ ٢٥٨)، والمنهاج (ص:١٢٦).

وميراثه للمسلمين.

قوله: ﴿فمن لم يجد﴾ يعني: رقبة ﴿فصيام شهرين متتابعين﴾ بدلاً عن الرقبة في قول عامة أهل العلم، إلا ما يروى عن مسروق ومجاهد وابن سيرين، فإنهم قالوا: الصوم بدل عن التحرير والدِيَة[١]، ولا ينقطع التتابع بالحيض والمرض.

وقال أبو حنيفة: ينقطع بالمرض[٢]، وإن تخللهما الإفطار لغير عذر انقطع التتابع، ولزمه الابتداء.

﴿توبة من الله﴾ مصدر، أو مفعول لأجله[٣]، والمعنى: شرع الله ذلك توبة منه[٤].

قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً ... الآية﴾ السبب في نزولها: أن مقيس بن صُبابة كان قد أسلم هو وأخوه هشام، فوجد مقيس أخاه قتيلاً في بني النجار، فأتى رسول الله ﷺ، فذكر له ذلك، فأرسله، وأرسل معه زهير بن عياض الفِهْري[٥] -وكان من المهاجرين من أهل بدر- إلى بني النجار ليدفعوا إلى مقيس قاتل أخيه إن علموه، أو دِيَته إن لم يعلموه، فأبلغهم الفهري رسالة رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما نعلم قاتله، ولكنا نعطيه دِيَته، فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٢١٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٣٥).

(٢) انظر: الهداية (٢/ ٢١).

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٩٠)، والدر المصون (٢/ ٤١٥).

(٤) في هامش الأصل: أي: متعمداً لإيمانه أي: قصد قتله لأجل أنه مؤمن، ومن هذا قصده في القتل يكون كافراً، فأما من لم يقصد قتله لإيمانه فحكمه ما جاء في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾، فسمى قاتل النفس عمداً مؤمناً مع أنه كبيرة.

(٥) انظر: الإصابة (٢/ ٥٧٨).

راجعين إلى المدينة، فأتى الشيطان مقيساً، فقال: تقبل دِيَة أخيك فتكون عليك سُبَّة ما بقيت، اقتل الفهري، وافضل بالدِيَة، فرمى الفهريَّ بصخرة، فشدخ رأسه فقتله ولحق بمكة مشركاً، وهو يقول:

قَتَلْتُ بِهِ فِهْراً وَحَمَّلْتُ عَقْلَهُ سَرَاةَ بَنِي النَّجَّارِ أَرْبَابَ فَارِعِ

وَأَدْرَكْتُ ثَأْرِي وَاضْطَجَعْتُ مُوَسَّداً وَكُنْتُ إِلَى الأَوْثَانِ أَوَّلَ رَاجِعِ[١]

فنزلت هذه الآية، فأهدر رسول الله ﷺ دمه يوم الفتح[٢].

فصل في حكم هذه الآية

ذهب أعلام الأئمة وجمهور الأمة: إلى أن المؤمن إذا قتل مؤمناً عمداً، لا يكفر بقتله، وأنه يُستتاب كما يُستتاب من سائر الذنوب، وناهيك بقبول التوبة من أكبر الكبائر، وهو الشرك، دليلاً على قبول التوبة من ذنب يتقاصر عنه في الجناية.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: أنَّى له التوبة؟ ثم تلا هذه الآية[٣].

---

(١) انظر البيتين في: البحر المحيط (٣/ ٣٣٨) وفيه: "حللت به وتري وأدركت ثورتي" بدل: "وأدركت ثأري واضطجعت موسداً".

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٢١٧) عن عكرمة، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٣٧-١٠٣٨) عن سعيد بن جبير، والثعلبي (٣/ ٣٦١-٣٦٢) عن أبي صالح عن ابن عباس، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٧٤) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤٠ ح٣٠٢٩)، والنسائي (٢/ ٢٨٨ ح٣٤٦٨)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٤)، وأحمد (١/ ٢٤٠)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٠١)، والطبري (٥/ ٢١٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٣٦)، والنحاس في ناسخه (ص:٣٤٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٢٣-٦٢٤) وعزاه لأحمد وسعيد بن منصور والنسائي وابن ماجه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والطبراني.

وطريقُ الانفصال عنها بادعاء كونها منسوخة تارة، وبالتأويل أخرى.

أما نسخها: فذهب جماعة من المفسِّرين إلى أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[1] [النساء:٤٨].

وأما التأويل فمن ثلاثة أوجه:

أحدها: أن المعنى: ومن يقتل مؤمناً متعمداً لأجل إيمانه، فحينئذ يكفر باستحلاله دمه فيخلد. وهذا قول سعيد بن جبير[2].

الثاني: أن المعنى: فجزاؤه جهنم إن جازاه، وهذا التأويل قد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ[3]، وروي عن جماعة من العلماء[4]، منهم: أبو صالح وأبو مِجْلَز[5].

الثالث: أن المراد بتخليده في النار، طول مكثه، والعرب تسمي الجبال خوالد؛ لطول مكثها، وتقول: لأخلدن فلاناً في السجن.

على أننا نحمل كلام ابن عباس، وما شاكله من ذلك على التغليظ، فإن رجلاً سأله: ألقاتل المؤمن توبة؟ قال. لا، وسأله آخر، فقال: نعم، فقيل له في ذلك،

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٣٤٣)، والناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٧٧-٧٨)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٥)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٢٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ١٠٣٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ١٠٣٨)، والثعلبي (٣/ ٣٦٥).

(٤) تفسير الطبري (٥/ ٢١٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٣٨).

(٥) أبو صالح هو: ذكوان السمان الزيات، المدني، من ثقات التابعين. توفي سنة إحدى ومائة (التقريب: ٢٠٣).

وأما أبو مجلز فهو: لاحق بن حميد بن سعيد السدوسي البصري، مشهور بكنيته. توفي سنة تسع ومائة (التقريب: ٥٨٦).

فقال: جاءني ذلك ولم يكن قتل، فقلت: لا توبة لك، لكي لا يقتل، وجاءني هذا وقد قتل، فقلت له: لك توبة، لئلا يُلقي بيده إلى التهلكة[١].

وحكى سفيان الثوري هذا المعنى عن أهل العلم[٢].

وصح عن ابن عباس أيضاً: أنه أتاه رجل فقال: إني خطبت امرأة فأبت أن تنكحني، وخطبها غيري، فأُجيب، فغرتُ [عليها][٣] فقتلتها، فهل لي من توبة؟ فقال: أُمك حية؟ قال: لا، قال: تب إلى الله وتقرب إليه ما استطعت، فقيل: لم سألته عن حياة أُمِّه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله من بر الوالدة[٤].

فصل

فإن مات من غير توبة، فمذهب أهل الحق: أنه تحت مشيئة الله تعالى إن شاء غفر له، وأرضى خصمه، وإن شاء عذَّبه على فعله ثم يُدخله الجنة بإيمانه فضلاً منه ورحمة.

وتحجّرتِ المعتزلة واسعاً، فقالت: لا يغفر الله لمن لم يتب من الكبائر.

قال الزمخشري[٥]: ما أبين الدليل في هذه الآية على خلود مَن لم يتب من أهل الكبائر، والعجب من قوم يقرأون هذه الآية، ويطمعون في العفو من غير توبة،

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٩٩).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط، الموضع السابق.

(٣) زيادة من مصادر التخريج.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٢٦٢) وعزاه للبخاري في الأدب المفرد والبيهقي.

(٥) الكشاف (١/ ٥٨٤).

أفلا يتدبرون القرآن[١] أم على قلوب أقفالها.

قلت: ولو تلا هذه الآية على طائفته، لكانت تلاوتها عليهم بهذا الاعتبار أليق، وبحالهم أشبه، وليته اعتبر بما جرى لطاغيتهم وقائدهم في الضلالة عمرو بن عبيد[٢] مع قريش بن أنس حين قال: يؤتى بي يوم القيامة فأقام بين يدي الله تعالى فيقال: قلت: إن القاتل يخلد في النار. فأقول: أنت قلت، ثم تلا: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ...﴾ حتى فرغ من الآية.

قال قريش[٣]: فقلت له: -وما في البيت أصغر مني- أرأيت إن قال لك: فإني قلت: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء:٤٨] من أين علمت أني لا أشاء أن أغفر لهذا؟ قال: فما استطاع أن يرد عليّ شيئاً[٤].

ثم إنه أكثر ما يُقَدَّرُ أن الله توعَّد القاتل، وأصحاب الكبائر بالنار، والخلود فيها، غير أن الدلائل النقلية، والبراهين العقلية، توجب العلم بأن العفو بعد الوعيد والتهديد الشديد من نفائس المكارم، وغرائس الأكارم.

قال كعب بن زهير:

---

(١) في هامش الأصل: أي: يتأملونه ويتفكرون به.

(٢) عمرو بن عبيد بن باب التميمي، مولى بني تميم، أبو عثمان البصري، شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها، كان من أصحاب الحسن، ثم عارضه في القَدَر فاعتزل مجلسه، وتبعه مَن تبعه، فسموا المعتزلة. مات في طريق مكة سنة اثنتين -أو ثلاث- وأربعين ومائة (البداية والنهاية ١٠/ ٧٨، وميزان الاعتدال ٥/ ٣٢٩، والأعلام ٥/ ٨١).

(٣) قريش بن أنس الأنصاري، مولاهم، أبو أنس البصري، توفي سنة ثمان ومائتين (التقريب ص:٤٥٥).

(٤) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (ص:٧٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ١٨٢).

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ الله أَوْعَدَنِي وَالعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ الله مَأْمُولُ(١)

وقال الأصمعي: جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء فقال: يا أبا عمرو! يُخلف الله ما وعد؟ قال: لا، قال: أرأيت مَن أوعده على عمل عقاباً أيخلف الله وعيده فيه؟ فقال أبو عمرو: من العُجْمَة أُتيتَ يا أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد، إن العرب لا تَعُدُّ عاراً ولا خُلْفاً أن تَعِدَ شراً ثم لا تفعله، ترى ذلك كرماً وفضلاً، وإنما الخلف أن تَعِدَ خيراً ثم لا تفعله. قال: فأوجدني هذا في كلام العرب، قال: نعم، أما سمعت قول الأول:

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي(٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

---

(١) هذا البيت من قصيدة كعب -المشهورة- ومطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

شرح القصيدة للحموي (ص:٥٤)، وجمهرة أشعار العرب للقرشي (ص:٣٢).

(٢) انظر: الوسيط (٢/ ١٠٠-١٠١)، وميزان الاعتدال (٥/ ٣٣٣-٣٣٤)، وتهذيب التهذيب (٨/ ٦٣).

والبيت لعامر بن الطفيل. انظر: ديوانه (ص:٥٨)، واللسان، مادة: (ختأ، ختا)، والقرطبي (٤/ ٣١٨، ٥/ ٣٣٤)، وسير أعلام النبلاء (٦/ ٤٠٩)، وميزان الاعتدال (٥/ ٣٣٤)، وتهذيب التهذيب (٨/ ٦٣).

قوله تعالى[١]: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عباس قال: «لقي ناس من المسلمين رجلاً في غُنَيْمة له، فقال: السلام عليكم، فأخذوه فقتلوه، وأخذوا تلك الغنيمات، فنزلت: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾. وقرأها ابن عباس[٢]: السَّلَمَ»[٣].

وروي عن ابن عباس: أن قوماً من أهل مكة سمعوا بسرية لرسول الله ﷺ تريدهم، فهربوا، وأقام رجل منهم، يقال له: مرداس بن نُهَيْك[٤]، من أهل فَدَك[٥]، ثقة بإسلامه، فلما رأى مرداس الخيل كبَّر وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقتله أسامة بن زيد ظناً منه أنه قالها تعوُّذاً، واستاق غنمه، فلما رجعوا إلى النبي ﷺ وأخبروه الخبر، وَجَدَ من ذلك وَجْداً شديداً، وقال: «قتلتموه إرادة ما معه»، فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، قال: «فكيف بلا إله إلا الله»؟ فما زال يقولها حتى وددتُ أني لم أكن أسلمتُ إلا يومئذ، ثم استغفر لي، وقال: «أعتق رقبة»، ونزلت هذه الآية[٦].

---

(١) في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس السادس والثلاثين، مرة ثانية.

(٢) انظر: الحجة لابن زنجلة (ص:٢٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧٧ ح٤٣١٥)، ومسلم (٤/ ٢٣١٩ ح٣٠٢٥).

(٤) مرداس بن عمرو الضمري، وقيل: مرداس بن نُهيك (الإصابة ٦/ ٧٤).

(٥) فَدَك -بفتح أوله وثانيه-: قرية معروفة بينها وبين المدينة يومان (معجم البلدان ٤/ ٢٣٨).

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٥٦) مختصراً.

وأصل القصة في صحيح البخاري (٤/ ١٥٥٥ ح١٠٢١). والقصة بكاملها في: الثعلبي (٣/ ٣٦٧)، وأسباب النزول للواحدي (ص:١٧٧).

ومعنى «ضربتم»: سرتم وغزوتم، «فتبينوا»: من البيان.

وقرأ حمزة والكسائي: "فَتَثَبَّتُوا" من الثبات، في الموضعين[١]، وكذلك في الحجرات[٢].

﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام﴾ وهو التحية المعروفة.

وقرأ نافع وابن عامر وحمزة: «السَّلَمَ» بغير ألف[٣]، وهو الانقياد والاستسلام.

﴿لست مُؤمِناً﴾ وقرأت على شيخنا أبي البقاء لأبي جعفر: «مُؤْمَناً» بفتح الميم[٤]، من الأمان، وهي قراءة علي وابن عباس رضي الله عنهم.

﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ وهو متاعها، يسير إلى غَنيمة: الغُنيمة، فهو الذي دعاكم إلى عدم التثبّت عن حال مَن تقتلونه.

﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ قال مقاتل[٥]: ثواب الجنة.

وقال أبو سليمان الدمشقي: أبواب الرزق[٦].

وعندي: أن هذا الكلام خارجٌ مخرج البشارة بما سيُفتَح من البلاد عليهم، ويُجبَى من الأموال إليهم، فيكون المعنى: لا يحملنكم حب إحراز الغنائم على

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٨٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٠٩)، والكشف (١/ ٣٩٤)، والنشر (٢/ ٢٥١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٦).

(٢) في قوله تعالى: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ [٦].

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٩٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٠٩)، والكشف (١/ ٣٩٥)، والنشر (٢/ ٢٥١).

(٤) إتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٣).

(٥) تفسير مقاتل (١/ ٢٥٠).

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٧٢).

المسارعة إلى القتل من غير تثبت، فلكم عند الله مغانم كثيرة.

﴿كذلك كنتم من قبل﴾ تخفون إيمانكم بمكة، كما أن هذا يخفي إيمانه بين ظهراني قومه، فمَنَّ الله عليكم بالهجرة وإعلان الإيمان.

وقال قتادة: "كذلك كنتم من قبل": ضُلالاً، "فمَنَّ الله عليكم" بالإسلام[1].

ثم أكد الأمر بالتثبيت أو التبيين فقال: ﴿فتبينوا﴾.

لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٠٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٧٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٣٧) وعزاه لعبد بن حميد.

﴿ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٠٠﴾

ثم نفى المساواة بين المجاهدين والقاعدين مع اشتراكهم في وصف الإيمان، ليُحرِّك همم ذوي الأَنَفة، والنفوس الشريفة المتطلعة إلى معالي الأمور، كما نفى المساواة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فقال عز وجل: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾.

قرأت على قاضي القضاة شرقاً وغرباً، أبي صالح عماد الدين، نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي، الحنبلي[1]: أخبرتكم شهدة بنت أحمد بن الفرج الكاتبة[2] بقراءة والدك عليها، فأقرَّ به، أخبرنا أبو الفضل، محمد بن عبد السلام الأنصاري[3]، أخبرنا الحافظ أبو بكر البرقاني[4]، قرأت على أبي العباس بن

(١) نصر بن عبد الرزاق بن شيخ الإسلام عبد القادر الجيلي الأزجي، أبو صالح عماد الدين، تكلم في الوعظ وألّف في التصوف، وكان فقيهاً كريم النفس خيّراً. توفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٩٦، وشذرات الذهب ٥/ ١٦١، والمقصد الأرشد ٣/ ٥٦).

(٢) شهدة بنت أحمد بن الفرج الدينوري البغدادي، مسندة العراق، فخر النساء. توفيت سنة أربع وسبعين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٤٢، والتقييد ص:٥٠١).

(٣) محمد بن عبد السلام بن أحمد بن عمر الأنصاري، أبو الفضل، سمع علي أبي بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب البرقاني كتابه المصافحة (ذيل التقييد ١/ ١٥٩).

(٤) أحمد بن محمد بن أحمد الخوارزمي البرقاني الشافعي، شيخ الفقهاء والمحدثين، شيخ بغداد، صاحب التصانيف. توفي سنة خمس وعشرين وأربعمائة (تاريخ بغداد ٤/ ٣٧٣، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٦٤، وطبقات الحفاظ ص:٤١٨).

حمدان(١)، حدّثكم محمد بن أيوب(٢)، أخبرنا [عمرو](٣) بن مرزوق(٤)، أخبرنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت البراء بن عازب يقول: «لما نزلت: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾، ﴿والمجاهدون في سبيل الله﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً، قال: فجاء بكتف فكتبها، قال: فجاء ابن أم مكتوم فشكى ضرارته إلى رسول الله ﷺ قال: فنزلت: ﴿غيرُ أُولي الضرر﴾»(٥). أخرجه مسلم عن بُنْدار عن غُنْدر عن شعبة، فكأني سمعته من طريق مسلم على الفراوي.

وأخرجه البخاري عن حفص بن عمر، عن شعبة. وأخرجه أيضاً عن محمد بن يوسف، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق.

وأخبرنا الشيخان أبو القاسم وأبو الحسن، أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، أخبرنا عبد الله بن أحمد، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثني إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، قال: حدثني سهل بن سعد الساعدي: أنه رأى

---

(١) محمد بن أحمد بن حمدان الحيري النيسابوري، محدّث خوارزم. توفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٩٣، وشذرات الذهب ٣/ ٣٨).

(٢) محمد بن أيوب بن يحيى ابن الضُّرَيْس، أبو عبد الله البجلي الرازي، صاحب تصانيف، وهو صاحب كتاب فضائل القرآن. توفي سنة أربع وتسعين ومائتين بالري (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٩، والتدوين في أخبار قزوين ١/ ٢٢٩).

(٣) في الأصل: عمر، وهو خطأ. والتصويب من التقريب (ص:٤٢٦).

(٤) عمرو بن مرزوق الباهلي، أبو عثمان البصري، مولاهم، مسند البصرة، ثقة فاضل. توفي سنة أربع وعشرين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤١٧، والتقريب ص:٤٢٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧٧ ح٤٣١٧ و ٤٣١٨)، ومسلم (٣/ ١٥٠٨ ح١٨٩٨).

مروان بن الحكم في المسجد، فأقبلتُ حتى جلستُ إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره، «أن رسول الله ﷺ أَمْلَى عَلَيْهِ ﴿لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنْ المُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَالمُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ الله﴾ فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمْلِيهَا عَلَيَّ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، والله لَوْ أَسْتَطِيعُ الجِهَادَ لَجَاهَدْتُ -وَكَانَ أَعْمَى-، فَأَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ ﷺ -وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنَّ تَرُضَّ فَخِذِي-، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾»[١].

وفي حديث آخر: فكان بعد ذلك ابن أم مكتوم يغزو ويقول: أعطوني اللواء وأقيموني بين الصفين، فإني لا أستطيع أن أفرّ[٢].

وبالإسناد قال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام، أن ابن جريج أخبرهم. قال البخاري: وحدثني إسحاق، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج، أخبرني عبد الكريم: أن مِقْسَماً -مولى عبد الله بن الحارث- أخبره، أن ابن عباس أخبره: «﴿لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنْ المُؤْمِنِينَ﴾ عَنْ بَدْرٍ وَالخَارِجُونَ إِلى بَدْرٍ»[٣].

واعلم أن الآية على عمومها في جميع المجاهدين والقاعدين، وإن نزلت على سببٍ خاص.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧٧ ح٤٣١٦).

(٢) أخرجه الثعلبي (٣/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧٨ ح٤٣١٩).

قرأ ابن كثير وأبو عمرو [وعاصم][1] وحمزة[2]: «غَيْرُ» بالرفع، صفة لـ«القاعدون».

وقرأ الباقون بالنصب[3] على الاستثناء من "القاعدين"، أو على الحال منهم.

وأُولوا الضرر: الأضرَّاء والزمنى والمرضى، ونحو ذلك.

قال ابن عباس: أُولوا العذر[4].

﴿فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾. قال ابن عباس ومقاتل[5]: على القاعدين بالضرر[6].

قال أبو سليمان الدمشقي: على القاعدين بغير عذر درجة[7]، كأنه -والله أعلم- لحظ المساواة بين المجاهد والقاعد المحبوس بالعذر،

نظراً إلى ما أخبرنا الشيخ المعتمد أبو بكر محمد بن مسعود بن بَهْرُوز[8] بقراءتي عليه، أخبرنا عبد الأول بن عيسى، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد

(١) زيادة من السبعة في القراءات (ص:٢٣٧).

(٢) في هامش الأصل: صوابه: وعاصم. اهـ.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٩١-٩٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢١٠)، والكشف (١/ ٣٩٦)، والنشر (٢/ ٢٥١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٧).

(٤) أخرجه الثعلبي (٣/ ٣٧٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٤٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٧٤).

(٥) تفسير مقاتل (١/ ٢٥١).

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٧٤).

(٧) المرجع السابق.

(٨) محمد بن مسعود بن بهروز البغدادي، المسند المعمر الطبيب. توفي سنة خمس وثلاثين وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٠، وشذرات الذهب ٥/ ١٧٣).

الداودي، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أخبرنا إبراهيم بن خريم الشاشي[١]، أخبرنا أبو محمد عبد بن حميد بن نصر، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا حميد الطويل، عن أنس قال: «لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، قال: إِنَّ بالمَدِينَةِ لَقَوْماً، مَا سِرْتُمْ من مَسِير، وَلا قَطَعْتُمْ من وَاد، إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ فيهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَهُمْ بالمَدِينَةِ؟ قَالَ: نعم، حَبَسَهُمْ العُذْرُ»[٢]. هذا حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد، عن ابن أبي عدي، عن حميد.

وانفرد بإخراجه البخاري، فرواه عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن حميد.

﴿وَكُلاً وعد الله الحسنى﴾ يعني: الجنة.

﴿وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين﴾ قال ابن عباس: يعني: على القاعدين بغير عذر[٣].

﴿أجراً عظيماً﴾ لا يعلمه إلا الله.

﴿درجات منه﴾ بدل من: «أجراً عظيماً»[٤].

والدرجات: منازل الجنة، وبعضها أعلى من بعض.

---

(١) إبراهيم بن خريم بن قمير بن خاقان، أبو إسحاق الشاشي، المروزي الأصل، المحدِّث، سمع من عبد بن حميد تفسيره ومسنده في سنة تسع وأربعين ومائتين وحدث بهما، وهو في عداد الثقات (سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٨٦، والتقييد ص:١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٠٤٤ ح٢٦٨٤)، وأحمد (٣/ ١٠٣ ح١٢٠٢٨)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٤١٢ ح١٤٠٢).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٠٤) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٧٥).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٩٢)، والدر المصون (٢/ ٤١٨).

أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ في الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبيلِه، مَا بَيْنَ كِلِّ دَرَجَتَيْنِ كَـما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[١].

قوله عز وجل[٢]: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾.

وبالإسناد السالف حدثنا البخاري، حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا حيوة بن شريح وغيره، قالا: حدثنا محمد بن عبد الرحمن، أبو الأسود قال: «قُطِعَ عَلَى أَهْلِ المَدِينَةِ بَعْثٌ فَاكْتُتِبْتُ فيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ، فنهاني عَنْ ذلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاساً مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى [عَهْدِ][٣] رَسُولِ الله ﷺ يَأْتِي السَّهْمُ يُرْمَى بِهِ، فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ... الآيَة﴾»[٤].

وقوله: «تَوَفَّاهُم» يصلح أن يكون ماضياً، ومستقبلاً، والمراد بتَوَفيهم: قبض أرواحهم. و"الملائكة": مَلَك الموت وأعوانه.

قال مقاتل[٥]: وهم ستة: ثلاثة يَلُون أرواح المؤمنين، وثلاثة يَلُون أرواح الكافرين.

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٠٢٨ ح٢٦٣٧).

(٢) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس التاسع عشر.

(٣) زيادة من الصحيح (٤/ ١٦٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧٨ ح٤٣٢٠).

(٥) تفسير مقاتل (١/ ٢٥١) وفيه: ملك الموت وحده.

﴿ظالمي أنفسهم﴾ بترك الهجرة مع القدرة.

وقيل: بالشك في دين الحق.

وهو نصب على الحال من الهاء والميم في «تَوَفَّاهُم»[١]، والتقدير: تتوفاهم في حال ظلمهم أنفسهم.

وقد روي: أنهم شَكُّوا يوم بدر في الدين، حين رأوا قلَّة المسلمين وقالوا: غرَّ هؤلاء دينهم، فانتقم الله منهم بما أخبر به عنهم[٢] في قوله: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿قالوا فيمَ كنتم﴾ أي: قالت الملائكة لهم توبخهم وتقرِّعهم: فيم كنتم، المعنى: في أي شيء كنتم من الدين إذ لم تهاجروا، فعرجوا عن سَنَن الجواب رجاء النفع بتوجيه العذر، فـ﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي: مقهورين في أرض مكة، لا نستطيع إظهار الدين، ولا التخلف عن الخروج مع المشركين، فسدَّت عليهم الملائكة محجة الاعتذار بحُجَّة لا يمكن تلافيها، فـ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾.

ثم أخبر الله بمآلهم تحذيراً، لمن هو في مثل حالهم وتبصيراً، فقال: ﴿فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

ثم استثنى من هذا الإيعاد، العاجزين عن الإصعاد، جهلاً بالمسالك، وخوفاً من المهالك، فقال: ﴿إلا المستضعفين﴾ ثم نعتهم، ونصب لمن أراد معرفتهم دليلاً

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١٩٢)، والدر المصون (٢/ ٤١٨).

(٢) تفسير مقاتل (١/ ٢٥٢)، والثعلبي (٣/ ٣٧١)، وزاد المسير (٢/ ١٧٧).

فقال: ﴿لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا﴾.

ولعَمري إن الولدان ليسوا من جملة المكلَّفين، ولكن حسن استثناؤهم لانتظامهم في سلك المستضعَفين.

وإن أريد بالولدان: العبيد، زال الإشكال في جواز استثنائهم من الوعيد.

وبالإسناد السالف حدثنا البخاري، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، «أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ تَلا: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ﴾ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ»[١].

وما بعده سبق تفسيره إلى قوله: ﴿يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾.

قال ابن قتيبة[٢]: المُرَاغَمُ والمُهاجَرُ واحد، وأصله: أن الرجل كان إذا أسلم خرج عن قومه مُراغِماً لهم، أي: مُغاضِباً ومُهاجراً، أي: مقاطعاً من الهجران، فقيل للمَذْهب[٣]: مُراغَم، وللمصير إلى النبي ﷺ: هجرة، لأنها كانت بهجرة الرجل قومه.

وقال غيره: هو مأخوذ من الرَّغام، وهو التراب، فمعنى راغمته: هاجرته وإن رَغِمَ أنفه، أي: لصق بالتراب[٤].

وأما «السَّعة»، فقال ابن عباس والجمهور: يريد: سعة في الرزق[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧٥ ح٤٣١٢).

(٢) تفسير غريب القرآن (ص:١٣٤).

(٣) المَذْهَب: الطريق (هامش الوسيط ٢/ ١٠٦).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (رغم).

(٥) أخرجه الطبري (٥/ ٢٤١-٢٤٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٥٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٥٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال قتادة: سعةً وتمكناً من إظهار الدين[(١)].

قال ابن عباس: كان عبد الرحمن بن عوف يُخبر أهل مكة بما ينزل فيهم من القرآن، فلما نزلت: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ... الآية﴾، كتب بها عبد الرحمن إليهم، فلما قرأها المسلمون قال جندب بن ضمرة الليثي -وقيل اسمه: ضمرة، وقيل: سبرة- لبنيه -وكان شيخاً كبيراً-: احملوني فإني لستُ من المستضعَفين، وإني لأهتدي الطريق، فحملوه على سريره متوجهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم، أشرف على الموت، فصفق بيمينه على شماله، وقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعك به رسول الله، فمات حميداً، فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم له أجراً، فأنزل الله هذه الآية[(٢)].

قوله: ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ أي: وجب.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

قوله: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جُناح أن تقصروا من الصلاة﴾ سبب نزولها: ما روي عن أبي عياش الزرقي قال: «صلينا مع رسول الله ﷺ الظهر بعُسْفان، وعلى المشركين خالد بن الوليد، فقالوا: لقد أصبنا منهم غِرَّة لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة، ثم قالوا: تأتي عليهم صلاة العصر وهي أحب عليهم من

---

(١) ذكره الماوردي (١/ ٥٢٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ١٠٥٠). وذكره الثعلبي (٣/ ٣٧٣)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٨٠-١٨١)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٥٠-٦٥١).

آبائهم وأبنائهم، قال: فنزل جبريل بهؤلاء الآيات بين الظهر والعصر بعُسْفان»(١).

وظاهرُ الآية يدل على أن القصر رخصة، وهو مذهب جماعة منهم: مجاهد، وطاووس، وأحمد، والشافعي(٢).

واحتجوا بما أخبرنا به الشيخان: شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي بدمشق، والشيخ النجيب محمد بن سعيد بن الموفق الخازن النيسابوري ببغداد قالا: أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد المقدسي، أخبرنا أبو الحسن مكي بن منصور بن علان الكَرْجي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا مسلم بن خالد(٣)، وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد(٤)، عن ابن جريج، حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار(٥)، عن عبد الله بن باباه(٦)، عن يعلى بن أمية قال: «قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّاب: فيم إقصار الناس الصلاة اليوم، وإنما قال الله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد ذهب ذلك اليوم،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ١١ ح١٢٣٦)، والنسائي (١/ ٥٩٧ ح١٩٣٨).

(٢) انظر: المغني (٢/ ٥٤).

(٣) مسلم بن خالد المخزومي، مولاهم، أبو خالد، المعروف بالزنجي، فقيه مكة. توفي سنة تسع وسبعين ومائتين (سير أعلام النبلاء ٨/ ١٧٦، وطبقات الحفاظ ص: ١١٥).

(٤) عبد المجيد بن أبي رواد شيخ الحرم. توفي سنة ست ومائتين (سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٣٤).

(٥) عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار المكي، حليف بني جمح، الملقب بالقَسّ لعبادته. (لسان الميزان ٧/ ٤٩٨).

(٦) عبد الله بن باباه المكي، مولى آل حجير بن أبي إهاب، وهو الذي يقال له: ابن بابي. (مشاهير علماء الأمصار ص:٨٦، وتهذيب الكمال ١٤/ ٣٢٠).

فَقَالَ عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ الله بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»(١). هذا حديث صحيح أخرجه مسلم، عن إسحاق بن إبراهيم، عن عبد الله بن إدريس، عن ابن جريج.

ففي هذا الحديث دليل على أن القصر رخصة، وأن الإتمام هو الأصل، ألا ترى أنهما قد تعجبا من القصر مع عدم الخوف. وقوله: «صدقة تصدَّق الله بها عليكم» دليل على أن القصر رخصة وإباحة، لا عزيمة.

وذهب أكثرُ أهل العلم من الصحابة والتابعين فمَن بعدهم: إلى أن القصر واجب، وهو قول عمر، وعليّ، وابن عمر، وجابر، وابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، والحسن، وقتادة، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة(٢).

وقد تكافأت الأدلة في نظر الإمام أحمد رضي الله عنه يوماً فقال -وقد سُئل عن هذه المسألة-: أنا أحب العافية في هذه المسألة، وجزم مرة بالفتيا على ما حكيناه أوّلاً من مذهبه(٣).

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أن ركعتي المسافر ليس بقصر، إنما القصر أن يصلي ركعة واحدة عند الخوف والقتال، يروى ذلك عن جابر(٤)، وجعل شرط الخوف المذكور في الآية باقياً، وهذا محتمل لولا خبر عمر رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤٧٨ ح٦٨٦)، والشافعي في مسنده (ص:٢٤، ٤٨).

(٢) انظر: الهداية (١/ ٨٠)، والمجموع (٤/ ٢٨٣)، والمغني (٢/ ٥٤)، وبداية المجتهد (١/ ١٩٩).

(٣) انظر: المغني (٢/ ٥٤).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٢٤٧).

قوله: ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ يقال: قَصَرَ الصلاة، وأَقْصَرَها وقَصَّرَها[1].

﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ قال ابن عباس: معناه: أن يقتلكم؛ كقوله: ﴿على خوف من فرعون وملإيهم أن يفتنهم﴾[2] [يونس:٨٣]، وهذا الكلام خارج مخرج الغالب لا مخرج الشرط، فإن الغالب من أسفار النبي ﷺ أنها لا تخلو من الخوف من العدو، فيكون القصر في حال الخوف، والأمن، مستفاداً من الآية بهذا التقرير المذكور.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

قوله: ﴿وإذا كنت فيهم﴾ خطابٌ للنبي ﷺ وكلُّ قائم بالأمر من بعده على أُمته بمنزلته، كقوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ [التوبة:١٠٣].

وكان الحسن وأبو يوسف لا يريان صلاة الخوف بعد النبي ﷺ تمسكاً بظاهر هذه الآية[3].

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (قصر).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٠٨).

(٣) انظر: التمهيد (١٥/ ٢٧٩)، والمجموع (٤/ ٣٥٠)، والمغني (٢/ ١٣٠)، والماوردي (١/ ٥٢٤).

والضمير في «فيهم» يعود إلى الخائفين.

﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾، أي فرِّقهم طائفتين، «فلتقم طائفة منهم معك» في صف الصلاة، وطائفة بإزاء العدو تحرس، ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ يعني: الحارسين، وقيل: المصلين، فإنه يشرع لهم أن يحملوا من السلاح ما لا يُثْقِلُهُم كالسيف والسكين، ﴿فإذا سجدوا﴾ يعني: المصلين، ﴿فليكونوا﴾ يعني: الحارسين ﴿من ورائكم﴾، وقيل، «فليكونوا» يعني: المصلين أيضاً، على معنى: فإذا قضوا السجود فلينصرفوا إلى العدو.

واختلفوا في كيفية ذلك:

فقيل: إذا صلُّوا مع الإمام ركعة أتموا لأنفسهم أخرى، ثم سلَّموا وانصرفوا إلى الحرس، وقد تمت صلاتهم، ثم تأتي الطائفة الأخرى، فتُصلِّي الركعة الأخرى مع الإمام، ثم يركد الإمام في التشهد، حتى تأتي بالركعة الفائتة، ثم يُسلِّم بهم. وهذا اختيار الإمامين أحمد والشافعي -رضي الله عنهما- ويُروى نحوه عن مالك[1].

وقيل: يثبت الإمام قائماً إذا صلُّوا معه ركعة، ثم ينصرفون إلى الحرس، وتأتي الطائفة الأخرى التي كانت تحرس، فتُصلِّي مع الإمام ركعة، ويُسلِّم الإمام وحده، ثم ترجع إلى العدو ثم تجيء الأولى فتتم صلاتها، وتُسلِّم، ثم تنصرف إلى العدو، ثم تأتي الأخرى فتُتم صلاتها وتُسلِّم، وهذا اختيار أبي حنيفة[2].

فإن صلَّى على هذا الوجه الذي اختاره أبو حنيفة فصلاته صحيحة عند إمامنا،

---

(١) انظر: حاشية الدسوقي (١/ ٣٩٣)، والمغني (٢/ ١٣٠-١٣١).

(٢) انظر: المبسوط (٢/ ٤٧)، والهداية (١/ ٨٩)، والمغني (٢/ ١٣٢).

لأن النبي ﷺ صلاَّها على هذا النحو[١].

وقال الشافعي: لا تصح.

قال الإمام أحمد: صح عن النبي ﷺ صلاة الخوف من خمسة أوجه، أو ستة، كل ذلك جائز لمن فعله[٢].

قوله: ﴿وليأخذوا﴾ يعني: الذين صلُّوا أوّلاً.

وقيل: الذين كانوا وجاه العدو.

وقيل: هو أمر للجميع بالتيقظ والتحرز، وحمل السلاح.

قوله: ﴿ولا جُناح﴾ أي: لا إثم ﴿عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم﴾ في الصلاة وغيرها إذا لم تخافوا معرَّة العدو، ﴿وخذوا حذركم﴾ على كل حال في الصلاة وغيرها.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

قوله[٣]: ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ أي: فرغتم من صلاة الخوف، ﴿فاذكروا الله﴾ بألسنتكم وقلوبكم، في جميع أحوالكم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ١٦ ح١٢٤٤).

(٢) انظر: المغني (٢/ ١٣٧)، وكشاف القناع (٢/ ١١).

(٣) كتب في الهامش: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس السابع والثلاثين، مرة ثانية.

وقيل: الأمر بالذِكر كناية عن الصلاة، أي: صلُّوا أيها الأصحاء، ﴿قياماً و﴾ صلُّو أيها المرضى، والجرحى العاجزون عن القيام ﴿قعوداً وعلى جنوبكم﴾ إن لم تستطيعوا القعود.

﴿فإذا اطمأننتم﴾ أي: سكنتم بالرجوع إلى الوطن، ﴿فأقيموا الصلاة﴾ أتموها وصلُّوا صلاة الأمن، ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي: فرضاً مؤقتاً لا يسقطها خوف ولا مرض، ولا حال من الأحوال ما دام الإنسان أهلاً للتكليف.

وفي هذه الآية حُجَّة على أبي حنيفة في قوله: يجوز تأخير الصلاة حالة المسايفة إلى زمان الطمأنينة[١].

قوله: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ أي: لا تضعفوا عن طلب أبي سفيان وأصحابه، وذلك أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحُد أمر أصحابه بالمسير في أثر القوم، فشكوا إليه ألم الجراح، فأنزل الله هذه الآية[٢].

﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾ يقال: أَلِمَ الرَّجُلُ يَأْلَمُ فهو آلِمٌ.

ثم نبههم على أنهم أولى بالصبر لما يأملون من الأجر، فقال: ﴿وترجون من الله﴾ من النصر، وكون العاقبة لكم، ومن نعيم الجنة وما أعد الله فيها للمجاهدين في سبيله ﴿ما لا يرجون﴾.

﴿وكان الله عليماً﴾ يعلم ما بكم وبهم من ألم الجراح وغيره، ﴿حكيماً﴾ في

---

(١) انظر: الهداية (١/ ٨٩)، والمغني (٢/ ١٣٩).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٨٠)، والواحدي في الوسيط (٢/ ١١١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٨٨).

تدبيره، وقد أمركم على لسان رسوله مع علمه وحكمته باتباعهم، فكان من شأنكم أن تبادروا إلى امتثال أمره.

إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن
لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا
تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾
يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ
مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا
﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا
﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾
وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾
وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ۞
لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ
ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾
وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

قوله: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ... الآيات﴾ ذهب ابن عباس وقتادة، وجمهور المفسِّرين إلى أنها نزلت في طعمة بن أبيرق، وكان من حديثه: على ما أخرجه الترمذي بإسناده عن قتادة بن النعمان[١]، قال: «كان أهل بيت منّا، يقال لهم بنو أُبيرق: بشْر وبُشَيْر ومُبَشِّر، وكان بُشير رجلاً منافقاً، يقول الشعر ويهجو به أصحاب محمد ﷺ ثم ينحله بعض العرب يقول: قال فلان كذا وكذا.

قال قتادة: فنُقِبت مَشْربة[٢] عمي رفاعة بن زيد ليلاً، وذُهِبَ بطعامه وسلاحه، وقيل لنا: إن بني أبيرق استوقدوا ناراً في هذه الليلة، ولا نراه إلا لبعض طعامكم، قال: فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت منا أهلَ جفاء، عمدوا إلى عمي، فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه.

فذهب قوم من بني أُبيرق إلى النبي ﷺ فقالوا: إن قتادة وعمّه، عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير ثبت، فقال رسول الله ﷺ لقتادة: عمدتَ إلى أهل بيت ذُكِر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة من غير ثبت؟ قال: فرجعتُ، ولوددتُ أني خرجت من بعض مالي، ولم أكلم رسول الله في ذلك، فلم يلبث أن نزل القرآن: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ... الآيات﴾، فأُتي رسول الله بالسلاح فرده إلى عمي، فلما أتيته به، وكان شيخاً قد عَشِيَ في الجاهلية، وكنت أُرَى إسلامه مدخولاً، فلما أتيته بالسلاح قال لي: يا ابن أخي؛ هو في سبيل

---

(١) قتادة بن النعمان بن زيد الأوسي الظَفَري، شهد بدراً، وهو أخو أبي سعيد الخدري لأمه. توفي سنة ثلاث وعشرين (الإصابة ٥/ ٤١٦).

(٢) المَشْرَبَة -بالضم والفتح- الغرفة (اللسان، مادة: شرب).

الله، فعرفتُ أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بُشَيْر بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد[1]، فرماها حسان بن ثابت بأبيات من الشعر، فأخذتْ رحله فرمتْ به في الأبطح، وقالت: أهديتَ إليَّ شعر حسان، ما كنتَ تأتيني بخير»[2].

قال ابن عبد البر[3] في كتاب الاستيعاب[4]: شهد بُشَيْر مع أخويه بشر ومبشر أُحُداً، وكانوا أهل حاجة، فسرق بشير من رفاعة بن زيد درعه، ثم ارتد في شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة.

قلتُ: وجمهور المفسِّرين يقولون: طعمة بن أبيرق، ولعله لقبٌ لبشير، أو اسم آخر كان يُسمَّى به، والله أعلم.

وروى أبو صالح عن ابن عباس، قال: كان الدرع في جراب فيه دقيق، فجَعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود، فالتُمستِ الدرع عند طُعمة، فلم تُوجَد، وحلف ما لي بها علم، فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي، فأخذوها، فقال: دفعها إليَّ طُعمة. فقال قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله لنجادل عن صاحبنا، فأتوه فكلّموه في ذلك، وقالوا: إن لم تجادل عن صاحبنا هلك وافتضح، وبرئ اليهودي،

(١) سلافة بنت سعد الأنصارية والدة عثمان بن طلحة، أسلمت سلافة بعد فتح مكة.
وقد أوردها ابن الأثير: سلامة، وإنما هي سلافة بفاء بدل الميم (٧/ ٧٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤٤ ح٣٠٣٦).

(٣) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، من كبار حفاظ الحديث، يقال له: حافظ المغرب. توفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٥٣، والأعلام ٨/ ٢٤٠).

(٤) الاستيعاب (١/ ١٧١).

فهمَّ النبي ﷺ بذلك وأن يعاقب اليهودي، فنزلت الآيات[(١)].

قوله: ﴿بما أراك الله﴾ أي: علَّمك وأوحى إليك، ﴿ولا تكن للخائنين﴾ طُعمة وبني أبيرق، ﴿خصيماً﴾ مخاصماً مدافعاً عنهم.

قال القاضي أبو يعلى: هذه الآية تدل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن غيره، وهو غير عالم بحقيقة أمره، لأن الله عاتب نبيه ﷺ على مثل ذلك.

﴿واستغفر الله﴾ من لومك لقتادة، ومخاصمتك عن الخائنين.

وقال ابن عباس: مِنْ هَمِّك بقطع اليهودي[(٢)].

﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أي: يخونوها.

قوله: ﴿يستخفون من الناس﴾ يعني: يكتمون الخيانة منهم، ﴿ولا يستخفون﴾ أي: لا يقدرون على كتمانها، ﴿من الله﴾.

﴿وهو معهم﴾ قال ابن عباس: بالعلم[(٣)].

قال الثعلبي[(٤)]: استدلت الجهمية والمعتزلة بهذه الآية على أن الله في كل مكان. وهذا لا يوجب ذلك؛ لأنه قال: ﴿ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾ [الملك:١٦]، ولم يرد بقوله: أنه في السماء معنى غير الذات، لأن القولَ: بأن زيداً في موضع كذا من غير أن يقيد بذكر فعل شيء من الأشياء، لا يكون إلا بالذات،

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٨٠-٣٨١)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٨٣)، والوسيط (٢/ ١١١-١١٢) بلا نسبة.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١١٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٩٢).

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٩٣) بلا نسبة.

(٤) تفسير الثعلبي (٣/ ٣٨٢).

وقال تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [فاطر:١٠]، وقال: ﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض﴾ [السجدة:٥]، فأخبر أنه يدبّر الأشياء من السماء، ولا يجوز أن يكون معهم بذاته، ثم يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، وإليه يصعد الكلم الطيب.

وهذه الآية تتضمن الحث على الحياء من الله تعالى، فإنه أحق أن يُستحى منه.

قال لقمان لابنه: يا بني كل أمر حدَّثتَ به نفسك مما لو أخرجته من قلبك، فإن الله أحق أن يُستحَى منه.

ومعنى الآية: ﴿وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ مما زوَّروه ليلاً، وتحدَّثوا به فيما بينهم؛ ليُروِّجوا به باطلهم عند النبي ﷺ من الأيمان الفاجرة، وغيرها.

ثم هددهم فقال: ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾.

قوله: ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ سبق القول عليه في آل عمران[1].

﴿جادلتم عنهم﴾ أي: حاججتم عن بني أبيرق، ﴿في الحياة الدنيا﴾ ودافعتم، واشتقاقه من الجَدْل، وهو شدة الفَتْل، كأن كل واحد من المتجادلين يفتل صاحبه بالحُجَّة إليه. وقيل: من الجَدالة، وهو وجه الأرض، كأنه يروم عند المُحاججة صرع خصمه بالجدالة، ﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ إذا ظهرت قبائحهم، وشهدت عليهم جوارحهم، ﴿أم من يكون عليهم﴾، أي: لهم ﴿وكيلاً﴾ قائماً بأمرهم في الجدال.

ثم إن الله الحليم الكريم عرض التوبة على طعمة وبني أبيرق فقال: ﴿ومن

---

(١) عند تفسير الآية رقم: ٦٦.

يعمل سوءاً﴾ أي: قبيحاً متعدياً يسوء به غيره، كما فعل طعمة باليهودي البريء من تلك الخيانة، ﴿أو يظلم نفسه﴾ ظلماً لا يتعدى ضرره وقبحه إلى غيره؛ كاليمين الفاجرة التي حلفوها.

وقيل: من يعمل سوءاً دون الشرك، أو يظلم نفسه بالشرك، ﴿ثم يستغفر الله﴾ يطلب منه المغفرة ﴿يجد الله غفوراً رحيماً﴾ .

أخبرنا العالم الثقة النبيل أبو الحسن، علي بن محمد بن عبد الكريم الأثيري [١] وغيره، قالوا: أخبرنا الخطيب أبو الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي [٢]، أخبرنا الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج المقرئ [٣]، حدثنا عبيد الله بن عمر [٤]، أخبرنا عبد الله بن إبراهيم بن أيوب [٥]، حدثنا أبو مسلم، هو إبراهيم بن عبد الله [٦]، حدثنا حجاج بن [نصير] [٧]، حدثنا شعبة، عن عثمان بن المغيرة الثقفي،

---

(١) هو ابن الأثير، تقدمت ترجمته (ص:٣٥).

(٢) عبد الله بن أحمد الطوسي البغدادي الموصلي، أبو الفضل الشافعي، خطيب الموصل، مسند العصر. توفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢١/ ٨٧).

(٣) جعفر بن أحمد بن الحسين البغدادي، أبو محمد السراج القارئ الأديب. توفي سنة خمسمائة (انظر: المنتظم ٩/ ١٥١، ووفيات الأعيان ١/ ٣٥٧، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٢٨).

(٤) عبيد الله بن عمر بن شاهين، أبو الفتح البغدادي، الواعظ. توفي سنة أربعين وأربعمائة (تاريخ بغداد ١٠/ ٣٨٦، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٠١).

(٥) عبد الله بن إبراهيم بن أيوب بن ماسي البغدادي، أبو محمد البزاز. توفي سنة تسع وستين وثلاثمائة (تاريخ بغداد ٩/ ٤٠٨، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٥٢).

(٦) إبراهيم بن عبد الله بن مسلم البصري، أبو مسلم الكجِّي، صاحب السنن. توفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين (تاريخ بغداد ٦/ ١٢٠، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٢٣).

(٧) في الأصل: نصر، وهو خطأ. وهو: حجاج بن نُصير -بضم النون- الفَساطيطي القيسي، أبو محمد =

قال: سمعت عليّ بن ربيعة الأسدي، عن أبي أسماء -أو أسماء- عن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، قال: «كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني، فحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد يُذنب ذنباً فيتوضأ ويُحسن الوضوء، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ويستغفر الله من ذلك الذنب إلا غفر الله له، ثم تلا هذه الآية: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾، وهذه الآية: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ... الآية﴾ [آل عمران:١٣٥]».

وهذا الحديث رواه عن عثمان بن المغيرة جماعة؛ منهم: شريك، وسفيان الثوري، وزاد فيه: وكان إذا حدثني عنه غيري استحلفته، فإذا حلف صدقته، وحدَّثني أبو بكر وصدق أبو بكر، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد مسلم ...» وساق الحديث[1]، ولم يشك أنه أسماء بن الحكم الفزاري.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن إبليس قال لربه عز وجل: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال له ربه: بعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»[2].

البصري. توفي سنة أربع عشرة ومائتين (ميزان الاعتدال ٢/ ٢٠٥).

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٨٦ ح١٥٢١)، والترمذي (٢/ ٢٥٧ ح٤٠٦، ٥/ ٢٢٨ ح٣٠٠٦)، والطيالسي في مسنده (١/ ٢ ح١، ٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩ ح١١٢٥٥، ٣/ ٤١ ح١١٣٨٥).

وقال لقمان لابنه: يا بني؛ عوِّد لسانك: اللَّهم اغفر لي، فإن لله ساعات لا يرد فيهن سائلاً[١].

قوله: ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ أي: إنما يعود ضرر كسبه عليه.

والظاهر -والذي عليه أكثر المفسِّرين- أن قوله: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ متصل بقصة طُعمة، ومن تمام ما نزل فيه.

وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ بن سلول حين رمى عائشة رضي الله عنها بالإفك[٢].

و «الخطيئة»: الصغيرة، و «الإثم»: الكبيرة.

﴿ثم يَرْمِ به﴾ أي: بالكسب.

وقال ابن جرير[٣]: بالإثم.

وقيل: أراد الخطيئة والإثم، فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر؛ كما في قوله: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ [التوبة:٣٤].

والمعنى: يَرْمِ به بريئاً من ذلك الكسب أو الإثم، كما فعل طُعمة باليهودي، أو المنافق ابن أُبَيّ بن سلول بأم المؤمنين بنت الصِّدِّيق زوجة رسول الله ﷺ.

﴿فقد احتمل بهتاناً﴾ كذباً يُبهت منه، أي: يتحير من عظمه ﴿وإثماً مبيناً﴾.

قال ابن السائب: «فقد احتمل بهتاناً» برميه البريء، «وإثماً مبيناً» بيمينه

---

(١) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٩٤)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٢٠) وعزاه للحكيم الترمذي.

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٨٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٩٥).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٢٧٤).

الكاذبة[١].

قوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ قال ابن عباس: بالنبوة والعصمة[٢].

﴿لهمَّت طائفة منهم أن يضلوك﴾ أي: لظهر تأثير ما هَمُّوا به من استزلالك عن الحق، واستنزالك عن العمل به، وهم قوم طُعمة على الأظهر في التفسير[٣].

وروى الضحاك عن ابن عباس: أن وفدَ ثقيف قالوا: يا رسول الله! نبايعك على أن تمتعنا بالعُزّى سنة[٤].

﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾.

فإن كانوا قوم طعمة؛ فالذي هَمُّوا به: استنزاله عن طريق الصواب في القضاء.

وإن كانوا وفد ثقيف؛ فالذي هَمُّوا به: استنزاله عن التشديد في النكير عليهم إلى المساهلة والإغضاء.

﴿وما يضرونك من شيء﴾ لأنك مُؤيَّدٌ بالنبوة والعصمة.

ومن نتائج هذا: أن الواو في قوله: «وأنزل الله» واو الحال، على معنى: وما يضرونك من شيء وقد أنزل الله عليك الكتاب والحكمة.

وكنت أعجب كيف لم أتنبه لمثل هذا الموضع، حتى أخبرني بعض العلماء أن

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١١٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٩٦).

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٨٣)، والواحدي في الوسيط (٢/ ١١٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٩٦).

(٣) انظر: الطبري (٥/ ٢٧٥).

(٤) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٨٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٩٦).

الواحدي ذكره في البسيط.

والمعنى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب﴾ وهو القرآن، ﴿والحكمة﴾ وهو إلهام الصواب وبيان معاني الكتاب.

﴿وعلَّمك ما لم تكن تعلم﴾ من شرائع الدين، وسنن المرسلين، ونبأ الأولين والآخرين، ﴿وكان فضل الله عليك﴾ بالنبوة والعصمة، والكتاب والحكمة ﴿عظيماً﴾.

قوله[1]: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ الضمير يرجع إلى قوم طُعمة، في قول ابن عباس[2].

وقال مجاهد بعمومه في جميع الناس[3].

والمراد بنجواهم: ما يدبرونه بينهم من الكلام خُفية.

﴿إلا مَن أمر بصدقة﴾ «من» في محل الجر، تقديره: إلا نجوى الآمر بصدقة.

ويجوز أن يكون في محل النصب على الاستثناء المنقطع؛ كقول النابغة:

.... وَمَا بالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ
إلا أُوَارِي ....[4]

---

(١) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الثامن والثلاثين مرة ثانية.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٩٨).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١١٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٩٨).

(٤) جزء من بيتين للنابغة يصف سيلاً. وهما:

وَقَفْتُ فيها أُصَيْلاناً أُسَائِلُها عَيَّتْ جَوَاباً وما بالرَّبْعِ مِنْ أَحَد
إِلاَّ الأواريَ لأياً ما أُبَيِّنُهـا والنُّؤْيُ كالحوضِ بالمظلومة الجَلَدِ

=

والتقدير: لكن مَن أمر بصدقة ففي نجواه خير.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري أن النبي ﷺ قال: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»(١).

﴿أو معروف﴾ وهو أعمال البر كلها، لأن العقول تعرف حسنها وصحتها.

قال ابن عباس. «أو معروف»: صلة الرحم(٢).

وقيل: القرض(٣). وقيل: إغاثة الملهوف.

وفي صحيح البخاري من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»، «ومِنْ المَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ في إِنَائه»(٤).

﴿أو إصلاح بين الناس﴾ قال النبي ﷺ لأبي أيوب الأنصاري: «ألا أدلك على صدقة هي خير لك من حُمُر النعم!!، فقال: نعم يا رسول الله، قال: تُصلح بين =

انظر: ديوانه (ص: ٣٠)، والكتاب (٢/ ٣٢١)، والمقتضب (٤/ ٤١٤)، وشرح المفصل لابن يعيش (٢/ ٨٠)، وأوضح المسالك (٢/ ٣٨٩)، ومجاز القرآن (١/ ٣٢٨)، والتصريح (٢/ ٣٦٧)، والإنصاف (١/ ١٧٠)، والطبري (١/ ٧٨)، والقرطبي (٧/ ٣٥٦)، واللسان، مادة: (أصل).
والأواري: جمع آري، وهو مربط الدواب.

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٠٦ ح١٨٩٣).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١١٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٠٦٥) عن مقاتل بن حيان. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٧٩) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان.

(٤) أخرج البخاري في صحيحه قوله: «كل معروف صدقة» (٥/ ٢٢٤١ ح٥٦٧٥)، وبقية الحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١١٤ ح٣٠٤)، والترمذي (٤/ ٣٤٧ ح١٩٧٠)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٤٤ ح١٤٧٥١، ٣/ ٣٦٠ ح١٤٩٢٠).

الناس إذا تفاسدوا، وتُقرِّب بينهم إذا تباعدوا»[1].

فصل

وقد أذن صاحب الشرع للساعي بين الناس بالإصلاح في قول ما يرفع به الأحقاد، ويدفع به الفساد، ولم يَعُدَّه كذباً مُؤَثِّماً. ففي الصحيحين من حديث حميد بن عبد الرحمن بن عوف[2] أن أُمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيْسَ الكَذابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فيُنْمِي خيراً، أو يقول خيراً. وقالت: لَمْ أَسْمَعْه يُرَخَّصُ في شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ [كَذِبٌ][3] إلاَّ في ثَلاثٍ: في الحَرْبُ، وَالإِصْلاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثُ المَرْأَةِ زَوْجَهَا»[4]. وليس لأم كلثوم في الصحيح غيره.

ثم إن الله تعالى شرط في استحقاق الأجر العظيم طلب مرضاته بالفعل فقال: ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾.

قال مالك بن دينار[5]: قولوا لمن لم يكن صادقاً لا يتعنى.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ١٣٨ ح٣٩٢٢).

(٢) حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني، من أعيان التابعين، توفي سنة خمس ومائة، على الصحيح (الثقات ٤/ ١٤٦، والتقريب ص:١٨٢).

(٣) زيادة من مسلم (٤/ ٢٠١١).

(٤) أخرجه البخاري (٢/ ٩٥٨ ح٢٥٤٦) دون قوله: "لم أسمعه يرخص... إلخ"، ومسلم (٤/ ٢٠١١ ح٢٦٠٥) بلفظه، وبيّن أن آخره مدرج من قول الزهري ولم يرفعه. وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٠٠).

(٥) مالك بن دينار البصري الزاهد، أبو يحيى، من ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف. توفي سنة ثلاثين ومائة أو نحوها (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٢).

وقال الربيع بن صبيح[(١)]: كنا عند الحسن، فوعظ فانتحب رجل، فقال الحسن: أما والله ليسألنك الله يوم القيامة ما أردتَ بهذا[(٢)].

وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد بإسناده عن مالك بن دينار عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يخطب خطبة إلا والله عز وجل سائله عنها يوم القيامة ما أراد بها. فكان مالك إذا حدَّث بهذا الحديث بكى، حتى ينقطع، ثم يقول: تحسبون أن عينيَّ تَقَرُّ بكلامي عليكم، وأنا أعلم أن الله سائلي عنه يوم القيامة ما أردتُ به»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول ... الآية﴾ قال ابن عباس: لما نزل القرآن بتكذيب طُعمة، خاف من القطع، والفضيحة، فهرب إلى مكة فلحق بأهل الشرك، فنزلت هذه الآية[(٤)].

وفي كيفية هلاكه اختلاف:

قيل: إنه خرج مع تجار، فَسَرَقَ منهم شيئاً، فرموه بالحجارة حتى مات.

وقيل: ركب سفينة فَسَرَقَ منها مالاً، فعُلِمَ به، فأُلقي في البحر.

وقال مقاتل[(٥)]: لما قدم مكة نزل على الحجاج بن عِلاط السُلمي، فأحسن

---

(١) الربيع بن صَبيح السعدي البصري، العابد، مولى ابن سعد، من أعيان مشايخ البصرة. توفي سنة ستين ومائتين (سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٣٣٠).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٣٩١).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٢٧١)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٦٦) عن قتادة، والثعلبي (٣/ ٣٨٥). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١١٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠٠).

(٥) تفسير مقاتل (١/ ٢٥٧). وذكره الثعلبي (٣/ ٣٨٥).

نُزُلَه، فبلغه أن في بيته ذهباً، فخرج بالليل، فنقب حائط البيت، فعلموا به، فأحاطوا بالبيت، فلما رأوه أرادوا أن يرجموه، فاستحى الحجاج لأنه ضيفه، فتركوه، فخرج، فلحق بحرة بني سليم(١) يعبد صنمهم حتى مات على الشرك.

والمعنى: ومن يخالف الرسول ويعاديه من بعد ما ظهر له الهدى وبان، ﴿ويَتَّبع غير سبيل المؤمنين﴾ غير دين الموحِّدين، وذلك أن طُعمة ترك دين الإسلام، وخالف سبيلهم.

وقد يُحتج بهذا على وجوب التمسك بالإجماع.

﴿نُوَلِّه ما تولّى﴾ نَدَعُه وما اختار لنفسه، ﴿ونصله جهنم﴾ ندخله إياها، ﴿وساءت مصيراً﴾ موضعاً يُصار إليه.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

---

(١) حرة بني سليم: تقع جنوب المدينة في عالية نجد، وأقرب مكان لها مهد الذهب، فإنه معدن بني سليم المعروف (انظر: معجم البلدان ٢/ ٢٤٦).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾

قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ ذُكر سبب نزولها من قبل في هذه السورة[1].

وقد رُوي عن ابن عباس: أن شيخاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: إني منهمكٌ في الذنوب، إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته، وإني لنادم مستغفر، فما حالي؟ فنزلت هذه الآية[2].

وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول: إلَهي أطعتك في أحب الأشياء إليك -وهو التوحيد-، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك -وهو الشرك- فاغفر لي ما بينهما.

قوله: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾ أي: ما يعبدون من دون الله إلا إناثاً، جمع أُنثى، كما قرأ ابن عباس[3].

قال الحسن: لم يكن حي من أحياء العرب إلا لهم صنم يعبدونه، ويسمونه أُنثى بني فلان[4].

---

(١) عند تفسير الآية رقم ٤٨ من هذه السورة.

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٨٦).

(٣) انظر: المحتسب (١/ ١٩٨)، والبحر المحيط (٣/ ٣٦٨).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٢٧٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٨٧) وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر.

قال: وكل شيء لا روح فيه كالحجر والخشب فهو إناث[١].

وقال جماعة -منهم السدي-: الإناث: اللاَّت، والعُزَّى، ومناة[٢].

وقال الزجَّاج[٣]: المعنى: ما يدعون إلا ما يسمونه باسم الإناث.

وقال الضحاك: المراد: الملائكة، كانوا يزعمون أنها بنات الله[٤]. تعالى الله عن ذلك عُلُواً كبيراً.

وقرأ سعد بن أبي وقاص: «إلا وَثَناً».

وقرأت عائشة: «أوثاناً».

وقُرِئ: "أُثُناً" بالتثقيل والتخفيف[٥]، جمع وَثَن، كأَسَد وأُسُد، وقلب الواو ألفاً مثل: "أُجُوه" في وجوه. وكذلك "أُقِّتَتْ" أصلها: وُقِّتَتْ[٦].

﴿وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ قال ابن عباس: في كل صنم شيطان يتراءى للسدنة فيكلمهم[٧].

---

(١) أخرجه الثعلبي (٣/ ٣٨٧)، والطبري (٥/ ٢٧٩)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٦٧)، ومجاهد (ص:١٧٤). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٦٨٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٢٧٨)، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٨٧) وعزاه لابن جرير.

(٣) لم أقف عليه في معاني الزجاج. وانظر قول الزجاج في: زاد المسير (٢/ ٢٠٣).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٢٧٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٦٧-١٠٦٨).

(٥) وهي قراءة ابن عباس أيضاً.

(٦) مختصر ابن خالويه في شواذ القرآن (ص:٢٨-٢٩)، والمحتسب (١/ ١٩٨-١٩٩)، والبحر المحيط (٣/ ٣٦٧-٣٦٨).

(٧) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠٣).

وقال أُبَيّ بن كعب: مع كل صنم جِنِّيَّة[(١)].

وقال الزجَّاج[(٢)]: يعني به إبليس، وهم إذا أطاعوه فيما سوَّل لهم فقد عبدوه.

و"المَرِيد": العاتي المتجرد عن الخير، الظاهرُ الشر، ومنه: الأَمْرَد، وشجرة مَرْدَاء: إذا تناثر ورقها وتجرَّدت، وصخرة مَرْدَاء: مَلْسَاء.

﴿لعنه الله وقال لأتخذن﴾ صفتان للشيطان، التقدير: إلا شيطاناً لعيناً قائلاً ذلك.

وقيل: هو دعاء عليه باللعن.

﴿نصيباً مفروضاً﴾ حظاً مقطوعاً، أقتطعتهم لنفسي، ومنه: فُرْضة النهر، وفُرْضة القوس، وهو الحز الذي يُشَد فيه الوتر. وفُرِض له في العطاء، وفرض للجند .. كل ذلك أصله القطع.

قال الحسن: مِن كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٥)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٦٧)، والضياء في المختارة (٣/ ٣٦٢). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٨٦) وعزاه لعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن المنذر وابنْ أبي حاتم والضياء في المختارة.

(٢) معاني الزجاج (٢/ ١٠٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٠٦٩) عن مقاتل. وذكره مقاتل بن سليمان (١/ ٢٥٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٨٨) وعزاه لابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان.

وقول الحسن أصله في الصحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم؛ فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ... الحديث». أخرجه البخاري (٣/ ١٢٢١ ح٣١٧٠)، ومسلم (١/ ٢٠١ ح٢٢٢).

﴿ولأضلَّنهم﴾ يعني: عن سبيل الهدى إلى طريق الردى، ﴿ولأمنينهم﴾ الأماني الباطلة.

قال ابن عباس: أقول لهم: لا جنة ولا نار، وأسوّفهم بالتوبة(١).

ولقد عجبتُ من كشف صاحب الكشاف(٢) قِنَاع الحياء، ورفضه الأحاديث الصحيحة الصريحة لخيالات الآراء، وتحريفه كلام الله عن مواضعه، حتى إنه قال في قوله تعالى: «ولأمنينهم»: يعني: الأماني الباطلة، فعدّ منها: الخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة، فَرَدّ أحاديث الشفاعة، وقد رواها أئمةُ الإسلام، وحُفَّاظ الحديث والأحكام، وسمعها من النبي ﷺ جماعة من سادات الصحابة، ورُوِيت عنهم، وسُمِعت منهم؛ كأبي بكر، وعمر، وابنه، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعبادة بن الصامت، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري وغيرهم.

وخرَّجها الأئمة في مسانيدهم؛ كالإمام أحمد، والشيخين صاحبي الصحيحين. ففيهما من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ فساق حديث الشفاعة إلى أن قال: «ثم أعود الرابعة، فأقول: يا رب! ما بقي إلا مَن حبسه القرآن -إلى أن قال-: ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرَّة»(٣).

وفي صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «يَخْرُجُ

---

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٨٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) الكشاف (١/ ٥٩٩-٦٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٩٥-٢٦٩٦ ح٦٩٧٥)، ومسلم (١/ ١٨٠ ح١٩٣).

قَوْمٌ مِنْ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ [فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ][١] فَيُسَمَّوْنَ الجَهَنَّمِيِّينَ»[٢].

فمَن أجهلُ جهلاً، وأسخفُ عقلاً، وأضلُ سبيلاً ممن يقابل القرآن بالتعطيل، والأحاديث النبوية بالتبطيل، وهو يدَّعي الاستسلام لدين الإسلام، ولكن هـذه جناية الكلام عليهم، وشؤم البدعة لديهم.

اللهم اجعل نور إيماننا مؤنساً لنا في ظُلَم الإلحاد، وأنلنا شفاعة نبينا إذا حرمتها أهل الإلحاد.

قوله تعالى: ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ البَتْكُ: القَطْعُ.

قال المفسِّرون: هو شق أُذن البَحِيرة، وهي: الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكَراً، امتنعوا من الانتفاع بها؛ تسويلاً من إبليس بأن ذلك قُرْبة لهم إلى الله تعالى.

﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ قال ابن مسعود: هو الوَشْم[٣].

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: «لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ، وَالمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالمُتَنَمِّصَاتِ، وَالمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَة مِنْ بَنِي أَسَد: بَلَغَنِي أَنَّكَ قُلْتَ كَذا وَكَذا، وذكرته، فَقَال: مَالِي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رسول الله»[٤].

---

(١) زيادة من الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٢٤٠١ ح٦١٩٨).

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ٢٨٥)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٧٠) عن الحسن. وذكره الماوردي (١/ ٥٣٠) من قول ابن مسعود والحسن، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢١٨ ح٥٥٩٥)، ومسلم (٣/ ١٦٧٨ ح٢١٢٥).

=

وقال ابن عباس: هو تغيير دين الله[1]؛ كقوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ [الروم:٣٠]، أي لدين الله.

ومعنى تغيير الدين: جعلهم الحلال حراماً، والحرام حلالاً، ويدخل فيه قول مَن قال: هو تحريم ما حرَّموا من الأنعام.

وقال في رواية عكرمة: هو الخِصَاء[2]. وقيل: التَّخَنُّث.

وصح عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ لَعَنَ الْمُتَشَبِّهَاتِ من النِّسَاءِ بالرِّجَالِ، و[الْمُتَشَبِّهِينَ][3] من الرِّجَالِ بالنِّسَاءِ»[4].

فإن قيل: من أين علم إبليس وقوع ما أخبر الله به عنه في قوله: ﴿لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ... الآية﴾، وفي قوله: ﴿لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ [الإسراء:٦٢]، وفي قوله: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾؟ [الأعراف:١٧].

= والواشمة: التي تفعل الوَشم، والمستوشمة: التي تطلب الوَشم، وهو: أن يُغرز الجلد بإبرة ثم يُحشى بكحل أو نيل فيَزْرَقّ أو يَخْضَرّ (اللسان، مادة: وشم).

والنَّمْصُ: هو نَتْفُ الشعر (اللسان، مادة: نمص).

والمتفلجات: اللاتي يفرجن ما بين الثنايا والرّباعيات (انظر: اللسان، مادة: فلج).

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٢٨٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٦٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٩٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٢٨٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٦٩)، ومجاهد (ص:١٧٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٨٩) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة.

(٣) زيادة من سنن أبي داود (٤/ ٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٠٧ ح٥٥٤٦)، وأبو داود (٤/ ٦٠ ح٤٠٩٧) كلاهما من حديث ابن عباس.

قلت: رأى الخبيث أسباباً، منها: خلق الجنة والنار، وكون الأب أجوف فعرف أنه خلقٌ لا يتمالك، واستزلاله إياه مع كماله، وما كان من حال الذين سكنوا الأرض من قبلهم، فأثارت هذه القضايا عنده غلبة الظن بتحقيق ما توعّدهم به. قال الله تعالى: ﴿ولقد صَدَّقَ عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾ [سبأ:٢٠].

قوله: ﴿يعدهم ويمنِّيهم﴾، أي: يعد أولياءه أنه لا بعث ولا نشور، ويمنيهم الباطل والغرور، ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ باطلاً وتمويهاً، فيُخْرج لهم ما يضرهم في صورة ما يسرهم، ويَغُرُّهم بالعاجل عن الآجل، فبينا هم يترددون في أودية الأماني، اعترضتهم المنيّة دون بلوغ الأمنية، فتمنوا أن يُطلقوا ساعة من أسرها، ولو بالدنيا بأسرها.

الآنَ حِينَ تَعَلَّقَتْهُ حِبَالُنَا يَرْجُو الخَلاصَ وَلاَتَ حِينَ مَنَاص[1]

﴿ولا يجدون عنها﴾ إذا راموا الخلاص منها ﴿محيصاً﴾ أي: مذهباً ومهرباً.

قوله: ﴿وعد الله حقاً﴾ مصدران. وقيل: تمييز[2].

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

---

(١) انظر البيت في: تاريخ الطبري (٣/ ٣١١) ونسبه إلى عبيد الله بن زياد، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٠٠) باختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) انظر: الدر المصون (٢/ ٤٢٩).

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

قوله عز وجل(١): ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ قال ابن عباس وقتادة: اختصم أهل الأديان، فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبيّنا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك. وقال المسلمون: كتابنا نسخ كل كتاب، ونبيّنا خاتم الأنبياء، فنزلت هذه الآية(٢).

ثم خيَّر بين الأديان بقوله: ﴿ومن أحسن ديناً﴾.

وقال عكرمة: قالت اليهود والنصارى: لا يدخل الجنة غيرنا. وقال كفار قريش: لا نُبعث، فنزلت(٣).

قال الزجَّاج(٤): اسم «ليس» مضمر، والمعنى: ليس ثواب الله بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب.

قال الحسن رحمه الله: ليس الإيمان بالتمني، ولا التحلي، ولكنه ما وقر في

---

(١) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس العشرين.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٢٨٨) عن قتادة، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٧٣) عن ابن عباس. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٨٤).

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠٩)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٩٥) وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) معاني الزجاج (٢/ ١١١).

الصدر، وصدَّقه العمل[١].

نفى الله سبحانه وتعالى أن يكون ثوابه وجنته بالأماني الكاذبة والدعاوي الباطلة كما زعمته اليهود في قولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ [البقرة:١١١]، وقولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة:١٨]، ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ [البقرة:٨٠].

فلما أوضح لعباده خيبة الأماني الكاذبة أعلمهم أن الجزاء معقود بالأعمال لا بالأماني والآمال، فقال عز وجل: ﴿مَن يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾.

قال ابن عباس: هو الشرك[٢].

والأظهر عمومه في جميع السيئات، يدل عليه ما أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغاً شَدِيداً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، أَوْ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا»[٣].

وفي الحديث: «أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه قال لما نزلت: يا رسول الله؛ كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿مَن يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾، فقال: غفر الله لك يا أبا بكر ألستَ تمرض؟ ألستَ تحزن؟ ألستَ تصيبك اللأواء؟ فذلك مما تُجزون به»[٤].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٣، ٧/ ١٨٩)، والبيهقي في الشعب (١/ ٨٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٩٥) وعزاه لابن أبي شيبة.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٢٩٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٧٠). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٧٠٣) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٣ ح٢٥٧٤).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١١ ح٦٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٧٨ ح٤٤٥٠).

وأخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ فِي الدُّنْيَا»[(١)].

قال مسروق: لما نزلت: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾. قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء، فنزلت: ﴿ومن يعمل من الصالحات ... الآية﴾[(٢)].

هذه «مِنْ» للتبعيض، والتي في قوله: ﴿مِن ذكرٍ﴾ لتبيين الإبهام في قوله: ﴿مَن يعمل﴾.

وفي قوله: ﴿وهو مؤمن﴾ إخراج لأهل الكتاب عن تناول الآية لهم؛ لكفرهم بما لا يتم الإيمان إلا به.

﴿ولا يُظلمون نقيراً﴾ يعني: أهل السوء، وأهل العمل الصالح.

وقد سبق تفسير[(٣)] ما بعده إلى قوله: ﴿حنيفاً﴾، وهو حال من الضمير المرفوع في «واتبع» أو حال من «إبراهيم»[(٤)].

﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ جاء في الحديث: أن النبي ﷺ قال: «يا جبرائيل؛ لِمَ اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ قال: لإطعامه الطعام»[(٥)].

قال ابن عباس: كان إبراهيم عليه السلام أبا الضيفان، يُضِيف من مرّ به مِنَ الناس، وكان منزله على ظهر الطريق، فأصابت الناسَ سنةٌ، فأقبلوا إلى باب

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٦ ح٢٣)، والطبري (٩/ ٢٤١).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٢٨٨)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٧٢-١٠٧٣)، والثعلبي (٣/ ٣٨٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٠٤) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٣) انظر: (ص:٢٠٥).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٩٥)، والدر المصون (٢/ ٤٣٠).

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٩٨)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٨٤).

ابراهيم يطلبون الطعام، وكانت له مَيْرة من صَديق له بمصر في كل سنة، فبعث غلمانه بالإبل إلى صديقه، فلم يعطهم شيئاً، فقالوا: لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا جئنا بميرة، فملأوا الغرائر رملاً، ثم أتوا إلى إبراهيم، فأعلموه، فاهتم إبراهيم لأجل الخلق، فنام وجاءت سارة وهي لا تعلم ما كان، ففتحت الغرائر، فإذا دقيق حُوَّارَى[1]، فأمرت الخبّازين فخبزوا وأطعموا الناس، فاستيقظ إبراهيم عليه السلام فقال: من أين هذا الطعام؟ قالت: من عند خليلك المصري، فقال: بل من عند الله، خليلي الله، فيومئذ اتخذه الله خليلاً[2].

قال ابن عباس: الخليل: الصفي[3].

والمعنى: اصطفى إبراهيم واختصه بأسنى المواهب، وأقوم المذاهب، وأناله من الكرامة فوق ما رامه، وجعله جرثومة الرسالة، ودوحة الإمامة.

واشتقاق الخليل من الخَلَّة، وهي: الحاجة، فإبراهيم خليل الله، أي: فقيره الذي يُنْزِل به فقره وفاقته لا بغيره، أو من الخُلَّة -بضم الخاء- وهي: الصداقة، والخليل: المُحِبّ الذي ليس في محبته خلل، فسمي إبراهيم خليل الله؛ لأن الله أحبه محبة تامة، وأحبَّ الله محبة تامة لا خلل فيها.

﴿وكان الله بكل شيء﴾ أي: بكل شيء من خلقه، ﴿محيطاً﴾ بعلمه، ومضمون ذلك ترغيب الصالح، وترهيب الطالح.

---

(١) الحُوَّارَى: الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه (اللسان، مادة: حور).

(٢) ذكره الطبري (٥/ ٢٩٨)، والثعلبي (٣/ ٣٩٢)، والواحدي في أسباب النزول (ص:١٨٥).

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ٣٩٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢١١).

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

قوله[1]: ﴿ويستفتونك في النساء﴾ أي: يطلبون منك الفتوى في ميراثهن، وكانوا لا يورثون النساء والأطفال - كما ذكرناه[2]-، فلما فرض الله المواريث شرقوا بتوريث النساء، والأطفال، فنزلت هذه الآية[3].

﴿وما يتلى عليكم﴾ معطوف على اسم الله، أي: الله يفتيكم، والمتلوُّ في الكتاب يفتيكم أيضاً، وهو قوله: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ [النساء:٢].

وقيل: "ما يُتلى" مبتدأ، و"في الكتاب" خبره، على أنها جملة اعتراضية[4].

والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، ﴿في يتامى النساء﴾ أي: في شأنهن.

والتقدير: وما يُتلى عليكم في شأن النساء اليتامى، فأضيفت الصفة إلى الاسم؛ كقولهم: يوم الجمعة، هذا مذهب الكوفيين، والبصريون يقولون في هذا وأمثاله: الإضافة هاهنا بمعنى: «مِنْ».

وقيل: المراد بالنساء هاهنا: أمهات اليتامى، فأضيف أولادهن إليهن، وإعراب

---

(١) كتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس التاسع والثلاثين، مرة ثانية.

(٢) انظر: (ص:٤٣٨-٤٣٩).

(٣) انظر: الوسيط (٢/ ١٢٣)، وزاد المسير (٢/ ٢١٣).

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٩٦)، والدر المصون (٢/ ٤٣١).

«يتامى النساء» ينبني على الوجهين في إعراب «وما يتلى». فإن قلنا: هو مبتدأ، فقوله: «في يتامى النساء» بدل من «فيهن». وإن قلنا: هو عطف، فجائز أن يكون قوله: «في يتامى النساء» بدلاً أيضاً. وجائز أن يكون من صلة «وما يتلى»، تقديره: وما يتلى عليكم في شأن يتامى النساء يفتيكم أيضاً[(١)].

﴿اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ أي: ما فُرِض لهن من الميراث، وقيل: من الصداق.

واختلف الحسن ومحمد بن سيرين في قوله: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ فقال أحدهما: المعنى: وترغبون في أن تنكحوهن.

وقال الآخر: المعنى: وترغبون عن أن تنكحوهن، أي: عن أن تنكحوهن لدمامتهن[(٢)].

وكان هذا من سُنَّة الجاهلية إذا كانت اليتيمة دميمة ولها مال عضلها وليها عن التزويج حتى تموت فيرثها، وإن كانت ذات مال وجمال تزوجها واستأثر بمالها، ولم يعدل في صداقها.

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة في قوله: «﴿ويستفتونك في النساء ... إلى قوله: وترغبون أن تنكحوهن﴾ قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة وهو وليها ووارثها، فأشركته في ماله حتى في العَذْق[(٣)]، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن

---

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ٤٣٣).

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢١٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٠٩) وعزاه لابن المنذر.

(٣) العَذْق بالفتح: النخلة، وبالكسر: عنقود العنب. (المعجم الوسيط ص: ٥٩٠).

يُزوِّجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية»[١].

قوله: ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ عطف على «يتامى النساء»، «وأن تقوموا» في محل الجر[٢]، أي: يفتيكم في يتامى النساء، وفي المستضعفين، وفي ﴿أن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ وهو العدل في ميراثهن ومهورهن، وأمورهن.

﴿وما تفعلوا من خير﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿فإن الله كان به عليماً﴾ المعنى: وهو يجازي عليه.

وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾

قوله: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ أي: خشيتْ من زوجها نشوزاً ترفعاً عليها، أو إعراضاً عنها لدمامة في خَلْقها، أو لذمامة في خُلُقها، أو لِكبَر، أو لملال وضجر، أو اشتغال بغيرها.

﴿فلا جُناحَ عليهما﴾ أي: لا إثم عليهما ﴿أن يَصَّالحَا﴾ أصله: يتصالحا،

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧٩ ح٤٣٢٤).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٩٦)، والدر المصون (٢/ ٤٣٥).

فأدغمت التاء في الصاد.

وقرأ أهل الكوفة: «يُصْلِحَا» بضم الياء وسكون الصاد وتخفيفها وكسر اللام من غير ألف[١]، مِن أصلح يُصْلح.

والمعنى: لا بأس أن تطيب له نفساً ببعض صداقها، أو بإسقاط بعض حقوقها، أو بتخفيف نفقتها.

أخرج الترمذي من حديث ابن عباس قال: «خَشِيَتْ سَوْدَةُ أَنْ يُطَلِّقَهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَتْ: لا تُطَلِّقْنِي وَأَمْسِكْنِي، وَاجْعَلْ يَوْمِي لِعَائِشَةَ، فَفَعَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ فَمَا اصْطَلَحَا عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ جَائِزٌ»[٢].

أخبرنا شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي رضي الله عنه قراءة عليه وأنا أسمع بدمشق، والشيخ أبو بكر محمد بن سعيد بن الموفق النيسابوري بقراءتي عليه ببغداد قالا: أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي، أخبرنا أبو الحسن مكي بن منصور بن عِلان الكَرْجي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، حدثنا محمد بن يعقوب الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، «أن ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج، فكره منها أمراً، إما

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٩٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢١٣-٢١٤)، والكشف (١/ ٣٩٨-٣٩٩)، والنشر (٢/ ٢٥٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤٩ ح٣٠٤٠).

كِبَراً، وإما غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تُطلِّقني، وأمسكني، واقسم لي ما بدا لك، فأنزل الله: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ... الآية﴾»[١].

﴿والصلح خير﴾ أي: خير من الفُرْقة.

وقيل: خير من النشوز والإعراض.

قوله: ﴿وأُحْضِرَتِ الأنفس الشح﴾ أي: أُلزمته، والشُّحّ: البخل مع الحرص، فالمرأة تشح بحقها من زوجها، والزوج يشح بنفسه عليها لعدم ميله إليها.

﴿وإن تحسنوا﴾ أيها الأزواج بالصبر عليهن، والإحسان في العشرة إليهن، ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾.

قوله: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ يعني: في المحبة التي هي ميل القلب، ﴿ولو حرصتم﴾؛ لأن ذلك لا يدخل تحت كسبكم.

أخرج الإمام أحمد من حديث عائشة قالت: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ، ثمَّ يَقُولُ: اللهمّ هَذا فِعْلِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ»[٢]، يريد بذلك ﷺ ميله إلى عائشة، وإفراطه في محبتها من بين نسائه.

﴿فلا تميلوا﴾ بالنفقة والقسم إلى التي تحبون ﴿كل الميل﴾، فتذروا المرغوب عنها ﴿كالمُعلَّقة﴾ وهي التي ليست بذات بعل ولا مُطلَّقة.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ يَمِيلُ إلى إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ يجرّ أحد شِقَّيْهِ ساقطاً أو

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده (ص: ٢٦٠)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٢٩٦ ح١٤٥٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٢٤٢ ح٢١٣٤)، والترمذي (٣/ ٤٤٦ ح١١٤٠)، والنسائي (٥/ ٢٨١ ح٨٨٩١)، وابن ماجه (١/ ٦٣٣ ح١٩٧١)، وأحمد (٦/ ١٤٤ ح٢٥١٥٤).

مائلاً»[1].

قوله: ﴿وإن تُصْلِحوا﴾ يعني: تعدلوا في النفقة والقسم، ﴿وتتقوا﴾ الجور ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ رحمكم وغفر لكم ميل قلوبكم.

وقيل: المعنى: "وإن تُصْلِحوا" ما أفسدتموه وحملكم الميل عليه بالتوبة والاستغفار "وتتقوا" الجَوْر فيما تستقبلون في صحبتهن.

﴿فإن الله كان غفوراً﴾ لما كان منكم، ﴿رحيماً﴾ بكم.

قوله تعالى: ﴿وإن يتفرقا﴾ يعني: الزوجين إذا لم يتفقا على الصلح، ﴿يُغْنِ الله كُلاً من سعته﴾ أي: يرزق كل واحد منهما من رزقه الواسع ما يغنيه، ومن الأزواج ما يرضيه، ﴿وكان الله واسعاً﴾ يسع رزقه جميع خلقه ﴿حكيماً﴾ فيما أمر به، ونهى عنه، وخوّف منه.

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٢٤٢ ح٢١٣٣)، والترمذي (٣/ ٤٤٧ ح١١٤١)، وابن ماجه (١/ ٦٣٣ ح١٩٦٩)، وأحمد (٢/ ٢٩٥ ح٧٩٢٣).

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ فإليه فارغبوا، وإياه فاسألوا.

﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ قوله: «من قبلكم» متعلق بـ«وصينا» أو بـ«أُوتوا»، والمعنى: وصينا أهل الكتب من قبلكم، وإياكم يا أهل القرآن وصينا أيضاً أن تخافوا الله وتحذروه. ﴿وإن تكفروا﴾ عطف على «أن اتقوا»، أي: قلنا لهم ولكم: اتقوا، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا[(١)]، ﴿فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً. فإيمانكم لا يزيد في سلطانه، وكفركم لا ينقص منه.

﴿وكان الله غنياً﴾ عنكم، ﴿حميداً﴾ يستحق الحمد منكم.

ثم هَدَّدَ المنافقين والمشركين فقال: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾.

قوله: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ كالمقاتل مثلاً يطلب المدح والغنيمة بقتاله، ولا تخطر الآخرة بباله، فماله يعدل عن الأخص إلى الأخس، وإلى الأرذل عن الأفضل، ولكن هذا الحرمان أنتجه الخذلان، وإلا فلو نوى بقتاله الجهاد في سبيل الله والطاعة لفاز بالمُعَلَّى من قَدح الثواب في الدارين، والمدح بالشجاعة.

وقال الزجَّاج[(٢)]: كان مشركوا العرب يتقربون إلى الله ليعطيهم من خير الدنيا،

---

(١) قاله الزمخشري في الكشاف (١/ ٦٠٧).

قال في الدر المصون (٢/ ٤٣٨): وفي كلامه نظر؛ لأن تقديره القول ينفي كون الجملة الشرطية مندرجة في حيز الوصية بالنسبة إلى الصناعة النحوية، وهو لم يقصد تفسير المعنى فقط، بل قصده هو وتفسير الإعراب، بدليل قوله: عطف على "اتقوا"، و"اتقوا" داخل في حيز الوصية، سواء أجعلت "أن" مصدرية أم مفسرة.

(٢) معاني الزجاج (٢/ ١١٧).

ويصرف عنهم شرها، ولا يؤمنون بالبعث، فأعلم الله عز وجل أن خير الدنيا والآخرة عنده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿١٣٥﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ قيل: إنها متعلقة بقصة ابن أُبيرق.

قال السدي وغيره: اختصم رجلان إلى النبي ﷺ أحدهما فقير والآخر غني، فكان صِغْو(1) النبي ﷺ مع الفقير لكونه لا يظلم الغني في مستقر العادة، فنزلت هذه الآية(2).

والمعنى: كونوا مجتهدين في إقامة العدل.

﴿شهداء لله﴾ أي: لوجهه ورضاه، لا تأخذكم فيه لومة لائم، ﴿ولو على أنفسكم﴾ ولو كان الحق عليكم ﴿أو﴾ على ﴿الوالدين والأقربين﴾ والشهادة على الأنفس مجاز عن الإقرار بما عليها من الحقوق.

﴿إن يكن﴾ يعني: المشهود عليه، أو له ﴿غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ أعلم بحالهما، فلا تصرفنكم عن شهادة الحق والقيام بالعدل، مسكنة الفقير، ولا نباهة

---

(1) الصِّغْو: الميل (اللسان، مادة: صغا).

(2) أخرجه الطبري (٥/ ٣٢١). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٨٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٢٢)، والسيوطي في الدر (٢/ ٧١٥) وعزاه لابن جرير.

الغني.

﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ كراهة أن تعدلوا عن الحق، أو لأن تعدلوا.

ولقد أحسن القائل:

وَاعْلَمْ بأَنَّكَ لَنْ تَسُودَ وَلَنْ تَرَى ... سُبُلَ الرَّشَادِ إذا اتَّبَعْتَ هَوَاكَا

﴿وإن تلووا﴾ ألسنتكم أيها الشهود عن الشهادة فتحرفوها، ﴿أو تعرضوا﴾ عنها، فلا تؤدوها.

وقيل: «وإن تلووا» وجوهكم أيها الحكام إلى بعض الخصوم، «أو تعرضوا» عن بعض.

وقرأ ابن عامر وحمزة: «وإن تَلُوا»[1] من الوِلاية، أي: تَلُوا إقامة الشهادة، أو أمور الناس، والحكم بينهم «أو تعرضوا» عن ذلك، ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فهو يتولى جزاء القاسطين والمقسطين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمسلمين، في قول الحسن[2].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٩٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢١٥)، والكشف (١/ ٣٩٩)، والنشر (٢/ ٢٥٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٥)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٨-٢٣٩).

(٢) ذكره الماوردي (١/ ٥٣٦)، والواحدي في الوسيط (٢/ ١٢٨) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٢٤).

ولأهل الكتابين، في قول الضحاك[1].

وللمنافقين، في قول مجاهد[2].

فالمعنى على القول الأول: ﴿يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بـالله﴾ أي: دومـوا عـلى إيمانكم، كما تقول للقائم: قم حتى آتيك.

وعلى القول الثاني: ﴿يـا أيهـا الـذين آمَنـوا﴾ بـالتوراة وموسـى، والإنجيـل وعيسى، ﴿آمِنوا بالله ورسوله﴾ محمد وما جاء به من القرآن.

وعلى القول الثالث: ﴿يا أيهـا الـذين آمَنـوا﴾ بألـسنتهم، ﴿آمِنـوا﴾ بقلـوبكم بوحدانية الله ورسالة محمد ﷺ[3].

---

(١) ذكره الماوردي (١/ ٥٣٦)، والواحـدي في الوسـيط (٢/ ١٢٨)، وابـن الجـوزي في زاد المـسير (٢/ ٢٢٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧١٦) وعزاه لابن المنذر.

(٢) مثل السابق.

(٣) قال الطبري (٥/ ٣٢٦): فإن قال قائل: وما وجه دعاء هؤلاء إلى الإيمان بالله ورسوله وكتبه، وقد سماهم مؤمنين؟

قيل: إنه جل ثناؤه لم يسمهم مؤمنين، وإنما وصفهم بأنهم آمنوا، وذلك وصف لهم بخصوص من التصديق، وذلك أنهم كانوا صنفين: أهل توراة مصدقين بهـا وبمـن جـاء بهـا، وهـم مكـذبون بالإنجيل والقرآن ومحمد ﷺ. وصنف أهل إنجيل وهم مصدقون به وبالتوراة وسـائر الكتـب، مكذبون بمحمد ﷺ والفرقان، فقال جل ثناؤه لهم: يا أيها الذين آمنوا -يعني: بما هم به مؤمنـون من الكتب والرسل- آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ والكتاب الذين نزل على رسـوله، فـإنكم قـد علمتم أن محمداً رسول الله تجدون صفته في كتبكم، وبالكتاب الذين أنزل من قبل، الذي تزعمون أنكم به مؤمنون، فإنكم لن تكونوا به مـؤمنين وأنـتم بمحمـد مكـذبون؛ لأن كتـابكم يـأمركم بالتصديق به وبما جاءكم به، فآمنوا بكتابكم في اتباعكم محمداً، وإلا فأنتم به كافرون. فهذا وجـه أمرهم بالإيمان بما أمرهم بالإيمان به بعد أن وصفهم بما وصفهم بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. اهـ.

﴿والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنْزَل من قبل﴾: يريد: جنس الكتب، وإنما قال: "نزل على رسوله" و"أنْزل من قبل"؛ لأن القرآن نزل نجوماً متفرقة في عشرين سنة(١)، بخلاف سائر الكتب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

قوله: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا﴾ ذهب ابن عباس وجمهور المفسّرين إلى أنهم اليهود، آمنوا بموسى ثم كفروا بعده، ثم آمنوا بعزير ثم كفروا بعده بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد(٢).

وقيل: ﴿إن الذين آمنوا﴾ بالتوراة وموسى، ﴿ثم كفروا﴾ بالإنجيل وعيسى، ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بمحمد والقرآن.

---

(١) قال السيوطي في الإتقان (١/ ١١٧): اختلف في كيفية إنزاله من اللوح المحفوظ على ثلاثة أقوال: أحدها -وهو الأصح والأشهر-: أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين، على حسب الخلاف في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة.

(٢) زاد المسير (٢/ ٢٢٥).

وقال قتادة: آمنوا بموسى، ثم كفروا بعبادة العجل، ثم آمنوا به بعد عوده، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد[١].

وروي عنه: أنها في اليهود والنصارى؛ آمن اليهود بالتوراة ثم كفروا بالإنجيل، ثم آمن النصارى بالإنجيل، ثم تركوه، فكفروا به، ثم ازدادوا كفراً بالقرآن ومحمد ﷺ[٢].

وقال الحسن: هم قوم من أهل الكتاب قصدوا تشكيك المؤمنين، فكانوا يُظهرون الإيمان، ثم الكفر، ثم ازدادوا كفراً بموتهم على كفرهم[٣].

وقال مقاتل[٤]: آمنوا بالتوراة وموسى، ثم كفروا، ثم آمنوا بعيسى والإنجيل، ثم كفروا بعده، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن.

وقيل: هو نعت المنافقين، آمنوا ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا، ثم ازدادوا كفراً بالثبات على النفاق حتى ماتوا عليه.

﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ ويمكن أن يُستدل بهذه الآية على عدم قبول توبة مَن تكررت ردّته، وهو مذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه، لأن الله أخبر عن الذين تكرر منهم الكفر بعد الإيمان أنه لا يغفر لهم ولا يهديهم سبيلاً، ومن كان بهذه المثابة لا يقبل الله له توبة[٥].

(١) ذكره الماوردي (١/ ٥٣٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٣٢٧). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٢٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٢٥)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧١٦) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

(٣) ذكره الماوردي (١/ ٥٣٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٢٥).

(٤) تفسير مقاتل (١/ ٢٦٣).

(٥) انظر: المغني (٩/ ١٨).

قوله: ﴿بَشِّرِ المنافقين﴾ قال الزجَّاج[١]: المعنى: اجعل موضع بشارتهم العذاب، والعرب تقول: تحيتك الضرب، وعتابك السيف.

قال الشاعر:

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بخَيْلٍ تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[٢]

ثم وصف المنافقين فقال: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ قال ابن عباس: كانوا يوالون اليهود[٣].

﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ أي: الغلبة والاستعلاء على محمد وأصحابه، مأخوذ من قولهم: أرض عَزاز: وهي التي لا تنبت، كأن الشدة منعتها من ذلك، وعزَّ الشيء: أي صعب واشتد وجوده، ومنه مَنْ عزَّ بزَّ: أي: مَن اشتد وقوي، غلب وسلب.

قال الشاعر:

كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا حمىً يُتَّقى إِذِ النّاس إِذ ذاكَ مِنْ عَزَّ بزّا[٤]

﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ فعنده تُبتغى، فالتمسوها بالإيمان والطاعة.

قال رجل -يريد سفراً- للإمام أحمد: أوصني، فقال: أعِزَّ أمر الله حيث ما

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ١٢٠).

(٢) البيت لعمرو بن معديكرب. انظر: ديوانه (ص:٣٤٣)، والكتاب (٢/ ٣٢٣)، وشرح المفصل (٢/ ٨٠)، والخزانة (٩/ ٢٦٣)، وشرح أبيات الكتاب للسيرافي (٢/ ٢٠٠)، والخصائص (١/ ٣٦٨)، والمقتضب (٢/ ٢٠، ٤/ ٤١٣)، ومعاني الأخفش (ص:٩٨)، والدر المصون (١/ ٥٠٨)، والطبري (١/ ٣٩١)، وزاد المسير (٢/ ٢٢٦).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٢٩) بلا نسبة، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٢٦).

(٤) البيت للخنساء. انظر: ديوانها (ص:٥٩)، وزاد المسير (٢/ ٢٢٧، ٤/ ١٣).

كنت يعزّك الله[1].

قوله[2]: ﴿وقد نُزِّلَ عليكم في الكتاب﴾ قرأ عاصم: «نَزَّلَ» بفتح النون والزاي[3].

والذي نَزَل هو: النهي عن مجالسة الخائضين في آيات الله، وذلك في سورة الأنعام في قوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ [الأنعام:٦٨].

﴿أن إذا سمعتم آيات الله﴾ في موضع نصب، على قراءة عاصم، وفي موضع رفع، على قراءة الباقين.

وقوله: ﴿يُكفر بها ويُستهزأ بها﴾ يستلزم وجود كافرين مستهزئين، فيعود الضمير في قوله: ﴿معهم﴾ إليهم.

﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ المماثلة واقعة بين الخائضين والقاعدين معهم في الكفر إذا كانوا راضين بحالهم، أو في المعصية إذا لم يكونوا راضين.

ويحتمل عندي: أن الخطاب بهذه الآية للمنافقين، فإنهم كانوا يقعدون مع اليهود خائضين في آيات الله بالتكذيب والاستهزاء، ألا تراه يقول عقيب ذلك: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ أي: كما اجتمعوا في الدنيا على

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٤٦) عن أبي بن كعب قال: أردت أن أخرج إلى الفتنة، قال: قلت للحسن: أوصني فقال: ...، وأخرجه أحمد في الزهد (ص:٣٢٢) قال: قال رجل للحسن رحمه الله: إني أريد سفراً فزودني. قال: ابن أخي أعز أمر الله ...

(٢) كتب في الهامش: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الأربعين، مرة ثانية.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٩٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢١٧)، والكشف (١/ ٤٠٠-٤٠١)، والنشر (٢/ ٢٥٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٥)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٩).

التكذيب والاستهزاء، يجمعهم في الآخرة في العذاب.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١)

ثم وصف الله المنافقين فقال: ﴿الذين يتربصون بكم﴾ أي: ينتظرون، ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ وكانت الدولة لكم ﴿قالوا ألم نكن معكم﴾ فأعطونا من الغنيمة، ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ حظ من الظفر والنصر ﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم﴾.

الاسْتِحْواذ في اللغة: الاستيلاء. يقال: حَاذ الحِمَارُ أُتُنَهُ؛ إذا استولى عليها وجمعها[١].

فالمعنى: ألم نغلب عليكم بالموالاة لكم، ونستولي عليكم بالمعونة، والذب عنكم.

﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ بالتثبيط تارة، وبنقل الأخبار إليكم أخرى، امتنوا بذلك عليهم ليدفعوا نصيبهم من الغنيمة إليهم.

﴿فالله يحكم بينكم﴾ أيها المؤمنون والمنافقون، وفي قوله: ﴿يوم القيامة﴾ إشعار بأن الحكم يقع على ما أضمروه لا على ما أظهروه، بخلاف أحكام الدنيا، ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.

قال رجل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أرأيت قول الله:

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (حوذ).

﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ وهم يقتلوننا؟! فقال: "ولن يجعل الله للكافرين" يوم القيامة "على المؤمنين سبيلاً"[(١)].

وقال ابن عباس في رواية عكرمة والضحاك: حُجَّة[(٢)].

وقال في رواية أبي صالح: «على المؤمنين» أصحاب محمد ﷺ[(٣)].

كأنه نفى ظهور كفار العرب على الصحابة، وأثبت أن الظفر للمسلمين والعاقبة لهم، فكان كذلك.

وقيل: هذا نفيٌ لاستيلاء الكفار على المسلمين بحيث يستأصلونهم، فإن العاقبة للمسلمين، وإن كانت الحرب سجالاً بين المسلمين والكافرين.

إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

قوله: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ سبق تفسيره في البقرة.

﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ متثاقلين لعدم الدواعي الطبيعية

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٩٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧١٨) وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٣٣٣-٣٣٤) عن ابن عباس والسدي، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٩٥) عن السدي. وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٣٠) عن ابن عباس والسدي، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧١٩) وعزاه لابن جرير عن السدي.

(٣) ذكره الثعلبي (٣/ ٤٠٤).

والشرعية. وهو جمع «كَسْلان»، مثل: سَكْران وسُكَارى.

﴿يراءون الناس﴾ معنى المفاعلة هاهنا أن المرائي يريهم أعماله ويُرُوْنَه استحسانها، أو يكون من باب: عاقبت اللص، وطارقت النعل.

﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ أي: ذكراً قليلاً.

قال علي رضي الله عنه: إنما قلَّ لأنه غير مقبول[1].

قال ابن عباس: لو كان لله لكان كثيراً[2].

قوله: ﴿مُذَبْذَبِينَ﴾ نصب على الحال من «يذكرون»، أو على الذم[3].

والتَّذَبْذُبُ: التَّحَرُّكُ والاضطراب. فالمنافقون مترددون بين الإيمان والشرك والإيقان والشك، ﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أي: لا إلى المؤمنين بالاعتقاد الصحيح، ولا مع المشركين بالمجاهرة والتصريح.

أخرج مسلم في صحيحه من حديث ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، لا تدري أيهما تتبع»[4].

﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: طريقاً إلى الهدى.

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٣٣٥) عن قتادة. وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٣١) من قول قتادة، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧١٩-٧٢٠) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة.

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٤٠٥)، والواحدي في الوسيط (٢/ ١٣١) من قول الحسن، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٣٢).

(٣) انظر: التبيان (١/ ١٩٩)، والدر المصون (٢/ ٤٤٧).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٤٦ ح٢٧٨٤).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

قوله: ﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي: لا تجعلوا اليهود والمنافقين بطانتكم وخاصتكم، ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حُجَّة ظاهرة.

واشتقاقه من السَّليط: وهو ما يُستضاء به، والزَّيْت: سليط، والسَّلاطَة من التَّسَلُّط: وهو القَهْر والظهور، والسَّلِيطَة: المرأة الصَخَّابَة[1].

والسَّليط: الفصيح اللسان، ومنه: السُّلطان. كل ذلك يرجع إلى أصل واحد.

قوله: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ قرأ أهل الكوفة: «الدَّرْك» بسكون الراء. وقرأ الباقون: بفتحها[2].

قال ابن فارس[3]: الجنةُ درجات، والنار دركات.

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (سلط).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٩٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢١٨)، والكشف (١/ ٤٠١)، والنشر (٢/ ٢٥٣).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٢/ ٢٦٩).

وإنها كانوا أشد عذاباً من الكافر؛ لأنهم ساووهم في الكفر، وزادوا عليهم بالاستهزاء.

قوله: ﴿إلا الذين تابوا﴾ يعني: رجعوا عن نفاقهم، ﴿وأصلحوا﴾ أعمالهم بعد التوبة، ﴿واعتصموا بالله﴾ استمسكوا بدينه، ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾، فلم يكدروه بشوائب الرياء، ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ في الولاية والدين.

قوله: ﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾ استفهام في معنى التقرير، أي: لا يعذبكم، ﴿إن شكرتم وآمنتم﴾ أي: إن شكرتم نعمه، فوحّدتموه وأطعتموه.

﴿وكان الله شاكراً﴾ للقليل من أعمالكم، ﴿عليماً﴾ بمقاصدكم ونيّاتكم.

۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

قوله: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلِم﴾ أي: إلا جهر مَن ظُلِم، وهو أن يدعو على الظالم، ويذكّره بما فيه من السوء، أو يبدأه إنسان بالشتيمة فيرد عليه.

قال ابن عباس: نزلت في الضيافة؛ ينزل الرجل بالرجل عنده سعة فلا يضيفه،

فإن تناوله بلسانه فقد عذره الله[١].

وقال مقاتل[٢]: نال رجل من أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه والنبي ﷺ حاضر، فسكت عنه أبو بكر مراراً، ثم ردّ عليه، فقام النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ شتمني فلم تقل له شيئاً، حتى إذا رددتُ عليه قمتَ، فقال: إن مَلَكاً كان يجيب عنك، فلما رددتَ عليه ذهب المَلَك، وجاء الشيطان، فنزلت هذه الآية.

وقرأ جماعة منهم عبد الله بن [عمر][٣]، والحسن، والسعيدان، وأبو رجاء، وقتادة والضحاك، وزيد بن أسلم: بفتح الظاء واللام[٤]، فيكون الاستثناء منقطعاً، على معنى: لكن الظالم قد يجهر بالسوء فاجهروا له بالسوء.

وقال الزمخشري[٥]: يجوز أن يكون «من ظلم» مرفوعاً، كأنه قيل: لا يحب الجهر بالسوء إلا الظالم، على لغة مَن يقول: ما جاءني زيد إلا عمرو، بمعنى: ما جاءني إلا عمرو. ومنه: ﴿لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ [النمل:٦٥].

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٢)، والثعلبي (٣/ ٤٠٧) عن مجاهد. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:١٨٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٣٦) كلهم عن مجاهد، والواحدي في الوسيط (٢/ ١٣٤) عن ابن عباس، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٢٣) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد.

(٢) تفسير مقاتل (١/ ٢٦٧).

(٣) في الأصل: عمرو. والتصويب من: البحر المحيط (٣/ ٣٩٨)، والدر المصون (٢/ ٤٥١).

(٤) مختصر ابن خالويه (ص:٣٠)، والمحتسب (١/ ٢٠٣)، والبحر المحيط (٣/ ٣٩٨).

(٥) الكشاف (١/ ٦١٦). وقال أبو حيان في البحر (٣/ ٣٩٩): وهذا الذي جوَّزه الزمخشري لا يجوز. وانظر: الدر المصون (٢/ ٤٥١).

وقال ثعلب: هي مردودة على قوله: ﴿ما يفعل الله بعذابكم ... إلا من ظُلِم﴾[١].

﴿وكان الله سميعاً﴾ لقول المظلوم ودعائه، ﴿عليماً﴾ بفعل الظالم، وقدر جزائه، فليحذر المظلوم من الحيف، فطالما صار بسببه ظالماً.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة: بلغني أن مَن قِبَلَك يَسُبُّون الحَجَّاج، فانههم عن ذلك، فإنه بلغني أنه لا يزال المظلوم يدعو على الظالم حتى يصير المظلومُ ظالماً، والظالمُ مظلوماً.

ثم إن الله تعالى نبَّه المظلوم على فضيلة العفو، ورغَّبه فيه وأعلمه أنه من أوصافه، فقال: ﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء﴾. المعنى: إن تبدوا خيراً بدلاً من السوء الذي أطلق لكم الجهر به تفضلاً وكرماً وتقرُّباً إلى الله، واكتساباً للحمد والثناء، أو تُخفوا الخير في أنفسكم، فلا تجهروا به اكتفاء بعلم الله بما في قلوبكم، ورغبة في ثوابه، ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ فتتجاوزوا عنه إغضاءً وتسامحاً، وتركاً للانتصار مع الاقتدار، ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾.

قوله[٢]: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ قال المفسِّرون: هم اليهود كفروا بعيسى والإنجيل، ومحمد والقرآن[٣].

﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ في الإيمان، ﴿ويقولون نؤمن ببعض

---

(١) انظر: زاد المسير (٢/ ٢٣٨).

(٢) كتب في هامش الأصل: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الحادي والأربعين، مرة ثانية.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٣٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤٠).

ونكفر ببعض﴾، فأخبر الله أن الإيمان بالبعض كفر بالكل لما فيه من التكذيب فقال: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾.

﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك﴾ أي: بين الكفر والإيمان ﴿سبيلاً﴾ مذهباً يدعون إليه ويحضون عليه.

﴿أولئك هم الكافرون﴾ ثم أكده فقال: ﴿حقاً﴾، فشهد عليهم بالكفر في أول الآية وأكّده ثانياً بقوله: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ سلباً لوصف الإيمان عنهم، ونفياً لما توهّموه من الانتفاع بالإيمان بالبعض.

قوله عز وجل: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ وهم المسلمون، ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ أي: من الرسل، كما فعلت اليهود والنصارى، ﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ سبق الكلام على» سوف» وفائدة دخولها في مثل هذه المواضع فيما مضى.

قال الزمخشري[1]: فإن قلت: كيف جاز دخول «بين» على «أحد» وهو يقتضي شيئين فصاعداً؟

قلت: إن «أحداً» عام في الواحد المذكر والمؤنث، وتثنيتهما وجمعهما. تقول: ما رأيت أحداً، فتقصد العموم، ألا تراك تقول: إلا بني فلان، وإلا بنات فلان.

فالمعنى: ولم يُفَرِّقوا بين اثنين منهم، أو بين جماعة، ومنه قوله: ﴿لَسْتُنَّ كأحد من النساء﴾ [الأحزاب:٣٢].

---

(١) الكشاف (١/ ٦١٧).

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

قوله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُكَ أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ قال أهل التفسير: قالت اليهود للنبي ﷺ: إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة واحدة كما أتى موسى بن عمران(١).

وقال بعضهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من السماء من الله إلى فلان، وإلى فلان، أنّ محمداً رسولي أرسلته إليكم(٢).

﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ أي: أعظم، وهو جواب شرط مقدّر تقديره: إن أكبرت ذلك وأعظمته ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾.

فإن قيل: «ثم» للترتيب، فكيف قال: ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ واتخاذهم العجل

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٧)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٠٣) كلاهما عن السدي ومحمد بن كعب القرظي. وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٣٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤١)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٢٦) وعزاه لابن جرير عن السدي. ومن طريق آخر عن محمد بن كعب القرظي، وعزاه لابن جرير أيضاً.

(٢) ذكره ابن جرير (٦/ ٨) عن ابن جريج، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤١)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٢٦) وعزاه لابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج.

إلهاً متقدم على سؤال الرؤية؟

قلتُ: هو خبر مستأنَف، كما تقول: زرتك اليوم، ثم إني زرتك أمس، أي: ثم أُخبرك أني زرتك أمس.

﴿فعفونا عن ذلك﴾ فلم نستأصلهم بالهلاك، ﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ وهي الآيات التسع[1].

ومعنى قوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ بسبب نقض ميثاقهم.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾
وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ
عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ
يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

قوله: ﴿فبما نقضهم﴾ «ما» زائدة، وقد ذكرناه في آل عمران[2].

والجالب للباء محذوف، تقديره: فبنقضهم ميثاقهم فعلنا بهم ما فعلنا.

وقيل: الجالب للباء: ﴿حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ [النساء:١٦٠] فيكون

(١) وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ [الإسراء:١٠١].

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ [آل عمران:١٥٩].

حينئذ قوله: ﴿فبظلم﴾ [النساء:١٦٠] بدلاً من قوله: «فبما نقضهم»[1].

قوله: ﴿وبكفرهم﴾ يعني: بمحمد. وقيل: بعيسى.

وهو عطف على: "فبما نقضهم" أو على: ﴿بل طبع﴾.

وجميع ما أغفلناه هاهنا مفسَّر في البقرة.

﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ وهو قذفها بالزنا.

﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم﴾ قال الزجَّاج[2]: يُعذَّبون عذاب مَن قتل لأنهم قتلوا الذي قتلوه على أنه نبي.

وقوله: ﴿رسول الله﴾ من كلام الله تعالى.

وقيل: من كلام اليهود على معنى تهكم به؛ كقول فرعون: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [الشعراء:٢٧]، أو رسول الله على زعمه.

قوله: ﴿ولكن شُبهَ لهم﴾ قال صاحب الكشاف[3]: إن قلت: «شُبهَ» مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسنداً إلى المسيح، فالمسيح مشبه به وليس بمشبه، وإن أسندته إلى المقتول، فالمقتول لم يَجْرِ له ذِكْرٌ؟

قلت: هو مسند إلى الجار والمجرور، وهو «لهم»؛ كقولك: خُيِّل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع لهم التشبيه. ويجوز أن يُسند إلى ضمير المقتول، لأن قوله: «إنا قتلنا» يدل عليه.

اختلفت الرواية عن ابن عباس فيمن أُلقي عليه شبهه؛ فروى أبو صالح عنه:

---

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ٤٥٥).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ١٢٨).

(٣) الكشاف (١/ ٦٢٠).

أن اليهود لما اجتمعت على قتل عيسى، أدخله جبريل خوخة لها رَوْزَنة[١]، فدخل، ورآه رجل منهم، فألقى الله شبه عيسى عليه، فلما خرج الرجل إلى أصحابه قتلوه ظناً منهم أنه عيسى، ثم صلبوه[٢].

وروى عنه سعيد بن جبير: أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه: أيكم يُلقَى عليه شبهي، فيُقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب فقال: أنا، فقال: اجلس، ثم أعاد القول، فقال الشاب: أنا، فقال: اجلس، ثم أعاد القول، فقال الشاب: أنا، فقال عيسى: نعم أنت ذلك، فأُلقي عليه شبه عيسى، ورُفِع عيسى، وجاء اليهود، فأخذوا الشاب فقتلوه، ثم صلبوه[٣].

﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ قيل: إنهم النصارى اختلفوا في عيسى، هل هو إله أو لا؟ وهل قُتِل أو لا؟

والصحيح: أن المختلفين اليهود[٤]، اختلفوا في عيسى، هل قُتِل أم لا؟ والسبب في ذلك أنهم قالوا: إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟

وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى، والبدن بدن صاحبنا.

قوله: ﴿إلا اتباع الظن﴾ استثناء منقطع، ﴿وما قتلوه﴾ يعني: الظن، وقيل:

---

(١) الخوخة: مُخْتَرَقٌ ما بين كل دارين، لم ينصب عليها باب، بلغة أهل الحجاز (اللسان، مادة: خوخ). والروزنة: الكوة (اللسان، مادة: رزن).

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤٤).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٩)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١١٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٢٧) وعزاه لعبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) انظر: الطبري (٦/ ١٦).

العلم، فالمعنى: أنهم ما بالغوا في العلم به، حتى تحققوه، وعرفوه، ﴿يقيناً﴾ كما يقول: قتلت الشيء علماً[١].

وقيل: الضمير يرجع إلى عيسى.

قال الحسن: المعنى: وما قتلوا عيسى حقاً[٢].

وقال ابن الأنباري[٣]: فيه تقديم وتأخير، التقدير: فما قتلوا عيسى، بل رفعه الله يقيناً. وقد ذكرنا رفعه في آل عمران[٤].

قوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به﴾ قال الزجَّاج[٥]: المعنى: وما منهم [من][٦] أحد إلا ليؤمننّ به، ومثله: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم:٧١].

أي: بعيسى، ﴿قبل موته﴾ فيؤمن أنه عبد الله ورسوله.

قال ابن عباس: يؤمن اليهودي قبل أن يموت، ولا تخرج نفس النصراني حتى يشهد أن عيسى عبد الله، قيل له: فإن خرَّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهواء[٧].

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١٧) عن ابن عباس.

(٢) ذكره الماوردي (١/ ٥٤٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤٦).

(٣) انظر: زاد المسير (٢/ ٢٤٦)، والدر المصون (٢/ ٤٥٩).

(٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إني متوفيك ورافعك إليّ﴾ [آل عمران:٥٥].

(٥) معاني الزجاج (٢/ ١٢٩).

(٦) زيادة من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٧) أخرجه الطبري (٦/ ٢٠)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١١٣)، وسعيد بن منصور (٤/ ١٤٢٧-١٤٢٨). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٧٣٣) وعزاه للطيالسي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر.

وقال شهر بن حوشب: قال لي الحجاج: آيةٌ من كتاب الله ما قرأتها قط إلا تخالج في نفسي منها، قلت: أصلح الله الأمير، ما هي؟ فقرأ هذه الآية: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾، وإني لأوتى بالأسير من اليهود والنصارى، فآمر بضرب عنقه، فما أسمعه يتكلم شيئاً، قلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره، وقالوا له: يا عدو الله؛ أتاك عيسى عبداً نبياً فكذَّبتَ به؟ فيقول: إني آمنتُ أنه عبد نبي، فيؤمن به حيث لا ينفعه إيمانه، ويؤتى النصراني فيقال: يا عدو الله؛ أتاك عيسى عبداً نبياً، فقلتَ: إنه الله أو ابن الله؟ فيؤمن به أنه عبد الله ورسوله حين لا ينفعه إيمانه.

قال شهر: فنظر إليَّ الحَجاج وقال: مَن حدَّثك بهذا الحديث، فقلت: حدَّثني محمد ابن الحنفية. قال: وكان متكئاً فجلس، ثم نكت بقضيبه الأرض ساعة، ثم رفع رأسه إليَّ فقال: أخذتها من عين صافية من معدنها[1].

قال عكرمة: لا تخرج نفس اليهودي والنصراني حتى يؤمن بمحمد ﷺ[2].

فعلى هذا: يكون الضمير في قوله: «ليؤمنن به» يرجع إليه ﷺ.

وقيل: «ليؤمنن به» أي: بالله.

وقال جماعة منهم قتادة وابن قتيبة[3]: الضمير في «موته» يعود إلى عيسى[4].

قال ابن عباس: إذا نزل إلى الأرض لا يبقى يهودي، ولا نصراني، ولا أحد

---

(١) ذكره الثعلبي (٣/ ٤١٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٣٤) وعزاه لابن المنذر.

(٢) ذكره الثعلبي (٣/ ٤١٣)، والماوردي (١/ ٥٤٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤٧).

(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ص:١٣٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١١٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤٨).

يعبد غير الله إلا اتبعه وصدَّقه وشهد أنه روح الله وكلمته وعبده ونبيه[(١)].

﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ بالبلاغ، وعلى نفسه بالعبودية لله تعالى.

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا﴾ أي: ما حرَّمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبوه من أكل الربا، والرُشا وغير ذلك من العظائم.

والطيبات المحرَّمة عليهم: الألبان، وما اشتمل عليه قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ... الآية﴾ [الأنعام:١٤٦].

﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾ أي: صداً كثيراً، أو أناساً كثيراً.

﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ وهو ما كانوا يأخذونه من الرُشا في القضاء، وعلى تبديل أحكام الله تعالى.

قوله: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ وهم الثابتون فيه، المتقنون له، كعبد الله بن سلام.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٣٧-١٣٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤٨).

و"الراسخون" مبتدأ، خبره «يؤمنون»[١].

و﴿المؤمنون﴾ مَن دخل معه في الإسلام من اليهود، وقيل: المهاجرون والأنصار.

قوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ نصب على المدح، والاختصاص، وهو باب واسع[٢]. وأنشدوا:

لا يَبْعَدَنْ قَوْمِي الَّذينَ هُمُ سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ
النَّازِلِينَ بكُلِّ مُعْتَرَكٍ والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزْرِ[٣]

وهذا قول الخليل وسيبويه[٤] والزجَّاج وحُذَّاق البصريين.

وقيل: هو نسق على «ما»، المعنى: يؤمنون بما أُنزل إليك وبالمقيمين الصلاة، وهم الملائكة والأنبياء.

وقيل: هو نسق على الهاء والميم في «منهم»، المعنى: منهم ومن المقيمين الصلاة.

قال الزجَّاج[٥]: وهذا رديء عند النحويين، لا ينسق بالظاهر المجرور على

---

(١) انظر: التبيان (١/ ٢٠٢)، والدر المصون (٢/ ٤٦١).

(٢) انظر: الدر المصون (٢/ ٤٦١).

(٣) البيتان للخرنق بنت هفان القيسية. انظر: ديوانها (ص:٢٩) والكتاب لسيبويه (١/ ٢٠٢، ٢/ ٥٧-٥٨، ٦٤)، وتأويل مشكل القرآن (ص:٥٣)، والخزانة (٢/ ٣٠١)، ومجاز القرآن (١/ ٦٥)، ومعاني الزجاج (٢/ ١٣٢)، والدر المصون (٢/ ٤٦٢)، والمحتسب (٢/ ١٩٨)، وأوضح المسالك (٢/ ٧٦).

(٤) الكتاب (٢/ ٥٧).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ١٣١).

المضمر المجرور إلا في الشعر.

وقد روي عن عائشة: أن ذلك خطأ من الكاتب[١].

وروي عن عثمان أنه قال: إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بألسنتها[٢].

وهذا مستبعد جداً، لأن عائشة كانت من الفصاحة وحفظ أشعار العرب والاطلاع على افتنان أساليبها في خطابها بالمكانة التي لا تُدافَع عنها ولا تُمانَع منها، فكيف تحكم بخطأ الكاتب مع ظهور الصواب فيما ذكرناه من الإعراب.

وما نقل عن عثمان رضي الله عنه فقال ابن الأنباري[٣]: لا يصح؛ لأنه غير متصل.

قال: ومحال أن يُؤخِّر عثمان شيئاً فاسداً ليصلحه مَن بعده.

قال الزجَّاج[٤]: الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقدوة، فكيف يتركون في كتاب الله شيئاً يُصلحه غيرهم، لا ينبغي أن يُنسب هذا إليهم.

وفي مصحف عبد الله: «والمقيمون»[٥]، وهي قراءة جماعة، منهم مالك بن دينار، والجُحْدَري.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٢٥)، وسعيد بن منصور (٤/ ١٥٠٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٤٤-٧٤٥) وعزاه لأبي عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي داود وابن المنذر.

(٢) كتاب المصاحف (ص:٤١).

(٣) انظر: زاد المسير (٢/ ٢٥٢).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ١٣١).

(٥) انظر مختصر ابن خالويه (ص:٣٠)، والبحر المحيط (٣/ ٤١١).

۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى[1]: ﴿إنا أوحينا إليك﴾ نزلت مُكذِّبة لليهود في قولهم: ما أوحى الله إليك يا محمد، ولا إلى أحد بعد موسى.

﴿كما أوحينا إلى نوح﴾ وقد ذكرنا اسمه في آل عمران[2]، وسبب تسميته نوحاً. وقُدِّم في الذكر على سائر الأنبياء عليهم السلام؛ لاختصاصه بشرف الأبوة، وامتيازه بامتداد زمن النبوة.

﴿والنبيين من بعده﴾ كصالح، وهود، ويونس، يُقرأ بالحركات الثلاث على النون[3]، وبالهمز وعدمه، إلا أن القراء العشرة أطبقوا على القراءة المشتهرة.

والزَّبُور: الكتاب، فَعُول بمعنى مفعول؛ كحَلُوب ورَكُوب.

---

(١) كتب في هامش الأصل: وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الثاني والأربعين، مرة ثانية.

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم ...﴾ [آل عمران:٣٣].

(٣) إعراب القراءات الشواذ (ق/ ٥٨/ أ).

وقرأ حمزة: «زُبُوراً»، بضم الزاي[١]، جمع زَبْر.

قال أبو علي[٢]: كأنَّ حمزة جعل كتاب داود أنحاءً، وجعل كل نحو زَبْراً، ثم جمع فقال: "زبوراً".

قوله: ﴿ورُسُلاً﴾ منصوب بفعل مضمر يُفسِّره ما بعده[٣]. التقدير: قصصنا رسلاً عليك قد قصصناهم.

وجائزٌ أن يُحمل على معنى: أوحينا إليك، كأنه قال: أرسلناك والنبيين ورسلاً.

قوله: ﴿وكلَّم الله موسى تكليماً﴾ قال ثعلب: لولا أن الله أكد الفعل بالمصدر لجاز أن يكون كما يقول أحدنا للآخر: قد كلَّمتُ لك فلاناً، بمعنى كتبت إليه رُقْعة، وبعثت إليه رسولاً، فلما قال: «تكليماً» لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله عز وجل[٤].

قوله: ﴿رُسُلاً﴾ نصب على المدح أو التكرير، ﴿مبشرين ومنذرين﴾ نعت لـ«رسلاً»[٥].

وفي قوله: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ دليل على توقف وجوب الإيمان والطاعة على بعثة الرسل، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء:١٥].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ١٠٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢١٩)، والكشف (١/ ٤٠٢)، والنشر (٢/ ٢٥٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:١٩٦)، والسبعة في القراءات (ص:٢٤٠).

(٢) الحجة للفارسي (٣/ ٦٤).

(٣) انظر: التبيان (١/ ٢٠٣)، والدر المصون (٢/ ٤٦٥).

(٤) انظر: زاد المسير (٢/ ٢٥٦).

(٥) انظر: الدر المصون (٢/ ٤٦٦).

﴿وكان الله عزيزاً﴾ في سلطانه ﴿حكيماً﴾ في بعثة رسله إلى خلقه.

ولما نزلت: ﴿إنا أوحينا إليك﴾ قالت اليهود والنصارى: لا نشهد لك بهذا، فنزل: ﴿لكن الله يشهد﴾ أي يبين صدقك ورسالتك ﴿بما أنزل إليك﴾ من القرآن المعجز، ﴿أنزله بعلمه﴾ أي: ملتبساً بعلمه الذي لا يعلمه غيره، وهو ما اشتمل عليه من البلاغة والبيان، والإخبار عما كان ويكون، والسلامة من المناقضة والمعارضة، إلى غير ذلك من العلوم التي يُقَوَّم إعجاز القرآن بها، والأسرار المودعة فيه.

قال سفيان بن عيينة: إنما آيات القرآن خزائن، فإذا دخلت خزانة فاجتهد أن لا تخرج منها حتى تعرف ما فيها[1].

وقيل: «أنزله» مشتملاً بما علم من مصالح العباد.

وقيل: «بعلمه»: أنك أهل لإنزاله عليك.

وقيل: «أنزله» وفيه علمه.

﴿والملائكة يشهدون﴾ بصدقك ورسالتك.

﴿وكفى بالله شهيداً﴾ وإن لم يشهد غيره.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ
جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٩٨).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي
دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ
رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا
تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ
لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾

قوله: ﴿إن الذين كفروا﴾ وهم اليهود، ﴿وصَدُّوا عن سبيل الله﴾ أي: منعوا الناس من الدخول في دين الإسلام بما كتموا من صفة محمد ﷺ.

ثم وصفهم بالظلم منضماً إلى الكفر فقال: ﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾ أي: ظلموا محمداً بتكذيبه، وتبديل صفته ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ كفرهم وظلمهم.

وقيل: «لم يكن الله» ليستر عيوبهم، بل فضحهم في الدنيا بإبداء معايبهم، وعذَّبهم بالقتل والسبي، والنفي، وألزمهم الذلة، والمسكنة والجزية.

﴿ولا ليهديهم طريقاً﴾ إلى الإسلام.

﴿إلا طريق جهنم﴾ وهو دين اليهودية وغيره من الطرق التي تفضي بهم إلى جهنم.

قوله تعالى: ﴿فآمنوا خيراً لكم﴾ منصوب بفعل مضمر دلَّت عليه الحال، لأنه لما حضَّهم على الإيمان، علم أنه يحملهم على أمر، فقال: «خيراً لكم» أي: إئتوا، واقصدوا أمراً خيراً لكم[1] من الكفر والتثليث.

ثم أظهر لهم عظمته وغناه عن إيمانهم فقال: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ٤٦٨).

السموات والأرض وكان الله عليماً﴾ بما يكون منهم من كفر وإيمان، ﴿حكيماً﴾ في تكليفه إياهم مع علمه بما يكون منهم.

قولُه تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ هذا نهي لليهود والنصارى عن الإفراط وتجاوز الحد في الدين، فإن اليهود غَلَتْ في عيسى حتى دفعته عن حقه ومرتبته، وغَلَتْ فيه النصارى حتى رفعته عن منزلته وادعته إلهاً، فقالت اليعقوبية: هو الله.

وقالت النسطورية: هو ابن الله.

وقالت المرقوسية[1]: هو ثالث ثلاثة.

﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ أي الصدق، فَتُنَزِّهوه عن الشريك والولد.

ثم نَزَّه عيسى عما رَمَتْهُ به اليهود، وادَّعته له النصارى فقال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾، وقد سبق معنى كونه «كلمة» في آل عمران[2].

ومعنى كونه «روحاً منه»: أنه خلقه، وأوجده، واخترعه اختراعاً غير منوط

---

(١) اليعقوبية: هم أصحاب يعقوب البراذعي، قالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده. ويعني بالأقانيم الثلاثة: الوجود والعلم والحياة.

والنسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه.

والمرقوسية: أتباع مرقس صاحب الإنجيل المعروف (الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٢٤-٢٢٥، ومحاضرات في النصرانية لمحمد أبو زهرة ص:١٩١-١٩٤).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح﴾ [آل عمران:٤٥].

بسبب، كسائر ولد آدم، وأضافه إليه إضافة تكريم وتشريف، كما قال عن آدم: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ [الحجر:٢٩].

ويروى: أن الله لما أخرج الأرواح من ظهر آدم لأخذ الميثاق، ثم ردها إلى صلبه، أمسك عنده روح عيسى إلى أن أراد إيجاده، فأرسل ذلك الروح إلى مريم، فدخل فيها، فكان عيسى عليه السلام(١).

قرأت على الشيخ الزاهد أبي عبد الله محمد بن داود بن عثمان الدربندي الصوفي، بمسجد الخليل عليه السلام سنة سبع وستمائة، أخبركم الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السِلفي الأصبهاني بالإسكندرية، فأقرَّ به، قال: أخبرنا الرئيس أبو عبد الله القاسم بن الفضل بن أحمد بن محمود الثقفي(٢) بأصبهان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، أخبرنا أبو زكريا يحيى بن إبراهيم بن محمد بن يحيى المُزَكِّي بنيسابور(٣)، سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأموي، حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم(٤)، حدثنا بشر بن

---

(١) وهو قول أبي بن كعب. أخرجه الطبري (٦/ ٣٦). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٤٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٦١).

(٢) القاسم بن الفضل بن أحمد الثقفي، أبو عبد الله، الأصبهاني، صاحب الأربعين، مسند الوقت ورئيس أصبهان. توفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٨، وشذرات الذهب ٣/ ٣٩٣).

(٣) يحيى بن إبراهيم بن محمد، أبو زكريا النيسابوري، شيخ التزكية ببلده. توفي سنة أربع عشرة وأربعمائة (سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٩٥، والتقييد ص:٤٨٣).

(٤) محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين المصري، أبو عبدالله الفقيه، عالم الديار المصرية. توفي سنة ثمان وستين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٩٧).

بكر[١]، عن [ابن][٢] جابر، عن عمير بن هانئ، حدثني جنادة بن أبي أُمية، حدثني عبادة بن الصامت، عن رسول الله ﷺ قال: «مَن قال: أشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله وابن أَمَته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله تعالى في أي أبواب الجنة الثمانية شاء»[٣]. رواه مسلم عن داود بن رشيد.

ورواه البخاري عن صدقة بن الفضل، كلاهما عن الوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فكأنني سمعته من طريق البخاري على أبي الوقت، ومن طريق مسلم على الفَرَاوي.

قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ خبر مبتدأ محذوف[٤]، تقديره: لا تقولوا آلهتنا ثلاثة: أب، وابن، وروح القدس، ﴿إنما الله إله واحد﴾، ثم نزَّه نفسه فقال: ﴿سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً، فكيف يكون خلقه جزء منه، ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ يكل الخلقُ أمرَهم إليه.

---

(١) بشر بن بكر التِنِّيسي، أبو عبد الله البجلي الدمشقي. توفي سنة خمس ومائتين (سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٠٧).

(٢) زيادة من الصحيحين. وابن جابر هو: عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي، أبو عتبة الدمشقي الداراني، من أئمة الشاميين وصلحائهم. توفي سنة ثلاث -أو أربع- وخمسين ومائة (تذكرة الحفاظ ١/ ١٨٣، والتقريب ص:٣٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٦٧ ح٣٢٥٢)، ومسلم (١/ ٥٧ ح٢٨).

(٤) انظر: التبيان (١/ ٢٠٤)، والدر المصون (٢/ ٤٧٠).

لن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ وقرأ عليٌّ رضي الله عنه: «أن يكون عُبَيْداً لله»[1] على التصغير.

والمعنى: لن يأنف، ولن يتنحى عن مقام العبودية لله، من قولك: نكَفْتُ الدَّمْعَ؛ إذا نحَّيْتَ بأصبعك عن خدِّكَ[2].

﴿ولا الملائكة المقربون﴾ قال ابن عباس: هم حَمَلة العرش[3].

وقيل: هم الكَرُّوبيُّون كجبريل وميكال وإسرافيل.

والحكمة في تخصيص الملائكة بالذِّكْر: كون بعض الناس اتخذوهم آلهة من دون الله.

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٤١٩).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (نكف).

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٦٣).

وباقي الآية تهديد شديد.

قوله: ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ يعني: جزاء أعمالهم، ﴿ويزيدهم من فضله﴾ ما لا يعلم كُنْهه إلا الله.

وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ قال: يدخلون الجنة، ﴿ويزيدهم من فضله﴾ الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا[1].

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ قال ابن عباس: هو محمد ﷺ وما جاء به من البيان[2].

﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾، وهو القرآن الكريم، سُمِّيَ بذلك؛ لإنارته للحق، واستنارة الخلق به.

قوله: ﴿واعتصموا به﴾ أي: استمسكوا بالنور المبين.

وقيل: بالله.

﴿فسيدخلهم في رحمة منه﴾ وهي الجنة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٢٤-١١٢٥)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٠٨)، والإسماعيلي في معجمه (٢/ ٥٦٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٥٢) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية والإسماعيلي في معجمه، بسند ضعيف.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ١٤٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٦٤) من قول سفيان الثوري، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧٥٣) وعزاه لابن عساكر عن سفيان الثوري عن أبيه عن رجل لا يحفظ اسمه. وانظر: تفسير سفيان الثوري (ص:٩٨).

﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ قال محمد ابن الحنفية: هو دين الإسلام[١].

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

قوله: ﴿يستفتونك﴾.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم، عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل القاضي الأنصاري، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد بن محمد بن أحمد الصاعدي الفراوي، وأخبرنا المؤيَّد بن محمد الطوسي في كتابه، قال: أخبرنا الفراوي، أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي[٢]، أخبرنا محمد بن عيسى[٣]، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان[٤]، أخبرنا مسلم بن الحجاج، حدثنا عمرو الناقد، حدثنا سفيان، عن محمد بن المنكدر، سمع جابر بن عبد الله يقول: «مرضت، فأتاني

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٦٤).

(٢) عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر الفارسي، أبو الحسن النيسابوري، الإمام الثقة المعمر الصالح. حدّث عن الجلُودي بصحيح مسلم، سمعه منه سنة خمس وستين وثلاثمائة. توفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٩، وشذرات الذهب ٣/ ٢٧٧).

(٣) محمد بن عيسى بن محمد، أبو أحمد النيسابوري الجلُودي، من كبار عبّاد الصوفية، وراوي صحيح مسلم. توفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٠١).

(٤) إبراهيم بن محمد بن سفيان، أبو إسحاق النيسابوري، كان من العبّاد المجتهدين الملازمين لمسلم بن الحجاج. توفي سنة ثمان وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١١، والتقييد ص:١٨٦).

رسول الله وأبو بكر يعودانني ماشيين، فأُغمي عليّ، فتوضأ ثم صب عليّ من وَضُوئه فأفقت، فقلت: يا رسول الله؟ كيف أقضي في مالي؟ فلم يَرُد عليّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾»[١]. هذا حديث صحيح.

وقد سبق تفسير الكلالة، واستقصينا الكلام في شرحها في موضعها[٢].

قوله: ﴿إن امرؤ﴾ مرفوع بمضمر يُفسِّره الظاهر، وقوله: ﴿ليس له ولد﴾ في محل نصب على الحال، أو في محل الرفع على الصفة[٣]، تقديره: إن هلك امرؤ غيرُ ذي ولد.

وقال صاحب الكشاف[٤]: المراد بالولد: الابن، لأن الأخت تسقط به، ولا تسقط بالبنت، وتابعه على ذلك صاحب «التقشير في التفسير»، وأبو السعادات ابن الأثير[٥] في تفسيره الذي سماه «الإنصاف»، وضمن فيه الجمع بين «الكشف» و«الكشاف»، ولم يُنبها على فساد هذا الكلام، ولم يقفا على موضع الخطأ فيه.

ووجهُ فساده: أن الآية اقتضت فرض النصف للأخت من الأبوين، أو الأب، وهذا إنما يكون عند عدم الولد مطلقاً كما ذكر الله، لأنها تسقط بالابن، وترث مع البنت بالتعصيب، لا بالفرض.

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٢٣٤ ح١٦١٦).
(٢) عند تفسير الآية رقم: ١٢.
(٣) انظر: الدر المصون (٢/ ٤٧٣).
(٤) الكشاف (١/ ٦٣٢).
(٥) المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري الموصلي، مجد الدين الشيباني المعروف بابن الأثير، صاحب جامع الأصول وغريب الحديث. توفي سنة ست وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٨٨).

والمراد: ليس له ولد ولا والد، لأن هذا تبيين للكلالة، وقد ذكرنا فيما مضى أن الكلالة: من لا والد له، ولا ولد.

﴿وهو يرثها﴾ أي: يستغرق ميراثها، ﴿إن لم يكن لها ولد﴾ يريد: إن لم يكن لها ولد ذكر أو والد ، فإن كان لها بنت أو بنت ابن فله ما تبقى بعد الفرض بالتعصيب.

﴿فإن كانتا اثنتين﴾ أنّث، وثنّى لتأنيث الخبر وتثنيته، والقول في جمع، «وإن كانوا» كالقول في تثنية «وإن كانتا».

قوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي: كراهة أن تضلوا، أو أن لا تضلوا، فأضمرت «لا»، أو: لئلا تضلوا.

﴿والله بكل شيء عليم﴾ فهو يعلم مقادير الأنصباء، وما فرض للأقرباء.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم السلمي قراءة عليه وأنا أسمع بدمشق، سنة ست وستمائة، وأبو الحسن الصوفي بقراءتي عليه برأس عين، قالا: أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا أبو الحسن الداودي، أخبرنا ابن حمويه، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء يقول: «آخر سورة نزلت: «براءة»، وآخر آية نزلت: "يستفتونك"»(١).

وأخرجه أيضاً مسلم عن بُنْدار، عن غُنْدَر، عن شعبة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٨١ ح٤٣٢٩)، ومسلم (٣/ ١٢٣٦ ح١٦١٨).

وقد سبق لهذا الحديث إسناد آخر في مقدمة الكتاب[١]. [٢].

*****

(١) وكتب في هامش الأصل: بلغ محمد بن أحمد، قراءة بمسجد الرقي، المجلس الحادي والعشرين، وبلغ محمد بن أحمد قراءة بمسجد الرقي، المجلس الثالث والأربعين، مرة ثانية، ثم كتب: أنهاه مصنفه نظراً وتصحيحاً، ثم قوبل بالأصل.

نقله وما قبله: محمد بن إسماعيل بن الدنيسري حامداً الله ومصلياً على نبيه.

(٢) جاء في آخر هذا الجزء المخطوط: آخر المجلد الثاني بخط الفقير إلى رحمة ربه: أبي نصر بن عثمان الموصلي غفر الله له، ولوالديه ولجميع المسلمين آمين.

وذلك في شهر ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وستمائة، ويتلوه في السِفْر الثالث سورة المائدة.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الأكرمين وسلم.

السماع الموجود بآخر الأصل

سمع جميع هذا المجلد وهو الثاني من كتاب رموز الكنوز، تأليف الشيخ الإمام العالم الفاضل الكامل، عز الدين عبد الرازق بن رزق الله بن أبي الهيجاء الرسعني -رضي الله عنه- من لفظ شيخنا الشيخ الإمام العالم الحافظ الصدر تقي الدين، أبي الثناء محمود بن علي بن محمود الدقوقي[1] -رحمه الله تعالى- وذلك بحق روايته له عن الشيخ الإمام العالم، مجد الدين أبي أحمد، عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر بن أبي الجيش المقرئ[2] إجازة، بروايته له، إجازة عن المؤلف -رحمه الله تعالى- الشيخ الصالح، نور الدين أبو عبد الله، محمد بن محمود بن حامد المقرئ[3]، والشيخ زين الدين، علي بن حسين بن محمد المؤذن، والشيخ أبو بكر بن علي بن ناصر الجراعي، وكاتب الأسماء يوسف بن محمد بن مسعود العبّادي السُرَّمرِّي[4]، في آخرين بأفوات مختلفة، وصح ذلك وثبت في يوم الجمعة، سابع ربيع الأول من

---

(١) محمود بن علي بن محمود الدقوقي البغدادي، أبو الثناء، تقي الدين، محدث بغداد شيخ المستنصرية بها. توفي سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة (ذيل التقييد ٢/ ٢٧٥، وشذرات الذهب ٦/ ١٠٦).

(٢) عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر بن أبي الجيش البغدادي المقرئ، خطيب بغداد وشيخها. توفي سنة ست وسبعين وستمائة (المقصد الأرشد ٢/ ١٢٠، وذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٢٩٠، وشذرات الذهب ٥/ ٣٥٣).

(٣) محمد بن محمود بن حامد الحنبلي المقرئ، البغدادي، ولي الحديث بمسجد يانس. توفي سنة ست وستين وسبعمائة (شذرات الذهب ٦/ ٢٠٧).

(٤) يوسف بن محمد بن مسعود العبادي العقيلي، جمال الدين أبو المظفر السرمري الحنبلي. كان عمدة ثقة ذا فنون. توفي سنة ست وسبعين وسبعمائة (شذرات الذهب ٦/ ٢٤٩، وذيل تذكرة الحفاظ ص:١٦٠).

سنة ثلاث وسبعمائة بمسجد يانس بالريحانين، شرقي بغداد، والحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلَّم.

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	٣
المبحث الأول: ترجمة المؤلف	٧
مصادر ترجمته	٨
حياته الشخصية	١١
اسمه ونسبه	١١
كنيته ولقبه ونسبته	١٤
ولادته	١٦
أسرته	١٧
حياته العلمية	٢٣
نشأته وطلبه للعلم	٢٣
رحلاته	٢٣
شيوخه	٢٨
تلامذته	٣٧
مؤلفاته	٤٢
ثناء العلماء على المؤلف	٤٨
شعره	٥٢
وفاته	٥٣

الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الثاني: التعريف بكتاب «رموز الكنوز»	٥٥
اسم الكتاب	٥٧
نسبة الكتاب للمؤلف	٥٨
تاريخ تأليف الكتاب	٥٨
قيمة الكتاب العلمية	٥٩
عناية العلماء بكتاب «رموز الكنوز»	٦١
منهج المؤلف في كتابه «رموز الكنوز»	٦٢
المبحث الثالث: موارد الرسعني في كتابه: «رموز الكنوز»	٨٣
الموارد الرئيسية	٨٥
الموارد الثانوية	٨٥
المبحث الرابع: منهج العمل في التحقيق	٩٧
المبحث الخامس: منهج العمل في التعليق	٩٩
المبحث السادس: وصف مخطوطات كتاب «رموز الكنوز»	١٠١
نسخ الكتاب	١٠٣
النسخة الأولى	١٠٣
النسخة الثانية	١٠٤

الموضوع	رقم الصفحة
النسخة الثالثة	١٠٦
نماذج من المخطوطات	١٠٩
النص المحقق	١٣١
سورة آل عمران	١٣٣
سورة النساء	٤٠٥